الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للاعلام العربى
قســـم النشــر

ص. ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافياً : زاهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦ - تلكس ٩٤٠٢١ رائف يوإن
P .O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U . N

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا



الثورة الإيرانية

الجذور
الأيديولوجية

الزهراء للإعلام العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وفَضَّل الله المجاهدين عَلى القاعِدين أجْراً عَظِيما ﴾

قرآن كريم : النساء / ٩٥ .

وشعار الثورة الإيرانية

﴿ أُذِنَ للَّذين يَقُاتلون بأنهمْ ظلموا وَإنَّ اللَّهَ عَلى نصرِهم لقَدير ﴾

قرآن كريم : الحج / ٣٩ .

﴿ ونريدُ أن نَمُنَّ على الَّذينَ استُضعفُوا في الأرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّة ونَجعلَهُمُ الوارِثِين ﴾

قرآن كريم : القصص /٥

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله رب المستضعفين وقاصم الجبارين .. هذه هي الطبعة الثانية من كتاب « الثورة الإيرانية : الجزء الأول ــ الجذور والأيديولوجية » ، وبين الانتهاء من كتابة الكتاب فى طبعته الأولى فى مارس سنة ١٩٧٩ ، والثورة لا تزال تخطو خطوات نصرها الأولى – والانتهاء من كتابة ما أقدمه فى هذه الطبعة ثمانى سنوات كاملة .. ثمانى سنوات من تألب القوى وعداء الشرق والغرب ، ومن الحصار والتعتيم ومطاردة كل من يفكر أو يحاول أن يفكر فى إنصاف أهم أحداث القرن العشرين أو قول كلمة الحق فى مواكب التشويه واستعداء الماضى والحاضر واخراج الرمم المهترئة من الأجداث .. ثمانى سنوات ولا تزال ثورة إيران الاسلامية « تملأ الدنيا وتشغل الناس » برغم خروج العداء بسلاحه سافرا بعد أن كان مستترا ، وبرغم تسابق أصحاب العمائم فى شجب الثورة و « تكفير » إمامها ، وأصحاب المناصب الغارقين فى دماء شعوبهم وقتلة علمائهم وأئمتهم فى الحديث عن دموية الثورة « الإسلامية » ، وأصحاب الأقلام من أولئك الذين لم يكن الإسلام شاغلهم لحظة من لحظات حياتهم الفاجرة فى إلصاق التهم ، ولى أعناق النصوص ، والمباهاة بالجهل ، والتفاخر بالحصر والعى ، والنفخ فى النار لكى يستمر أوارها من تحت الرماد ، ناسين أنها تحرق أول ما تحرق « لحيهم » إن كانت لهم لحى ، لأن النار لا تحرق الأفئدة الهواء ...

حين عنَّ لى أن أخرج الطبعة الثانية بعد أن نفدت الطبعة الأولى منذ عدة سنوات ، كانت هذه الظروف تحيط بى ، ظروف أشد وأقسى من تلك الظروف التى كنت أكتب فى ظلها الكتاب فى صورته الأولى ، ومع ذلك فلم أجد النكوص ذا جدوى والسكوت من ذهب ، فالسكوت –

حتى وان كنت صوتا متوحدا صارخا فى البرية – لايعنى سوى الموت : موتك وموت الحقيقة وموت الآخرين ممن لايزالون يطلبون الحقيقة ولا تخلو الأرض منهم ، وإلا أجدر بها أن تميد وتضيع سدى .

وكانت مراكز الأبحاث فى أنحاء العالم قد عكفت على هذه الثورة « الفجاءة » دراسة وتمحيصا من منطلق المعرفة لا أكثر ، وليس من منطلق الهجوم والتجريح ، فتوافر لى قدر لا بأس به من الأبحاث رأيت أنه – وإن لم يغير فى الخط العام للكتاب – سوف يزيده غنى ، كما أنه سوف يرد على كثير من التساؤلات التى تفضل بعض أولئك الذين يقرءون حبا فى المعرفة ـــ لا الملاعنة والمباهلة ـــ فاستفسروا منى عنها ، كما رأيت أن ندرة المصادر بين يدى عند كتابتى لما صدر فى الطبعة الأولى كانت سببا فى تناولى لبعض الأحداث لا كما كان ينبغى ، وفى عرضى لبعض الأفكار بشكل غير الذى كان ينبغى أن تعرض فيه ، ومن هنا فقد أضيفت بعض الفصول وتغيرت العناوين وكتبت فصول أخرى من جديد تحتوى على سد لنقص الطبعة الأولى رأيت بعضه ، ورأى بعض القراء جله ..

ومن ثم ينقسم الكتاب فى طبعته هذه إلى قسمين :

القسم الأول : الجذور : وينقسم بدوره إلى بابين :

الباب الأول : ويتحدث فى فصلين عن الجذور الدينية ، ويقدم الفصل الأول إلماحة إلى تاريخ التشيع الاثنى عشرى وتفسيرا لبعض أسسه التى لعبت دورا فى الثورة ، والواقع أن كثيرا من القراء كانوا قد طلبوا منى أن أوسع فى هذا الباب ، لكنى أقدمه كما كان عليه فى الطبعة الأولى إلا من إضافات طفيفة ، فلست أهدف إلى تقديم تاريخ للشيعة أو الدفاع عنهم ، إذ يمكن أن يطلب تاريخهم من كتبهم ومن أيسرها فى هذا المجال كتاب أصل الشيعة وأصولها لمحمد على آل كاشف الغطاء ، كما أنهم أولى بالدفاع عن أنفسهم ، ومن أهم كتبهم فى هذا المجال كتاب المراجعات للإمام عبدالحسين شرف الدين الموسوى ، وأكرر أن هدفى من هذا الفصل هو تبيان دور عقائد الشيعة خاصة بتفسيراتها المعاصرة فى الثورة بما يتناسق مع موضوع الكتاب .

أما الفصل الثانى : وهو مضاف إلى هذه الطبعة ــ فقد تناولت فيه تاريخ الحوزة وتشكيلها السياسى وتنظيمها ومفهوم التقليد الذى ربط بينها وبين الجماهير ، وكان الخلفية التى قامت عليها المواجهة بينها وبين الطاغوت .

أما الباب الثانى من الجذور فقد قدم بتوسع ومن منطلق جديد ، وكان اسمه الجذور القومية ، واكتشفت أنه لا جذور قومية يمكن أن تذكر فى تاريخ الثورة فى إيران المعاصرة ، ومن ثم كان لزاما أن يتغير اسمه إلى « الجذور التاريخية » وجعلت له عنوانا جامعا هو « الإسلاميون يغرسون والآخرون يحصدون » فقد وجدت فى هذه العبارة الجامعة تلخيصا لكل الحركات الثورية فى إيران المعاصرة وكان هذا الباب فى الطبعة الأولى مجرد فصل ينقسم إلى عبارات وفقرات تحت أرقام ، فتحول فى الطبعة الثانية إلى خمسة فصول كاملة : الفصل الأول : حركة الطباق كأول مواجهة بين العلماء والسلطة مع تركيز على دور السيد جمال الدين الأفغانى ، أما الفصل الثانى : فقد تناولت فيه الثورة الدستورية وكيف بدأت إسلامية تطالب بتطبيق الشريعة وبمجلس شورى إسلامى ثم حول الإنجليز مجراها إلى القوميين فأضاعوها ، أما الفصل الثالث : فلم أجد له عنوانا أنسب من « الحركات الإسلامية فى حماية الدب » والدب هنا رمز سياسى كما هو معلوم ، كما أنه رمز أيضا فى الأدب الشعبى الفارسى للصداقة التى تؤذى وتدمر ، وتناولت فى هذا الفصل حركتى كوتشك خان ومحمد خيابانى بشىء من التفصيل ، أما الفصل الرابع : فقد تناولت فيه فترة حكم رضا شاه وهجمته الشرسة على الإسلام ، وكيف وقف له رجل واحد هو الفقيه العظيم « سيد حسن مدرس » ومن ثم كتب الفصل تحت عنوان « الرجل الأوحد والرجل الأمة » أما الفصل الخامس تحت عنوان « الإسلاميون والقوميون – تجربة معادة – كاشانى ومصدق » فيتناول آخر الحركات الثورية ذات الأيديولوجية المزدوجة فى تاريخ إيران المعاصر ، لأن ماحدث بعدها فى خرداد « يونيه ٦٣ » تحت زعامة آية الله الخمينى يدخل فى إطار الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وكان فاتحة الانتفاضات الإسلامية الخالصة فى تاريخ إيران المعاصر .

أما القسم الثانى من الكتاب : الأيديولوجية ، فقد رأيت أن أتركه دون تعديل ، ذلك أن أيديولوجية الثورة لم تتغير منذ ثورة الطباق ، ولا يمكن لغيرها أن يطرح طرحا طبيعيا على الساحة الإسلامية ، ومن هنا انحصرت إضافاتى فى هذا القسم فى فصلين : فصل أضيف إلى الباب الخاص بفلسفة التراث عند على شريعتى ، وهو بحث لشريعتى نفسه تحت عنوان «المفكر ومسئوليته فى المجتمع» وقد نشر البحث قبل ذلك فى مجلة ذات عنوان خادع وخاطىء هى «اليسار الإسلامى» لم يصدر منها إلا عدد واحد (يناير ١٩٨١) ثم نشر دون إذن من المترجم أو ذكر لاسمه فى كتاب فاضل رسول «هكذا تحدث شريعتى» (بيروت ١٩٨٣) ، وليس هذا سبب إضافته ، بل هناك أسباب أعمق أهمها أن الكتاب يتتبع أمراض الفكر المعاصر العلمانى ، أما الفصل الثانى المضاف ، وهو الأهم ، فقد أضفته إلى الباب الثانى الخاص بفكر آية الله الخمينى ودوره التنظيرى الذى يتجاهل لأسباب لاتخفى ، ومن خلاله تتبعت نظرية ولاية الفقيه بداية من كتابه « كشف الأسرار » الذى صدر سنة ١٩٤٤ والذى يحتوى على النظرية كاملة وحتى كتاب الحكومة الإسلامية .

وبعد ..

فلعل من العسير على أى باحث أن يعود إلى ما كتب ، وأن يكون «ناقدا لنفسه» ولايفوتنى أن أشكر من شجعنى على المحاولة وحفزنى عليها وشد من أزرى خلال قيامى بها ، وهوَّن على ما يحيط بها من صعاب ، وأخص بالشكر الأخ الأستاذ المجاهد أحمد رائف الذى أراه أحق بهذه الطبعة وأهلها ، والأخت الأستاذة صافى ناز كاظم بملكتها النقدية العظيمة وأخوتها الإسلامية البناءة فلهما منى أعمق الشكر وأحر الدعاء .

والفضل والشكر — من قبل ومن بعد — لله سبحانه وتعالى ، منى الجهد ومنه — جل وعلا — التوفيق .

دكتور

إبراهيم الدسوقى شتا

أستاذ اللغات الشرقية وآدابها

كلية الآداب – جامعة القاهرة

العمرانية فى ١٨ جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ

١٦ فبراير ١٩٨٧ م

مقدمة الطبعة الأولى

لست أهدف بهذه الصفحات إلى تقديم تأريخ للثورة الإيرانية ، تلك الثورة التى تعد بحق من أهم الأحداث التاريخية فى القرن العشرين إن لم تكن أهمها جميعاً ، فإن التأريخ للثورة الآن عمل سابق لأوانه ، بل قصدت بهذه الصفحات إلى أن أبين أن الثورة الإيرانية ذات جذور قديمة ، وأنها ليست بنت هذا العام ، ولم تبدأ فى فبراير (٧٨) بمذابح (قم) ثم بمذابح (تبريز) فى ذكرى أربعين شهداء قم ، ثم توالى المذابح والاحتفالات بالشهداء طيلة مايزيد على العام ، ولم يكن سببها الوحيد مقالا سب فيه أحد كتاب الشاه « آية الله خمينى » مما فجر غضب (قم) ، أبداً ، كل هذه مظاهر لغضب كامن في الأعماق ، وصعود لمشاعر كتمت سنوات وقمعت سنوات ، ثم إن أوان تقديم تفصيلات عن هذه الأحداث التى أذهلت العالم وتابعها وهو يلهث ، لم يئن بعد ، وحتى تصدر الكتب ، وتكشف الوثائق لا يستطيع باحث متخصص أن يقوم بهذا العمل ...

ومن هنا كان لدى هدفان من هذا الكتاب :

الأول : تقديم أصول الثورة المذهبية ، وكيف أن الجناح الدينى الغالب على الثورة ، كان يعى تماماً تاريخ التشيع الذى عاش معظم حياته كمذهب مطارد من الدولة وكعمل سرى ، كما أن قواد الثورة كانوا يهدفون إلى ثورة فى الفكر الشيعى ، واكبت تماماً الثورة السياسية وامتزجت بها ، وكان على وأنا أقدم هذا الفصل أن أرد كثيراً من المفاهيم الخاطئة عن التشيع « الاثنى عشرى » التى سقطت إلينا من خلطنا بين معتدلى الشيعة وغلاتهم ، وكانت أعمال فيلسوف الثورة الشهيد « على شريعتى » ـــ ذلك الذى اتهم من قبل فقهاء الدولة بالخروج على المذهب ، واتهم فى مؤتمر علماء المسلمين فى مكة بأنه من غلاة الشيعة ـــ خير عون لى فى هذا المجال .

الثانى : تقديم عرض تاريخى مركز للحركات الثورية فى إيران على مدى قرن من الزمان ، وكيف كانت هذه الحركات ذات وجه إسلامى وإن حاولت الشيوعية الدولية ــ التى يمثلها وجود أقدم من حزب «توده» بكثير فى إيران ــ سرقة الثورة ، وكان على فى هذا العرض أن أبين الظروف التى ظهرت فيها الجبهة الوطنية والتحامها مع الحركة الإسلامية ممثلة فى « آية الله الخمينى » . وكان اعتمادى فى هذا الجزء من الكتاب على مؤلفات زعماء الثورة أنفسهم ، خاصة أنهم وهم من المفكرين ذوى الرؤية الواضحة والتفسيرات المقنعة للتاريخ الإيرانى .

وكان على بعد ذلك أن أقدم أيديولوجية الثورة وكنت أهدف إلى أهداف ثلاثة :

الأول : أن أقدم فكرة الثورة الإيرانية عن الانسان الثورى ، ذلك الذى قام بدور فعال فى الثورة الإيرانية ، فقدم لأول مرة منذ الثورة الفرنسية صورة كاملة لثورة رجل الشارع ، وكان يهمنى فى المقام الأول أن أعرف نمط التربية الذى خضع له ، وأسعفنى فى هذا المجال البحث القيم العميق الذى كتبه الشهيد الدكتور « على شريعتى » تحت عنوان « بناء الذات الثورية » .

الثانى : أن أقدم أسباب الثورة وأهدافها من خلال أقوال زعمائها ، وأسعفنى فى هذا المجال ما استطعت الحصول عليه من أعمال روح الثورة وقائدها وملهمها ، الزعيم الجليل : « آية الله روح الله الموسوى الخمينى » ، الذى كان غائبا عن الساحة الإيرانية بجسده حاضراً بروحه ، والذى فجرها ناراً أحرقت الطغاة ، ثم عاد وهو فى قمة انتصاره إلى مدرسته فى « قم » يعلم تلاميذه فضرب مثلاً فى نكران الذات لأولئك الذين لا يهمهم إلا أن يصلوا حتى على أشلاء ضمائرهم العلمية ومبادئهم ومصالح أوطانهم .

الثالث : أن أقدم الفكر الاقتصادى للثورة الإسلامية ، مبيناً من خلال كتابات بعض من اشتركوا فى الثورة ، كيف أن الإسلام حاسم بالنسبة لما يتعلق بالثروة والكسب ورأس المال ، وكيف أنه أكثر تقدمية بمراحل ووقوفاً إلى جانب الطبقات الفقيرة من كثير من المذاهب ، التى تزعم لنفسها الجدة والابتكار فى هذا الميدان .

وفى هذه الفصول الثلاثة التى تتناول الأيديولوجية حرصت على ألا أتدخل بشخصى ، اللهم إلا ببعض التعليقات التى تخدم الموضوع ويستدعيها المجال ، والتى ذكرت من خلالها بعض مشاهداتى فى إيران خلال زياراتى العديدة لها ، ولم أتوخ فى ذكرها إلا الدقة والصدق ...

وإنى لأتمنى أن أكون بعملى المتواضع هذا قد قدمت فكرة عن الثورة العظيمة — التى ولد الإسلام بها من جديد — جديرة بها ، وآمل فى أن أقدم فى القريب أحداث العام الدامى بين قوى الشعب الإيرانى العظيم ، وقوى الشاه ، والتى انتهت بالثورة التى يتمنى لها كل مسلم فى العالم النجاح والتقدم ، ولينصرن الله من ينصره ، ولينصرن الله من ينصره ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين ، ومنى الجهد ومن الله التوفيق .

دكتور
إبراهيم الدسوقى شتا
أستاذ اللغات الشرقية المساعد
كلية الآداب جامعة القاهرة

العمرانية فى (١٤ مارس سنة ١٩٧٩)



القسم الأول

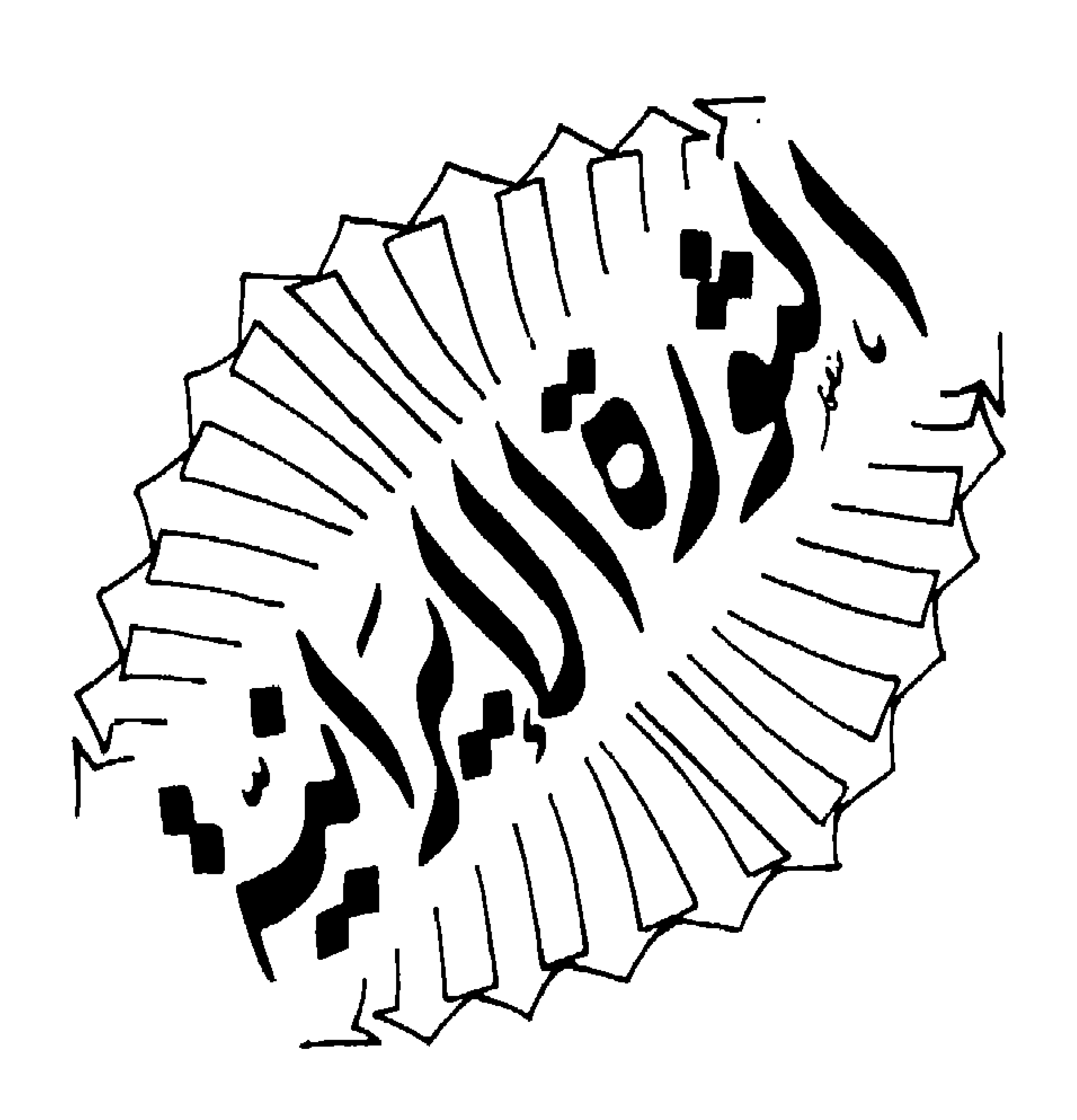
الجذور

الباب الأول

الجذور الدينية

«ليس دمنا أغلى من دم الإمام الحسين
الذى سال فى سبيل الإسلام»

آية الله الخمينى



الفصل الأول :

المذهب الشيعى فى ساحة الثورة

لايهمنا هنا أن نذكر أحداث التاريخ الإسلامى .. وكيف نشأ التشيع وكيف تطور ، فكل ذلك مذكور فى الكتب ومشهور . إن ما يهمنا هنا هو أن نتوقف عند الأحداث ذات الدلالات فى تاريخ التشيع خاصة أن البحث فى الجذور يستتبع أن نضرب صفحاً عن التفصيلات .. لأن الأحداث فى حد ذاتها لم تؤثر تأثيراً يذكر .. أما الدلالات والتفسيرات التى اكتسبتها هذه الأحداث على طول التاريخ فهى التى يمكن أن تقدم لنا فهماً تقريبياً لـ « الوجدان الشيعى » ، ولمكونات الشخصية الشيعية وتأثيرها فى قيام الثورة فى إيران ، تلك الثورة التى لا يمكن إخفاء لونها الدينى بحال من الأحوال .

ويقدم التشيع فى صورة معاصرة تثبت أن الحياة السرية التى عاشها هذا المذهب ، وأن ابتعاده عن السلطة الفعلية فى إيران ما يقرب من ألف عام ، جعلاه فى أحيان كثيرة ينضوى تحت لواء العديد من المذاهب ، ويرتدى فى كل عصر الرداء المناسب . ولست أقصد بهذا أن المذهب كان يتغير فى كل عصر ، بل إن هدفى هو أن أبين أن «الأدوات المذهبية» والتفسيرات الفكرية كانت تتغير من عصر إلى عصر . ولعل هذا هو السبب فى تعدد فرق الشيعة .. ولا يهمنا بالطبع هنا إلا الشيعة الإثنى عشرية ، المذهب الذى تفجرت فى رعايته ثورة إيران الحديثة .. وهو ــ على عكس ما يظن الجميع من غير المتخصصين ــ أقرب المذاهب فى أصولها إلى السنة والجماعة .. وأكثر اعتدالاً وأقل اختلافاً من كثير من المذاهب التى أقيمت لشيوخها احتفالات فى الأزهر الشريف فى السنوات الأخيرة .

وسوف يكون التركيز فى هذه الصفحات على التفسيرات التى يقدمها مفسرون ثوريون ، حول أهم الشخصيات الشيعية وحول العقائد الشيعية . وسوف نلاحظ أن التشيع الإثنى عشرى فى صورته هذه لا يزال محافظاً على سنة الاستفادة من « الأدوات الفكرية » و « المصطلحات الغالبة » للمذاهب السائدة فى عصره ، وإنه نوع من الفكر المتجدد . وسنرى أن هذا اللبس الذى كان يوقف القارىء العادى أمام بعض بيانات آية الله خمينى أو مساعديه ، دهشاً من صدور هذه المصطلحات من رجل دين ، ليس لها مايبرره .

وسوف تزيد دهشتنا إذا علمنا أن « التشيع الصفوى » أو التشيع الاثنى عشرى الذى اعتنقته الدولة الصفوية ، وفرضته على إيران (وليس هنا بالطبع مجال الحديث عن الظروف السياسية التى واكبت هذا الفرض) هذا التشيع الذى ظل المذهب السائد فى ذلك الوقت ــ وحتى يومنا هذا – نمطا غير مقبول عند أصحاب الفكر الدينى الثورى فى إيران .. فهم يرون أنه قد حان الوقت لكى ندرك أصول المذهب الشيعى الاثنى عشرى ومثله العليا ، وما يمكن أن تقدمه للمفكر المعاصر ، لا عن طريق التشيع الصفوى ، بل عن طريق التشيع العلوى مباشرة .. أى التشيع الخالص الحقيقى قبل مروره بالتفسيرات الصفوية .

ويرى بعض مفكرى الثورة الإيرانية المعاصرين أن التشيع بصورته العلوية أو الأصلية ، يمكن أن يكون جواباً عن أسئلة عديدة ، قد تطرح أمام المفكر خاصة فى العالم الثالث . فأصول التشيع الإمامة والعدالة والإيمان والوحدة ، وتقابل الإيمان فى الغرب ، والصراع ضد الطبقات فى العالم الثالث ، والإيمان والعدالة ، « تتمثل فى الصراع الطبقى والوحدة فى مواجهة الامبريالية والصهيونية فى العالم الإسلامى[1] » . ويرى المفكر الدكتور « على شريعتى » – (الذى يعد واحداً من كبار المنظرين للثورة الإيرانية المعاصرة) إنه لكى نزداد قرباً من التشيع الإثنى عشرى وفهماً له لا ينبغى أن نقيس مبادئه بأفكارنا المعاصرة ، بل علينا أن ننظر إلى الظروف التى نشأت فيها العقيدة ، والأرضية التى يرتكز عليها المبدأ ، ومن ثم لا نجد أنفسنا أمام مذهب دينى ، بل أمام نظرة كاملة ثورية لكل شخصيات التاريخ الإسلامى .. قد تصدم بعضنا ، وأمام تفسيرات للعقائد الشيعية إن أتفقنا أو اختلفنا معها ، فلا جدال فى أنها كانت ذات أثر كبير فى إشعال الثورة الإيرانية الأخيرة . وقد تقدم

لنا التفسيرات لكثير مما عجزنا ــ نحن المتخصصين ــ عن فهمه فتصورنا فى بعض مراحل الثورة ، أنها ثورة شيوعية ذات واجهة دينية ، فى حين أن الأمر يختلف عن هذا كثيراً كما سنرى . وأن الأمر لا يعدو نظرة خاصة ــ غير مطروقة لأسباب لا تخفى ــ إلى المذهب الشيعى ، الذى لا يختلف ــ شأنه شأن معظم مذاهب الشيعة الأخرى – عن مذهب السنة فى الأصول المشتقة من القرآن والسنة النبوية الحميدة ، ولكنه يقدم نظرة تختلف[٢] .

النظرة التى يقدمها مفكرو الشيعة المعاصرون بالنسبة للمذهب الشيعى ، يمكن أن توضع كلها تحت فكرة اعتبار أن الشيعة « الاثنى عشرية » هم يسار الإسلام ، وليس المقصود باليسار هنا التطرف أو الشيوعية بل المقصود اليسار فى الثورة الفرنسية الكبرى ، أو كما هو معروف فى المصطلح المعاصر كله : الخروج عما تدعو إليه السلطة أو تفرضه بقوة سيفها وقوة ذهبها ، والأمر هنا مفهوم تماماً إذا وضعنا فى الاعتبار أن الشيعة « الاثنى عشرية » مارسوا العمل السرى طيلة ألف عام ــ حتى قيام الدولة الصفوية ــ ثم عادوا إليه منذ عهد الدولة الصفوية نفسها وحتى عصرنا الحالى ، ولعل ذلك يفسر كيف أن شيخاً معمماً مارس العمل السرى طيلة خمسة عشر عاماً ، ضد نظام من أعتى النظم وأكثرها قوة ، ثم كيف استطاع أن يسقطه فى نهاية الأمر ، وبأقل الخسائر الممكنة أو بخسائر لاتذكر ، إذا استطعنا أن ندرك أن المثل والقدوة والأسوة ، التى كونت سدى فكر هذا الزعيم ولحمته كانوا ممن مارسوا العمل السرى .

ويرى مفكرو الفكر الشيعى « الاثنى عشرى » المعاصر ــ كما يرى أيضاً بعض مفكرينا الذين يلوون ألسنتهم بأفكارهم فحسب ــ أن الإسلام فى أساسه ثورة لا طبقية ، وأن الكفاح ضد الأرستقراطية كان يسير جنباً إلى جنب مع الكفاح لنشر التوحيد ، بل إن دعوة التوحيد فى حد ذاتها كانت دعوة موجهة ضد الآلهة من البشر ، ويطول بنا المقام هنا إذا تتبعنا ما يؤيد هذا الرأى من أقوال المشركين أنفسهم ، ومن هنا فالإسلام كثورة هو أيديولوجية إلهية ، جاءت لتحرر الطبقة المحكومة من ظلم الطبقة الحاكمة ، ولتهدم القيم اللا أخلاقية للطبقة الحاكمة والفخر بالاباء والاجداد والعنجهية القبلية ، التى كانت سائدة وواضحة فى الشعر الجاهلى الذى كان عليه أن يصمت تماماً[٣] . ومن هنا كان الرسول ﷺ يمسك بالرسالة فى يد والسيف فى يد ، فالرسالة تمثل المدرسة والسيف يمثل القيادة أى الإمامة .

ويمكن للأيديولوجية أن تتم فى ثلاث وعشرين سنة (مدة الرسالة) ، لكن إقامة مجتمع لا طبقى ولا أرستقراطى ونظيف تماماً من آثار الجاهلية ومثلها وأفكارها القديمة ، يستغرق أكثر من جيلين (ويفسر هذا النكسة التى حدثت بعد وفاة خليفتى رسول الله والانحراف الذى حدث فى عهد عثمان ثم ما تبعه من أحداث الفتنة الكبرى) ، ولأن الرسول ﷺ خاتم النبيين وبه تمت الرسالة ، فإن مسئولية صنع الأمة وبناء المجتمع الجديد ، وإرساء مثل الرسالة وتطهير المجتمع تماماً من الجاهلية تقع على الإمام . لقد بقى الإسلام وبقيت الرسالة ، لكن الكل يعلم كيف أن نظرة المسلمين إلى الإسلام تلونت بكثير من أدران الجاهلية والشرك ، والأحداث التى حدثت بعد وفاة الرسول مباشرة تثبت ذلك .

وبعد الرسول انقسم المسلمون إلى جناحين ، جناح يمينى وجناح يسارى ، وهذا الانقسام أخذ يزداد عمقاً على طول التاريخ ، وظهر إسلام تبريرى يبرر للحاكم وللطبقة المستفيدة من الحاكم سلوكهم ، وبدأ سلسلة من القمع لاتنتهى ، وبدأت الفوارق توضع بين العرب والأعاجم ، وبالرغم من النص على إلغاء تلك الفوارق فى الكتاب والسنة على السواء ، فإنها ظهرت فى حوادث كثيرة جماعية وفردية ، منها الدعوة إلى تحرير العبيد من العرب بعد كثرة العبيد من الأعاجم (بعد فتح إيران) ومنها حوادث فردية أمام القضاة ، ومنها أيضاً محاولة بيع بنات الملوك ، مع أن النص على خلاف ذلك . كان على ــ رضى الله عنه ــ هو الذى يدافع عن وجهة نظر الإسلام الحقيقية فى هذه الأحداث ، وكان هو المستوعب لفكر الإسلام الحقيقى ، والمدافع عن نظرية العدالة ، ومن ثم فليست إمامة على لقربه من الرسول ، وليست أحقيته بالخلافة لهذا القرب ولا لأسبقيته فى الإسلام ، لا .. ليس الأمر كذلك : إن شخصية على فى الفكر الشيعى ، تستند على أسس أكثر من ذلك إقناعاً وأشد عمقاً : إن عليا يمثل كل المثل العليا التى كانت الإنسانية متعطشة لها : ذلك التمثل العظيم للإسلام الذى يسمو فوق الذات ، وفوق رغبات الذات ، السكوت فترة طويلة من الزمن على حق هو له محافظة على وحدة الإسلام ، لكنه لم يكن سكوت الخانع ، ففى خلال هذه الفترة الطويلة ، كان على يثبت حقاً أنه «باب مدينة العلم» ، ولم يكن سكوت السلبى بل كان دائماً وكما تقص كتب التاريخ والسيرة ، إلى جوار الخليفتين اللذين اختارهما المسلمون بالرأى والمشورة ، بل كان

يمثل وحدة جناح «التصحيح» ، إذا أحس أن ثمة شراً يراد بمبدأ من مبادىء الإسلام ، بقى طيلة خمس وعشرين سنة على حد قوله : « قذى فى العين وشوكة فى الحلقوم »[٤] .

إن هذا المثل الذى قدم على طيلة خمس وعشرين سنة فى نكران الذات ، قد يثبت فاعلية فى الأيام الأولى للثورة الإيرانية الأخيرة ، كثيرون سيرون أن مصلحة الجماعة تستدعى سكوتهم وتنحيهم ، وأظن أنهم سيفعلون .

ثم تأتى خمس سنوات من الحكم ، خمس سنوات من تألب كافة القوى والتيارات فإذا به يقدم ـــ رغم قصر المدة وصعوبة الظروف المحيطة به ـــ أروع المثل فى ذلك الجانب الذى تتوق إليه الإنسانية بأسرها ، ويكفى أن ننظر إلى المحيطين بعلى ، لنرى فى أى جانب كان هو وفى أى جانب كان أعداؤه ، وهذا هو عدوه معاوية يكتب إليه من الشام : «أصبحت تعد نفسك قوياً على من عاداك ، بطغام أهل الحجاز ، وأوباش أهل العراق ، وحمقى الفسطاط وغوغاء السواد»[٥] طغام وأوباش وحمقى وغوغاء .. أصبح الجانب الذى يتوق لخلافة على معروفاً ، عامة الناس وسوادهم ، أولئك الذين كانوا يتوقون إلى روح الإسلام الحقيقية ، وإذا بعلى يضرب للناس الأمثال فى العدالة ومع أقرب الناس إليه . جاءه عقيل بن أبى طالب (أخوه) ليصله فإذا بعلى يجيب : والله مالى مما ترى شيئاً إلا عطائى فإذا خرج فهو لك ، فقال عقيل : وإنما شخوصى من الحجاز إليك من أجل عطائك ؟ وماذا يبلغ منى عطاؤك ؟ وما يدفع من حاجتى ، وقال على : فَمَهْ ، هل تعلم لى مالاً غيره ؟ أم تريد أن يحرقنى الله فى نار جهنم فى صلتك بأموال المسلمين ؟ فقال عقيل : والله لأخرجن إلى رجل هو أوصل لى منك (يريد معاوية)[٦] . وخرج عقيل كما خرج غيره يطلب ملك مصر وغيره يطلب عرض الدنيا ، أولئك الذين باعوا دينهم بالثمن الأوكس ، ومعاوية يرى وفودهم عليهم اعترافاً «بضلالة على وغوايته» .

هذه العدالة كانت تنبع من روح سامية محبة للعدل . يكتب إلى واليه « أشعر قلبك الرحمة بالرعية والمحبة لهم واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً يغتنم أكلهم فإنهم صنفان .. إما أخ لك فى الدين وإما نظير لك فى الخلق .. وإنما هم عمود الدين وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء العامة من الأمة ، فليكن صفوك لهم وقلبك معهم[٧] . وهو حين يغير جند عدوه على إمرأة يهودية فى ذمته يصعد المنبر

قائلا : « فلو أن إمرأ مسلما مات من بعد هذا أسفا ، ما كان ملوماً بل كان به عندى جديراً » .

هذه المثل العليا العظيمة التى ظلت حية فى وجدان المسلمين طوال عهود تاريخهم ، عندما تشتد وطأة السلطان ، إنه فى توزيع العطايا يعطى لعثمان بن حنيف ثلاثة دراهم ولغلام عثمان بن عفان ثلاثة دراهم أيضاً ، الحق عند على ليس بمعنى حقه ، لكنه حق الناس ، عدم إفقارهم فهو القائل : «كاد الفقر أن يكون كفراً» وهو القائل لولده : « بنى استعذ بالله من الفقر فإن الفقر منقصة من الدين ، ومدهشة للعقل وداعية للمقت »[8] . بل إن مأساة الهزيمة كلها أمام معاوية ، هو أنه كان يفتح صدره لكل صاحب رأى ، فكأنه ضاع وقتل دفاعاً عن إسلام كان يعرفه على شكل ، ويعرفه أعداؤه على شكل آخر ، فاختلف عليه الناس ولم يختلفوا على معاوية .

هذا هو على الجدير بالإمامة ، ليس عليا الذى طمست معالمه فى كتب أعدائه ، وشوهت فى صورة مضحكة فى كتب أتباعه من الشيعة « الإثنى عشرية » أنفسهم ، فجعلوه نسخة إسلامية من رستم وأسندوا إليه خوارق العادات[9] ، هو المدافع عن الناس حياً وميتاً ، الزعيم الشعبى ـــ والعياذ بالله من المصطلح الذى امتهن فى عالمنا الحديث كما لم يمتهن لفظ ـــ حياً وميتاً ، المثل الأعلى للعدالة ، والإنسان الكامل : العالم العادل المحب للبشر والمدافع عنهم ، والعالم فى المفهوم الشيعى مسئول ، ومسئوليته خطيرة فهو نائب الإمام ، ومن المفروض لكونه عالماً أنه يتعهد بمسئولية الإمامة ، والإمامة هى إتمام لمسئولية النبوة ، إن المسئولية البَدهِيَّة الأولى عند العالم الشيعى ليست هى أن يأخذ خمس الإمام ، لكن أن يعرف الإمام للناس وأفكار الإمام للناس ورسالة الإمام للناس[10] ، ومن هنا نفسر لماذا كانت الثورات فى العصور القديمة ذات طابع دينى ، ولماذا اتهم القائمون بها ومشعلوها بأنهم ادعوا الإمامة ، ثم لماذا أيضاً خرجت الثورات القوية الإيرانية المعاصرة من المراكز الدينية ، وكان على رأسها علماء دينيون .

ويقدم المفهوم الشيعى المعاصر حركة الخوارج بأنها «ثورة مضادة» ، وما أكثر الثورات المضادة بعد ذلك فى تاريخ الشيعة .. وما أكثر استغلال الثورات أيضاً لتكوين دول واصطدام الإمامة بالسياسة ، وكان قتال على مع الخوارج آخر مظهر

من مظاهر ثباته على الحق وعلى المبدأ إلى النهاية ـــ بالرغم من أن معارضتهم أصلاً كانت فى صالحه ـــ وتأتى الطعنة ـــ كما يحدث فى الثورات المعاصرة تماماً ـــ من ثورى متهوس نصى ولا تأتى من العدو .

وبانتصار بنى أمية ، ينتصر الجناح اليمينى (ليس بالمعنى السياسى كما أحب أن أؤكد دائماً) وتنتصر الأرستقراطية . ويبدأ الكفاح السرى بمعناه الحقيقى عند الشيعة . وتكاد تصمت المصادر على كثرتها على «مهادنة الحسن» ، فلا تبرير هناك ولا تأويل عند الشيعة المعاصرين ، اللهم إلا إشارة واحدة نقلت عن « طه حسين » هى وصية الإمام الحسن لحجر بن عدى ولسليمان بن صرد ببدء العمل السرى ، وكانت أول مقاومة سرية شيعية فى الإسلام ، وقد كُفِّر حجر بن عدى ثم قتل فى جمع من أصحابه فى برج العذراء بجوار دمشق . أما استشهاد الحسين « فى كربلاء » ، فقد قدم الروح للمذهب الشيعى ، كما قدم الإمام على قبل ذلك ـــ نظرياً وعملياً ـــ الفكر .

وكما خضعت شخصية الإمام على لنوع من « التفريس » واختلطت تماماً بشخصية رستم ـــ مما يعارضه الفكر الشيعى المعاصر ـــ خضعت شخصية الإمام الحسين واستشهاده فى كربلاء ، لنوع من التفسير التحريفى كان ـــ لا جدال ـــ من نتاج التشيع الصفوى ، الذى روجت آدابه فكرة مسيحية تماماً عن استشهاد الحسين ، تشيع عند العامة إلى أيامنا هذه وفحواها باختصار ، أن الحسين قدم نفسه شهيداً لكى يشفع فى أمة جده يوم القيامة[11] ، والواقع أن هذه الفكرة صادفت هوى عند الأوربيين فتحدثوا عنها كثيراً وبالغوا حتى قالوا : «بإسلام إيرانى» يختلف عن الإسلام العربى أو السنى[12] ، وساعد وعاظ العصر الصفوى الكبار (من أمثال المجلسى) فى وضع كثير من الروايات والإحالات والأساطير ، غذاها الخلاف الصفوى العثمانى ، وهى وإن كانت ذات فائدة فى أنها جعلت شخصيات آل البيت دائماً فى الضمير الإيرانى الشيعى ، بحيث يعرفها الجاهل والعامى قبل المثقف والمتعلم ، لكن أية معرفة ، لقد توارت شخصية الحسين الثائر لكى تحل محلها شخصية حسين ، « المسيح » الذى يبيع رجال الدين دمه كل يوم بالقطارة ..

ويقدم لنا المفهوم الشيعى المعاصر تفسيرات مفصلة عن الثورة والشهادة ، واحتفالات الحداد فى عاشوراء ، لاشك فى أنها كانت من القيم التى غذت الثورة

الأخيرة ، وأكسبتها كل هذه الجماهيرية : فإذا بمفاهيم الشهادة والتضحية والثورية كلها تمتزج معاً ، إن الفداء هنا ليس للأمة ولكن فى سبيل المثل ، والدفاع ليس عن كرسى الحكم أو المطالبة بالحق ، ولكن الدفاع عن الناس وحق الناس فى الحياة ، ومواجهة واحد وسبعين شخصاً لجيوش متعطشة للدماء ، ليس عملاً من أعمال التحدى فى غير أوانه وفى غير موقعه ، ولكنه النهوض بمسئولية القلة أمام الكثرة ، وفى ظروف كانت معروفة جيداً ، ورجال الحسين يقدمون نماذج حقيقية للمسلم الحقيقى وللثورى الحقيقى ، نماذج ذكرت باسمها وبمواقفها فى الثورة الأخيرة ، دامت حوالى خمسة عشر شهراً ، كان هناك أيضاً شباب من الجيل الثانى فى الإسلام ، سمعوا عن الإسلام ، لكنهم رأوا إسلاما مختلفاً يطبق فنهضوا للدفاع عن هذه النظرية التى سمعوا بها لكنهم لم يدركوها ولم يحسوها قط .

كانت كربلاء إذن حرباً بين القيم فى جانب ، والنفعية وحب الدنيا فى جانب آخر ، فالمسألة فى غاية الوضوح والصراحة ، والصراع النفسى فى داخل البشر واضح ليس فى حاجة إلى كاتب يتأوله أو باحث يستنبطه ، والاختيار مطروح فى لحظة حاسمة لا تعد من التاريخ أمام كافة الأطراف المشتركة ، المثل والقيم فى جانب الدنيا والحكم فى جانب آخر ، ومن ثم تكتسب الشهادة معانى أخرى ، ليست بالمرة حادثة دموية ، أنها نوع من الاختيار أن يقدم الإنسان على الموت ، بوعى ومنطق وشعور ويقظة وبصيرة ، ينهض لكى يموت لأنه لا سلاح فى يده إلا الموت ، لا يستطيع لفضح عدوه ولإدانته إلا أن يموت ، إنه ينتصر عليه بالموت[١٣] . إن الحسين يأخذ قبضة من الدم من حلقوم ولده الذبيح ويقدمها إلى السماء : إنه يعنى أنه قام بمسئوليته تجاه عصره ، وقدم اختياره .. ولا يستطيع أكثر من ذلك . يوم يكون الموت اختياراً ومسئولية ... يموت الإنسان لكى يضمن الحياة لأمته .. وهذا هو الاختيار الذى اختاره الحسين ، واختاره أيضاً فى آخر لحظة الحر بن يزيد الرياحى .. وهذا هو أيضا الذى أدى إلى فشل الحركات التى قامت للنصرة ، لأنها كانت تفتقد الجماهيرية ، وكانت تسعى أول ما تسعى إلى الانتقام ، ولهذا فشلت حركة التوابين (المختار الثقفى) ، لأنها كانت تفتقر إلى هذه الأيديولوجية وهذا المنطلق .

تقدم فاجعة كربلاء وحدها — من بين مآسى الشيعة العديدة — نماذج ومثلاً لا تزال تعيش فى الوجدان الإيرانى ، بحيث صارت جزءاً من حياته اليومية ، ولا أظن أن مذهبا دينياً يعايش وجدان معتنقيه ، ويوجه حياتهم قدر المذهب الشيعى بالنسبة للشعب الإيرانى ، وذلك عن طريق الاحتفالات الدينية واحتفالات عاشوراء ، وقراءة الروضة أو سير آل البيت ، (ولكل منهم روضة تقرأ فى مناسبة ما) فإذا المأساة حية متجددة لا تنسى أبداً ، ولا تخلق جدتها أبداً ، وسنرى — فى الصفحات التالية — أن لهذا البكاء معنى .

كان انتصار بنى أمية وهزيمة على ثم استشهاد الحسين هو حسم لقضية الصراع الاجتماعى فى الإسلام ،ولا حاجة بنا هنا إلى تفسير ماذا كان يمثل بنو أمية ، فهذا معروف ومشهور ، والحديث عنه بمثابة تكرار للمعروف والمشهور ، وبعد انتصار بنى أمية بدأ العمل السرى عند الشيعة ، وبدأت الشيعة — القلة التى تعمل فى الخفاء ولا تظهر إلا ليكبح جماحها فى قسوة ، وتشوه تشويهاً كاملاً ، ولا توجد نقيصة إلا وتسند إليها ، من إدعاء للنبوة إلى ألوهية على ، أو إلى غير ذلك من الأخبار التى لا يمكن أن نجد رداً عليها إذ لم تكن للشيعة كتب فى ذلك الزمان — فاختلط الحديث عن التشيع بالحديث عن السبئية والكيسانية ، واتهم المختار رأس التوابين بادعاء النبوة إلى غير ذلك مما ليس مجاله .

وببداية العمل السرى يظهر الجانب الاقتصادى والثورى فى الحركة الشيعية واضحاً ، واختلطت العقائد الإسلامية بمسائل اقتصادية ، حول بيت المال وشيوع المال ، وألا يكون دولة بين الأغنياء فقط ، ومن الغريب حقاً تلك التفسيرات التى خرج بها المستشرقون عن التشيع ، فإذا هم يفسرونه بأنه حركة قومية إيرانية ، فى مقابل العصبية والعرقية العربية ، التى ظهرت عند بنى أمية ، ولم يلاحظوا تلك المحركات الاقتصادية ، التى لم تكن تقل ظهوراً عن عقائد الإمامة ، فالإيرانيون لم يكونوا أغلبية الشيعة ، بل كانت بعض الطبقات الإيرانية الأرستقراطية — خاصة فى عصور متأخرة — إلى جوار المعسكر المضاد ، وكان هناك عدد كبير جداً من فقراء العرب والروم .. أولئك الذين كانوا بالفعل يريدون للإسلام أن يعود سيرته الأولى حركة تحررية غير طبقية من الطراز الأول .. وإذا بالمذابح تستمر فى هؤلاء ، ويعمل السيف وتعمل أيضاً الدعاية المضادة التى ترمى بالكفر والغلو ، ولسنا هنا

فى صدد الدفاع عن غلاة الشيعة ، فلأن الموضوع يخرج على موضوعنا من ناحية ، لأننا هنا نلتزم بالشيعة الإمامية ، ومن ناحية أخرى ، لأن الحركات التطرفية والمغالية عقائدياً وحركة تظهر نتيجة للقهر المستمر ، والقمع المتوالى وافتئات الخصوم ، هذا إلى جوار أن أغلب الغلاة لم يكونوا من آل البيت أنفسهم أو من الأئمة ، وكثيراً ما صادفنا أن الأئمة تبرءوا من الغلو فيهم ولم يشجعوه أبداً ، وإن كان قد حمل عليهم فيما بعد ، وفوق ذلك فالغريب أن معظم الغلاة أو الذين ذكرت أسماؤهم فى كتب التاريخ كغلاة ، لم يثبت وجودهم قط ، ويواجه المنهج الحديث فى دراسة التاريخ صعوبة بالغة فى مجرد إثبات أن هؤلاء كانوا موجودين بالفعل ، فضلاً عن نظريات الغلو التى اسندت إليهم ، وواضح أن معظم هذه النظريات فى الرجعة والمهدية والحلول وما إلى ذلك هى نظريات غير عربية ــ لكنها قدمت بصورة عربية ــ فإذا كان الموالى الذين انضموا إلى الحركة الشيعية ، قد طعموها بالفعل بنظرياتهم الباقية عن دياناتهم الأولى ، أما كان من الأوفق ألا تحرف كل هذا التحريف عن أصولها على أيديهم(١٤) ؟ وقد تكون حركة الغلو فى حد ذاتها حركة مفتعلة لجعل الناس ينفضون عن آل البيت ، فقد كانت تهمة الغلو مقدمة مباشرة لتهمة التكفير ، ثم يليها بعد ذلك المصير المحتوم . كما كانت ــ إن وجدت فى صورة فردية لاجماعية ــ حركة رد فعل لحركة تشويه على وآل البيت ، أولئك الذين ظلوا يلعنون على منابر بنى أمية حوالى قرن من الزمان ، وسوف نرى عند وقوفنا أمام التفسير العصرى لفكرة الولاية ، أو التولى عند الشيعة أنها كانت فى مقابل حركة الخلافة ، وكان يكفى لتبرئة أى واحد من هؤلاء «الكفرة» و « الغلاة » عند القبض عليه ، كان يكفى «أن يتبرأ من ابن أبى طالب أو يلعنه» لكى ينجو بجلده من سيف الجلاد ، ولعلنا لا نكون مغالين هنا إذا ذكرنا أن السلطة المعاصرة فى إيران . لم تكن تجد صفة للجماعات الثورية المتعددة فى إيران تقاتلهم بها فى أجهزة دعاياتها إلا صفة الماركسية ــ وهى مرادفة فى مجتمعاتنا لتهمة الكفر القديمة ــ وكان يكفى أن يوضع ختم ماركسى أمام أى اسم من الأسماء فى قوائم « السافاك » ليكون دمه مباحاً وماله حلالاً طبقاً للتعبير الإيرانى ، وكانت تهمة الغلو والكفر والقول بالمذاهب القديمة ، هى الحيلة التى لجأت إليها السلطات الأموية ، ثم السلطات العباسية لمقاومة ظاهرة العنف الثورى ، الذى كان الشيعة يلجئون إليه فى أحوال قليلة جداً ، وعلى فترات متباعدة من تاريخهم ، لأننا بعد مصرع الحسين نصادف صورة للأئمة « الإثنى

عشرية » ، مخالفة تماماً لتلك الصورة التي رسمتها السلطة لاتباعهم ، ولا ندرى كيف يكونون بالفعل على هذه الصورة ودعاتهم وأتباعهم على الصورة الأخرى ، اللهم إلا إذا اعتبرناهم شيئاً آخر ، وهذا مالا يستقيم مع أى منطق .

نحن نصادف فى شخصيات الأئمة « الإثنى عشرية » من على بن الحسين زين العابدين رضى الله عنهم (المتوفى عام ٩٤ أو ٩٥ هـ) فى المدينة ، إلى الإمام محمد ابن الحسن العسكرى (المختفى فى سراديب سامرا عام ٣٢٩ هـ) عزوفاً تاماً عن الاشتراك فى السلطة ، أو طلبا لها ، أو خروجاً فى سبيلها ، ولعلهم كانوا يرون أن لهم رسالة أوسع من الحكم والسلطان ، نصادف أسماء معظم هؤلاء الأئمة ، لا فى كتب التاريخ بل فى كتب التصوف ، وأدعية الإمام زين العابدين تقطر رقة وعاطفة وبياناً ، وسيرته تدل على حب عظيم للبشرية ، وقيل إنه عندما مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل الجرب إلى المساكين[١٥] وهناك كتاب أدعية منسوب إليه ، هو الصحيفة السجادية لا يخلو منه بيت فى إيران ، معظمها ثورة صوفية على الظلم والظالمين ، أما الإمام الخامس وهو الإمام الباقر محمد بن على (المتوفى ١١٩ هـ) فبالرغم من أنه كان معاصراً لحركة شيعية من الحركات التى توصف بأنها « غالية » وهى حركة أبى هاشم فإنه لم يشترك فيها ، وقد وقع الخلاف بينه وبين أخيه زيد ، لأن الأخير كان يرى الخروج وكان يقول : « ما كره قوم قط حر السيوف إلا ذلوا » . وقد خرج زيد لكنه قتل (١٢١ هـ) ، وقتل من بعده ابنه يحيى (١٢٥ هـ) ، وكان يحيى يرى أن الإمام الباقر وخليفته جعفر الصادق « دعوا الناس إلى الحياة ، ونحن « أى الزيدية » دعوناهم إلى الموت »[١٦] . ثم جاء الإمام السادس جعفر بن محمد الصادق فأرسى للتشيع أسسه الفكرية ، وإليه ينسب الفقه الذى يسير عليه الشيعة الإمامية فى إيران اليوم فيقال له « الفقه الجعفرى » ، وهو معاصر لمعظم الفقهاء الكبار فى الإسلام ، أخذوا عنه ، قال عنه أبو حنيفة : « ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد » وكان أستاذاً لكل الأعلام المعاصرين له ، وبالرغم من أن جعفر بن محمد عاصر الحركة العباسية فإنه لم يشترك فيها ، وقيل إنه تنبأ بقتل العلويين على يد العباسيين ، وبتولى العباسيين السلطة ، ومن ثم كان المنصور هو الذى أطلق عليه لقب الصادق ، وينسب إليه علم سرى اسمه الجفر كما ينسب إليه أنه أستاذ جابر فى الكيمياء .

وواضح من سير السجاد ، والباقر ، والصادق ، أن الإمامة كانت لديهم إمامة روحية وعلمية لا إمامة سياسية وسوف نرى كيف أن العباسيين «سرقوا» منهم بالتعبير المعاصر الثورة الشيعية على بنى أمية ، وكيف مالئوهم ثم فتكوا بهم بعد ذلك أشد من فتك بنى أمية . ولايقل دور هؤلاء الأئمة الثلاثة العلماء الكبار عن أئمة آل البيت فى تكوين الوجدان الإيرانى المعاصر ذلك ، لأنهم جعلوا التشيع الإمامى مذهباً فكرياً وصوفياً ، فكان ذلك أحد أسباب المحافظة عليه ، كعقيدة فى أشد عصور اضطهاد الشيعة ، كما قدموا للمذهب الشيعى مثله العليا .. ومعظم عقائد الثوار المعاصرين عن ــ الزهد الثورى – أو ما يعبر عنه فى المصطلح الحديث بالنقاء الثورى – مأخوذ عن هؤلاء الأئمة . والمذهب الشيعى كمذهب مدين بتعاليمه وفقهه إلى الإمام الصادق كما ذكرت .

وجدير بالذكر أن هذا العزوف عن السلطة من قبل أئمة آل البيت ، كان السبب المباشر الذى حدا بالعباسيين «لركوب التيار الثورى» ، كما عبر أحد الباحثين المعاصرين[١٧] . فحينما تجمعت كل العوامل البيروقراطية والعنصرية والبعد عن روح الإسلام عند الأمويين ، وفجرت الثورة فى خراسان ، كانت الإمامة لا تزال معقودة لبيت على ، وكان بيت العباس بعد مهزلة التحكيم قد انضم إلى الأمويين تماماً ، حتى إذا أخذ العلويون فى العمل انضم إليهم العباسيون ، (ولعلهم أحسوا بغريزتهم النفعية الواضحة أفول نجم بنى أمية) ، وكانت الدعوة السرية آنذاك فى يد أبى هاشم ابن محمد بن الحنفية ، فجعل عبد الله بن العباس وصيا له ، وحين مات أبو هاشم ، نيطت الدعوة بعبد الله وسلم له فتية البيت العلوى حتى يشتد عودهم ، ولم يهتم الأتباع إلى من آلت الدعوة ، (لأن المهم كان المبادىء لا الأشخاص) ، وقد رفع العباسيون نفس الشعار الذى كان يجد هوى عند الجميع ــ وهو المساواة ــ وليس مجالنا هنا تحليل الانتصار العباسى ، إلا أن الصدام الذى حدث بعد انتصار الحركة العباسية يبين إلى أى مدى ركب العباسيون التيار الثورى ، ثم كان فتكهم بأصحاب الحق ذريعاً ، وقد احتفظ العباسيون بتنظيمهم السرى ، وفتكوا بالقواد الذين كان ولاؤهم الحقيقى للعلويين من أمثال أبى مسلم ، وقد سبق أن ذكرنا كيف كان المنصور يشجع الإمام الصادق على العلم وعلى طلب العلم ، وكان الرد على هذه الخيانة التى لم تكن متوقعة من « أبناء العم » ، هو التنظيم الإسماعيلى الذى انشق على الإمامية ، والذى اعتنق عقيدة العنف الثورى وظلت تنظيماته السرية متعاونة مع كافة التنظيمات السرية فى العصر حتى نجحوا فى إقامة الدولة الفاطمية فى مصر ، وظلت التنظيمات الإسماعيلية الفدائية تقض مضاجع السلاجقة ، حتى دمرها المغول

(٦٥٤ هـ) لكن هذا على كل حال موضوع آخر ، وإن كانت هذه التنظيمات ظلت نموذجاً يحتذى حتى العصور الحديثة[٢٨] .

بينما كان الإسماعيليون يمارسون نشاطهم عن طريق شقين : العنف الثورى الذي كان عن طريق الفرق الفدائية ، وتعميق الفكر الشيعى عن طريق مزجه بالفلسفة والتأويل ، كان الشيعة « الاثنى عشرية » يواصلون تطورهم التقليدى ، وبالرغم مما يقال من أن الأئمة آثروا العلم والزهد والتصوف فإن المذهب ــ بعمقه الفكرى واعتداله ــ كان ذا حضور دائم بحيث إنه بالرغم من مسالمة أئمة آل البيت ، كان العباسيون ينظرون إليهم دائماً بعينى الشك ، فكانت إمامة موسى بن جعفر (١٤٨ ــ ١٨٣ هـ) – بالرغم من أنها إمامة سرية – كانت تقض مضجع الرشيد ، ومعظم من يروى عن الإمام موسى من الصوفية ، (إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخى ، الذى قتل بتهمة الرفض (أى التشيع لآل البيت) ، كما كان أيضاً استاذا لمعروف الكرخى) ، وبالرغم من ذلك لم يشفع له زهده وتصوفه عند الرشيد ، فسجن وتوفى فى سجنه (١٨٣ هـ) وقيل أيضا إنه اتهم بأنه كان على صلة بالبرامكة (لا تناقش أبداً صلة العلويين بالبرامكة بهذا الاتساع من مطولات التاريخ التى كتبت فى عهد العباسيين) ، ولا نستطيع أن ندرك القوى الروحية لآل البيت ونفوذهم الشيعى إلا من خلال تولية المأمون لعلى بن موسى الرضا (الإمام الثامن) ولاية عهده ، وهناك تفسيرات كثيرة لهذا الموضوع المفاجىء إلا أنها لا تعنى أكثر من حركة التفاف سياسية لاحتواء التيار الشيعى المتزايد ، ولضرب الحركات الثورية التى قام بها أخوة موسى الكاظم فى البصرة والمدينة واليمن ، والمأمون هو الذى سماه الرضا ، وبعد أن وصل المأمون إلى هدفه لم يعد الإمام الرضا بذى فائدة له فدس له السم فى طوس (٢٠٣ هـ) ، وكان الرضا إماماً من أئمة العلم والتصوف ، وكانت مأساة الرضا سببا فى أن الأئمة من بعده استتروا ، ولم يظهروا لا فى ميدان السياسة ولا فى ميدان العلم ، فالإمام التاسع محمد الجواد توفى قبل أن يكمل الخامسة والعشرين ، وابنه الإمام العاشر على الهادى كان مراقباً « فى سر من رأى » ، ثم خلفه ابنه الحسن العسكرى (نسبة إلى العسكر فى سر من رأى) ومات وله من العمر ثمانية وعشرون عاماً (عام ٢٦٠ هـ) وخلف طفلاً له من العمر خمس سنين ، ولكنه لم يظهر إماماً للناس ، بل اختفى منذ وفاة أبيه غيبة صغرى انتهت (٣٢٩) فغاب ثانية ولم يظهر حتى الآن ، وهو عند الشيعة المهدى المنتظر – الذى سيعود فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ــ وسوف نتناول فكرة المهدية فيما بعد .

هذه الغيبة الفجائية ، واستتار الإمام ، وانتقال السلطة الروحية إلى نواب الإمام ، جعل الحركة الشيعية بعد عهد طويل من الهمود تزداد إواراً ، وكانت

الحركات الثورية فى إيران ـــ حتى فى عهد سيطرة الصفويين السياسية ـــ تزداد اتساعاً وعنفاً ، وبالطبع كان الذين يقومون بها يتهمون دائماً بادعاء المهدية ، فى حين أن أقصى ما وصلوا إليه تطرفاً هو ادعاء نيابة الإمام ، وليست حركات النوربخشية (القرن الخامس عشر) والحروفية (السادس عشر) والنقطوية (السابع عشر) والبابية (التاسع عشر) (وسوف نشير إليها بالتفصيل فى الفصل التالى) إلا سلسلة من حركات الشيعة على مر القرون .

بعد هذا العرض التاريخى السريع ، أحب أن أذكر هنا أن التشيع لم يصر مذهباً رسمياً إلا منذ ظهور الشاه إسماعيل الصفوى (أوائل القرن السادس عشر) ، وفى خلال أربعة قرون من السيطرة الرسمية ، كان التشيع فى حاجة إلى حركة إصلاحية ، فبينما تطور المذهب ـــ كنظرية ـــ تطورات خطيرة على يد شيوخ العصر الصفوى وفلاسفته ، (من ميرداماد إلى ملاصدرا إلى العاملى إلى البهائى) ، كان المذهب الذي تفرضه السلطة محرفاً إلى حد كبير تمليه ظروف سياسية أكثر مما تمليه عقيدة ثابتة . فأصبح التشيع العقيدة الثورية التى عملت سرياً حوالي تسعة قرون ، مذهباً للدولة تفرضه بقوة السلاح ، ونوعاًمن العقيدة الجبرية المفروضة التى ينبغى على كل الأفكار والعقائد أن تتوارى أمامها ، وبدأت التشكيلات الشيعية تظهر فى المراكز العلمية ، ليست تلك التشكيلات الثورية ذات الفكر المتقدم ، بل ساد نوع من الجمود الفكرى الدينى ، لم يكن المذهب الشيعى « الإثنى عشري » الحقيقي هو الذي ساد الدولة الصفوية ، بل كان نوعاً من الالتزام المتعصب فى مواجهة أهل السنة من العثمانيين ، وبلغ بعض ملوك الصفوية حداً فى تقديس « مظاهر » المذهب يبلغ مبلغ الإسفاف ، فلم يعد من المذهب إلا الاحتفال بشخصيات الأئمة ، والمبالغة فى تزيين المساجد والمشاهد الإمامية بصحائف الذهب ، كان المذهب على يد الصفويين صورة بدائية وقبلية ، ونوعاً من العقيدة الجامدة ، أو على حد تعبير أحد الباحثين المعاصرين : « كان مهتماً بأن يجعل جميع المؤمنين كلاباً لعتبة الولاية » ، وشاع في إيران أسماء مثل كلب حسين وكلب على ، بل كان اللقب الرسمى للشاه عباس الكبير هو « كلب آستان على » أى « كلب عتبة على » ذلك الملك الذى أفطر مع حاشيته علناً مع مسيحيي جلفا (فى أصفهان) ، وأكل معهم لحم الخنازير(١٩) . كان كل ما تحرص عليه الدولة هو ظهورها بمظهر حماة المذهب الشيعى « الاثنى عشري » فى مواجهة الدولة العثمانية السنية ، وكان الأمر يبدو وكأنه

« تأكيد على عبودية على والأئمة » ، وأغلب مايعرفه عامة المسلمين عن التشيع من نتاج هذه الفترة ، فقد كان هذا التعصب المقيت والفهم الظاهرى والاهتمام بالمظاهر والاحتفالات يعطى الذريعة لأيدى العثمانيين ، لكى يتقولوا ما شاء لهم التقول على المذهب الشيعى ، ومما يدل على أن اهتمام الصفويين كان منصباً على المظهر فقط ، الثورات الشيعية التى قامت فى دولة كان من المفروض أنها تدافع عن المذهب الشيعى ، فقد كان الشيعة الحقيقيون يرون أن الدولة لا تعتنق المذهب الشيعى ، بل تعتنق مذهب « القزلباش » وهو أحد المذاهب الشيعية الباطنية المنحرفة ، وكان هؤلاء القزلباش هم الذين وقفوا فى وجه حركة الشاه إسماعيل الثانى الإصلاحية ، تلك الحركة التى فسروها بأنها رغبة فى العودة إلى المذهب السنى ، لمجرد أنه منع من لعن الصحابة والخلفاء وأم المؤمنين على المنابر ، (لم يذكر أن أحداً من الأئمة أنفسهم قاموا بلعنهم) ، وبلغ الضيق مداه فى عهد عباس الكبير ، فكانت الثورة النقطوية وهى الأخرى شيعية متطرفة ، وثورة سيد محمد فى جيلان وادعاؤه أنه نائب الإمام المهدي المنتظر ، وكان أن فتك به الشاه عباس بعد أن تظاهر بالدخول فى مذهبه ، وكالعادة تسكت المصادر المعاصرة عن فتنة سيد محمد .

وأحب هنا أن أقدم تفسيراً للتشيع الصفوي يقدمه أحد مفكرى الحركة الثورية المعاصرة فى إيران بأنه كان « تشيع المصلحة » وليس تشيع الحقيقة ، فقد أبطل كل مسئولية فكرية على الإنسان بدعوى غيبة الإمام ، وأبطل كل الأوامر والمناهى بحجة غيبة الإمام ، وكانت غيبة الإمام هى المشجب الذى يعلق عليه ملوك الصفوية كل فجورهم وفسقهم ، كان مذهباً يعتنق الحل الأمثل لإسقاط التكليف وسلب المسئولية ، وهو مذهب المساجد ذات القباب الذهبية والتى لا يتردد عليها مصلون ، وهو مذهب تجليد القرآن الكريم وتذهيبه وتمجيده ، ليس البحث فيه وليس تفسيره ، تقديس القرآن لا لفتحه ولا لقراءته . مذهب التوسل بكتب الأدعية لغلق القرآن ، لأن القرآن يعلم المسئولية ، والتشيع الصفوى هو الذى أشاع البكاء وقراءة الروضة ، وقراءة دعاء على الدرجة الرابعة للصفا والمروة يجلب الغنى ، وهو الذي أشاع كل ما ظنه أعداء التشيع تشيعاً حقيقياً ، وكل ما يزاوله الشيعة على أنه التشيع الحقيقى ، وكل هذا البكاء والضرب بالقمة (سيف قصير) ليس من الإسلام وليس من التشيع[٢٠] .

بقى لنا فى هذه العجالة أن نقدم أهم التفسيرات المعاصرة لعقائد الشيعة في ضوء الحركة الإصلاحية الدينية ، التى سارت جنباً إلى جنب مع الحركة الدينية للثورة الأخيرة . وهى تفسر لنا كيف أن الحركة الأخيرة لم تكن تتقدم بمفهوم شيعى تقليدى ، بل كانت فى البدء حركة إصلاح داخل المذهب الشيعى ، تعد أول وأشمل حركة إصلاح داخل المذهب الشيعى « الاثنى عشرى » فى العصر الحديث .

كان الشيعة يتهمون دائماً بأنهم حتى فى موسم الحج يذكرون كربلاء وعاشوراء ، ويتهمون بأنهم بهذه الذكرى لا يهتمون كثيراً بمشاعر المسلمين وبأركان الإسلام . لكن ينبغى أن ينظر الباحث لمقدسات الشيعة ، فى إطار الظروف التى نشأت فيها ، حقيقة أن الشيعة يعترفون بأنهم يعودون من الحج فلا يتحدثون إلا عن مشترياتهم ، لكنهم يعودون من زيارة كربلاء وكلهم عاطفة وإحساس ، لم يكن الحسين رضى الله عنه ليرضى بالطبع أن يحل قبره فى قلوب المؤمنين به محل الكعبة ، لكن لنرجع إلى الزمن القديم ، إلى زمن محنة الشيعة ، كيف كان الخليفة يجعل من الحج موسماً لبيان مظاهر القوة ، لأنه كان يدفع الناس إلى التفكير كيف كان عدد الحجيج في السنوات الماضية قليلاً ، بالقياس إلى السنة الحالية ، حيث كثرت فتوحات الإسلام على يديه ، وكثر عدد المسلمين وفي ضجة هذه الدعاية (التى يشترك فيها الشعراء والخطباء) ، لم يكن لأحد أن يفهم كيف أن أسرة النبى ، وكيف أن الأطهار والطيبين والثوار الأبرار قد قتلوا فى مذبحة عامة ، وكيف أبيح هذا البيت نفسه لجنود يزيد ، وكيف بايع فيه المسلمون « على العبودية » ليزيد والسيوف على رقابهم « موقعة الحرة » ، فى هذا الموقع لا يستطيع الشيعى أن يحترم الموسم وقد جرد من كل معانيه بحيث صار مجرد « دعاية » للخليفة ، وارهاباً للضعفاء ، ومظهرا من مظاهر القوة والثراء ، وتعذيبا لكل من يقف على قبر شهيد ، وتحرشاً بآل البيت ، الذين كان الناس يبدون هم من الاحترام أكثر مما كانوا يبدون للخليفة ، كان الموسم بالفعل هو الفرصة التى يتبارى فيها الخطباء والشعراء لبيان مناقب الخليفة .. وفي منزل التوحيد كانت تتجلى في مواسم الحج أكبر مظاهر الشرك .. إذن ما الحل ؟ زيارة الحسين تلك التى اعتبرها الشيعة اسمى مظاهر الجهاد .. كنوع من التحدي للخليفة (أى خليفة) الذى كان يريد أن يمحو ذكرى الحسين من الوجود . إذن فليكن تحدياً .. وليكن إثباتاً أن الحسين لم يمت ، وأن ذكراه باقية تجدد العهد ، وتحفز على الجهاد ، وأصبح هذا الرمز فى نظر أعداء الشيعة كفراً ،

وربما فقد معانيه بمرور الزمن ، وربما أفسدته تفسيرات الفقهاء ، وربما أفسدته مظاهر العصر الصفوي ، وربما أصبح احتقار موسم الحج عادة لا عقيدة .. لكن الأصل أنه عادة ثورية ، لكنها إن جردت من معانيها صارت انحرافاً (٢١) .

وكما كانت كربلاء تحدياً فى مواجهة انحراف الخلفاء فى موسم الحج ، كانت الولاية هى الأخرى عقيدة ومصطلحاً في مواجهة الخلافة ، إن بنى أمية أعداء الرسول ، وأعداء آل بيته ، سموا أنفسهم بالخلفاء ، وهم الذين كانوا يطعنون النبوة فى ظهرها ، لكنهم يتحدثون عن النبوة .. ومن ثم كانت الولاية .. إن الولاية لا تعنى إلا أنها قبول حكم آل البيت ، إن هو إلا مصطلح ضد نظام الخلافة ، أولئك الذين كانوا يفرضون الجزية حتى على الداخلين في الإسلام لكى تغمر جيوبهم بالمال ، ومن الولاية تنبع مسألة احترام سادات آل البيت ، وليس هذا الاحترام نابعاً عن مفهوم عرقى ، ولا هو تقديس لجنس معين ، لكنه امتداد للفكرة القديمة .. احترام بنى هاشم فى مقابل بنى أمية ، ذلك الاحترام الذى كان لبنى هاشم ــ لميزاتهم الروحية ــ حتى قبل الإسلام ، ليس السادات هنا أشخاصا بعينهم ، لكنهم حزب ، حزب كان يؤرق بنى أمية وبنى العباس ، إلى حد أنهم كانوا يأمرون بإبادتهم حيثما وجدوا ، لأن كل سيد من السادات ثائر بالقوة ، وصاحب حق بالقوة ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فلماذا تنتشر قبور السادات على طول العالم الإسلامى وعرضه ؟ ، ولعل هذا يفسر كيف قامت حكومة السادة العلويين في طبرستان ، ومن ثم ليس احترام السادات لأصولهم ، ولكنه مساعدة للحق فى مواجهة الباطل ، وتولياً للحق فى مواجهة الباطل ، ولعل هذا أيضاً هو ما جعل بعض الحكام يكونون للسادات نقابات فى القرون الأخيرة ، لها نقيب ولها تشكيلات ، وكان هؤلاء النقباء ينشرون فقة آل البيت ومثلهم في الناس ، تلك كانت تعد عند بعض الحكام خروجاً وكفراً .

ومن هذا المنطلق يفسر حرص الشيعة على دفع الخمس لنائب الإمام ، أو لأحد آيات الله في العصور الحديثة في مقابل الزكاة . كانت الزكاة المفروضة تدفع لبيت المال ، ومنذ هزيمة على لم يكن هناك أى نوع من الإشراف أو الرقابة على بيت المال ، بل أصبح هذا البيت ملكاً خالصاً للخليفة ، لا ينال منه الفقراء إلا الفتات وَبَدَهِيٌّ أنه إذا كان الفقير متولياً لآل البيت فلن ينال منه شيئاً بل ستنفق هذه الأموال فى سبيل تجريد الحملات للقضاء عليه ، ثم إن أغلب آل البيت هؤلاء كانوا فقراء ،

فمن أين ينفقون على كفاحهم ، ومن أين ينفقون إذن على أولئك الفقراء المحرومين الذين يلوذون بهم ؟ من هنا كان أداء الخمس للإمام ثم لنائب الإمام تأميناً لميزانية الدعوة ، وكان المجاهدون يجدون المال دائماً ، وكما كان المسجد هو المكان الذي تجمع فيه الزكاة ، أسس الشيعة « التكايا » والزوايا (التى تسمى كل زاوية منها بالحسينية) لجمع الخمس ولبث الدعوة .. وفي إرهاصات أحداث الثورة الآخيرة ، كانت حسينية الإرشاد في طهران من أكبر مراكز الدعوة . وفى مطلع الربع الثانى من هذا القرن ، عندما تولى رضاخان حكم إيران أدرك القوة التى يمكن أن تكون لرجال الدين من جراء سيطرتهم على جمع الخمس ، فحوله إلى ضريبة تدفع للحكومة ، لكن طوائف الشعب كانت تدفع الضريبة للحكومة المدنية ، بينما كانت في نفس الوقت تدفع الخمس لرجال الدين سراً .. وكان التهرب من دفع الضريبة العلنية عاماً ، أما دفع الخمس – الذي كان يتم بطريقة سرية – فقد كان الذي يؤديه ، يتحايل بشتى الطرق لكى يضمن وصوله للإمام ، ومن هنا لا يمكن أن توجه للثورة الأخيرة تلك التهمة التى تضرب كل الثورات وتهددها ، وتشوهها وهى تهمة التمويل من دولة أجنبية ، وإلا كان الذى يوجهها أبعد مايكون فهما لعقائد الشعب الإيرانى .

أما التقية الشيعية : أي إظهار الميل للمذهب وإخفاء المذهب الحقيقى خشية سطوة الحاكم – ذلك الأصل الذي يمكن أن يفسر كنوع من التحايل والنفعية والفكر الباطنى والنفاق – فنستطيع إذا وضعناه فى الإطار الذى دخل فيه العقيدة الشيعية كواحد من أسسها ، نستطيع أن نفهمه جيداً ، ففى كل الحركات ذات الطابع السرى يلعب الكتمان دوراً كبيراً ، من هنا جاء ذلك القول الشيعى المأثور « أكتم ذهبك وذهابك ومذهبك » ، لأن كلمة من هنا أو من هناك تصدر من إنسان لا يستطيع أن يكتم،كانت تعرض الشيعة لمذابح شديدة ، أما التوسع فى استعمال التقية فى الأمور الخاصة فهو نتاج التشيع الصفوى ... وجدير بالذكر هنا أنه في السنوات الأخيرة ، حين أخذ الإمام الخمينى على عاتقه فضح النظام الشاهنشاهى ، وتلاعبه بمقدرات الشعب الإيرانى ومصادر ثروته ، أصدر من منفاه فتوى بتحريم التقية ، فقد خشي أن يتوسع الشعب في استعمال هذه العقيدة الدينية بشكل يسىء إلى الثورة ، ويبعث الضعف والخنوع فى الشعب ، فقال : « التقية حرام ، وإظهار الحقائق واجب مهما كانت النتيحة ، ولا ينبغى لفقهاء الإسلام استعمال التقية في

المواقف التى تجب فيها التقية على الآخرين ، إن التقية تتعلق بالفروع ، لكن حينما تكون كرامة الإسلام في خطر وأصول الإسلام فى خطر ، فلا مجال للتقية والسكون .. والله إن من لا يصرخ لآثم ، والله إن من لا يشكو لمرتكب للكبيرة » .

ثم يأتى دور التقليد كأساس من أسس المذهب الشيعى .. والتقليد هو طاعة الإمام طاعة تامة ، ثم طاعة نائب الإمام ، وكثيراً ما اتهم الشيعة بأن هذا التقليد يحجر على الفكر ، كما اتهموا قبل ذلك بأن الإمامة نوع من الديكتاتورية ، لكننا إذا نظرنا إلى هذا الاعتقاد فى ضوء الحركات السرية ونظمها عموماً ، يمكن أن نترجمه على أساس أنه « الطاعة الكاملة للنظام » ، ففى الحركات السرية ليس هناك وقت عموماً للسؤال عن فائدة التكليف ، أو عن منطقيته أو عن نتائجه ، وليس هناك مجال للاختلاف على التفصيلات أو التردد ، وقديما فسر الأوربيون الطاعة الكاملة لفدائيى الإسماعيلية لرئيسهم ، أنه كان يخدرهم بالحشيش وينقلهم إلى جنة أقامها بين جبلين ، ثم يعيدهم إلى وعيهم قائلاً إنه نقلهم إلى الجنة التى وعد الله بها عبادة المتقين ، وأنهم إن نفذوا أوامره وقتلوا فسوف يدخلون هذه الجنة مخلدين ، وذلك الفهم فهم قاصر ، لأن الأوروبيين لم يكونوا يعرفون أن التقليد أو الطاعة التامة أصل من أصول الشيعة ، وانتقل هذا التقليد من تقليد للإمام أو طاعة له ، إلى تقليد لنائب الإمام أو طاعة تامة له . أليس هذا التقليد هو الذى يقابل فى التشكيلات السرية المعاصرة طاعة القائد بلا معارضة ، ومخالفته إن أراد فى السر ، لكن ليس على أن يعلن العصيان . من هذا المعتقد من معتقدات الشيعة نستطيع أن نفهم كيف حرك آية الله الخمينى الشارع الإيرانى وجماهير الشعب الإيرانى من منفاه فى باريس ، وعن طريق الشرائط المسجلة بصوته ، أليس آية آلله العظمى هو نائب الإمام ؟ وأليست طاعته واجبة خاصة إذا التقى فيما يطلب تنفيذه مع كافة المؤمنين ، وكانوا على قلب رجل واحد .

ومن المنطلقات التى يمكن أن نفهم بها الثورة الأخيرة أيضاً فى إيران منطلق الشهادة ، ولعل كثيراً منا وأحداث تلك الشهور الدامية تتوالى فى إيران ، اندهش من جماهير الشعب الإيرانى وهى تقابل بالصدور العارية دبابات الجيش ومصفحاته وأسلحته بينما طائراته تحلق فوقها تصب عليها الموت ... وتساءل : أية روح جبارة انبثقت فى هذا الشعب تجعله يضحى بالأرواح بكل هذه الاستهانة ! وكيف استطاع

شعب أعزل يحركه شيخ معمم نيف على الخامسة والسبعين على بعد آلاف الأميال أن ينتصر على رابع قوة عسكرية فى العالم ويثبت ـــ والقرن العشرون آخذ فى الزوال ـــ أن تلك الفكرة التى سادت طويلاً من أن الأمور لا يمكن إلا أن تتغير على يد الجيش فكرة واهية تتجاهل العقيدة والإيمان عند الشعب ؟؟ إن الرد على كل هذه الاسئلة لا يحتاج إلى معاهد استراتيجية ولا إلى خبراء سياسة ، علينا فقط أن نتحدث عن مفهوم الشهادة فى المذهب الشيعى ، فالشهادة هى السلاح الوحيد عند الشيعة طوال تاريخهم ، فى مقابل كل القوة والغلبة والسيطرة التى كانت عند أعدائهم . فالحرب الشيعية على طول التاريخ حرب غير متكافئة بل هى نوع من الإقدام على الشهادة ، وإلا فهل يمكن أن نسمى موقعة كربلاء حرباً بين جيش الحسين (إثنين وسبعين رجلاً) وجيش يزيد (عدة آلاف) ؟ . إن الشهادة فى المفهوم الشيعى ـــ وقد يبدو بمنطقنا المعاصر مفهوماً رومانسياً ، إلا أنه مفهوم حقيقى – هى السبيل الوحيد للبقاء والدوام ، وهذه ليست فلسفة . فى مستهل الثورة الأخيرة سألت إيرانيا عاديا (ليس مثقفاً وليس من أساتذة الجامعات ، بل ولا يستطيع القراءة والكتابة) : هل ترى أن تلك الحركة التى بدأت سوف تصل إلى نهاية ، أم أنها نوع من الانتحار المكتوب كقدر على الشيعة طوال تاريخهم ؟ وأجابنى الرجل بما معناه : أحب أن أقول إنه ليس انتحاراً ، إنه استشهاد ، قلت : على فرض ، أليس عبثاً ما دام لايؤدى إلى نتيجة ؟ فقال : أبداً ، تخيل أن كل إنسان يسقط له على الأقل عشرة من الأقارب وعشرة من الأصدقاء ، فكأنه إن سقط خمسون فرداً فقد أحيوا (قالها بالحرف) ألفاً .

إن تفسير الشهادة التى تحيى والشهيد الذى يموت لأنه لا يملك سوى حياته يقدمها كصيحة احتجاج مسألة ليست هنا فى حاجة إلى فلاسفة ومنظرين ، بل يكررها كل شيعى عادى عند زيارة الامام الحسين عليه السلام فى النصف من شعبان من كل عام ، يقرؤها فى كتيب الزيارة الذى يدله على ما ينبغى أن يقوله عند زيارة سيد الشهداء « أشهد أنك قتلت ولم تمت بل أملا فى حياتك أحييت قلوب شيعتك »[٢٢] ، وإنطلاقا من هذا المفهوم يتحدث « شريعتى » عن الشهادة ، ويقدم تفسيرات لاشك فى أنها كانت ذات أثر بعيد عند التعبئة العامة فى مواجهة الطاغوت ، يقول شريعتى : « نحن الآن فى سنة ٦٠ للهجرة ، كل شيء ضاع ، فالثورة التى

كانت قد حدثت منذ نصف قرن ديست بالأقدام بكل ما أتت به ، وكل ماوفقت إليه ، والكتاب الذى نزل على الرسول ﷺ وآله رفعه بنو أمية على أسنة الرماح ، والثقافة والعقيدة اللتان ثبتهما الإسلام وكفاحه فى القلوب والأذهان صارت أداة فى يد الدعاية الأموية ، وصارت كل المساجد قواعد للشرك والظلم وخداع الخلق واستحمارهم ، كما صارت كل سيوف الجهاد تحت سيطرة الجلادين ، وتدفقت كل أموال الزكاة والغنائم على خزانة القصر الأموى ، وكل الألسنة التى تتحدث عن الحقيقة والتوحيد والرسول والسنة والقرآن والوحى دخلت تحت سيطرة معاوية ، وكل علماء العصر ومتعلميه وأئمة الجماعة والقضاة والمفسرين والقراء ، إما أنهم قتلوا ، وإما أنهم خنقوا وسكتوا واشتغلوا بالرياضات الصوفية وقبعوا فى جحورهم كالفئران ، أو صاروا مثل أجهزة الراديو الترانزيستور فى أيدى النظام » [٢٣] . وهنا ظهر الحسين بيدين خاليتين ، لم يكن فى يديه شىء ، ماذا يستطيع أن يفعل ؟ هل يستطيع أن يصمت ؟ والمسئولية ؟ إنه كإمام مسئول يدرك أن الإسلام يتحول إلى دين حكومى ، ويتبدل إلى قوة عسكرية وسياسية لا غير ، إنه الآن بين « عجزين» فلا هو يستطيع أن يسكت بحيث يفوت الأوان ، فكل شىء يقتلع من جذوره ويمحى داخل الأذهان وفى أعماق الوجدان والأحاسيس والأفكار ، ولا هو يستطيع أيضا أن يقاتل ، ومن هنا يتبين أن المسئولية تنبع من الوعى والايمان لا من القدرة والامكان[٢٤] ويخلص شريعتى إلى تأثير مفهوم الشهادة فى التراث الشيعى « فى ثقافتنا وتراثنا » لاتعد الشهادة موتا يفرضه العدو على المجاهد ، بل هو الذى يختاره بكل وعيه وكل منطقه وكل شعوره ويقظته ووضوح الرؤية عنده ، أنظروا إلى الحسين ، إنه يخرج من مدينته ، يترك حياته وينهض لكى يموت ، لأنه لا يملك سلاحا سواه فى نضاله لفضح العدو وتمزيق حجب الخداع التى وضعها النظام على وجهه الكريه[٢٥] وفى مثل هذه الظروف يكون الموت بالنسبة للمرء ضمانا لحياة أمة ، ويكون استشهاده سببا لبقاء الايمان ، شاهدا على أن الجناية الكبرى والخداع العظيم والغصب والقسوة والجور هى من السمات التى يتصف بها الحاكم ، شاهد إثبات على الحقيقة التى لا تنكر ، ونموذجا لوجود القيم التى تداس بالأقدام وتنسى ، وهى فى النهاية ــ أى الشهادة ــ اعتراض أحمر على الحكم الأسود ، صيحة غضب على الصمت الذى قطع كل الحلوق ، وهى ذلك الشىء الذى يراد له أن يغيب فى التاريخ ، ونموذج لكل ما ينبغى أن يكون ، ودليل على كل ما يحدث فى زمن الصمت

والخفاء ، وهى الشكل الوحيد للجهاد ، والسلاح الوحيد للهجوم ، والدفاع ، والأسلوب الوحيد للمقاومة التى تقوم بها الحقيقة والصدق والعدالة فى عصر وأمام نظام خلع الباطل والظلم فيه سلاحها وحطما مبررها وقتلا كل المدافعين عنها والأوفياء لها ، كل هذه المعجزات تتجلى فى الشهادة »[٢٦] .

والشهادة ليست وسيلة فحسب بل هى فى حد ذاتها هدف وأصالة ، وهى دعوة لكل العصور والأجيال : إن استطعت فاقتل وإن لم تستطع فمت[٢٧] . ويعطف شريعتى على تأثير نسيان مفهوم الشهادة فى المجتمع الشيعى : « إننا — على حد قول جلال — (وربما يقصد جلال آل أحمد) منذ أن نسينا سنة الشهادة ، وقمنا فقط ببناء المقابر للشهداء ، وصار رجالنا ونساؤنا مجرد قائمين بالعزاء لهم ، أصبحنا فى عزاء دائم ، ثم يطرح صيحة الحسين هل من ناصر ينصرنى ؟ فى قلب العصر ويقول : « ألم يكن يعلم أنه ما من أحد ينصره ؟ إن سؤاله هذا من أجل التاريخ الذى سوف يأتى من بعده ، وهو موجه لنا جميعا ، الحسين يريد من عشاقه أن يجيبوه بالإيجاب ، هو دعوة لكل من يعظم الشهداء ويحترم الشهداء »[٢٨] ولكل ثورة وجهان : الوجه الأول الدم والوجه الثانى الرسالة ، أما الدم فقد بذله الحسين ، وأما الرسالة فقد تكفلت بها زينب ، والشهيد هو قلب التاريخ ، فكما يمنح القلب العروق الميتة الدم والحياة ، نجد أنه فى المجتمع الذى يتجه إلى الفناء ، فى المجتمع الذى فقد فيه أبناؤه إيمانهم بأيديهم ، فى المجتمع المبتلى بالموت البطىء فى المجتمع الذى جعل التسليم ديدنا له ، فى المجتمع الذى نسى الإحساس بالمسئولية ، وفى العصر الذى عجز فيه عن الحياة والحركة والولادة ، يكون الشهيد مثل قلب يوصل الدم منه إلى أعضاء المجتمع الميتة التى لا رمق فيها ، وأعظم معجزات الشهادة هى أنها توصل الايمان الجديد إلى جيل كامل[٢٩] ، لكل ثورة وجهان : الدم والرسالة ، على كل إنسان أن يختار مسئولية قبول الحق ، وعلى كل إنسان أن يعرف مسئولية كونه شيعيا ، وماذا تعنيه مسئولية حرية الانسان . ينبغى أن يعلم أنه فى معركة التاريخ المستمرة والموجودة فى كل مكان « كل مكان هو كربلاء ، وكل الشهور محرم ، وكل الأيام عاشوراء » (من شعارات الثورة الإسلامية فى إيران) . عليه أن يختار إما الدم وإما الرسالة ، إما أن يكون حسينيا وإما أن يكون زينبيا ، إما أن يختار ميتة كميتة الحسين ، أو حياة كحياة زينب ، فأولئك الذين ذهبوا فعلوا كما فعل الحسين ، وأولئك الذين بقوا عليهم أن يفعلوا ما فعلته زينب وإلا فهم من أتباع يزيد »[٣٠] .

من هنا يمكن أن نفسر كثيرا من الشعارات التى رفعتها الثورة ، وأبعاد التضحية ، ومذابح الشوارع ، والدم الذى سفك فى الميادين والطرقات ، والمسيرات المليونية التى كان المشتركون فيها يخرجون وقد ارتدوا أكفانهم ، كان كل دم يسفك يقرب من النصر ، وهو درس قيم حقا لأولئك الذين يتوقون إلى ثورة إسلامية لكنهم يهلعون لتصور — مجرد تصور — نقطة من الدم زاعمين أنها إن سفكت فهى فى أعناقهم .

من هذا المنطلق أيضاً قد نفهم مسألة إعلان الحداد العام فى يوم من الأيام ، وقد يهز البعض رأسه : وماذا تعنى ؟ ما فائدة كل هذا الحداد ، وما قيمة يوم لإعلان الحداد العام ؟ إن الشيعة منذ أن قتل الحسين فى كربلاء ، يحتفلون كل عاشوراء (ذكرى مصرع الحسين) بمصرعه ، فيبكونه ويذكرونه ، وبالرغم من أن هذه الذكرى قد دخلت فيها عناصر شعبية وعناصر غير إسلامية – يحاربها الفكر الشيعي المعاصر – فلقد حفظت جلالها على مر القرون ، فيوم الاحتفال يبكى المؤمنون شطراً على الحسين ، لكنهم يبكون الشطر الأكبر على مصائبهم وآلامهم وقتلاهم وشهدائهم ، ومن هنا أيضاً نستطيع أن نفهم قيمة القول الشيعى المأثور أو الحديث الشيعى : « من بكى أو تباكى وجبت له الجنة » وقد نقف عند « تباكى » ، فما معنى من أن تباكى هو الآخر قد وجبت له الجنة ؟؟ ، ينبغى أن نعود إلى التاريخ : عندما كانت كل قطرة دمع رسالة تبلغ الشهادة وقيمة الشهادة إلى من لايعرفونها ، عندما كانت التعبير الوحيد المسموح به لمن منعوا عن الكلام .. ومجلس العزاء الذى يعد لتذكر الحسين والشهداء ومصائبهم ، يعد فى الحقيقة مدرسة لنشر فلسفة الشهادة وحضاً عليها ، ومن ثم صارت هذه المجالس ضرورة فى إيران ، ليست ضرورة عاطفية كما يتبادر إلى الذهن لكنها ضرورة جهادية ، بحيث إن هناك « روضة » أى « سيرة من سير آل البيت » تتلى فى حفل الزفاف ليتذكروا أن واحداً من شباب آل البيت تزوج فى كربلاء قبل أن يستشهد . من هنا فحسب نستطيع أن نفهم المفاتيح المذهبية للثورة الإيرانية فخر الثورات فى التاريخ ، ونستطيع أن نفهم أيضا كيف أن يوم أول ديسمبر (١٩٧٨) الموافق ليوم عاشوراء (١٣٩٩) كان يوماً فاصلاً من أيام الثورة الإيرانية الأخيرة ، ففى ذلك اليوم كانت ذكرى الحسين ، قد حلت لأول مرة منذ قرون عديدة ، والمؤمنون لا يسكبون الدموع بل يسكبون الدماء .

هذه هى الجذور المذهبية للجهاد الشعبى الإيرانى : الإيمان بحب العترة والولاية والإمامة، فى مقابل عدم الاعتراف بالحكومة والخلافة والزعامة ، واحترام سادات آل البيت فى مقابل احتقارهم والتخوف منهم والعمل على القضاء عليهم من جانب السلطات الحاكمة ، ودفع الخمس فى مقابل الضرائب ، والاجتماع فى الحسينيات والتكايا فى مقابل المساجد (وكان معظمها مغلقاً من قبل نظام الحكم الشاهنشاهى ، فقد كانت كلها مراكز تجمع) والتعزية ومجالسها لتذكر الشهداء ، والبكاء احتجاجاً ، والزيارة تقديسا ، ومدح الإمام على وكتابة المناقب فيه ، فى مقابل تكفيره ولعنه على المنابر .

وهذه هى الأسس التى جعلت من المذهب حركة تحررية ، وعلى حد قول مهدى بازرجان : « إن ماء الدين والاستبداد لا يجريان فى نهر واحد قط ولن يجريا »[٣١].

بقى لنا هنا أن نتحدث عن موضوعين : موضوع يتصل بالعقيدة ، وموضوع يتصل بالتنظيم .

أما الموضوع الذى يتصل بالعقيدة فهو موضوع « المهدية » : ونحن نعلم أن الشيعة « الإثنى عشرية » يؤمنون بأن المهدى المختفى فى سامراء (٣٢٩) سوف يعود يوماً فيملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً ويعيد الحق إلى أهله ، على كل شيعى « أثنى عشرى » مؤمن أن يؤمن بهذه العقيدة وإلا نقص إيمانه ركناً،وبالرغم من أنه لا توجد ديانة « بلا مهدية » ، فإن هذا الركن بالذات ــ خاصة لكثرة الخرافات التى نسجت حوله فى العصور الأخيرة ، واستغلال السلطات الصفوية السيىء له ــ هوجم بشدة بالغة من كافة المسلمين . وهذا ما يعبر عنه الدكتور « شريعتى » قبل أن يفسره تفسيراً حديثاً بأنه موضوع حساس . إنه يمثل ترجمة لفكرة « الانتظار » تلك الفكرة الموجودة عند كافة الأديان ، والتى تزداد حدة عند مذاهب الأقلية ، التى تواجه القمع من سلطات تفوقها عدة وعتاداً ، والفكرة أصلاً مرفوضة علمياً واجتماعياً وسياسياً ، علمياً لأنه من غير المعقول أن يعيش فرد عدة آلاف من السنين يعلم الله مداها ، وسياسياً لأن هذه الفكرة تمحو فكرة الجهاد عن الإنسان ، وتجعله يعيش فى انتظار قوة غيبية تخلصه مما هو فيه ، إلا أن تصور المهدى فى العقيدة الشيعية يفسر نفسه بنفسه : فظهوره فى مكة وعاصمته الكوفة ، ورفيقه المسيح ، وأعداؤه

السفيانى ، وجيشه من ثلاثة عشر وثلاثمائة من المؤمنين والمجاهدين (نفس تعداد جيش الحسين الذى خرج معه) ، ثم إنه سيقتل الظلمة ورجال الدين الفاسدين ، أما الناجون فهم طبقات الشعب المعذبة من الفقراء .. ألا يعنى هذا شيئاً ؟ ، ثم إن المهدية فى حد ذاتها هى أساس الفكر السياسى الشيعى ، ففى غيبة الإمام الصغرى عين أربعة من النقباء هم « أبواب الإمام » ،.لكن : ماذا سيكون الأمر فى الغيبة الكبرى التى لا يعرف مداها إلا الله . هنا تأتى فكرة الاختيار : اختيار نائب الإمام ، إنه يختار على أساس قول الصادق « أما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه ، حافظاً لدينه ، مخالفاً لهواه ، مطيعا لأمر مولاه ، فللعوام أن يقلدوه أي يطيعوه » وللقضية هنا شقان : فقد تستعمل خطأً ويطلب من المؤمنين عن طريق نواب الإمام المزيفين الخنوع والخضوع انتظاراً للإمام الغائب ، ليخلصهم من ذل الظلم ويهبهم العدل ، هذا هو الانتظار السلبى ، لكن هناك أيضاً شقا آخر يتمثل فى الانتظار الإيجابى : ذلك الانتظار الذى يتمثل فى قوله تعالى ﴿ **أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾ أى لنفرض أن محمداً ﷺ قد مات أو قتل ، أفيعنى هذا أن تقعدوا عن الرسالة وتمتنعوا عن نصرتها ؟ ! يعنى أن الأمور لا تتوقف على شخصيات وأن الرسالة دائمة . وأيضاً فالانتظار مرحلة بين الحقيقة والواقع . الحقيقة تقول : إن الإسلام هو دين العدالة والبشرية والنجاة للإنسانية ، لكن متى ذلك ؟ لم يمر قليل على وفاة الرسول حتى كانت ردة جاهلية لكل القيم التى كانت سائدة قبل الإسلام ، فما الحل إذن ؟ هل الحل أن أكفر بأن الإسلام هو بالفعل مايقال عنه ، وأومن بأن الإسلام الحقيقى هو ما هو سائد بالفعل ؟ الانتظار هو الذى يحل هذه المشكلة ، فقدر الإسلام أن يظهره على الدين كله ، وينبغى أن يتم هذا فى يوم من الأيام ، ومن ثم فإن هذا الانتظار لطمة شديدة على كل الحكام والطغاة والظلمة ، فإن يوم الخلاص – لابد – آت ، وهذه الفكرة هى التى تبث عزماً فى الجماهير من ناحية ، لأن الإيمان المطلق بأن الظلم غير دائم وغير أبدى ، يجعل زلزلة الظلم واقتلاعه من أساسه شيئاً سهلاً كما أنها أيضاً تقض مضاجع الطغاة ، لأنهم مهما استكانوا وأمنوا فلابد من أن هذه الفكرة تقلقهم وتعكر عليهم صفوهم بعض الوقت . هى الفكرة التى تثبت أيضاً أن الإنسان قد تأتى عليه لحظة يفكر فيها أنه – حتى وإن كان منكراً للإمام الغائب – قد تكون المسألة جداً لا هذر فيه ، وتقلب مخططاته رأساً على عقب ، أليس هذا فى حد ذاته سبباً لمراجعة النفس بين الآن والآخر وعدم الإفراط

فى الطمأنينة إلى الوضع الراهن ، ثم إن الانتظار هو حتمية التاريخ وإلا فما معنى وراثة الصالحين للأرض التى كتبت فى الزبور من بعد الذكر ؟ أهى وراثة تلقائية ؟ لا .. لابد من حرب وصراع يوهن العظم بين الإمام الغائب أو المهدى أو المنتظر وبين قوى الشر التى تزداد توغلاً فى العالم .. هذه هى حتمية التاريخ مع نوع من التفاؤل ، وانتظار لمستقبل أفضل .. أما زلنا نتعجب مما حدث إذن فى إيران بعد هذا التفسير لأكثر العقائد الشيعية إيغالاً فى الغيبية ، وأعظم الوسائل التى استذل بها الشيعة ـــ تحت حكم الشيعة ـــ قروناً عديدة ؟؟ مذهب الانتظار هنا فلسفة إيجابية للتاريخ ، وحتمية للتاريخ وتعادل فلسفى وعامل فكرى ينشر المسئولية ، وهو فى النهاية مذهب اعتراض على الواقع الموجود ومقاومة للقيم والنظم الحاكمة . ليس إذن سلبية ودعوة إلى التسليم والرضا كما هو سائد[٣٢] .

بقى لنا هنا أن نتحدث عن النظام الدينى عند الشيعة، وماذا يعنى منصب آية الله العظمى ؟؟ هو ببساطة نائب الإمام ، ونيابة الإمام هنا ذات شروط ، فالنيابة هنا تعنى الاستمرار فى طريق الإمام والحفاظ على تراث الإمامة وتراث النبوة .. وبما أننا قد علمنا أن تراث الإمام كان كله وقوفاً إلى جوار الطبقات المستضعفة علمنا أخص واجبات الإمام ، وهو الذى يثبت أن دورة الغيبة ليست إبطالاً للجهاد ، ولكنها إلقاء للجهاد على مسئولية الإنسان ، تقع مسئولية النبوة والإمامة معاً على عاتق الإنسان . ولا يستطيع العالم الشيعى أن يصل إلى مرتبة « آية الله » إلا إذا أثبت باعاً واسعاً فى الاجتهاد وهو حل مايعن للمسلم فى حياته اليومية دون أن يكون هناك نص ، أو يكون حتى نص يقاس عليه ، فالمسئولية هنا مسئولية جسيمة وعلى آية الله أو المجتهد أن يطور المذهب ، فى كل ما يمكن أن يعن للمسلم فى حياته اليومية ، على أن يكون فهمه متناسباً مع الزمان ومع العصر واحتياجات الناس ، وليس هذا بالطبع يعتمد على حدوث الشيء أولا ثم استنباط المناسبة له ، بل عليه هو طبقاً لتغير الاحتياجات والضرورات أن يجد من المذهب ما يشفى غليل المؤمن ، على أن يكون ذا فهم عميق ليجد « للحوادث المستحدثة » – بتعبير الفقه الشيعى – الحلول المناسبة لها ، وهذا لا يعنى إلا أن الإسلام جعل نفسه مسئولاً عن كل مايحدث فى كل زمان وكل مكان ، وعليه أن يقدم الحلول له ، وعلى آية الله دائماً أن يبصر الشيعي بمسئولياته ومن أهمها أن يقول للباطل ، « لا » حتى ولو كلفه الأمر حياته ،

وأن يعتنق العدالة كنظرة شاملة للحياة ، وأن يؤمن بالكتاب والسنة كدستور عمل لا كنوع من الزينة وما يلوكه اللسان ، وأن يعيش كعلى فقيرا مجاهداً عادلاً مقاوماً للظلم والطغيان ، وعلى آية الله قبل كل شيء أن يضرب المثل من نفسه هو ، فإن كان جديرا ، اكتسبت آراؤه قوة الإلزام الشرعى وصارت ملزمة لأتباعه ، ومن كانت قوة آية الله الخمينى وكانت أيضاً قوة الفقهاء والمجتهدين الذين حملوا على عواتقهم لواء النضال الوطنى فى القرن الأخير فى إيران ، وهو موضوعنا التالى .



الفصل الثانى

العلمـــاء والحـــــــوزة

كل هذه الأصول وتفسيراتها الثورية ما كان لها أن تؤتى أكلها لولا وجود رجال الدين أو العلماء على رأس الثورة . وقد يتساءل سائل : لكن رجال الدين موجودون فى كل قطر إسلامى ، ومنهم ــ بحمد الله ــ من هو حجة فى علمه ودينه وورعه ، ومنهم أيضا من نزل ساحة العمل السياسى ، كما أن الجماهير لاينقصها الوعى الإسلامى بشكل أو بآخر وإن لم تتميز بالمعايشة اليومية للدين « السياسى » كما هو موجود فى المذهب الشيعى ، فلماذا لم يحدث فى أى قطر إسلامى ما حدث فى إيران ؟

كان يمكن لهذه العوامل الموجودة على الساحة الإيرانية ألا تؤدى إلى الانفجار الذى حدث لو لم ينج الإسلامى داخل إيران من التشرذم والتفكك الموجود على معظم الساحات الإسلامية ، ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى وجود مؤسسة دينية مستقلة ، وليس معنى هذا أن المؤسسة الدينية كانت على طرف نقيض مع السلطة فى كل الأحوال ، وأنها كانت تقعد لها كل مرصد ، أو أنها غاصت فى العمل السياسى حتى آذانها ، ولكن وجودها المتميز ، والسمات التى حافظت عليها من نشأتها ، جعلتها قادرة على إفراز قيادات سياسية تستقطب الجماهير خارجها من ناحية ، وتربى قيادات جديدة تدفع إلى الساحة عندما يجد الجد من ناحية أخرى ، وكانت القيادة السياسية المعقودة للمرجعية العظمى فى الثورة الأخيرة ، حيث كانت على رأس الثورة ومعها جماعة رجال الدين المناضلين « روحانيان مبارز » الأثر الأقوى فى انتصار الثورة .

وقد انصبت أغلب الدراسات ــ ليس فيما بعد انتصار الثورة فحسب بل قبيل انتصارها أيضا ــ على ملامح المؤسسة الدينية التى تعرف باسم الحوزة مما يلقى الضوء على كثير من جذور الثورة وأيديولوجيتها وعلى بعض أصول الحكم الحالى فى إيران ، ومما يوضح أن كثيرا مما يطرح الآن فى إيران كان مطروحا على الساحة حتى قبل الثورة ، وأنه ليس من نتاج تغلب جناح من أجنحة الثورة على بقية الأجنحة كما يحب بعض الكتاب أن يؤكدوا دون دراية ودون دراسة .

والواقع أن طبيعة المذهب الشيعى عادة ما تطرح مشكلات ذات طبيعة سياسية ، خاصة أن المذهب ــ كما لاحظنا ــ مذهب سياسى منذ البداية ، وعندما كان الإمام حاضرا وموجودا كان محور السلطة السياسية بنفس القدر الذى كان فيه محورا للسلطة الدينية ، يمارس السلطتين على أقلية غالبا ما كانت مضطهدة ومطاردة ، ومن ثم كانت غيبة الإمام ذات تأثير كبير فى فكر الشيعة السياسى خاصة أن نظام « الوكالة » للإمام لم يدم إلا فترة قصيرة جدا بعد الغيبة الكبرى « حوالى نصف قرن » ، بل إن فكرة الرجعة أو الإمام « الذى سيعود » كانت تخيف القوى السياسية المتعاطفة مع الشيعة ، ومن هنا لم يقم البويهيون خلافة علوية بل وقام هؤلاء بسجن وكيل الإمام ، وبقدر هذا الجزر والتقلص السياسى كان يقابله مد فى نفوذ العلماء ، ففى القرن الرابع فحسب وبعد الغيبة الكبرى بدأ تدوين الفقة الإمامى ، ومن ثم فإن الغيبة ــ إلى جوار ظروف سياسية أخرى لامجال لتفصيلها ــ قد ساعدت فى بداية سلطة العلماء . [(٣٣)]

وبتبنى الدولة الصفوية « فى بدايات القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى » للمذهب الشيعى ، تعرضت النظرة السياسية للعلماء لهزة شديدة ، فهاهو نظام حكم ينادى بالتشيع مذهبا لكن لا علاقة له بالأئمة أو الإمام الغائب ، وبالرغم من إدعاء الصفوية لنسب علوى فإن النسب العلوى وحده لم يكن بالمحك فى نظرية التفويض الإمامى الشيعية ، وبدأ الفقهاء يعيدون النظر ويجددون ويجتهدون فى محاولة لتقبل هذا الوضع الذى فتح البلاط أمامهم فصار لهم فيه ما كان للشعراء من نفوذ فى البلاطات السابقة ، وطرحت لأول مرة فكرة إمكان تقبل « حكم غير إمامى يعمل طبقا للمبادىء والأصول الأمامية » وللملا محمد باقر المعروف باسم محقق السبزوارى والمتوفى سنة ١٠٩٠ هـ وهو أحد الفقهاء الأقوياء فى العصر الصفوى –

قول واضح فى هذا المجال ، ولعله أول طرح صريح لامكان قيام نظام سياسى مقبول فى غيبة الإمام يقول : « لايوجد عصر يخلو من إمام ، لكن الإمام يختفى فى بعض العصور بناء على أسباب ومصالح تخفى حكمتها على أبناء البشر ، وحتى فى عصور الغيبة يكون العالم فى يسر ورخاء ببركة وجودهم ، وفى عصرنا هذا وصاحب العصر والزمان – أى الإمام – غائب ، إذا لم يوجد سلطان عادل وصالح لإدارة أمور الدنيا ، فإن زمام الأمور ينفرط وتصعب الحياة على كافة الخلق ، فلابد ومن الملزم أن يعيش الناس تحت حكم سلطان يحكم بالعدل ويقتدى بالإمام فى أقواله وأفعاله »(٣٤) ، ثم يضع المحقق السبزوارى شروطا للسلطان العادل وهى عبارة عن اقتدائه بسنة الإمام ودفع شر الظلمة وحمايته لأتباعه ورعاياه ، وهم ودائع الله عنده ، ووضعه كلا من أتباعه فى الموضع الذى يليق به ، وحفظ المؤمنين وحمايتهم من طغيان المبتدعة والكفار وسلطتهم ، وإعلاء كلمة الشريعة ، ودعم أهل الزهد والديانة ، والتعفف عن الاستيلاء على أموال الرعايا ، والكف عن إبدال الأموال والرعايا إلى أداة لفعل الشهوات وارتكاب الذنوب ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وحفظ حدود المملكة وثغورها ، وحفظ الأمن فى الشوارع .(٣٥)

وكانت هذه الصيغة التى وضعها الفقيه الصفوى الكبير دعما كبيرا لسلطة الفقهاء ، فلم يقدم الفقهاء تنازلا عن نظرية رفض كل حكم فى غيبة الإمام عبثا ، بل وضعوا من الشروط ما يخرج أى سلطان من إطار « السلطان العادل » و « التأسى بأقوال الإمام وأفعاله » ولم يخرج الأمر على بدايات العصر الصفوى على وضع إطار تحالف بين الفقهاء والسلطة سرعان ما انقض بعد الانحرافات المتتالية من السلطة بحيث عاد الأمر إلى ما كان عليه ، بحيث صرح فقيه كبير هو آية الله النائينى فى آخر العصر القاجارى بأن السلطان العادل أندر من الكبريت الأحمر وحديث خرافة كالعنقاء(٣٦) وهكذا نجت « المشيخة » فى إيران من مصير « المشيخة » العثمانية التى كانت بناء سلطويا يعتمد فى قوته وضعفه على مدى قوة السلطة وضعفها ، وكان له وجود فى الجيش فانفرط عقده بهزيمة الجيش وضعف السلطة . إلا أن الحصيلة النهائية للعصر الصفوى كانت انقسام علماء الشيعة إلى اتجاهين رئيسيين : اتجاه الاخباريين أو أولئك الذين يتوقفون عند الأخبار ، أى ما أثر عن الأئمة من قول أو فعل دون نظر إلى المستحدثات ، ويرجع تأسيسها إلى القرن السابع عشر الميلادى « الحادى عشر

الهجرى » على يد الشيخ محمد أمين الاسترابادى ، وقد أثر عن هذه المدرسة رفضها لمبدأ « التقليد » وهو المبدأ الذى كان ذا أثر فعال — كما سنرى — على فعاليات المدرسة الأخرى وهى الأصولية [٣٧] أو مدرسة المجتهدين الذين كانوا يجتهدون فى تطبيق أصول المذهب على مقتضيات العصر وما يطرحه الزمان .

وهناك عوامل سياسية ساعدت على أن تكون الغلبة لتيار الأصوليين لعل من أهمها غزو الأفغان من أهل السنة لإيران بقيادة نادر شاه أفشار فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى وتحطيمه للعرش الصفوى ، وتعرض المذهب بعد قرنين من السيادة للذوبان فى البحر السنى من ناحية ، كما طولب بالتخلى عن فكرة المهدية ، ومن ناحية أخرى اتجه نادر شاه إلى تحويله إلى مذهب فقهى صرف كمذهب خامس لأهل السنة ، وذلك بعد تطهيره بالطبع من كثير مما لحق به من شوائب اعتبرها من « ترهات العوام » لعل من أهمها سب الخلفاء على المنابر ، وزاد نادر شاه بأن طلب من العثمانيين الاعتراف بالمذهب فى صورته الجديدة كمذهب خامس وبأن جعل للشيعة ركنا خامسا ، لكن بعض علماء الشيعة لم يعترفوا بهذا التفسير « المبتدع » للتشيع ، وكان الصدام مع السلطة حيث أعدم أحد رجال الدين الكبار وهو ميرزا عبدالحسين وصودرت أوقاف أصفهان ، وزاد الطين بلة أن العثمانيين لم يوافقوا على تفسير نادر شاه للتشيع وانتهى الأمر بمقتل نادر شاه سنة ١١٦٠ هـ [٣٨] ، وكان من جراء هذه المحنة أن هاجر جمع من الأصوليين ومشايخهم إلى خارج إيران حيث مراكز التشيع فى النجف وكربلاء وسامرا .

ورغم الاتجاه التقليدى والمحافظ للاخباريين فقد خدموا الاتجاه الآخر بأن قدموا له كما هائلا من الأخبار والمأثورات عن الأئمة كان عونا لهم فى مطابقة ما يجتهدون فيه على النصوص ، وظلت الكفتان متساويتين على وجه التقريب بين المدرستين حتى منتصف القرن التاسع عشر وبداية الاتصال الإيرانى بالغرب ، فإذا بالفقهاء يواجهون كثيرا من المسائل المستحدثة « التى نتجت من هذا الدق المتواصل للغرب على أبواب إيران الغارقة فى طابعها النظرى الخاص ، فالانتصار الروسى الساحق على الجيوش الإيرانية لم يقتصر أثره على الجناح العسكرى فحسب ، كما ظهرت على الساحة المساعى المجهضة لكبار التحديثيين الفرس من أمثال تقى خان أمير كبير وميرزا حسن مشير الدولة المعروف بسبهسالار ، والبعثات والطباعة ودخول

المفاهيم الغربية وما إلى ذلك مما خبرته كل المجتمعات الإسلامية آنذاك وابتليت به ، كان الفقهاء إذن فى مفترق طريقين : إما أن يطأطئوا رءوسهم أمام هذه الأفكار البراقة عن الحرية والعدالة الاجتماعية والمدنية والحضارة التى جاء بها « رواد الطريق الغربى » و« أدلاء الظلمة » الذين فرغوا من الداخل وأصبحوا من « بيغاوات الفكر » ، وإما أن يتحدوا ويثبتوا أيضا أن الإسلام طرح هذه الأفكار والقضايا وأنه عرف كل هذه الأمور وإن لم يتحدث عنها بمصطلحها الغربى ، وأن الاجتهاد قادر على إثبات ذلك ، وكان الحل الثانى مما جعل « دعاة الوقوف عند النصوص » من الإخباريين ينسحبون تماما من الساحة ، وينفرد الأصوليون لتتبلور مفاهيم الاجتهاد والتقليد أو المرجعية ولتظهر « الحوزة » كمؤسسة على يد فقيه مجتهد ذى باع واسع فى الفقة هو مرتضى الأنصارى ، ليلتقط بعض شذرات عن هذه المفاهيم من فقيه سابق هو آقا محمد باقر بهبهانى « ١٧٠٥ ــ ١٧٩١ م » والذى يعتبره « الجر » أول من وضع حدودا لهذه المصطلحات[٣٩] بينما يعود التأصيل فى بعض الدراسات المعاصرة إلى العلامة حسن الحلى من فقهاء القرن الثامن الهجرى .[٤٠]

وكان لتبلور مفهوم « التقليد » بالذات أثر بارز فى سلطة مرجع التقليد ، كما كان نموذجا بارزا لتأثير القوى الدنيوية فى الأمور الدينية[٤١] ، فقد جعل من « مرجعية التقليد » قوة سياسية واجتماعية واقتصادية ذات حضور ملموس ، كما وحد رجال الدين فى صورة مؤسسة ، وربما ساعد على هذا الاتجاه ظهور مذهب الشيخية ، وكان مما نادى به أنه إلى ظهور المهدى يظل الانسان فى حاجة إلى إعمال فكره هو ، وأنه فى كل فترة من الزمان وبناء على المستحدثات والتحديات الجديدة من الضرورى أن يظهر فى الناس « إمام منهم » يحررهم من الطغيان والظلم ، ومن ثم فإن العدالة تقام فى الدنيا على أيدى الناس وزعمائهم الذين يظهرون من بين الفلاحين والمهنة والفقهاء[٤٢] .

وكان ظهور هذا التيار الذى وجد قبولا لدى الناس الذين ضاقوا بتحمل الظلم والطغيان حتى ظهور الإمام الغائب ، وكان هذا عاملا فعالا ومؤثرا فى مبادرة رجال الدين من الأصوليين إلى الأخذ بزمام الأمور ، فإذا كان لابد من قيام سلطة فى غيبة الإمام فلتكن فى أيدى المرجعية ، ولتقد المرجعية المجتمع ، ومن هنا ظهرت فكرة مرجع التقليد المطلق ، أى المرجع العام الذى يرأس كافة المراجع ، واعتبار

واحد من الفقهاء مرجعا واجب الطاعة بالنسبة للمراجع والناس على السواء .

واعتمد هذا التجميع للمرجعية على مبدأ آخر معروف لدى الشيعة والسنة على السواء وهو مبدأ « الاجماع » الذى طرح نفسه فيما بعد إبان الثورة الدستورية ، وبينما يقصد بالإجماع عند السنة إجماع الفقهاء الكبار من أهل السلف على حكم ما فى قضية ما ، ينظر الإجماع الشيعى إلى الحاضر لا إلى الماضى ، إذ إن المقصود منه إجماع المجتهدين أو الفقهاء الأحياء[٤٣] .

وكان محمد وحيد البهبهانى قد عمق أصول الاجتهاد والمرجعية من ناحية كما قضى على الاخباريين تماما ، وآتت جهوده أكلها بأن صار محمد حسن النجفى « ١٧٨٨ ــ ١٨٥٠ » مؤلف جواهر الكلام أول مرجع أعظم أو مرجع عام ، وإلى مرتضى الأنصارى « ١٨٠٠ ــ ١٨٦٤ م » يرجع الجهد الأكبر فى التكثيف الفعلى للمؤسسة الدينية « الحوزة » فكريا وتنظيميا إذ كان مرتضى الأنصارى يتميز منذ شبابه المبكر بعقلية تنظيمية متفتحة ، وخلال رحلة قام بها إلى مشهد الإمام الرضا فى خراسان سنة ١٨٢٥ توقف فى معظم المدن الإيرانية والتقى بكبار فقهائها ، فتوقف فى بروجرد حيث التقى بحجة الإسلام أسد الله البروجردى ، ثم تحرك إلى أصفهان حيث قابل أبرز تلاميذ محمد باقر البهبهانى وهو سيد محمد باقر رشتى شيخ أصفهان ، كما توقف فى كاشان ، كما أقام ثمانية أشهر فى مشهد ، وعند عودته توقف فى طهران حيث شغل منصب إمام مسجد والدة الشاه لمدة ست سنوات ، ثم عاد إلى دزفول حيث رأس المؤسسة التعليمية لمدة عامين ، وفى سنة ١٨٣٣ عاد مرتضى الأنصارى إلى العراق حيث أقام فى النجف الأشرف ولحق بالمرجع الأول محمد حسن النجفى الذى كان قد اعترف به آنذاك مرجعا أعظم لا على شيعة إيران والعراق فحسب بل على شيعة الهند أيضا ، وجمع حوله كبار الفقهاء فى النجف ، وظل مرتضى الأنصارى مشغولا بأمور التدريس والتأليف حتى استدعاه المرجع الأعظم وأصر عليه أن يكون خليفته ، ولم يكن مرتضى الأنصارى أكبر الفقهاء سنا ، لكنه تميز بعلمه الغزير ، وعدت أعماله « المكاسب » و « الرسائل والفرائد » فصل الخطاب فى الفقه الشيعى الجعفرى المعاصر ، وفى البداية رفض الأنصارى العرض مقترحا اسم سعد العلماء المازندارانى وهو صديق قديم له ، إلا أن سعد العلماء اعتذر بأن الأنصارى أولى منه لأنه بينما كان مشغولا بأمور الناس كان الأنصارى يدرس

فى النجف ، ومن ثم استقر الأمر بأن تكون المرجعية لأكثر العلماء علما ، وكانت المرة الأولى والأخيرة التى يحدد فيها المرجع الأعظم خليفته ، ويفسر كاتب سيرة الأنصارى هذا الأمر بأن الشيخ النجفى كان يعلم أنه يضع الأساس لنظام جديد ، وكان يعلم من هو الجدير حقا بهذه المهمة ، ولم يكن الأمر يحتاج فى البداية إلى العلم فقط ، بل كان يحتاج أيضا إلى قدرة على التنظيم أبداها الشيخ الأنصارى منذ رحلته الطويلة فى مستهل الشباب ، وكانت ظروف ظهور الحركة البابية وتولى ناصر الدين شاه الحكم وهو شاب ضعيف سنة ١٨٤٤ م فى حاجة إلى قدرة كان الشيخ النجفى يعلم تماما أنها متوافرة لدى الشيخ الأنصارى ، وهكذا خلف الأنصارى النجفى « ١٨٤٦ » ليكون المرجع الأعظم الثانى ، وفى رأى أنه يعتبر فى الحقيقة المرجع الأول للحوزة العلمية بصورتها الحالية .

وأفتى الإمام الأنصارى بأن يوجه « سهم الإمام » فى الزكاة وهو الخمس إلى إنشاء مراكز علمية محلية تتبع المركز الرئيسى فى النجف ، ولكى يضمن نفوذا شاملا عبر هذه المراكز اهتم بتأصيل مفهوم التقليد أو العلاقة بين الناس والمجتهد ، ولكى يسلب بنجاح أية سلطة لمؤسسة أخرى غير المؤسسة الدينية ، ولهذا الغرض وضع كتابه الفقهى التنظيمى « صراط النجاة » ، ويتكون فصل التقليد فى الكتاب من أربع وأربعين مسألة على طريقة السؤال والجواب غطى فيها كل ما يمكن أن يعن للمؤمن العادى من استفسارات حول هذا الموضوع .

ومن أهم ما احتوى عليه الكتاب النص بأنه على المؤمن أن يرجع إلى المجتهد لا فى الأمور الدينية التى تعن له فحسب ، بل عليه أيضا أن يستفتيه فى كل ما يعن له من أمور الحياة . ويضع الأنصارى شرطا ذا طابع اجتماعى وهو أنه يجب أن يكون المجتهد حيا يرزق وأن يكون الاستفتاء مباشرا ، وإن لم يتوافر المجتهد العالم فعلى المقلد أن يستفتى من يجده حتى ولو كان أقل علما ، أو أن يقوم بتقليد جماعة من المجتهدين إلى أن يجد من هو أكثر علما فينتقل إليه على الفور ، وإذا كان هناك مجتهدان متساويان فى العلم فعلى المقلد أن يتبع أكثرهما زهدا وتقوى ، وإذا اتفقا فى كل شىء فعليه أن يقلدهما معا ، وتقليد المرجع فرض عين لا يسقط عن المؤمن ولا يصح له تعبد بدونه ، وهناك شروط لاتباع الأقل علما منها على سبيل المثال أن يكون المرجع متفقا فى الأصول مع مرجع مشهود له بالعلم ، ويكون المقلد نفسه عالما بأصول الشريعة .

وهناك طرق لتلقى الفتوى : فإما أن يسمعها من المجتهد مباشرة أو من شخص عدول على الأقل سمعها بأذنيه أو من كتاب للمجتهد ، بشرط أن يطمئن إلى أن الكتاب خال من الأخطاء ، ويا حبذا لو راجع ما ورد فيه على أحد ممن تيسر لهم الاستماع إلى المرجع مباشرة . وإذا مات المرجع أو فعل ما يسقطه من مقام المرجعية كأن يجن أو يرتكب كبيرة ، وإذا ما غير رأيه فى إحدى المسائل واستمر المقلد يقلده دون أن يدرى تكون أعماله شرعية ، ولكنه إن درى فعليه أن ينقل تقليده إلى مرجع آخر ، وللمجتهد الجديد أن يبيح فتاوى المجتهد السابق .

وبالرغم من هذه السيطرة فإن مرتضى الأنصارى لم يضعها موضع التنفيذ فى الحقل السياسى ، وإن كان بعض أتباعه يعتبرونه خليفة لهم ويتوجهون إليه بهذا اللقب ، لكن هذا النظام الذى وضعه للمؤسسة وذلك الربط بين العلماء والجماهير على أساس دينى له أصوله بالطبع من الفقه الشيعى ، كان له أثره البالغ فى مرحلة المرجع الأعظم الذى خلفه بعد وفاته سنة ١٨٦٤ وهو محمد بن الحسن الشيرازى المرجع السياسى الأول فى الحوزة ، والذى سيأتى دور الحديث عنه عند حديثنا عن مقدمات الثورة الدستورية فى الفصل التالى .(٤٤)



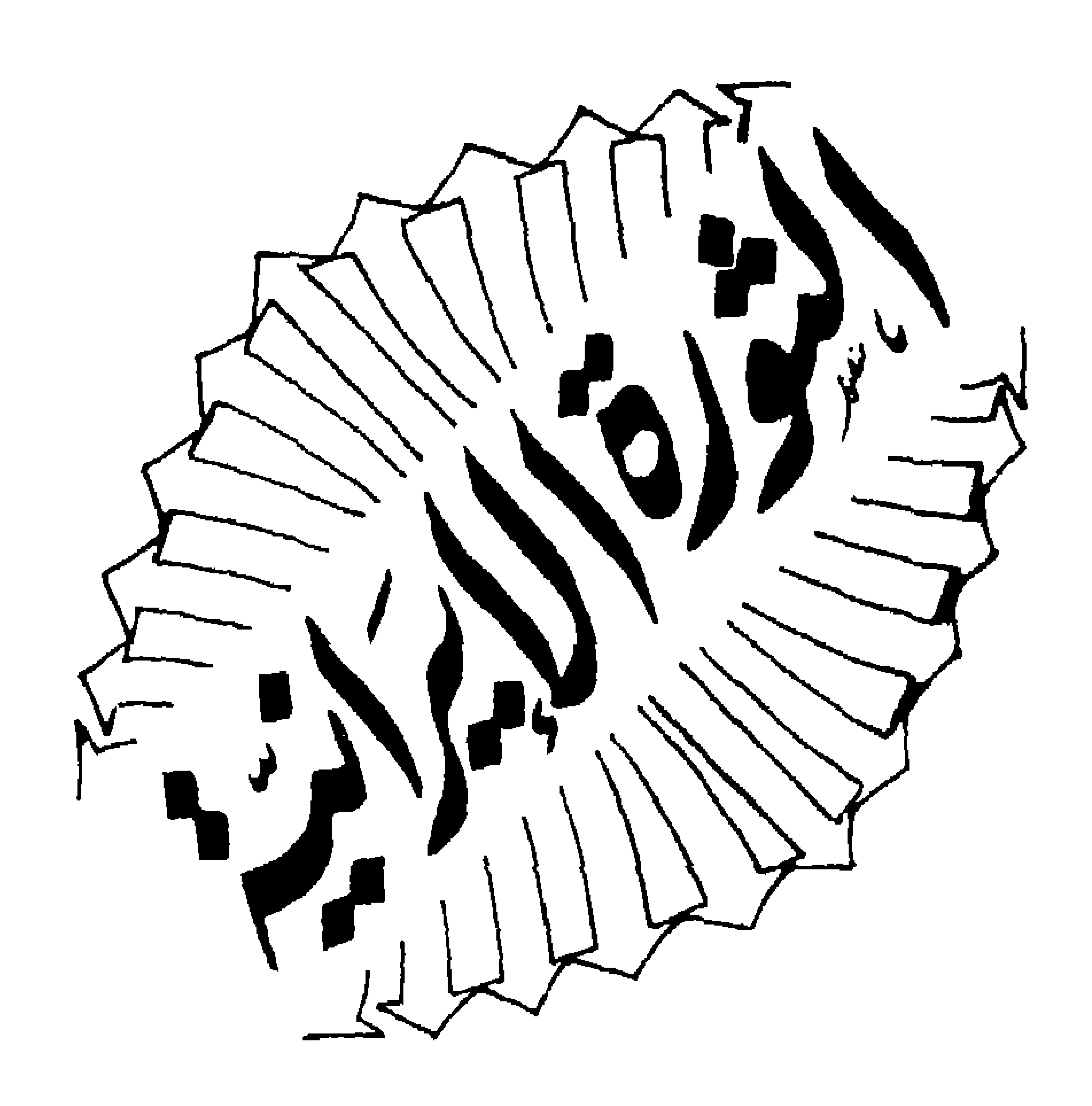
الباب الثانى

الجذور التاريخية

الإسلاميون يغرسون والآخرون يحصدون

« لم تمر أكثر من خمسين أو ستين سنة على الثورة الدستورية فى إيران ..وخمسون أو ستون سنة لا شىء يذكر فى عمر الوطن .. ومن ثم فحركة التحرير جديدة تماماً »

مهدى بازرجان





الفصل الأول

حركة الطباق

كانت « الحركة البابية » هى آخر الحركات المذهبية فى تاريخ إيران ، وقد ادعى سيد على محمد الشيرازى الملقب بـ « الباب » أنه الباب الذى يعرف منه المؤمنون الإمام الغائب ، ثم ادعى أنه هو الإمام الغائب ، وكان أن سجن ، وازدادت الحركة بسجنه انتشاراً ، كما أدت إلى مواجهات بين السلطة وأتباعه . أعدم سيد محمد على (١٨٤٦) لكن تعاليمه بقيت فى فرقتين : الأزلية نسبة إلى صبح الأزل ، والبهائية — التى احتضن اليهود تعليمها وكان نفوذها فى الدولة ذا أثر عظيم فى الأحداث الأخيرة — نسبة إلى ميرزا حسنعلى بهاء الله .

كانت الحركة البابية ذات أثر كبير فى تفجير الأحداث ضد الحكم القاجارى الذى لم يستطع بعد قرنين من الزمان توحيد إيران تحت سلطته ، أو الوقوف فى وجه القبائل ، وكانت اشتباكاته المستمرة مع روسيا القيصرية سبباً فى ضياع القفقاز كلها وجزء من آذربيجان من يد إيران ، ثم سيطرة المستشارين الروس على البلاط الإيرانى نفسه ، وكانت الدموية التى تطبعت بها الحركة البابية سبباً فى مطاردة الدولة لأتباعها ، ثم اتخذت ذلك الأمر ذريعة لمطاردة كل أصحاب التفكير الحر ، فهاجر معظمهم إلى القفقاز ، واستانبول ، وأوروبا ، ومن هناك بدأت حركة منظمة ضد الحكم القاجارى . ويعتبر هؤلاء الشيوخ من أصحاب العمائم والألقاب الدينية الركيزة الأولى لحركة التحرر الإيرانى فى العصر الحديث ، ونستطيع أن نلمح فى أعمالهم تشابها عجيبا بين محركات الثورات الأولى فى إيران المعاصرة ، وبين محركات الثورة الأخيرة : الاستبداد الشاهنشاهى والفساد الداخلى والسيطرة الأجنبية . ومن ثم فإن أعمال عبدالرحيم طالبوف (م ١٩١٠) وزين العابدين المراغى (م ١٩١٠)

وأحمد روحى الكرمانى وميرزا آقاخان الكرمانى (أعدما معاً بعد عبورهما الحدود من تركيا فى تبريز ١٨٩٦ م) تقدم لنا صورة قاتمة جداً لحكم ناصر الدين شاه القاجارى من ناحية ، وللسيطرة الأجنبية ذات النفوذ المتزايد على كل حد استغلالاً لرغبة الشاه فى الوصول بإيران إلى مستوى الحضارة الحديثة دون إعداد سابق ، معتمداً فى كل مشروعاته على عدد كبير جداً من الخبراء الروس والبلجيك والإنجليز ، وكان دخول بعض المناطق الإيرانية الشمالية تحت الحكم الروسى سبباً فى أن عدداً كبيراً من الإيرانيين كانوا يعيشون تحت الحكم الروسى القيصرى ، وفى نفس الوقت على صلة وثيقة بالثوار الروس على الحكم القيصرى . وكانت كتابات هؤلاء وصحفهم تهرب داخل إيران ، كما كانت تقرأ باللغة التركية لأنها لغتها الأصلية فى تبريز (ملتقى الثورات والحركات التحررية فى روسيا وتركيا وإيران) ، وكانت صحف المنفيين من أمثال « اختر » و « قانون » من لندن و « الحبل المتين » من كلكتا ، ثم « ثريا » و « برورش » اللتان كانتا تصدران من القاهرة أكثر حرية فى التعبير عن مفاسد الحكم فى إيران ، وسرعان ما كانت هذه الصحف تجد سبيلها إلى إيران كمنشورات سرية . ومن ثم فإن بداية التحرك الحقيقى ضد الحكم القاجارى بدأت من الخارج ، وسرعان ما كانت تصل إلى إيران فتصادف تأييداً كبيراً من طائفتين : رجال الدين وبعض الأفراد المستنيرين الذين تعلموا فى أوروبا .

كانت الاتفاقيات التى تلت الهزائم المرة من الروس ومن أهمها اتفاقيات كلستان سنة ١٨١٥ وتركمانجاى سنة ١٨٢٨ وباريس ١٨٥٧ ، قد نصت على امتيازات للأجانب وبنود لحماية الأقليات ومعاملة خاصة للروس داخل إيران ، ومع أن امتيازات الروس اعتبرت حقا للمنتصر فإن دائرة الامتيازات قد توسعت لتشمل الأسبان والفرنسيين والأمريكان والنمسويين والبلجيك والمجريين والايطاليين والألمان والانجليز بل والعثمانيين ، وبالرغم من أن ناصر الدين شاه كان فى مجموعه حاكما إصلاحيا ، فإنه كان يفهم الإصلاح بنفس الطريقة التى كان يفهمه بها معاصراه فى مصر : إسماعيل ومن بعده توفيق ، وكان من نتيجة هذا « الانفتاح » – دون الاعتماد على الشعب ودون إعطاء الأولويات لما يمكن أن يعود نفعه على مجموع الأمة – تقاطر المغامرين من الأجانب والمتظاهرين بالخبرة على إيران[٤٥] ، وبدا أن الأمر لايعدو كونه سباقا بين الدول الأوروبية لتنال نصيبها من هذه الغنيمة الباردة ، ومن ثم توالت

الامتيازات للدول الأجنبية و « بعدالة تامة » ، فبينما كان الروس يسيطرون على البلاط تماماً ، كان البلجكيون يسيطرون على الشئون المالية ، وكان للانجليز وجود فعلى عن طريق شركاتهم فى الجنوب ولم تكن هناك دولة أوربية واحدة لاتشرف على واحد من المشروعات الصورية العديدة فى إيران ، وبينما كان الروس مشغولين بهضم المنطقة الشاسعة التى استولوا عليها فى الشمال استعداداً لجولة قادمة يضمون بها آذربيجان كلها ، كان الانجليز يوسعون قواعد نفوذهم فى الجنوب ، ومن ثم ظهر فى الأفق ما يسمى بالسباق الروسى الانجليزى للاستيلاء على إيران ، ويطول بنا المقام إذا عددنا مظاهر الصراع بين الدولتين حول هذا الهدف ، وكان الأمر يبين أن تاريخ إيران المعاصر ليس إلا سلسلة من الصراعات حول الاستيلاء عليها من الخارج ، ولعل هذا يفسر لنا ذلك الشعور العميق من كراهية الأجانب الذى يبدو فى أقوال آية الله الخمينى ، فالصراع بين الأجانب حول النفوذ فى إيران يعد ملمحا من الملامح البارزة جدا منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا .

لقد نالت كل هذه الدول حق الامتياز لمشروع أو أكثر ، كما أتاحت الاتفاقيات المذكورة لبريطانيا وروسيا فتح وكالات تجارية فى كل أنحاء إيران ، كما أعفى التجار التابعون لهما من القوانين المحلية والجمارك ورسوم الطرق ، وأغرق هذا الاستسلام إيران ببضائع الثورة الصناعية والانتاج المكثف ، وحوّل إلحاق الاقتصاد الإيرانى بالاقتصاد العالمى إيران إلى دولة مستهلكة وأصابها بضربة قاصمة وقتل كل الصناعات المحلية فيها ، كما أدى هذا التأثير الغربى ، إلى ارتفاع حاد فى أسعار السلع الأساسية وسبب انحدارا مخيفا فى قيمة العملة الإيرانية ، وكانت معظم إصلاحات ناصر الدين شاه موجهة لخدمة الغرب ، وكان همها كله تحديث البلاط دون تحديث الدولة ، كما أحدث هزة عنيفة فى بنية المجتمع الإيرانى ، فقد قضى على الصانع والفلاح وتاجر السوق التقليدى ، وخلق طبقة من الوسطاء والسماسرة معادية لكل الطبقات الوطنية مصلحتها الأولى فى وجود المسيطر الأجنبى .[٤٦]

وكان لهذا كله أن يؤتى أكله فى حركة المقاومة ولكننا قبل أن نخوض فى هذا الموضوع علينا أن نذكر ملمحا بارزا من ملامح تلك الفترة ، وهو دفاع عدد كبير من المفكرين العلمانيين عن هذا الوضع ضمن دفاعهم عن « التحديث » و « التجديد » ، هادفين بالطبع إلى الوقوف فى وجه التيار الدينى الآخذ فى النمو ، وبينما

كان هؤلاء يتحدثون فى مجلاتهم عن « ضياع أموال المسلمين » وتزايد النفوذ الأجنبى ، كانوا يغوصون حتى آذانهم فى العمالة للأجنبى والتسبيح بحمده والعمليات المشبوهة ، والمثال الواضح لهذا التناقض بين القول والفعل يتجلى فى تلك الفجوة المشئومة بين أفكار المفكر « الإصلاحى » ملكم خان « ١٨٣٤ ــ ١٩٠٨ » وأعماله ، ولأنه رأس جسر المفكرين الأدلاء والحلقة الأولى من سلسلتهم والنمط الذى صنع بقيتهم على شاكلته فهو فى حاجة منا إلى إشارة خاصة :

هو من أرامنة جلفا ، كان والده حديث عهد بالإسلام ، عمل مترجما فى السفارة الروسية فى طهران ، وسافر ملكم خان إلى فرنسا فى العاشرة من عمره ، وظل فيها حتى أنهى تعليمه ، ثم عاد حيث عمل فى الجامعة المدنية الجديدة « دار الفنون » ، كما عمل مترجما فى بلاط ناصر الدين شاه ، ثم مترجما فى السفارة الروسية فى استانبول ، حيث عايش عصر علمنة الدولة العثمانية المسمى بعصر التنظيمات وبعد أن عاد منها قدم رسالة إلى الشاه تحت عنوان « الكتيب الغيبى أو دفتر التنظيمات » – لاحظ الاسم – تحتوى على بعض الأفكار الإصلاحية على النمط الغربى ، ثم كون محفلا ماسونيا يجمع من هم على شاكلته ، واكتشف المحفل كما اتهم بالعداء للشريعة المطهرة فحل ونفى ملكم خان . وتقدم تصرفاته فى منفاه طبيعته الحقيقية كمغامر ، وبعض الأمراض النمطية للمفكرين على الطراز الغربى من أمثاله ، فقد اتجه إلى استانبول حيث اشتغل فى وزارة الخارجية التركية ، وبعد قليل عين حسين خان مشير الدولة أحد أعضاء محفله سفيرا فى استانبول فعينه مستشاراً فى السفارة ، ثم أرسله إلى مصر قنصلا لإيران حيث التقى بالخديو إسماعيل وتلقى منه مكافأة على أفكاره العصرية ، ثم عاد إلى استانبول ليلقى عناية موصى بها من قبل الباشوات فؤاد وعالى وكامل أقطاب التنظيمات فى تركيا ، وحين عاد ميرزا حسين خان إلى إيران كرئيس للوزراء اصطحب معه ملكم خان كمستشار لرئاسة الوزراء بلقب « ناظم الملك » ، وبعدها مباشرة مَنح ملكم خان امتياز الكشف عن كل منابع الثروة فى إيران للبارون رويتر ، هذا الامتياز الذى وصفه لورد كرزون بأنه « أعجب امتياز فى التاريخ ، إذ بموجبه كانت دولة تسلم كل منابع ثروتها للأجانب » ، وسافر ملكم خان إلى انجلترا ليسلم بنفسه عقد الامتياز للبارون ، وبعدها مباشرة سافر ناصر الدين شاه فى رحلته الأولى إلى أوروبا وعين ملكم خان وزيرا مفوضا فى لندن وفيينا وبرلين ، وبعد وفاة حسين

خان وتولى مستوفى الممالك رئاسة الوزراء أراد عزل ملكم خان ، لكن الشاه لم يوافق خوفا من تنفيذ ملكم خان تهديده بإفشاء ما تحت يده من أسرار ، بل وزاد وعينه سفيرا فى انجلترا وألمانيا وهولندا مع منحه لقب « ناظم الدولة » ، وطالت إقامة ملكم خان فى لندن ، وفى رحلة ناصر الدين شاه الثالثة إلى أوروبا استطاع ملكم خان بتقديمه رشوة له أن يحصل على امتياز « اللوتريه » فى كل إيران ، وثار العلماء وأفتوا بتحريم اللوتريه وتكفير ملكم خان الذى كان قد ارتد علنا عن الإسلام أكثر من مرة ، وأرسل ناصر الدين شاه برقية بإلغاء الامتياز لكن ملكم خان أخفى البرقية وباع الامتياز لشركة انجليزية ، ولما افتضح عمله عزل من كل مناصبه ، فاستقر فى لندن وأصدر جريدته « قانون » (لاحظ الاسم) ولبس مسوحا إسلاميا ، وبهذه الجريدة اعتبر المغامر المرتد المبتز والسفير المتجول لجماعات التغريبيين والماسون ورائد الأدلاء وعمال الظلمة رأس المجددين وقائد النهضة فى إيران ولمع اسمه فى تاريخ الحركة الوطنية بينما توارت أسماء أخرى فى الظل ، ومع ذلك فبعد اغتيال ناصر الدين شاه ، التقى بخليفته مظفر الدين شاه فى معرض بباريس ، وعفا عنه الشاه الجديد وعينه سفيرا فى روما حتى هلك .(٤٧)

لكن التيار الدينى كان ينمو ويشتد ، وساعدت زيارة جمال الدين الأفغانى على ذلك ، فقد نقل فكره السياسى إلى الحوزة ، وطرح أسئلة جديدة كانت تلتقى مع ما يدور فى أذهان مشايخ الحوزة وهم يرون السيطرة الأجنبية تحكم قبضتها على إيران وحول أعناق الشعب الإيرانى واقتصاده ومنابع ثروته ، وكما فعل فى كل مكان حل به ، طرح الأفغانى فكرته عن الفرق الشاسع بين عالم يقف عند النصوص الدينية ويغوص فيها ، وذلك الذى يهتم باحتياجات الناس الروحية والمعيشية ، كان هدفه فى إيران أن يحرك المشايخ ضد الاستعمار وأن يحفزهم إلى العمل من أجل الاستقلال ، وأن يوحدهم للوقوف فى وجه السيطرة الأجنبية ، وأن يبين أن مقاومة المحتل والمسيطر الأجنبى واجب دينى جهادى تقع مسئوليته الأولى على كواهل هؤلاء المشايخ ، كما أن الحد من نفوذ السلطان الجائر واجب شرعى ، وكان الأفغانى على صلة وثيقة بكل الشخصيات الدينية الكبرى : حاجى ميرزا محمد بن الحسن الشيرازى ـــ وهو الذى ذكره الإمام الخمينى بأنه أثر فيه مباشرة ـــ وحاجى ميرزا حبيب الله رشتى ، وحاجى ميرزا أبو القاسم الكربلائى ، وحاجى ميرزا جواد

التبريزى ، وحاجى سيد على أكبر الشيرازى ، وحاجى شيخ هادى نجم آبادى ، وميرزا حسن الآشتيانى ، وحاجى شيخ محمد تقى الاصفهانى[٤٨] ، ومن ثم فإن جمال الدين الذى جاء إلى إيران بدعوة من ناصر الدين نفسه طرد من إيران بضغط من السفارة البريطانية ، ولم يكن ذلك بالطبع لاتصاله بمنافسى ناصر الدين شاه على العرش كما تذكر كل المصادر الأوروبية والشاهنشاهية ، وأرغم الشيخ الأفغانى على مغادرة طهران ، تلك المدينة التى فتنت به وببيانه واقتنعت تماما بوضع كل ما يقوله موضع التنفيذ . وتشير وثائق السفارة البريطانية إلى النفوذ المتزايد لأتباع سيد جمال الدين الذين تبنوا أفكاره بعد طرده ، وتذكر أنهم يحدثون تحولا فى الشارع الإيرانى وتنص على أن « الملات المتعصبين يعظون كل الناس ويبصرونهم بمخاطر وقوع المؤمن فى يد الكافر كما يتحدث العلماء عن مخاطر الامتيازات على تجار السوق الذين سيشترون ويبيعون طبقا للأسعار التى تضعها الشركة الأجنبية » [٤٩] وكان هذا البعد الجديد سببا فى تحالف ظل قائما بين تجار السوق والعلماء طيلة فترة الصراع ، وبات التجار مقتنعين بأن هؤلاء العلماء ليسوا معنيين بأمور أخراهم فحسب بل من المهتمين أيضا بأمور معاشهم .

وكانت هذه الحالة فى حاجة إلى شرارة تشعلها ، كانت الفرصة مواتية لأول مواجهة بين الشاه والشعب الإيرانى بقيادة العلماء فى العصر الحديث ، ففى ٨ مارس سنة ١٨٩٠ منح الشاه امتياز الطباق فى إيران لشركة بريطانية ، وبالرغم من أن هذا الامتياز كان مثل كافة الامتيازات التى أعطيت للأجانب قبل ذلك فإن المبلغ الضئيل الذى قدم للشاه مقابل هذا الامتياز وهو خمسة عشر ألف جنيه استرلينى فى رأى ، وأربعون ألفا فى رأى آخر والأسعار المرتفعة التى كان يباع بها الطباق، كانت سببا فى ضيق عام من الناس ، وكان رجال الدين فى ضيق شديد من السلطة وطردها المهين لسيد جمال الدين والنظام البوليسى الرهيب الذى فرضه الشاه على الأسواق ، كما كانت جماعات الفتوة قد تشربت بعض الاتجاه إلى مقاومة سرية ، وزاد من ضيق الناس السلوك الشخصى للمستشارين الأجانب واستهانتهم بتقاليد الشعب الإيرانى ، ونُفِىَ المجتهد حاجى سيد أكبر الشيرازى أحد رجال الدين الكبار بدسيسة من الأجانب [٥٠] ، كما نفى السيد حسن الآشتيانى وسَبَّبَ ذلك النفى هياجا شديدا فى طهران ، ولم تكن الخسارة المادية الرهيبة التى تعرض لها سوق

الطباق فى إيران هى السبب الوحيد فقد أقدمت الشركة البريطانية على عدة تصرفات مريبة لا علاقة لها بامتيازها ، فحولت مركزها فى شارع الفردوسى (علاء الدولة آنذاك) إلى قلعة حصينة واستأجرت الحرس وسلحتهم ، وتأكدت شكوك الناس بعد أن حلت الشركة ، فقد كانت كل الصناديق التى وردت إليها من الخارج محملة بالعتاد والذخيرة وفوق ذلك استقدمت الشركة مائة ألف انجليزى ، بدأ الموظفون - اسميا بمجرد أن وطئت أقدامهم أرض إيران بالترويج للمسيحية فى إيران والأقاليم ، وكان من الواضح أن الشركة تترسم خطى شركة الهند الشرقية قبيل احتلال الهند [٥١] .

وما أن انتشرت أخبار الامتياز الجديد وظهر وجه الشركة التبشيرى الكئيب حتى هاج الناس ، وفى شيراز مركز الطباق الإيرانى أغلقت الحوانيت ، واجتمع الناس فى المسجد الجامع وأكد العلماء على لزوم الجد فى مقاومة الشركة وقامت الحكومة بنفى سيد على أكبر فال اسيرى روحانى وهو أحد العلماء وكان قائدا للاجتماعات ، وفى تبريز أغلق الناس أبواب المدينة فى وجوه ممثلى الشركة وكانوا بقيادة جواد آقا المجتهد التبريزى وأعلنوا أن الامتياز مخالف للإسلام ، وتراجع الشاه وأغلق مقر الشركة فى آذربيجان ، وفى أصفهان حيث يوجد مركز علمى اشتد السيد نجفى فى مقاومته ، وفى مواجهة اعتراض كتابى كتبه أهل أصفهان وأرسلوه على يد إمام الجمعة فى أصفهان أجاب أمين السلطان بأن أولئك الذين كتبوا هذا الخطاب يستحقون الشنق ولكن السلطة سوف تعفو عنهم هذه المرة شريطة أن يقلعوا عن هذه الوقاحة والتدخل فى أمور الدولة ، وأصدر السيد نجفى فتوى بتحريم بيع الطباق وشرائه واستخدامه ، وخاف ظل السلطان ابن الشاه وحاكم أصفهان فراسل والده الذى رد علية بأن يهدأ فهو فى سبيله لجعل العلماء يصدرون حكما بالإباحة ، وفى مشهد هدد الوالى الناس إن لم يمكنوا الشركة من أعمالها ، فهرع التجار إلى العلماء مستنجدين بأن هذا الامتياز سوف يصيبهم بالافلاس ، وفى طهران اندلعت المظاهرات واعتقل جمع من الناس كان من بينهم رضا الكرمانى الذى ألقى به فى سجن قزوين أربع سنوات ونصفا بَيَّت خلالها النية لاغتيال ناصر الدين شاه .[٥٢]

لكن إيران كلها كانت تنتظر رد فعل المرجع العام للتقليد وشيخ المشيخة محمد ابن الحسن الشيرازى الذى خلف مرتضى الأنصارى ، وتقاطر المشايخ على سامرا

وهنا تبدو أهمية الرئاسة الشاملة للمشيخة ، كما تظهر ملامح الصراع بين الدولة والحوزة ، وفى نفس الوقت أرسل جمال الدين الأفغانى رسالة مطولة لمحمد بن الحسن الشيرازى ، وبالرغم من عدم ميلى الواضح للتطويل ، فإننى لا أجد نفسى بمستطيع إلا أنقل هذا الخطاب هنا على طوله نموذجا لحسن الأدب فى الخطاب من زعيم سنى إلى مرجع مراجع الشيعة ، وبيانا بأنه حين تكون القضية المعروضة هى مصالح المسلمين وأرزاقهم فلا محل لإثارة النعرات المذهبية ، وتعريفا بأنه فى منعطفات التاريخ وحين يهدد الإسلام فكل المسلمين مسئولون أمام الله ، وإلا كانوا جميعا ـــ بصرف النظر عن مذاهبهم واتجاهاتهم ـــ شركاء فى الإثم ، وعَلَّ أولئك الذين لم يبلغوا موطىء القدم من السيد جمال الدين الأفغانى علما وجهادا وصبرا فى الميدان ويحملون الآن لواء معركة « الشيعة والسنة » يقرءون هذا الخطاب فيقلعون عما هم فيه من الغى ، ويصمتون ـــ على الأقل ـــ إن لم يتمكنوا من التلفظ بكلمة الحق :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حقا ما أقول إن هذا الكتاب خطابٌ إلى روح الشريعة المحمدية أينما وجدت وحيثما حلت ، وضراعةٌ تعرضها الأمة إلى نفوس زاكية تحققت بها ، وقامت بواجب شئونها كيفما نشأت وفى أى قطر نبتت ، ألا وهم العلماء فأحببت عرضه على الكل وإن كان عنوانه خاصاً ، حبر الأمة بارقة أنوار الأئمة ، دعامة عرش الدين ، واللسان الناطق عن الشرع المبين ، جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازى صان الله به حوزة الإسلام ورد كيد الزنادقة اللئام ، لقد خصك الله بالنيابة العظمى عن الحجة الكبرى واختارك من العصابة الحقة وجعل بيدك أزمة سياسة الأمة بالشريعة الغراء ، وحراسة حقوقها بها ، وصيانة قلوبها عن الزيغ والارتياب فيها ، وأحال إليك من بنى الأنام ـــ وأنت وارث الأنبياء ـــ مهام أمور تسعد بها الملة فى دارها الدنيا وتحظى بالعقبى ، ووضع لك أريكة الرياسة العامة على الأفئدة والنهى ، إقامة لدعامة العدل وإنارة لمحجة الهدى ، وكتب عليك بما أولاك من السيادة على خلقه حفظ الحوزة والذود عنها والشهادة دونها على سنن من مضى ، وأن الأمة قاصيها ودانيها وحاضرها وباديها ووضيعها وعاليها .. قد أذعنت لك بهذه الرياسة السامية الربانية جاثية على الركب خارَّة على الأذقان ، تطمح نفوسها إليك فى كل حادثة تعروها ، وتظل بصائرها عليك فى كل مصيبة تمسها ، وهى ترى أن خيرها وسعدها منك وأن فوزها ونجاتها بك ، وأن أمنها وأمانيها فيك ، فإذا لمح منك

غض الطرف أو نأت بجانبك لحظة وأمهلتها وشأنها لمحةً ، ارتجفت أفئدتها واختلت مشاعرها وانتكثت عقائدها وانهدمت دعائم إيمانها ، نعم : لابرهان للعامة فيما دانوا إلا استقامة الخاصة فيما أمروا ، فإن وهن هؤلاء فى فريضة أو قعد بهم الضعف عن إماطة منكر لاعتور هؤلاء الظنون والأوهام ونكص على عقبيه مارقا عن الدين القويم ، حائدا عن الصراط المستقيم .. (لننظر كيف فهم جمال الدين الأفغانى مهمة المشيخة لا فى إيران فحسب بل فى أى قطر إسلامى ، ولننظر أيضا كيف قصرت قاماتهم عنها واتسعت أثوابهم عليها فأخذوا يتبارون فى الجهل مع الجهلة) يواصل جمال الدين :

وبعد هذا وذاك أقول بأن الأمة الإيرانية بما دهمها من عراقيل الحوادث التى آذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين ، وتطاول الأجانب على حقوق المسلمين ، ووجوم الحجة — الحق إياك أعنى — عن القيام بناصرها وهو حامل الأمانة ، والمسئول عنها يوم القيامة ، قد طارت نفوسها شعاعا ، وطاشت عقولها ، وتاهت أفكارها ووقفت موقف الحيرة وهى بين إنكار وإذعان وجحود وإيقان لا تهتدى سبيلا ، هامت فى بيداء الهواجس فى عتمة الوساوس ضالة عن رشدها لاتجد عنه دليلا ، وأخذ القنوط بمجامع قلوبها وسد دونها أبواب رجائها ، وكادت تختار — يأسا — منها الضلال على الهدى ، وتعرض عن محجة الحق وتتبع الهوى ، وأن آحاد الأمة لا يزالون يتساءلون شاخصة أبصارهم عن أسباب قضت على حجة الإسلام — إياك أعنى — بالسبات والسكوت ، وحتم عليه أن يطوى الكشح عن إقامة الدين على أساطينه ، واضطره إلى ترك الشريعة وأهلها إلى أيدى زنادقة يلعبون بها كيفما يريدون ، ويحكمون فيها بما يشاءون ، حتى أن جماعة من الضعفاء زعموا أن قد كذبوا وظنوا فى الحجة ظن السوء ، وحسبوا الأمر أحبولة الحاذق وأسطورة المدق ، وذلك لأنها ترى — وهو الواقع — أن لك الكلمة الجامعة والحجة الساطعة ، وأن أمرك فى الكل نافذ ، وليس لحكمك فى الأمة منابذ ، وأنك — لو أردت — تجمع آحاد الأمة بكلمة منك — وهى كلمة تنبثق من كيان الحق إلى صدور أهله — فترهب بها عدو الله وعدوهم ، وتكف عنها شر الزنادقة ، وتزيح ما حاق بها من العنت والشقاء وتنشلهم من ضنك العيش إلى ما هو أرغد وأهنَى ، فيصير الدين بأهله منيعا حريزا والإسلام بحجته رفيع المقام عزيزا . هذا هو الحق أنك رأس العصابة

الحقة ، وأنك الروح السارى فى آحاد الأمة ، فلا يقوم لها قائم إلا بك ، ولا تجتمع كلمتهم إلا عليك ، لو قمت بالحق نهضوا جميعا ولهم الكلمة العلياء ، ولو قعدت تثبطوا وصارت كلمتهم هى السفلى ، ولربما كان هذا السير والدوران حيثما غض حبر الأمة طرفه عن شئونهم ، وتركهم حملا بلا راع ، وهمجا بلا راع ولا داع ، يقيم لهم عذرا فيما أرتابوا ، خصوصا لما رأوا حجة الإسلام قد ونى فيما أطبقت الأمة خاصتها وعامتها على وجوبه وأجمعت على حظر الأيقاء فيه خشية لغوبة ، ألا وهو حفظ حوزة الإسلام الذى به بعد الصيت وحسن الذكر والشرف الدائم والسعادة التامة ، ومن يكون أليق بهذه وأحرى بها ممن اصطفاه الله فى القرن الرابع عشر وجعله برهانا لدينه وحجة على البشر .

أيها الحبر الأعظم ، إن الملك قد وهنت سريرته فساءت مسيرته ، وضعفت مشاعره فقبحت سريرته ، وعجز عن سياسة البلاد وإدارة مصالح العباد ، فجعل زمام الأمور كُليِّها وجزئيها بيد زنديق أثيم غشوم ثم بعد ذلك زنيم .. يسب الأنبياء فى المحاضر جهرا ، ولا يذعن لشريعة الله أمرا ، ولا يرى لرؤساء الدين وقرا ، يشتم العلماء ، ويقذف الأتقياء ، ويهين السادة الكرام ، ويعامل الوعاظ معاملة اللئام ، وأنه بعد رجوعه من البلاد الأفرنجية قد خلع العذار وتجاهر بشرب العقار وموالاة الكفار ومعاداة الأبرار ، هذه هى أفعاله الخاصة فى نفسه ، ثم إنه باع الجزء الأعظم من البلاد الإيرانية ومنافعها لأعداء الدين : المعادن والسبل الموصلة إليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ، والخانات التى تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التى تتشعب إلى أرجاء المملكة وما يحيط بها من البساتين والحقول ونهر الكارون والفنادق التى تنشأ على ضفتيه إلى المنبع وما يستتبعها من الخبائن والمروج والجادة من الأهواز إلى طهران وما على أطرافها من العمارات والفنادق والبساتين والحقول .. والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين أنى وجد وحيث نبت ، وحكر العنب للخمور وما تستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع فى جميع أقطار البلاد ، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل ، والبنك وما أدراك ما البنك ؟ وهو إعطاء زمام الأهالى كلية بيد عدو الإسلام واسترقاقه لهم واستملاكه إياهم وتسليمهم له بالرياسة والسلطان ، ثم إن الخائن البليد أراد أن يرضى العامة بواهى برهانه فحبق « أى ضرط » قائلا : إن هذه معاهدات

زمانية ومقاولات وقتية لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة ، يا الله ما هذا البرهان الذى سوله خرق الخائنين ؟ وعرض الجزء الباق على الدولة الروسية حقا لسكوتها (لو سكتت) : مرداب رشت ونهر الطبرستان والجادة من أنزلى إلى خراسان وما يتعلق بها من الدور والفنادق والحقول ، ولكن الدولة الروسية شمخت بأنفها وأعرضت عن قبول تلك الهدية ، وهى عازمة على استملاك خراسان والاستيلاء على آذربيجان وما زنداران إن لم تنحل هذه المعاهدات و لم تنفسخ هذه المقاولات القاضية إلى تسليم المملكة تماما بيد ذاك العدو الألد .. هذه هى النتيحة الأولى لسياسة هذا الأخرق .

وبالجملة فإن هذا المجرم قد عرض إقطاع البلاد الإيرانية على الدول بيع المزاد ، وأنه يبيع ممالك الإسلام ودور محمد وآله عليهم السلام للأجانب ، ولكنه لخسة طبعه ودناءة فطرته لا يبيعها إلا بقيمة زهيدة دراهم معدودة .. نعم هكذا يكون إذا امتزجت اللئامة والشره بالخيانة والسفه ..

وأنت أيها الحجة إن لم تقم بنصر هذه الأمة و لم تجمع كلمتها و لم تنزعها بقوة الشرع من يد هذا الأثيم لأصبحت حوزة الإسلام تحت سلطة الأجانب يحكمون فيها بما يشاءون ويفعلون ما يريدون ، وإذا فاتتك هذه الفرصة أيها الحبر ووقع الأمر وأنت حى لما ألفيت ذكرا جميلا بعدك فى صحيفة العالم وأوراق التاريخ وأنت تعلم أن علماء إيران كافة وعامة ينتظرون منك - وقد حرجت صدورهم وضاقت قلوبهم - كلمة واحدة ويرون سعادتهم ونجاتهم فيها .. ومن خصه الله بقوة كهذه كيف يسوغ له أن يفرط فيها ويتركها سدى ؟

ثم أقول للحجة قول خبير بصير : إن الدولة العثمانية تبجح بنهضتك على هذا الأمر وتساعدك عليه[٥٣] لأنها تعلم أن مداخلة الافرنج فى الأقطار الإيرانية والاستيلاء عليها تجلب الضرر إلى بلادها لا محالة وأن وزراء إيران وأمراءها كلهم يبتهجون بكلمة تنبس بها فى هذا الشأن لأنهم بأجمعهم يعافون هذه المستحدثات طبعا ، ويسخطون من هذه المقاولات جبلة ويجدون بنهضتك مجالا لإبطالها ، وفرصة لكف شر الشره الذى رضى بها وقضى عليها ، ثم إن العلماء وإن كان كلٌ قد صدع بالحق وجبه هذا الأخرق الخائن بسوء أعماله إلا أن ردعهم للزور وزجرهم عن الجناية ونهرهم للمجرمين ما قرت لسلسلة المعدات قرارا ، ولا جمعتها وحدة المقصد

فى زمان واحد ، وهؤلاء لتماثلهم فى مدارج العلوم وتشاكلهم فى الرياسة وتساويهم فى الرتب غالبا عند العامة لا ينجذب بعضهم إلى بعض ولا يصير أحد منهم لصقا للآخر ولا يقع بينهم تأثير الجذب وتأثر الانجذاب حتى تتحقق هيئة وحدانية وقوة جامعة يمكن بها دفع الشر وصيانة الحوزة ، كل يدور على محوره ، وكل يردع الزور وهو فى مركزه ، وهذا هو سبب الضعف عن المقاومة ، وهذا هو سبب قوة المنكر والبغى ، وأنت وحدك أيها الحجة بما أوتيت من الدرجة السامية والمنزلة الرفيعة علة فعالة فى نفوسهم وقوة جامعة لقلوبهم ، وبك تنضم القوى المتفرقة الشاردة ، وتلتئم القدر المتشتتة الشاذة ، وإن كلمة منك تأتى بوحدانية تامة يحق بها أن تدفع الشر المحدق بالبلاد وتحفظ حوزة الدين وتصون بيضة الإسلام ، فالكل منك وبك وإليك ، وأنت المسئول عن الكل عند الله وعند الناس ... ثم أقول إن العلماء والصلحاء فى دفاعهم فرادى عن الدين وحوزته ، قد قاسوا من ذلك العتل شدائد ما سبق منذ قرون لها مثيل ، وتحملوا صيانة لبلاد المسلمين من الضياع وحفظ حقوقهم عن التلف كل هوان وكل صغار وكل فضيحة ، ولا شك فى أن حبر الأمة قد سمع ما فعله أدلاء الكفر وأعوان الشرك بالعالم الفاضل الصالح الواعظ الحاج الملا فيض الله الدربندى ، وستسمع قريبا ما صنعه الجفاة الطغاة بالعالم المجتهد التقى البار الحاج السيد على أكبر الشيرازى وستحاط علما بما فعله بحماة الملة والأمة من قتل وضرب وكى وحبس ومن جملتهم الشاب الصالح محمد رضا الكرمانى الذى قتله ذلك المرتد فى الحبس (لاشك فى أنها شائعة بلغت السيد جمال الدين ، لأن الكرمانى هو قاتل ناصر الدين فيما بعد) والفاضل الكامل البار الحاج سياح والفاضل الأريب الميرزا فروغى والأديب النجيب الميرزا محمد عليخان والفاضل المتفنن اعتماد السلطنة وغيرهم ...

وأما قصتى وما فعله ذلك الكنود الظلوم معى ، فمما يفتت أكباد أهل الإيمان ويقطع قلوب الأيقان ، ويقضى بالدهشة على أهل الكفر وعباد الأوثان ، وإن ذلك اللئيم أمر بسحبى وأنا متحصن بحضرة عبدالعظيم فى شدة المرض على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور فوقها فى الشناعة وهذا كله بعد النهب والغارة ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم حملنى زبانيته الأوغاد وأنا مريض على برذون مسلسلا فى فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية وساقنى جحفلة

من الفرسان إلى خانقين وصحبنى جمع من الشرط ، ولقد كاتب الوالى من قبل والتمس منه أن يبعدنى إلى البصرة ، علما منه أنه لو تركنى ونفسى لأتيتك أيها الحبر ولبينت لك شأنه وشأن الأمة وشرحت لك ماحاق ببلاد الإسلام من شر هذا الزنديق ، ودعوتك أيها الحجة إلى عون الدين ، وحملتك على إغاثة المسلمين .. وكان على يقين أنى لو اجتمعت بك لا يمكن أن يبقى على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد وهلاك العباد وإعلاء كلمة الكفر ... ومما زاده لؤما على لؤمه ودناءة على دناءته أنه دفعا لثورة العامة وتسكينا لهياج الناس ، نسب تلك العصابة التى ساقتها غيرة الدين وحمية الوطنية إلى المدافعة عن حوزة الإسلام وحقوق الأهالى بقدر الطاقة والإمكان إلى الطائفة البابية ، كما أشاع بين الناس أولا ــ قطع الله لسانه ــ أنى كنت غير مختون ، واسلاماه .. ما هذا الضعف ؟ ما هذا الوهن ؟ كيف أمكن أن صعلوكا مطعون النسب ، ووغدا خسيس الحسب ، قدر أن يبيع المسلمين وبلادهم بثمن بخس دراهم معدودة ، ويزدرى العلماء ويهين السلالة المصطفوية ، ويبهت السادة المرتضوية البهتان العظيم ، ولايد قادرة أن تستأصل هذا الجذر الخبيث شفاء لغيظ المؤمنين وانتقاما لآل سيد المرسلين عليه وآله الصلاة والسلام ... ثم لما رأيت نفسى بعيدا عن تلك الحضرة العالية أمسكت عن بث الشكوى ، ولما قدم العالم المجتهد القدوة الحاج سيد أكبر إلى البصرة طلب منى أن أكتب إلى الحبر الأعظم كتابا أبث فيه هذه الغوائل والحوادث والكوارث فبادرت إليه امتثالا ، وعلمت أن الله تعالى سيحدث بيدك أمرا .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[٥٤]

ولم تلبث أول فتوى ذات طابع سياسى فى العصر الحديث أن صدرت ، ومن قائل إن الذى تفوه بنص الفتوى هو ميرزا محمد حسن الآشتيانى إمام طهران بعد أن أخذ الموافقة عليها من المرجع الأعظم محمد بن الحسن الشيرازى ، لكن صاحب تاريخ بيدارى إيرانيان يورد الفتوى مسندة إلى الشيرازى « بسم الله الرحمن الرحيم .. اليوم استعمال تنباكو وتوتون بأى نحو كان فى حكم محاربة إمام الزمان عجل الله فرجه »[٥٥] وقد أشاع البلاط أن الفتوى لم تصدر عن أحد المراجع الكبار[٥٦] غير أن هناك قضية أخرى تثير الجدل : هل هدد المشايخ بإعلان الجهاد إن لم يتم إلغاء الامتياز فى بحر ثمان وأربعين ساعة ؟ لقد كان هذا الأمر كما أجمع مؤرخو الفترة بمثابة الشائعة .. ترى هل أطلق البلاط الشائعة استنفارا للأجانب وسبرا لأغوار الالتفاف

الشعبى حول المشايخ ؟ أيا كان الأمر فقد كانت النتيجة فوق ما كان متوقعا إذ أخذ الناس فى الحصول على السلاح وإقامة المتاريس فى الشوارع وكتابة الوصايا « ووداع بعضهم بعضا » ، وأسقط فى أيدى البلاط والأجانب ، ولم يجد ناصر الدين شاه بدا من عقد مجلس فى القصر من « ممثلى » الأمة ، ولم يكن من بين هؤلاء الممثلين واحد من خارج المشيخة ، وعرض عليهم الامتياز ليروا إن كان فيه نص يخالف الشريعة ، ومن المادة الأولى أفتى العلماء بأن الامتياز يخالف الشريعة ؛ لأن الأصل فى الشريعة « أن الناس مسلطون على أموالهم » ، وأعلنوا أن تأييد الدولة فى هذا الأمر من قبيل المحال ، وانقلبت الجلسة إلى تهديد من قبل ممثلى الشاه وصمود من العلماء ، وبعد أن رأى المجلس السلطانى أن الأمر جد لا لهو فيه ، طلب من العلماء أن يكذبوا شائعة الدعوة إلى الجهاد فى مقابل إلغاء الامتياز ، وهو شرط لايسلب من العلماء شيئا وإن كان يحفظ ماء وجه « السلطنة » ، وبمجرد أن صعد إمام الجمعة إلى المنبر ليعلن أنه طلب من الناس « المجاهدة » وهى لا تعنى الجهاد حتى ارتفعت أصوات النسوة بالصراخ صائحات : أنه إن قعد الرجال فى البيوت فسوف يلبسن ملابس الرجال ويقمن بالجهاد الذى يفهمنه فى سبيل تنفيذ أوامر الله تعالى ، وبعد جلسة أخرى فى السفارة الروسية جمعت السفراء والقناصل الأجانب اتفق الجميع على الانحناء للعاصفة حتى تمر(٥٧) وكانت النتيجة أن ألغى الشاه الامتياز ، واسترضى آشتيانى إمام طهران باعتذار مصحوب بخاتم كهدية ، ووافق على دفع تعويضات للشركة الانجليزية تبلغ نصف مليون جنيه استرلينى ، اقترضها من البنك الملكى التابع للانجليز وبفائدة سنوية تبلغ ٦٪ ، لكن الأمة كانت قد جربت المواجهة والنصر ، و « بدأ الكابوس الرهيب فى حياة الملوك المعاصرين » على حد تعبير آفرى (٥٨)

كانت السنوات الأربع الباقية من حكم ناصر الدين شاه صراعات مستترة بينه وبين رجال الدين من ناحية وطبقات التجار من ناحية أخرى ، كان الكساد الذى تسببه الشركات الأجنبية لسلب رجال الدين أية ركيزة مادية يضرب بأطنابه فى البلاد ، كما كان نجاح حركة الدخان دافعا قويا ، وشهدت المدن الدينية مثل مشهد وقم صراعات فردية ، وكان من الواضح أن الشاه يترصد الأمة وأن الأمة تترصده وكانت قوات الحكومة على الحدود تقيم سدا منيعا أمام دخول إيران أو الخروج منها ،

ولم يلبث كل هذا أن انتهى باغتيال الشاه ناصر الدين رميا بالرصاص فى ٦ مايو سنة ١٨٩٦ ، بينما كان فى زيارة لمشهد الإمام عبد العظيم ، وتقدم منه محمد رضا الكرمانى متظاهراً بتقديم التماس وأطلق الرصاص عليه ، وهى نفس الطريقة التى قتل بها الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك فى القرن الخامس الهجرى ، بخنجر بالطبع ، وتحاول المصادر أن تقدم معلومات مضللة عن القاتل ، فمن قائل إنه أحد فلول الحركة البابية ، ومن قائل إنه انتقام من الشاه تجاه سلوكه ضد جمال الدين الأفغانى وأنه قال له « خذها من يد جمال الدين » .. إلى غير ذلك من الأقوال ، لم يكن محمد رضا من البابية وإن كان قد سجن فى مرحلة من حياته « كبابى » عندما رشا أحد البابية الأغنياء الحاكم فسجن محمد رضا بدلا منه(٥٩) ، وينقل براون محضر التحقيق من ناظم الإسلام الكرمانى ، وفيها يذكر محمد رضا الأسباب ومنها غيبة القانون والاستبداد ومطاردة الأحرار وبيع الدولة للأجانب ، ويضيف : حرمان الناس من سيد جمال الدين ، ولا توجد كلمة واحدة عن البابية ، كان محمد رضا قد تعرض لظلم من نائب السلطنة لكنه لم يقتله لأنه إن قتله فالأصل ــ أى الشاه ــ باق وسوف ينتقم من آلاف الناس ، ومن ثم كان لابد من قتل الشاه لاقتلاع الظلم من جذوره (٦٠) .

وتولى مظفر الدين شاه الحكم بعد والده ، وكان ضعيفا مترددا يخشى مصيرا كمصير أبيه ، فترك زمام الأمور فى يد جلاده أى صدره الأعظم عين الدولة ، والواقع أنه لم يكن فى وسع مظفر الدين أن يفعل شيئا ، فقد كانت الأمور تسير من سيىء إلى أسوأ وكان انتصار حركة الدخان دافعا لنمو الحركة الشعبية وتبنيها لأفكار أكثر جذرية وأهم من مجرد الإصلاح الاقتصادى ، وبدأت نغمة المشاركة فى الحكم والحد من السلطات الاستبدادية والمطلقة للشاه تظهر فى الأفق ، كما بدأت الصحف التى تأتى من الخارج والتجمعات حول رجال الدين فى الداخل تدق على نغمات جديدة حول الشورى الإسلامية والشريعة والقانون والحريات التى لا يمكن بدونها أن يتم أى تغيير فى البنية السياسية أو الاقتصادية والتى تمثل الضمان الوحيد لإنقاذ إيران من الضياع الكامل .

وشهدت السنوات العشر ما بين اغتيال ناصر الدين شاه وانفجار الثورة الدستورية ملمحا آخر من الملامح البارزة فى كفاح الشعب الإيرانى وهو تكوين

الجمعيات السرية ذات الأبعاد المتعددة : الاجتماعية والثقافية والسياسية ، وكان من أهم أهدافها إيقاظ الأمة واستغلال المد الشعبى الذى أثبت وجوده فى حركة الطباق فى سبيل الوصول إلى صيغ ثابتة تضمن للأمة الرقابة على السلطة إن لم يمكن المشاركة فيها ، وكانت أهم جمعية من هذه الجمعيات الجمعية السرية « انجمن مخفى » وقد تأسست باقتراح من ناظم الإسلام الكرمانى لأحد الفقهاء الثوريين الكبار وهو ميرزا سيد محمد طباطبائى وبهدف تعليمى بحت هو نشر الثقافة بين أفراد الأمة ، ونَدين بمعلومات واسعة عن هذه الجمعية لكتاب ناظم الإسلام نفسه « تاريخ بيدارى إيرانيان » ، وينقل صفحات من كتاب « سياحتنامة إبراهيم بك » لزين العابدين المراغى خاصة تلك التى تنتقد الأوضاع الداخلية فى أواخر القرن التاسع عشر كما تنقد أسلوب الحكومة فى العلاقات الخارجية ، كما ضمت الجمعية من الفقهاء « آقاسيد عبدالله البهبهانى » [٦١] ويبدو من محاضر الجمعية المزج الكامل فى المنظور بين ما حدث للحسين عليه السلام على يد حكومة يزيد وبين ما يجرى للأحرار على يد الصدر الأعظم عين الدولة والحكومة « اليزيدية » ، كما نصت لائحة تأسيس الجمعية على الالتزام بالسرية ومعارضة الطغيان واحترام العلماء وأداء الصلاة فى كل اجتماع واعتبار صاحب الزمان « الإمام الغائب » الحامى الحقيقى للمجتمع ، وطالب المجلس فى لائحته بنظام قانونى مكتوب ومحكمة عليا « عدالت خانة » ونظام ضريبى عادل وإصلاحات عسكرية ، وإعادة تنظيم للجمارك ، ووضع ضوابط وأسس لتعيين كبار موظفى الدولة ، وكل ذلك فى إطار من الشريعة ولم تكن الشريعة مطلبا واحدا من بين المطالب كما يذكر إبراهيميان [٦١] .

وبينما كانت هذه الجمعية بقيادة اثنين من كبار مراجع التقليد فى طهران أى طباطبائى وبهبهانى ، كانت هناك جمعيات أخرى ترتكز على أفكار فرنسية أو روسية ماركسية ، ففى تبريز شكل على كربلائى‌الخباز، الشهير بمسيو لاهتمامه بالفكر السياسى الفرنسى جمعية سميت « المركز السرى » ، وكانت تنزع منزع تطبيق النظريات الغربية فى التحرير والفكر السياسى ومن ثم كان تأثيرها محدودا ، كما تأسس الحزب الاشتراكى الديموقراطى فى باكو من مجموعة من الأعضاء كانوا أعضاء عاملين داخل الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى ، ووجه الحزب نشاطه بين عمال حقول النفط فى باكو ، كما عقد علاقة وثيقة مع الجمعية السرية فى تبريز التى أخذت على عاتقها

نشر أفكار الحزب فى إيران ، وإلى الحزب الاشتراكى يرجع تفريغ عدد من القادة الذين ظهروا فى الحركة الدستورية ، وحاولوا بعدها ركوب الحركات الثورية فى جيلان وتبريز : سلطانوف ولاهوتى وببشاورى وخالو قربان وغيرهم ، وكانت هذه الوجوه وراء تأسيس الحركة الشيوعية فى إيران فى كافة مراحلها .

كما تأسست أيضا جمعية الإنسانية « انجمن آدميت » وهى جمعية ذات ميول ليبرالية ، وكان مؤسسها عباس قلى خان الملقب بـ « آدميت » وكان تلميذا لملكم خان ، وهو والد فريدون ركن زاده آدميت أحد مؤرخى عصر الثورة الدستورية ، كانت الجمعية علمانية المنزع ، ماسونية التنظيم والمنحى ، تبشر بالتخطيط الاجتماعى والتنمية وتضم عددا من أساتذة دار الفنون يتحدثون بلغة لا يفهمها الشعب الذى لا يمكن أن يحركه شيء سوى الشريعة .

ومن الجمعيات البارزة فى تلك الفترة اللجنة الثورية « كوميته انقلابى » برئاسة ملك المتكلمين ، وهو فقيه ثورى أعدم فيما بعدُ بعدَ الانقلاب المضاد على الحركة الدستورية ، وكانت تجتمع فى المكتبة القومية « كتابخانة ملى » التى أسسها نصر الله تقوى ووضع هؤلاء خطة للقضاء على الفساد والاستبداد وإقامة حكم العدالة والقانون وكانت الجمعية أكثر فهما لواقع المجتمع الإيرانى ، فدعت إلى تجنب أى نشاط مخالف للإسلام كمرحلة « لتهدئة شكوك السلطات الروحية » وواضح أن اللجنة كانت تنطلق أيضا من منطلق علمانى ، وكان حديثها عن الدين مجرد « تكتيك » لكن هؤلاء الراديكاليين العلمانيين الذين حاولوا تهدئة النبرة العلمانية فى بياناتهم سرعان ما أدركوا أنهم لا يستطيعون التقدم خطوة واحدة دون عون من رجال الدين فتحالفوا معهم ، وكان تحالفا يعتمد على بنية مؤسسى الجمعية بحيث يبدو طبيعيا فى مجتمع كالمجتمع الإيرانى قابل لشتى التحالفات ، فمن بين الأعضاء السبعة والخمسين المؤسسين للجمعية كان هناك ٢٤ من رجال الدين و٢١ ينتسبون إلى عائلات من رجال الدين وثمانية من التجار ، وهى تركيبة لم تكن تقوى على هضم ما تنادى به الجمعية نظريا حتى دون تدخل فعلى من رجال الدين[٦٢]

وبالرغم من كثرة الجمعيات وتعدد مشاربها ومناحيها ، تظل الانفجارات التى أدت إلى الثورة الدستورية إسلامية وذات قيادة إسلامية وبمنظور إسلامى ، أما كيف تحولت إلى مجلس قومى ودستور مدنى فهذا ما آن أوان الحديث عنه .

الفصل الثانى

الثورة الدستورية

من العسير على باحث ما فى الثورة الدستورية أن يقتنع بالمنطلقات التى يعتمد عليها الباحثون الأوروبيون المعاصرون ، فيرى أن الثورة الدستورية « ١٩٠٥ — ١٩١٠ م » بدأت هكذا بالمطالبة بالدستور ومجلس نيابى قومى ، وكأن الدستور كان مطروحا ومعروفا بالفعل ، وكأنه كان على الثوار — وجلهم من رجال الدين ورجال الشارع — أن يختاروا بين صيغ المجالس النيابية ليختاروا من بينها الصيغة التى توافقهم ، فالواقع الذى تثبته دراسة متأنية وقراءة لما وراء النصوص ولكثير من الأعمال الموثقة التى صدرت بعد انتصار الثورة الإسلامية ، تبين أن الثورة التى سميت فيما بعد بالدستورية كانت قد بدأت بالفعل للمطالبة بتطبيق الشريعة وتكوين « مجلس شورى إسلامى » ، ثم تحولت فى فترة من فتراتها — بدسائس من السفارة البريطانية — إلى مسار علمانى كان سببا فى انتكاسة الثورة لوقوع الفجوة بين القادة الجماهيريين الحقيقيين ، وهم العلماء ، وبين الجماهير التى لا تعرف سبيلا للإصلاح والثورة إلا الإسلام ، كما أحدث هذا التحول المفاجىء لمسار الثورة الدستورية فجوة أكثر خطورة بين العلماء أنفسهم وطرح أمامهم مصطلحات جديدة وأطروحات مستحدثة صرفتهم عن الاجتهاد داخل الشريعة لتأصيلها إسلاميا أو رفضها ، وكانت الثورة الدستورية ثانى مواجهة فى التاريخ الإيرانى المعاصر بدأها العلماء ، لكن الزعماء العلمانيين بل والشيوعيين قاموا « بسرقتها » وتحويل مسارها ، ووضعوا فى الساحة نمطا من الزعماء قاموا بكل « إخلاص » بتهدئة الزخم القوى لثورة امتياز الطباق وبدايات الثورة الدستورية وأضاعوا أكثر من نصف قرن فى متاهات كانت سببا فى الفشل والتخلف والتغرب والـ « حتمية الشاهنشاهية » .

كانت السياسة الخرقاء لمظفر الدين شاه قد زادت الأمور سوءا ، وكان آية الله البهبهانى قد أفتى ضمنا بتكفير مظفر الدين ، إذ استفتاه عباسعلى خان شوكت سكرتير السفارة العثمانية فى طهران عن حكم الإسلام فيمن أعان كافرا على مسلم ، فأفتى بأنه كافر مهدور الدم ، وربما لم يكن يدرى أن المقصود بالفتوى هو مظفر الدين الذى كان متهما آنذاك من قبل العثمانيين بمساعدة الأرمن وتحريضهم على اغتيال السلطان عبد الحميد الثانى[٦٤] ، كما أن مظفر الدين الذى لم يكن يستطيع أن يمارس سياسة تقرب من العلماء ، بادر إلى اتباع سياسة أشد نكرا وهى تخطف الكفاة من بينهم ومن حولهم ونفيهم أو سجنهم والإلقاء فى روع العامة أن هذا الأمر من تدبير العلماء أنفسهم[٦٥] ، وإلى جوار القمع السياسى كانت الأزمة الاقتصادية تزداد شدة ، وتنصرف نتائجها لا على الكسبة والمهنة وعوام الناس فحسب بل على سراة التجار أنفسهم بحيث لم يكن يمر يوم واحد دون أن يرتفع سعر سلعة ما من السلع الأساسية أو تفرض ضريبة جديدة ، وساءت سمعة الحكومة عند جماعة الدائنين أنفسهم ــ وربما كان أمرا مقصودا ــ فأخذوا يماطلون فى إعطاء ديون جديدة أو يجعلونها مشروطة بإجراءات تنصرف نتائجها المباشرة على الشارع الإيرانى ، وكان الشارع يغلى كل يوم بمظاهرات صاخبة ، ووزعت إحدى المظاهرات صورة المسيو نوز الخبير البلجيكى يحضر حفلة تنكرية بملابس رجال الدين ، وكان جل المشاركين فى المظاهرة من التجار ، ولخص ناطقهم الوضع لمراسل جريدة « الحبل المتين » وكانت تصدرها جماعة من المنفيين فى كلكتا قائلا : « يجب على الحكومة أن تعكس سياستها الحالية التى تؤدى إلى كارثة والقائمة على مساعدة التجار والدائنين الروس على حساب أصحاب الأعمال الإيرانيين ، على الحكومة أن تحمى أصحاب الأعمال عندنا حتى ولو لم تكن منتجاتهم بجودة منتجات منافسيهم الأجانب ، أما إذا استمرت السياسة الحالية فإن اقتصادنا سوف يدمر تماما »[٦٦] وخضع مظفر الدين وتظاهر بالاستجابة لبعض مطالب المتظاهرين ، لكنه لم يكن يهدف إلى إنقاذ رحلته المزمع عليها إلى أوربا ، وأوعز إلى عين الدولة أن يقوم بتصفية عناصر الصراع وإعادة الهدوء إلى الشارع .

لكن الشارع كان ينتظر شرارة تضرم النار فيه ، ولم تلبث مواجهة ثانية أن اندلعت « ديسمبر ١٩٠٥ » عندما جلد حاكم طهران علاء الدولة تاجرين شيخين

اتهما بإخفاء السكر لرفع سعره ، وتوفى أحدهما وكان فى التاسعة والسبعين من عمره تحت الجلد ، وانتشر الخبر فى السوق ، وهرع التجار إلى بيوت العلماء ، ولم يكن الأمر هذه المرة أمر قرار يود الغاضبون إلغاءه كامتياز الطباق ، لكن المشكلة كانت وضع حد لهذه المهازل عن طريق وضع صيغة تحمى الناس وتحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبدأت الرموز الدينية للثورة فى التبلور والظهور ، فالقادة هم العلماء ، ورد الفعل أى التحصن فى مشهد الإمام عبد العظيم يسمى بالهجرة الصغرى ، وجل الوجوه البارزة من المهاجرين من كبار العلماء وأسرهم : بهبهانى وأسرته وطباطبائى وأسرته وحاجى شيخ مرتضى وصدر العلماء وسيد جمال الدين آقجه ، وآقا ميرزا مصطفى وآقا شيخ محمد صادق الكاشانى وآقا شيخ محمد رضا القمى ، وبالرغم من أن عين الدولة أرغم المهنة على فتح حوانيتهم والانصراف إلى أعمالهم ، وبالرغم من أن طريق مشهد الإمام عبد العظيم قد أغلق بالجنود ، كان بعض المشايخ يلحقون بالمتحصنين حتى لو اضطروا إلى إطلاق الرصاص ، كما قام بعض التجار بالأنفاق على المتحصنين ، وأدت الهجرة إلى خلو المساجد الكبرى فى طهران من أئمتها ، إذ « حل المبغوض محل المحبوب » بتعبير ناظم الإسلام [٦٧] ، وأعلن عين الدولة أنه لولا ممانعة الشاه لأعدم كل المشايخ والعلماء فى يوم واحد ، فكان الرد هجرة جمع من الطلاب « ليلحقوا بالشهادة » ، وهنا ضعف عين الدولة وأخذ يرسل الرسل تباعا طلبا للمباحثة ، وعرض المتحصنون مطالبهم فى ثمانية بنود أهمها البنود من الرابع إلى السابع ، وتنص على المطالبة بإنشاء محكمة عليا « عدالت خانة » فى كل مدينة من مدن إيران تحقق فى مظالم الرعية وتحكم بالعدل والمساواة بين الراعى والرعية ، ثم تنفيذ الشريعة الإسلامية على الناس جميعا دون استثناء ، وعزل المسيو نوز الرئيس البلجيكى للجمرك ، وعزل علاء الدولة من منصبه كحاكم لطهران مع مساءلته عما ارتكب من جرائم[٦٨] ، وفى ١٢ يناير سنة ١٩٠٦ عاد المعتصمون من مشهد الإمام عبد العظيم مستقلين العربات السلطانية حتى من كان منهم من الطلاب ، وانعقدت أول جلسه فى تاريخ إيران بين الشاه والعلماء جرت فيها مناقشة حول مطالبهم ، ولأول مرة فى تاريخ إيران أيضا سمح لأحد من غير أعضاء البلاد بأن يتحدث فى حضرة الشاه ، ولأول مرة يتحدث الشاه عن نفسه بضمير المفرد ، وعندما انتهى الاجتماع بالخضوع لمطالب العلماء ، ارتفعت لأول مرة فى أجواء إيران هتافات : لتحى الأمة الإيرانية ، وليعش ملك الإسلام . [٦٩]

ولم يكن فى مقدور الشاه أن ينفذ ماوعد بعد : فلم يكن قد نسى الإهانات التى وجهت إليه من قبل بعض العلماء أثناء التحصن ولم يعف عنهم قط ، ولم يكن يتلقى نصحية بتنفيذ هذا من مستشاريه الأجانب وكانت ثقته فيهم مطلقة ، وكان يخشى فى نفس الوقت أن يؤدى التنازل إلى مزيد من التنازل يودى به فى النهاية كما أودى بأبيه « الشاه الشهيد » ، كان يريد أن يلتف حول العلماء ويصفيهم واحدا بعد الآخر ، ووجهت حركة محاولة الالتفاف والنفاذ بحركة التفاف شعبى حول العلماء وتفويضهم كتابة بتبنى مطالب الجماهير على أساس « أن المملكة بمثابة البدن والعلماء بمثابة الأعضاء الرئيسية ، عليهم دفع الضر عنها وجلب النفع لها وعلى هذه الرياحين والأشجار المثمرة ألا تترك للقذى والأشواك طريقا إليها يفرق بينها » [٧٠] ، وكما حاول مظفر الدين أن يولى على الأقاليم ولاة ذوى مظهر دينى ــ كم يتشابه تاريخ إيران ــ يقول ناظم الإسلام : « وفى تلك السنة ولى آصف الدولة حكومة خراسان ، وكان شخصا مجربا يظهر التقوى والزهد ويطلق لحيته ولا يتعاطى الخمر ، كما كان يقرأ كتب أدعية الزيارة فى عاشوراء ، لكنه كان يرتكب من المظالم مالا نهاية له دون أن يترك نوافل الليل ، فكان من جرائه أن تبيت جماعة على الطوى ، وبينما كان يطيل الصلاة كان أحدهم يجود بالروح تحت سياط جلاديه »[٧١] وشحت الأقوات فى خراسان ، مما أدى إلى قيام ثورة فيها ، كما ثارت شيراز ، وفى طهران تقدم طباطبائى بالتماس إلى عين الدولة يذكره بما سلف من وعود ، ولم يعتن عين الدولة بالرد ، مما حدا بالأهالى إلى تقديم تفويض آخر للعلماء ، وقدم طباطبائى عريضة أخرى للشاه « يا صاحب الجلالة ، المملكة فى خراب ، والرعية فى فقر واضطراب ، ولا حد لتعدى عمالك على الأموال والأعراض والأرواح ، وإلا فمن أين اقتنوا كل هذه العمائر بأثاثها والعقارات والأملاك فى فترة قصيرة ، لقد هاجر أهل إيران من هذا الظلم إلى الخارج حيث يعملون فعلة وحمالين ، ولا يستطيع أن يقضى على كل هذه المفاسد إلا مجلس عدالة ، أى مجلس مكون من كل فئات الناس ، ينقذ الناس ويسوى بين الملك والشحاذ » [٧٢] وظلت عرائض طباطبائى تتوالى والشاه يعطيها أُذُناً بها وَقْر ، وثار الشارع فى طهران واستمر القمع حيث قتل سيد عبدالحميد ، وهو من الطلبة ، وحاجى شيخ محمد واعظ ، وهو من العلماء وأغلقت الأسواق ، واحتدم الصراع بحيث سقط عدد من القتلى .

وفى هذا الوقت فكر المشايخ فى أن يقوموا بتجربة أخرى مثل تجربة الهجرة الصغرى ويهاجروا إلى « قم » ليعتصموا فيها ، وبدا أن الحركة قد بلغت ذروتها عندما حولت مسارها فجأة ، وكان دور السفارة البريطانية الذى يعد تحولا جذريا فى تاريخ الحركة الإسلامية فى إيران نقطة استفهام كبيرة ، لقد اتهم الدستوريون بأنهم كانوا أدوات فى أيدى السفارة البريطانية ، لكن أىُّ دستوريين ؟ بالطبع لم يكن الجناح الدينى أو علماء الحوزة مشمولين بهذا الاتهام ، فعندما بدأ تدخل السفارة كان كل أقطاب الحركة من العلماء فى قم ، وعندما غاب الأقطاب عن الساحة بدأ تحول المسار جذريا من المطالبة بدار العدالة إلى المطالبة بالدستور ، ومن المطالبة بمجلس نيابى إسلامى إلى المطالبة بمجلس نيابى « قومى أو وطنى » ترى هل كان يمكن لمظفر الدين شاه الذى وقف هذا الموقف المتعنت لكيلا يؤسس محكمة عليا أن يسمح — هكذا ودفعة واحدة — بمجلس نيابى ودستور لو لم تكن الأصابع البريطانية المتمرسة قد تدخلت ودلته على عناصر التفاهم ، وساعدته على حركة الالتفاف حول الجناح المتشدد والقائد وهو جناح العلماء ؟

إذن : فى ٢١ يوليه سنة ١٩٠٦ بدأت الهجرة الكبرى بترك العلماء لساحة طهران ، وكان هذا فى حد ذاته خطأ كبيرا ، فبطرح قضية المجلس النيابى بصورته الغربية والدستور « كبديل للشريعة » أثناء هجرة العلماء إلى قم ، خرجت القيادة من بين أيديهم بالتدريج ، ولاشك فى أن السفارة البريطانية وجدت فى اعتصام عدد كبير من التجار والمهنة والناس العاديين والقادة المدنيين إليها فرصة ذهبية لاختراق القيادة المعقودة جماهيريا لرجال الدين واختطافها ونقلها إلى أيدى الليبراليين المتأثرين بالفكر الانجليزى والمنادين بتغريب إيران من أمثال حسن تقى زاده وتحويلها بالتالى إلى حركة قومية تلتقى مع الشاه فى منتصف الطريق ، وفى أعقاب الهجرة الكبرى أخليت شوارع طهران من الحرس بتدبير من السفارة ، مما زاد فى عدد الخائفين اللاجئين إليها ، وبالرغم من أن الإنفاق على المعتصمين فى السفارة كان معقودا لعدد من التجار ذكرهم ناظم الإسلام الكرمانى بالاسم فإن الانجليز نهضوا بواجب التعليم خير قيام (٧٣) ، وكان ذلك « التعليم » ينصب بالطبع على تعريف الناس بالحكم النيابى والدستور اللذين يعدان المنقذ الوحيد للشعب ، ووقع العلماء المعتصمون فى قم خطأ بشع آخر إذ جعلوا من السفارة البريطانية وسيلتهم لمعرفة مايجرى فى

طهران ، فكان أن أخرجتهم السفارة فى قم قدر المستطاع حتى بعد عزل عين الدولة ، ودارت العجلة دورتها ، فخرجت أول برقية من قم يطالب فيها العلماء أنفسهم الشاه بمجلس نيابى ودستور .. ترى ماذا حدث ؟

لقد كان الاعتراف بالدستور بين جماعة لا تعرف سوى الشريعة ولا تعترف إلا بالإمام الغائب تطورا خطيرا ، ولاشك فى أن القيادة قد « قِيّدت » بواسطة الجماهير هذه المرة بدلا من أن تقود هى الجماهير ليحدث أول شقاق وأخطره داخل المشيخة منذ أن تكونت الحوزة ، ويظل هذا الانشقاق فترة طويلة لاتزال آثارها مستمرة بحيث إن بعض العلماء حاليا لايعترفون بنظرية ولاية الفقيه ، وعلى مدى نصف قرن بعدها من التجارب المرة لم يجد العلماء مندوحة من التعاون مع كافة القوى إبتداء من القوميين العلمانيين ــ كما فى الثورة الدستورية نفسها كما سنرى – ثم فى ثنائية كاشانى ومصدق ، إلى اليسار الشيوعى كما فى حركتى الغابة وخيابانى وبعض آيات الله فى الثورة الإسلامية الأخيرة مثل طالقانى ، أو كأوضح ماتكون فى منظمة خلق التى لا تزال تصر على أنها إسلامية وخاصة بعد انقلاب المنافقين سنة ١٩٧٥ .

على المستوى الفكرى كانت الثورة الدستورية – كما يقول عنايت – « مظهراً لأول مواجهة مباشرة بين الفكر التقليدى الإسلامى والفكر الغربى ، فكل ما طرح من تجديدات فى النظم القانونية والحكومية والإدارية كان ذا صلة بشكل أو بآخر بالقيم التقليدية » (٧٤) كما أن القول بحجية العقل وحق الاجتهاد فى المذهب الشيعى يجعل أذهان تابعيه مطمئنة إلى قبول التغيرات الاجتماعية وإلى قدرة الإنسان على تنظيم شئونه الاجتماعية (٧٥) والواضح أن المد الجماهيرى كان قد جرف العلماء معه فلم ينتبهوا إلى خطورة المشكلة ، وقد نقل عن السيد طباطبائى أحد قطبى الحركة الدستورية من الجناح الديني أنه قال : « إننا أنفسنا لم نر نظاما دستوريا ، لقد سمعنا به ، وأولئك الذين رأوا الأمم الدستورية أخبرونا أن النظام الدستورى سوف يجلب الأمن والرخاء للأمة ، وهذا يخلق فينا حافزا وحماسا ؛ ومن ثم فنحن نوافق على تأسيس نظام دستورى فى الدولة » وكان الأمر أشبه بالخدعة ، فقد كان التغريبيون يحاولون دائما ألا يطرحوا ما بين الإسلام والدستور الغربى فى حضرة العلماء ، أما العلماء فلم يكن لديهم أى إلمام بلغة أجنبية ولم يكن بين أيديهم عن الدستور إلا

مايقدمه التغريبيون لهم[٧٦] ، لكن طباطبائى نفسه عندما طالع القوانين التى أصدرها المجلس خاصة فيما يتعلق بالمحاكم المدنية علق قائلا : « إذن ما الذى تبقى للمشيخة لكى تقوم به ؟ »[٧٧] .

وعلى مستوى الحركة حدثت بعض الدسائس والألاعيب عند صدور الخط الهمايونى « الأمر الملكى الأول » بتكوين المجلس ، فعندما قابل الشاه لجنة من مبعوثى المعتصمين فى قم غير الأمر الملكى من « مجلس شورى » إلى « مجلس شورى إسلامى » ، فخرجت السفارة البريطانية كطرف علنى فى الصراع ، وحركت بعض اللاجئين للمطالبة بتغيير الاسم إلى مجلس نيابى قومى « ملى » ، كما قام القائم بالأعمال البريطانى بزيارة لمظفر الدين شاه ، وتحدث بعض المواقف غير المفهومة من علماء قم فيتبنون وجهة نظر السفارة ويعدون بأنه إن لم يتغير منطوق الأمر فلن يعود العلماء من قم ولن يغادر الناس السفارة ، وهكذا وفى ظل هذه الظروف ومن أجل الأقليات يخرج الأمر الهمايونى الثالث باسم « المجلس القومى » ، وتحدث خديعة أخرى ، فقد قرئت على اللاجئين فى السفارة برقية موافقة العلماء على الأمر الثانى على أنها على الأمر الثالث ، ومن هنا بات معلوما ــ كما يقول شاهد العيان ناظم الإسلام الكرمانى ــ أن « العقلاء وذوى البصيرة يرون أن المجلس الذى أسس على أيدى الأجانب هو بناء على ماء »[٧٨] .

وافتتح المجلس النيابى الأول ، وبالرغم من كثرة ذوى العمائم فإن الصوت العالى فيه كان لأولئك الذين يجدون تأييدا من السفارة البريطانية ، كان من الواضح أنهم استقروا على طرح الشريعة وراء ظهورهم ــ هذا بالرغم من أنه ينبغى أن نعترف أنه لأول مرة فى دولة إسلامية لا ينقل الدستور بنصه من دستور أجنبى بل اشترك فى وضعه جمع من علماء الشريعة ، وفى ٧ أكتوبر سنة ١٩٠٦ افتتح المجلس بحضور الشاه فى قصر كلستان ، وفى أول يناير سنة ١٩٠٧ توفى مظفر الدين وتولى مكانه ابنه محمد على شاه .

وبالرغم من أن محمد على شاه كان قد وافق أثناء ولايته العهد على تأسيس المجلس ووقع فى وثيقة منفصلة على أن المجلس مستمر لمدة عامين ، فإن نواياه قد بدت تحت تأثير مستشاريه من الروس خاصة يهودياً روسياً يدعى شبشل ، فلم

يعترف للمجلس بحق تتويجه بل ولم يدعه إلى حفل التتويج ، وكانت تبريز على علم بنوايا محمد على شاه ، فطالما صرح أثناء حكمه لها بأن الدستور والمجلس خطأ وقع فيه والده وأنه ليس ملزمنا بمواصلة هذا الخطأ ، فتأسس فى تبريز مايسمى « بمجلس المراقبين » (انجمن نظار) لمراقبة خط سير الأمور ولم تأل الصحف الجديدة نسيم شمال نشر أحد الشعراء البارزين وهو سيد أشرف الدين القزوينى وبيستون نشر لاهوتى وصور إسرافيل نشر على أكبر دهخدا فى وضع تصرفات الشاه الجديد تحت أنظار الجماهير ، لكن الشاه الجديد كان مصمما على العصف بالدستور والمجلس فعزل مشير الدولة من الصدارة وولى أمين السلطان الذى كان مكروها من الدستوريين ، وداخل المجلس كان أنصار الشريعة يرونها تداس بالأقدام ، ومن سوء الحظ أن الذى تولى الدفاع عن الشريعة داخل المجلس ورفع شعار « مشروعة » أمام شعار « مشروطة » أى دستورية هو الشيخ فضل الله نورى وكان من أصهار الأسرة القاجارية ، ففسر الجناح القومى الغالب صيحته على أنها تأييد للاستبداد ، ولما لم يجد استجابة قام بالهجرة إلى قم مع جماعة من أتباعه ووجه خطابا إلى علماء الأقاليم جاء فيه « مر ما يقرب من ألف عام على الغيبة الكبرى لحضرة الحجة ابن الحسن عجل الله فرجه ، وفى هذه الفترة الطويلة تحمل العلماء الكبار وهم نواب العامة المشاقّ فى كل عصر ، وعانوا المحن ولم يبخلوا ببذل الجهد والمال والعمر حتى وصل المذهب الجعفرى يدا بيد إلى أيديكم اليوم ، وتعلمون أنتم أنفسكم – أكثر من أى إنسان آخر – تفصيلات المشاق والخدمات والآثار المكتوبة والجهاد العلمى لأولئك العظماء فى حفظ الشريعة وحراسة أصول الإسلام ، وفى هذا العصر الذى نعيش فيه تناط بكم تكاليف النيابة العامة والمسئولية التامة ، ولابد عليكم من أن تسلموا دين الإسلام وهو وديعة إلهية بنفس تلك القوة والعزة والانتشار التى تسلمتموه أنتم من أسلافكم عليها ، لكن أعداءكم اليوم وبعون من المنافقين قد هيئوا أرضية تضعف دينكم ودولتكم كليهما فهما فى خطر عظيم ، فجماعة المطالبين بالحرية — أى أولئك الذين يطلبونها بمنظور غربى عن طريق مصطلحين خادعين هما العدالة والشورى — قد خدعوا إخواننا وأخذوا يسوقونهم نحو اللادينية ، ويبدو أن عصر انتهاء رئاسة رجال الدين وتاريخ انقراض دولة الإسلام وانقلاب شريعة خير الأنام واقع لا محالة ، بحيث تروج الحريات المطلقة وتجاز المنكرات وتباح المسكرات وتكشف العورات وتنسخ الشريعة ويهجر القرآن ويبقى هذا كله مفصلا فى سيركم أبد الدهر .. تعلمون جيدا أن دين

الإسلام هو أكمل الأديان وشريعته هى أتم الشرائع ، وأنه استولى على العالم بالعدل والشورى ، فترى ماذا حدث حتى يصل إلينا دستور العدل من باريس ، وتأتى وصفة الشورى من لدن الانجليز ، فلو اكتشفتم السر السياسى لهذا من دار الخلافة وغيرها فسوف ترون فى هذه الفتنة العظمى أن الإسلام كله قد برز إلى الكفر كله ... وسوف تجيبون داعى الإسلام ، وتردون على استغاثتنا بـ « لبيك » أما فيما يخص الدولة فللمرء أن يدهش ويعتبر فالشخص الأول ــ أى الشاه ــ على خلاف مصلحة الشرع رفيق لهذه الفرقة ، وأعمام الملك انتحوا جانبا مشغولين بكنوزهم القارونية ، ورجال الدولة كلهم صامتون مبهوتون كأنهم خشب مسندة .. فيا ملك الإسلام هل أنت غافل أو متغافل ؟ لست أدرى ، ولعل وساوس الوزراء الخونة ودسائس الدول المجاورة والرق المصطنعة للصحف التى هى اليوم من وسائل التهتك والتجرؤ وأدوات للتكسب والتكدى قد أثرت فى الضمير المستنير للذات العليا وهيأته لتسليم الإسلام وتبديل الشرائع .(٧٩)

لكن بينما كان الشيخ فضل الله يخاطب من قم هِمما قد تقاعست ونفوسا قد حط عليها صدأ التغرب ورانت قلوبها ، كان أمين السلطان مشغولا بتحريك الفتن والدسائس فى الأقاليم ، ومن ثم قام أحد الفدائيين ويدعى عباس آقا صراف التبريزى باغتياله بالرصاص ولما يتم خمسة شهور على دست الوزارة (٨٠) وزاد الاتفاق الودى بين الروس والانجليز – والذى قسم إيران إلى منطقتى نفوذ علنا – الأمر سوءا ، كما ألقيت قنبلة على عربة محمد على شاه (فبراير ١٩٠٨) ، وقد أزمع بعدها على الفتك بالمجلس لا عن طريق الحل ولكن عن طريق التصفية وبعون من فرقة القوزاق الروسية التى كان ناصر الدين شاه قد كونها لحمايته سنة ١٨٧٩ ، وأخذ لياخوف قائدها يعدها لليوم الموعود ، ولجأ الشاه إلى منطقة « باغشاه » ، واجتمع أعداء الدستور فى « الطوبخانه » وعلى مدى عدة شهور من الترقب سقطت وزارات وصعدت إلى كرسىّ الحكم وزارات دون أن يدرى أحد لِمَ تسقطُ وزارة وتقوم وزارة ، وذهب اثنا عشر من الزعماء الدستوريين للتباحث مع الشاه فاعتقلهم مع أنهم ذهبوا بدعوة منه ، ولعل هذه كانت الإشارة المتفق عليها ، ففى ٢٣ يونيه سنة ١٩٠٨ حاصرت بعض فرق القوزاق المجلس النيابى وقصفته بالقنابل بينما كانت قوات أخرى تتصيد الخارجين منه تحت القصف وتقبض عليهم وترسلهم إلى باغشاه ، وفر

عدد من النواب إلى السفارة البريطانية فاحتموا فيها ثم رحلوا إلى الخارج ، أما جموع الناس الذين لجئوا إلى مسجد بهارستان فقد حوصروا بالرصاص ، كان الضباط الإيرانيون فى القوزاق يتقاعسون أحيانا فى ضرب مواطنيهم ، فكان الروس يخطفون منهم الأسلحة ويعيدونها إلى صدور الجماهير ، وكان عدد من التنظيمات الشعبية يحاول أن يقاوم بالسلاح عبثا ، فقد كانت فرق القوزاق أكثر عددا وأقوى عتادا ، وتحول مبنى البرلمان ومسجد سبهسالار إلى أنقاض ، ولم يرحم القوزاق حتى الموتى فى القبور فأُخرجت جثتا السيدين اللذين قتلا فى مظاهرات أوائل عهد محمد على شاه فأحرقت جثة أحدهما بينما ألقيت الأخرى فى مزبلة . [٨١]

كان تعداد المعتقلين فى باغشاه كبيرا على رأسهم عدد كبير من أعضاء المجلس الذين لم يستطيعوا الفرار ، تعرضوا على أيدى القوزاق لأبشع أنواع الاهانات ، وتعرضت بيوتهم للقصف والنهب ، كما أعدم عدد كبير فى باغشاه منهم ميرزا جهانكيرخان صاحب مجلة صور إسرافيل وملك المتكلمين ، كما قبض على سيد جمال الدين الواعظ الأصفهانى وخنق فى سجنه [٨٢] ، وقبل أن يستشهد أرسل هذا الخطاب إلى ولده محمد على « وهو الكاتب الكبير محمد على جمال زاده » ولا يزال حيا يرزق :

« ولدى الحبيب ميرزا محمد على .. أظن أن هذا هو آخر خطاب تتلقاه من والدك لأن العدو قد هزمنا ومن جراء هذا الشعب الذى لايحس .. الآن سبق السيف العزل وعلى المرء أن يموت برجولة .. رضينا برضاء الله . نور عينى : أعلم أن الأمور سوف تشق عليك فى الغربة كثيرا ، ولكن إن كنت عاقلا ينبغى أن تكون خلافا لما هو متوقع سعيدا إذا استشهد والدك فى سبيل الوطن فهو قتيل الشرف والفخار ، اليوم التمست كثيرا حتى سمحوا لى بأن أكتب هذا الخطاب إليك بصفتك ولدى الأكبر ، فإن كنت ابنى حقا ، فسوف تسير على درب والدك ولن تبخل ببذل الروح .. وداعا ياقوة قلبى ، ولاأستطيع أن أتحدث إليك أكثر من هذا .. كن عونا على إسعاد أسرتك .. إذا وصلك فى وقت ما شخص يسمى رمضان على وأظهرلك خاتمى وختمى فأحسن إليه فهو رفيق والدك ونجيه فى هذه الأوقات العصيبة ، يا عدل يا حكيم .. أحكم بيننا وبين القوم الظالمين » [٨٣]

وساد هدوء حذر فى فترة سميت بالاستبداد الصغير ، وفى هذه الفترة صدر كتاب « تنبيه الأمة وتنزيه الملة » لفقيه من فقهاء الحوزة هو ميرزا محمد حسين النائينى ، وكان آخر وقت يمكن أن يصدر فيه الكتاب هو ذلك الوقت بالفعل ، فقد كان يقدم صورة توفيقية بين الإسلام والدستور ، أو بمعنى أصح كان يقدم حصيلة تجربة المشيخة بعد هذا الصدام الذى قسمها وأسقط منها شهداء ، وبالرغم من أن الكتاب دراسة عميقة تستند على المأثور الإسلامى فى تشريح طبائع الاستبداد وأصوله ومدى مخالفته للدين بل وللطبيعة البشرية نفسها ، وثورة على عبادة الشاه ، فإن الباحثين لا يقفون فيه إلا على ما سماه نائينى بالاستبداد الدينى الذى يتزعمه أولئك المشايخ الذين يقفون فى وجه الدستور والقانون ككل حفاظا على مصالح طبقية ، فى حين أن نائينى فى دفاعه عن الدستور كحق الأمة عده واجبا ما دام يقف فى وجه الاستبداد ويحمى مصالح الأمة فى نهاية الأمر ، واشترط فى النواب شروطا من أهمها العلم بالشريعة ، كما نادى بأن أى قانون يصدره المجلس لا يمكن أن يطبق إلا إذا اعتمد من مرجع واحد من المراجع على الأقل وهو الأمر الذى لم ينكره حتى من أشيع عنه أنه أعدى أعداء الدستور أى فضل الله نورى الذى كان انطلاقه كله من المادة الثانية من الدستور المعلن والتى كانت تنص على وجوب حضور خمسة من المجتهدين على الأقل فى المجلس لبحث مدى تطابق القوانين الصادرة من المجلس مع الشريعة الإسلامية أو عدم تطابقها .[٨٤]

والفكرة العامة التى تسود الكتاب هى أخطر مافيه ، فقد دخل مباشرة إلى قلب الرأى القائل بأنه من الممكن أن تقوم حكومة إسلامية فى غيبة الإمام ، وكان كل همه أن يقنع مشايخ الحوزة بذلك ، فكتب كتابه فى صورة رسالة علمية وبأسلوب علمى جدير بالحوزة ، لم يكن له أن يتخذ سبيله إلى الجماهير إلا بالشرح الذى قدمه عليه آيه الله الطالقانى وذلك قبل اندلاع الثورة الأخيرة بربع قرن على وجه التقريب ويدخل نائينى إلى قلب مشكلته مباشرة ، ويحتج على وجوب الدستور بأن من بيدهم الأمر لا يتميزون بالعصمة التى يتميز بها الأئمة ، ليس هذا فحسب ، بل لايفهمون أصلا من الحكم إلا أنه التملك على الرقاب والأموال ، ولابد لهم من محاسبة ومراقبة وهى التى من الممكن أن يقوم بها المجلس النيابى[٨٥]، ويضرب نائينى الأمثلة من التاريخ الإسلامى على ماهو معروف ومشهور ، ويثبت مشروعية تقويم

الحاكم حتى بحد السيف ، وينفى الشبهة التى أشيعت من قبل الاستبداد الدينى عن الدستور على أساس أن الدستور لا يعنى سفور النساء أوإباحة المنكر (٨٦)، ولايجد النائينى ما يعينه على هذه الفتوى من النصوص فيحتج بأنه رأى شيخه حاجى ميرزا حسين الطهرانى فيما يرى النائم ، وأنه سأله عن رأيه فى الدستور فأفتاه بأن الاسم جديد لكن المضمون قديم(٨٧) وأنه السبيل الوحيد إلى وضع حدود للسلطة ، فالسلطة بلا حدود هى الاستبداد بعينه ، وحدود السلطة معروفة وهى الشريعة والسنة النبوية المطهرة ، ولأن السلطة غير المحدودة هى غصب لحقوق الله تعالى(٨٨) ويسمى نائينى المجلس بالهيئة « المسددة » وهى تحل محل القوة « العاصمة » « أى العصمة (٨٩) ويرى أن السلطة الحاكمة منوطة فقط بالتنفيذ لا التشريع ولا وضع القوانين (٩٠) ويرد على مغالطات ما سماه بالاستبداد الدينى فيما يتعلق بالحرية والمساواة ، فالحرية لا تعنى الحريات المطلقة خارج نطاق الشريعة ، كما أن المساواة لا تعنى رفع الحدود بين المسلم وغير المسلم ، فكل منهما مكلف فى حدود شريعته ، ويرى نائينى أن الأصل فى رد حق المساواة – وهو حق إسلامى فى المقام الأول – هو حفظ الامتيازات الطبقية لا أكثر (٩١) كما يرد على من يقول بأن الدستور بدعة فيرى أن الأمر لا يهم ، فإن كان ملزما فهو شرعى على الرغم من أنه قانون وليس شريعة ، وإذا كان كف يد الظالم عن المظلومين فى حاجة إلى قانون فلماذا لا يتم وضعه ؟ (٩٢) ويرد على بعض ما يراه من مغالطات أثارها « العامة » وفحواها الاستكثار على الناس التدخل فى شئون الحكم وهو من أهم أعمال الإمام .. ويرد نائينى : وهل الإمام يجلس على كرسى الحكم ؟ فضلا عن أن السياسة تكليف من التكاليف ، وانتخاب النواب ليس وكالة شرعية كما فهمها العامة أما القول بأن اتباع الأغلبية بدعة فقد رد عليها نائينى بالأخذ بالترجيحات عند التعارض والأكثرية من أقوى المرجحات عند الأخذ بالشاذ ويحتج بمقولة عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق عليه السلام بالأخذ بالترجيح أو الإجماع (٩٣) .

ثم يتحدث نائينى عن شروط النائب فيرى من أهمها : الأخذ باستنباط الفقهاء ، والتنزه عن الغرض ، والعلم بالشريعة ، والغيرة على الإسلام ، ومن أهم مهامه : تحديد حركة المال العام والضرائب ومطابقة القوانين على الشريعة قبل تقنينها (٩٤) ويختم نائينى كتابه بخاتمة ذات مقصدين : المقصد الأول بيان أسباب الاستبداد

ويحصرها فى عدة أسباب هى : جهل الناس ، ، والاستبداد الدينى ، وعبادة الشاه ، والخلافات الدينية والسياسية والطبقية ، وقوى القهر والارهاب ، والاستبداد الطبقى ، وغصب الأموال [٩٥] ، ويقدم فى المقصد الثانى برنامجا لتثقيف الناس وتعليم الدين الثورى ويذكر خطبة الحسين عليه السلام فى البيضة ويرى أنه عندما تتم الأمور سوف يقضى على عبادة الشاه من الأساس .[٩٦]

وهكذا قدم نائينى « رسالة عملية » تعترف بالدستور والمجلس النيابى بشرط أن يكون تحت إشراف الفقهاء ، وهو ما لم ينكره واحد من علماء الفترة الدستورية ، بل توجد عليه فتوى صريحة من ثلاثة من كبار الشيوخ ، عندما أراد محمد على شاه أن يلعب بالسهم الأخير ويعلن أن الدستور مخالف للإسلام جبهه بها ثلاثة من كبار الفقهاء حاجى ميرزا حسين بن حاجى ميرزا خليل ، وملا محمد كاظم الخراسانى ، وملا عبد الله المازندارانى . [٩٧] لكن النصر عندما تم لثوار المقاتلين ، لم يكن هناك مجال لتطبيق برنامج نائينى التوفيقى ، فقد كان هدف كل القوى التى تحرك الخيوط هو إبعاد الإسلام عن الساحة مما أجهض الحركة الدستورية وقضى عليها تماما .

انتهت الجولة الأولى إذن بإعدام من أعدم ، وسجن من سجن ، وفرار من فر ، وفترة من الاستبداد المطلق والاختناق الكامل ، لكن الشعب الذى كان قد ذاق حلاوة الحرية وعز عليه أن يقمع بهذا الشكل لم يسكت ، فبينما كانت طهران ترزح تماما تحت أقدام عسكر القوزاق لا تستطيع المقاومة اللهم إلا من بعض الحركات الفردية ، نهضت تبريز وكان عدد كبير من سكانها من المهاجرين الإيرانيين الذين نزحوا إليها منذ عدة أجيال من المدن التى تسلمتها روسيا بعد الهزيمة العسكرية الإيرانية ، والواقع أن قيام تبريز بقيادة مناضلين قوميين من طبقات الشعب وهما : ستارخان تاجر الخيول وباقر خان تاجر الأرز ، وبمؤازرة فعالة من الجناح الدينى يعد فى حد ذاته معجزة من معجزات الشعوب وصفحة عظيمة من صفحات نضال الشعب الإيرانى فى مطلع هذا القرن،وأخذت الأسلحة تتدفق على تبريز من رفاق الكفاح فى القوقاز مخترقة الحصار الروسى على المدينة ، ومن رشت تحرك جيش محمد ولى خان تنكابنى ، وفى أصفهان أسست جمعية سرية للمقاومة على رأسها رجال دين من أمثال الشيخ نور الله ، وسيد حسن مدرس (تذكر هذا الاسم)[٩٨] ، ثم تحركت قبائل البختيارى ، وبينما كان الروس مشغولين بقتال ثوار

تبريز زحفت قوات رشت وجيلان وقبائل البختيارى بقيادة صمصام السلطنة وضرغام السلطنة على العاصمة ، وكان من الواضح أن تحرك قبائل البختيارى كان مساهمة انجليزية فى الوقوف أمام النفوذ الروسى المتصاعد ، كما كان من الواضح أن خانات الإقطاع لايهمهم الشعب أو الدستور فى شيء بل كانوا يحاولون الصيد فى المياه العكرة ، كما كان استقرارهم فيما بعد فى طهران وسيلة فعالة لضرب الحركة الدستورية ، ولم تلبث كل هذه القوات بعد قتال شديد فى كل بلد أن أحدقت بطهران ثم دخلتها ، وطاش تمسح الشاه بالإسلام بفتوى من كبار الفقهاء كما ذكرت آنفا ، ودارت رحى القتال داخل طهران نفسها عدة أيام ، وفى يوم الجمعة السادس عشر من يوليه سنة ١٩٠٩ لجأ الشاه مع خمسمائة من حرسه الخاص وأسرته إلى السفارة الروسية ، وخلع ونفى ، وكان حتى اللحظة الأخيرة يحاول أن يأخذ معه أكبر كمية من مجوهرات السلطنة ، بل أبرق إلى القيصر الروسى يطلب أن يساعده فى الحفاظ على حقوقه الموروثة ، وبالرغم من أن الرغبة فى إعلان الجمهورية كانت موجودة عند عدد كبير من الثوار فإنهم لم يصرحوا بذلك ، فقد كانت الظروف غير مواتية من كل النواحى : السلطات الأجنبية التى كانت تسيطر على إيران ، وأقطاب الرجعية من زعماء العشائر والإقطاعيين ، كما كانت خشيتهم من الفقهاء ونيتهم على إقصائهم من الساحة ، ومن ثم ولى أحمد شاه ملكا ، ولما كان فى الثالثة عشرة من عمره ، عين عضد الملك كبير الأسرة القاجارية وصيا على العرش .

واتضح من استقرار الثوار القوميين فى طهران أنهم لم يهدفوا إلى إنقاذ الدستور فحسب ، بل كانوا يريدون أيضا إقصاء الفقهاء ، فشنق فضل الله نورى ودمغ تاريخه بالخيانة والرجعية وشوهت سيرته ، وكان شنقه دون محاكمة وعلى يد أحد الأرمن[٩٩] ، وتم قتل من قتل من العلماء لأنهم أنفوا اللجوء إلى السفارة البريطانية ، ولجأ القوميون فيما تبع ذلك إلى تهديد كبار العلماء « فقبعوا فى بيوتهم وتجوهلت قيادتهم وفتاويهم ، وتحدث القوم صراحة عن فصل الدين عن السياسة[١٠٠] وقام « الديموقراطيون » باغتيال بهبهانى ، وحاصروا طباطبائى فى منزله منذرين إياه أنه إن تدخل فى أى أمر فسوف يكون مصيره كمصير بهبهانى» [١٠١] وهكذا يقيم ناظم الإسلام الكرمانى تجربة الدستور كشاهد عيان فى إيجاز قائلا « ولم يحدث كل ما كان مطلوبا من الدستور بل حدث عكسه تماما »[١٠٢] .

وهكذا افتتح المجلس الجديد دون شاه ودون إسلاميين ، لكنه كان يواجه مشاكل عديدة : فقواد الجيش التابعون لمحمد على شاه وعلى رأسهم رحيم خان يثيرون القلاقل فى الأقاليم فترة من الزمن ، وداراب ميرزا يحاول الاستقلال بمنطقة أردبيل بتشجيع من الروس ، والوفاق قائم على قدم وساق بين الألمان والروس والانجليز ، والاغتيالات التى دبرها « الأحرار » ضد رجال الدين انقلبت عليهم بتدبير من الروس ، وبينما كان الصدر الأعظم الجديد نصير الملك يحاول إصلاح ما أفسده الدهر كان الفساد أقوى منه ، وانشق « الأحرار » على أنفسهم طبقا لانتماءاتهم ، كما كانت هناك فرق البختيارى المسلحة تجوب الشوارع دون وازع ، ثم كانت هناك تلك الروح التى انطلقت من إسارها بعد عدة قرون ، وعبادة القوة التى يمكن بها الحصول على كل شيء ، وفى هذه المعمعة وصل مورجان شوشتر المستشار الأمريكى لاصلاح النظام المالى فوجد نفسه أمام مشكلات معقدة لا يمكن أن تحل والحال هكذا ، وكانت هناك فجوة دائمة بين الوزارة والمجلس ، وكانت كل القوى الزاحفة على طهران تتصارع الآن حول الغنيمة وتريد أن يكون رئيس الوزراء منها ، وكان من الواضح لكل ذى عين أن هناك قوتين وراء كل هذه المآسى التى حرمت الشعب الإيرانى من جنى ثمار نصره : التدخل الأجنبى العلنى من الروس ، والتسلل الخفى من الانجليز ، وفى ظل هذا الاضطراب كان من المستحيل إجراء أى إصلاح داخلى يشعر الناس بأن ثمة فرقا بين نظام الدستور « الحر » ونظام الشاه « المستبد » ، وفى ظل هذه الظروف كانت الفرصة مواتية تماما للروس لتنفيذ مخططاتهم فى الشمال ، فقصفت تبريز بقسوة ودخلها الروس حيث أعملوا فيها المذابح ، وشنقوا زعماءها وأئمتها على مشانق زينت ببهرجة بالألوان الروسية ، كما قصفوا مشهد وأحدثوا مذبحة رهيبة فى ساحة مشهد الإمام الرضا (١٩١٢) وكان المقصود بكل هذا إعادة محمد شاه الذى وعد بضم الشمال الإيرانى إلى الروس فى حالة نجاحهم ، وسوف نشهد فى الصفحات التالية أن الروس لم يتخلوا عن هذه الرغبة فبعد سقوط القيصر ، جاءت الأيديولوجية .

ثم كان قيام الحرب العالمية ضغثا على أبالة ، فقد كانت إيران ميدانا عسكريا لكافة القوى الموجودة فيها من انجليز وروس ، كما جمع الأتراك قواتهم على الحدود ، ووجد « الأحرار » أنفسهم محصورين ، وحدثت الفجوة الرهيبة بين مفكرى الثورة

وجموعها وأصحاب المصلحة الحقيقية فيها بالفعل عندما أخذ مفكرو الثورة يهاجرون جماعات إلى برلين يدافعون بالكلام والخطب والمجلات والجمعيات الثقافية عن إيران ما قبل الإسلام ، كانوا يدافعون عن « إيران » ليست موجودة إلا فى مخيلاتهم ، بينما إيران الحقيقية تعانى الشقاء وتصلى نار حرب لاناقة لها فيها ولا جمل ، وتعيش فى فوضى حقيقية ، وبالرغم من أن الثورة الروسية رفعت عن كاهل إيران بعض ما تعانيه ، وأعلنت حسن نواياها بالنسبة للشعب الإيرانى ، فإن روسيا السوفييتية أثبتت أنها لا تقل طمعا فى إيران وإن تغير المدخل ، كما خلا الجو للانجليز المنتصرين فباضوا وأصفروا ، وكانوا يجاهدون جهاد المستميت لوضع إيران تحت نظام أشبه بالانتداب متعللين بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لمنح إيران قدرا من الاستقرار الذى يمكنها من إدارة عجلة الحياة المدنية ، بينما كانت تجرى فى الشمال الإيرانى فصول من حركات أكثر ثورية وتطورا بعد أن ضربت الثورة الدستورية تماما على أيدى : الأجانب والإقطاع والعشائر .. وماذا أقول ؟: والزعامات القومية نفسها .



الفصل الثالث

النضال الإسلامى فى حماية الدب

كان الملمح البارز من ملامح حركة النضال الإيرانى فى الفترة مابين سقوط الدستور وقيام ديكتاتورية رضا خان (١٩١٠ ـــ ١٩٢٢) أن الحركة كانت إبان ثورة الدستور ثورة بكل معانيها قد انقسمت – بعد سقوط عدد من الضحايا وانزواء عدد من الزعامات – إلى شقين متناقضين أشد ما يكون التناقض : فهناك زعامات علمانية حولت الحركة إلى قضية تحملها معها إلى برلين أو لندن أو باريس تمارس شكوى المظلومين فى عقر دار الظلمة ، وتمارس نوعا من الكفاح بلغة المحتل يقدم التنازلات دون انتصارات تذكر ، ولا يفهم من الاستقلال إلا عدم وجود قوة عسكرية أجنبية داخل الوطن ، أما التغرب ، فلا بأس من « أن نضع قنبلة التغرب بين ملابسنا ونفجرها دفعة واحدة وإلى الأبد ونصير غربيين من الرأس إلى القدم » بتعبير حسن تقى زاده، وأغلب هؤلاء هم الذين عادوا بعد انقلاب رضا خان العسكرى ليمثلوا أدوار الفلاسفة وليضفوا على وجه رضا خان الكئيب بعض هدوء الفكر .... أما الشق الثانى فقد كان على رأسه أولئك الذين اشتركوا فى حرب الشوارع لإسقاط استبداد محمد على شاه قاجار ، من الوجوه الشعبية الحقيقية التى تعيش بين الناس وتحس بنبضها الحقيقى أيا كانت انتماءاتها الفكرية ، وكان بعضهم يحمل لقب المشيخة وبعضهم يسعى لحمله ، وكان هؤلاء يدركون جيدا أن التيار الذى لايمكن أن يكون تابعا هو التيار الإسلامى ، ويعلمون بالفطرة أن تقديم شكوى الظلم للظالم نفسه نوع من العبث والبله ينبغى أن يترفعوا عنه ، ولا يجيدون تنميق الخطب أو حضور المؤتمرات أو ارتداء الردنجوت ، ويعرفون أن التغرب داء عليهم أن يبرءوا منه ، ويعلمون بالتجربة والفطرة أن كل خطب العالم ما كانت تستطيع أن

تزحزح محمد على قاجار عن عرش الاستبداد ، لكن بنادق ستار خان تاجر الخيل وباقر خان بائع الأرز وعلى مسيو الخباز وبضعة آلاف من الفلاحين والزراع وطلاب العلوم الدينية استطاعت أن تحدث المعجزة ، وفوق هذا كله كان كل أولئك الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الكفاح المسلح يعيشون فى قلب الوطن وفى زواياه المهجورة ، لا على ضفاف السين والراين والتايمز ، يشاهدون عن كثب أرض إيران تقسم علنا بين الروس والانجليز والرئاسات والعشائر ، ويسرع الألمان لاكتساب جزء من الغنيمة ، والعثمانيون يغيرون على الحدود ، وكانوا يعانون الجوع بمعناه الحرفى ، اضطر أحدهم ، وهو ميرزا كوتشك ، إلى صفع سائل تتبعه عدة أيام دون أن يقتنع بأنه مثله مفلس ومثله يتضور جوعا ، ومات السائل من الصفعة ، ويقدم ميرزا كوتشك نفسه للسلطات ويسجن بضع سنوات يخرج بعدها من السجن بعد أن يكون قد أدار فى ذهنه خطة كاملة لأول حرب عصابات ذات بعد إسلامى فى تاريخ إيران المعاصر . (١٠٣)

وفضلا عن ذلك فإن هذه الحركات التى قامت فى هذه الفترة تعد التعبير الحقيقى ورد فعل الفشل الذى منيت به الثورة الدستورية ، وإرهاصات الثورة الأخيرة ونموذج الحركات ذات الأيديولوجيات الكاملة الواضحة والمظهر الجماعى ، هذا بالرغم من أن كتب التاريخ الإيرانى المعاصر لا تشير إليها إلا إشارات ضئيلة جدا كحركات عصابات خرجت على السلطة استطاع « البطل » رضاخان أن يسيطر عليها ويقمعها ويصفيها ويجنب الوطن ويلاتها ، كما أن هذه الحركات أو بعضها على الأقل يعد نموذجا مبكرا لمحاولات الشيوعية احتواء الحركات الإسلامية وسرقتها إن أمكن وتحويلها عن مسارها ثم التخلى عنها وتسليمها عند أية بادرة لفائدة مادية من السلطة المركزية التى قامت الثورة ضدها .

استقر ميرزا يونس الملق بـ « كوتشك خان » أى السيد الصغير – لأن والده كان يلقب بميرزا بزرك ، أى السيد الكبير » فى مازنداران مع ميرزا على خان ديو سالار حيث أسسا أواخر سنة ١٩١٥ لجنة باسم لجنة اتحاد الإسلام ، وانضم إليها عدد كبير من الفلاحين وبدأت الحركة فى تنظيم بعض القوات مستعينة ببعض الضباط الأتراك والألمان كما ضمت عددا من الضباط النمساويين الذين هربوا من معسكرات الأسرى فى باكو ، وما أن أهلت سنة ١٩١٨ حتى كانت الثورة تسيطر على جيلان تماما

كما تمد آثارها إلى مازنداران واستراباد بالرغم من المقاومة الشديدة التى لقيتها من ملاك الأراضى كما أسرت عددا لابأس به من الرهائن البريطانيين واستطاعت أن تضم إليها عددا من الجنود الروس الذين تركزوا فى ميناء « انزلى » أثناء عودتهم من الحرب ، وانتصرت على حملة بريطانية ذهبت للقضاء عليها .

وبعد اتفاقية ١٩١٩ بين بريطانيا والسلطة فى طهران ، كون كوتشك خان ورفيقه حزب الغابة « جنكل » كما أصدرا مجلة بنفس الاسم ، وأقسما على عدم إزالة شعر الرأس واللحية مادام للأجنبى وجود فى إيران ، وبتوسع الحركة لم يعد للحكومة المركزية فى شمال إيران سوى وجود اسمى ، وفى أول صدام بين قوات الغابة وقوات الحكومة سلم الدكتور حشمت أحد أعضاء الحركة نفسه ومعه مائتان وسبعون من أتباعه ، لكن الحكومة نكصت عن عهد الأمان وأعدمته [(١٠٤)] ولجأ ميرزا كوتشك إلى أعماق الغابة ، وساءت علاقته بمن حوله ، وكانت الفرصة للشيوعيين لاستغلال الحركة التى بدأت إسلامية ، فى نفس الوقت الذى هددت فيه الحكومة المركزية كل من يؤوى أحد أعضاء الغابة بحرق منزله على من فيه وبإعدام كل من يساعده أو يطعمه .

كان الإعلان الأول لحركة الغابة يقول « نحن فى المقام الأول من أنصار استقلال أرض إيران ، استقلالا تاما بكل ما تعنيه الكلمة ، أى بدون أدنى تدخل من دولة أجنبية ، نحن نطالب بإجراء إصلاحات أساسية فى الدولة والقضاء على الفساد فى أجهزتها ، فكل ما حاق بإيران إنما هو من جراء هذا الفساد .. ونحن نطالب أيضا باتحاد كافة المسلمين .. هذه هى مبادئنا ونطالب كل الإيرانيين بالانضمام إلينا » [(١٠٥)] ومع وجود أمثال هذه الأفكار بكثرة فى جريدة « جنكل » فإن الحركة كانت تعانى أكثر ليس من ضغط الحكومة ولا من ضغط النفوذ الأجنبى المستقر فى إيران ، أو من قتال القياصرة قبل الثورة البلشفية والبلاشفة بعدها قدر ما عانته من ازدواجية الأيديولوجية بين الإسلام والماركسية « ومن هنا تفسر حركة مجاهدى خلق المعاصرة على أساس أنها الامتداد الطبيعى لحركة الغابة على أساس أنها حركة دينية ركبها الشيوعيون .» [(١٠٦)]

فى حين أن ميرزا كوتشك خان كان يؤمن إيمانا راسخا بأنه ما من مجهود بشرى يمكن أن يكلل بالنجاح ما لم يكن منسجما مع التعاليم الإلهية حتى يحظى بالعون الإلهى ، وفى رده على قائد القوزاق الروسى فى طهران الذى خاطبه بأنه رجل

دين وأن حركته تزيد من عذاب المسلمين وبؤسهم ، أجابه بأنه قد سمع هذه الكلمات المنمقة من الإنجليز والروس من قبل ، وأنه لاهم للروس وللإنجليز إلا تثبيت الطاغية على عرشه ، ولا فهم عندهم عن الإسلام أو العدالة اللذين لا يمكن أن يقيمهما على الوجه الأمثل إلا الثورة ، وختم جوابه قائلا : ليس لدى ما أجيبك به إلا ما أجاب به موسى فرعون ومحمد صلى الله عليه وآله أبا جهل [١٠٧] ، وعندما امتدت الثورة على مدى عامين كانت تستوعب بعض العناصر اليسارية ، وبانتصار الثورة البلشفية أصبح هؤلاء يعملون مستندين على قوة كبرى كانت ترى فى ثورة الغابة فرصة سانحة لاقتطاع جزء جديد من إيران وبأيدى أبنائها هذه المرة .

وفى ٢٨ مايو سنة ١٩٢٠ اجتاحت القوات الروسية ميناء انزلى وطردت منه القوات البريطانية لتقدم بهذه الخطوة غير المحسوبة ذريعة بريطانية لتقوية وجودها وإجهاض الأفكار الثورية والإعجاب العاطفى بالثورة البلشفية الذى كان قد ساد إيران ، وفى نفس الوقت يعلن كوتشك خان إعجابه بالروس لا لشىء إلا من منطلق عدائهم للبريطانيين ، وفات « الثورى العظيم » أن هذا العداء كله لم يكن إلا من أجل اقتسام إيران ، ووجد البلاشفة فى هذا الإعجاب المعلن فرصة لاختراق الحركة فعرضوا عليه أن يساعدوه فى « تحرير » إيران على شرط أن تكون جمهورية بلشفية فرفض ، ثم عرضوا عليه تكوين جمهورية ائتلافية يشترك فيها أعضاء من حزب العدالة وهو حزب شيوعى إيرانى تكون قبيل الثورة الدستورية وهاجر أعضاؤه بعد سقوطها إلى روسيا ثم عادوا فى ركب القوات المنتصرة فرفض أيضا ، فقد كان يؤمن بأن كل ثورة لابد من أن تعتمد على التيار الحى فى المجتمع الذى تقوم فيه ، وأن أى حل خارج الإسلام عبث ، وفى النهاية تم الاتفاق على بضع نقاط من أهمها : أن تعلن جمهورية فى منطقة جيلان لا تتم فيها دعاية شيوعية ، ولا يتم فيها توزيع الأرض على أسس شيوعية بل أسس إسلامية ، وألا تدخل قوات روسية أخرى إلى إيران غير الموجودة فى انزلى (وكانت تقدر بألفى جندى) أما القادة الشيوعيون الإيرانيون فقد انضموا إلى كوتشك خان كمستشارين فحسب ، وتلا ذلك سقوط انزلى ورشت فى أيدى قوات كوتشك خان ، وفى ٢٠ يونيه أعلنت جيلان جمهورية اشتراكية ، وكان من الواضح حسب تقرير للسفير البريطانى فى طهران أن الحكومة عاجزة عن اتخاذ أى رد فعل تجاه الحركة ، وكانت جمهورية جيلان الاشتراكية تحمل

فى أحشائها بذور ضعفها فى تشكيلها الثلاثى العجيب : القوى الإسلامية بزعامة كوتشك خان نفسه وتجمع حولها قاعدة الحركة من العمال والفلاحين ، وإحسان الله خان الليبرالى اسماً الشيوعى فعلا الذى كان يوصى كوتشك خان بالإقلاع عن الصلاة والدعاء وبنسيان « الإسلام » إن أراد أن يكتسب صداقة لينين ، ثم خالوقربان الشيوعى السافر المدعوم بالسوفييت والقوى الكردية العسكرية .

وبعد شهر واحد وثب الشيوعيون على السلطة فى شبه انقلاب أدى بكوتشك خان إلى الانسحاب إلى داخل الغابات ، وفعلت الدعايات الشيوعية فعلها بين الثوريين المسلمين الذين كانوا يفتقرون آنذاك إلى أيديولوجية إسلامية واضحة تستطيع أن تقف فى وجه الدعاية الشيوعية ، ويرون أنفسهم محاصرين بين السوفييت والبريطانيين والحكومة المركزية ، فحدثت انقسامات عديدة وتمت الغلبة للشيوعيين الذين دعموا فى انقلابهم بقوات وطائرات سوفييتية « ١٩ يوليو سنة ١٩٢٠ » .

وفى ٣٠ يوليو سنة ١٩٢٠ أسس إحسان الله خان حكومة جديدة فى رشت تجمع بعض الأعضاء فى الحزب الشيوعى الإيرانى وحزب العدالة وبعض القواد الأكراد والمستشارين السوفييت ، وبدأ الثوار الجدد بالهجوم على الدين قبل أن تنضج « الكعكة » ، وقبل أن يثبتوا أقدامهم الواهية ، بدءوا فى الهجوم على القرآن وشن معركة « السفور » فى أشد جهات إيران محافظة ، كما أغلقوا المساجد فى رشت ، وكان هذا كله حتى فى رأى المؤرخين الروس تسرعا لا مبرر له صرف القاعدة من صغار البورجوازيين والعمال والفلاحين عن الثورة بشقيها معا ، فقد كان هؤلاء بحس إسلامى عظيم يحملون كوتشك خان نفسه مسئولية فتح الطريق لهؤلاء « الكفرة » للنفاذ إلى الحركة الإسلامية وركوبها ، وبات كوتشك خان لا يدرى ماذا يفعل ؟ ليته لم يرسل فى البداية برقية إلى لينين يطلب تأييده والاعتراف به[١٠٨] ، كان يزداد خوفا يوما بعد يوم من الجمهورية الوليدة وانتشارها السريع نحو جبال البرز ، وكانت خشيته أن يتمكن الشيوعيون حلفاء الأمس وأعداء اليوم من عبور البرز إلى طهران[١٠٩] .

وكان الروس أنفسهم قد بدءوا يقلقون من التطرف داخل الجمهورية مما يهدد كل مصالحهم فى إيران ، فعملوا على إبعاد إحسان الله خان عن اللجنة المركزية ووضعوا مكانه حيدرعمو أوغلو أحد أقطاب الشيوعيين فى الثورة الدستورية ،

وبدأت اللجنة الجديدة فى تدبيج النظريات التى تخالف تماما نظريات إحسان الله خان ، فإيران ليست مجتمعا رأسماليا لكنها مجتمع فى مرحلة انتقال من القبلية إلى الرأسمالية ، ومن ثم فهى لا تحتاج إلى حركة اشتراكية خالصة بل تحتاج إلى مرحلة اتحاد بين كافة القوى للخلاص من الشاه والقوى الإقطاعية ، ولابد إذن من الوصول إلى اتفاق مع كوتشك خان ، ولابد أيضا من أن تعمل الدعاية الشيوعية دون أن تقترب من عقائد الناس الدينية .

وإنطلاقا من هذا الاتجاه الجديد بدأ أعضاء اللجنة المركزية مباحثات مع كوتشك خان ومن ثم تكونت الجبهة الجديدة فى مايو سنة ١٩٢١ بين كوتشك خان وأتباعه وحيدر عمو أوغلو وأتباعه وإحسان الله خان وأتباعه ، وبدأت الجبهة الجديدة فى إصلاح ما يمكن إصلاحه داخل جيلان ووضع برنامج إسلامى شيوعى (!!) للنهوض بالمنطقة التى كانوا يعتبرونها نموذجا لما يمكن أن تكون عليه كل إيران فيما بعد ، لكن برامجهم كلها لم تكن إلا جعجعة بلا طحن ، لم تبلغ حتى مرحلة المحاولة ، لأن الصراع على السلطة استنفد كل مجهودات « الرفاق » ، وحاول إحسان الله خان أن يهاجم طهران نفسها ، لكن الهجوم فشل فشلا ذريعا وكلف إحسان الله خان مقعده فى اللجنة المركزية ، ولم يلبث التحالف الثنائى بين كوتشك خان وحيدر عمو أوغلو « مساعد لينين فى الثورة البلشفية داخل روسيا نفسها » أن سقط عندما انطلقت شائعة فحواها أن حيدر عمو يدبر مؤامرة لاغتيال كوتشك خان ، فهوجم مقر اجتماع لهما وقبض على حيدر عمو وقتل فيما بعد ، وانفض التحالف ، واحتدم القتال بين الشيوعيين والإسلاميين .

وكانت الأمور تجرى فى طهران على غير ما يحب السوفييت وكوتشك خان معا ، وكانت وزارة وثوق الدولة قد سقطت وحلت محلها وزارة مشير الدولة صاحب الأملاك الشاسعة فى مازنداران ، كما كان يعلم تماما أن مصير ثورة الغابة فى أيدى السوفييت ، وفى الوقت الذى كانت فيه قوات الحكومة تتقدم من رشت ، كان خالو قربان وإحسان الله خان موفدين من قبل السوفييت للتباحث مع البريطانيين للخلاص من كوتشك خان ، وكانت الحكومة فى طهران أسبق من البريطانيين ، فلوحت بعظمة من غاز الشمال للسوفييت ، وأعلن السفير الروسى فى طهران للشاه أنه إن تم اتفاق بين الحكومة الروسية والشاه ، فسوف تبذل الحكومة الروسية جهدها

لحل « مشكلة جيلان » ، وأجاب الشاه بإعلان تفاؤله بالنسبة للمستقبل من أجل إرساء قواعد علاقات متينة بين البلدين ، وبناء على اتفاقية عقدت بين الدولتين ، اتفقتا على عدم قيام إحداهما بتشجيع دعاية مضادة للأخرى أو الاشتراك فى أى عمل معاد للأخرى ، وكانت النتيجة أن استسلمت العصابات الشيوعية فى جيلان لقوات رضا خان .

وبالرغم من أن البريطانيين حاولوا – ردا على هذا التقارب – أن يتصلوا بكوتشك خان لإغرائه بمنح بعض الامتيازات للبريطانيين فى مقابل المساعدة ، لم تؤد الاتصالات إلى نتيجة ، بينما كان السفير الروسى فى طهران يلح فى وجوب الإسراع فى تطهير طريق « التجارة » بين روسيا وإيران من ثوار جيلان ، وكانت خيانة « الرفاق » التى لم تكن الأخيرة فى تاريخ إيران المعاصر قد فتحت عينيه على قواعد « لعبة » لم يكن هو ومن معه من جماعة المؤمنين يقوون على الوقوف أمامها ، وكان الأمل فى انضمام قوات جديدة من أنحاء إيران قد خفت تماما ، فقد كان رضا خان قائد الانقلاب الجديد يقبض على الأمور بيد من حديد ، وهكذا ففى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢١ حاصرت قوات رضاخان رشت ، واستسلمت على الفور قوات إحسان الله خان وخالو قربان وقوات الجيش الأحمر ، وأقسم المناضلون يمين الولاء للحكومة الجديد ، ولم تقف الخيانة « الحمراء » عند هذا الحد ، بل أخذ خالو قربان ــ الذى أصبح باستسلامه المهين ضابطا فى جيش رضاخان ــ على عاتقه تصفية جيوب مقاومة كوتشك خان داخل الغابات على أساس أنه أدرى الناس بمسالكها ، بينما فضل إحسان الله خان أن يعود مع الجيش الأحمر إلى روسيا ، وأعلن رضا خان عهد الأمان لمن يستسلم من قوات كوتشك خان ، فكان عدد المستسلمين قليلا ، وانضم بعض الجنود الهنود المسلمين الذين أوفدهم الإنجليز لإمداد رضا خان إلى كوتشك خان « وقد شنقوا جميعا فيما بعد فى بغداد » .

كان كوتشك خان يعلم أن المقاومة غير مجدية ، لكنه كان يعى درس الحسين عليه السلام « الموت بشرف خير من الحياة بذلة » ، ولم يفقد حياته داخل معركة ، بل فقدها عندما داهمته عاصفة ثلجية وهو يحاول الوصول إلى موقع من مواقع المقاومة ، واكتشف الجثة أحد ملاك الأراضى فحز الرأس وحملها خالو قربان إلى رضاخان ــ ويالها من مشابهة ــ ودفن الرأس فى مقابر طهران ثم سرق فيما بعد

ونقل حيث دفن مع جسده فى سليمان داراب إحدى قرى جيلان حيث أصبحت مزارا للثوار .

وبالرغم من سقوط الحركة فإن رضاخان ظل يعانى طويلا من رسوخ البرامج الإصلاحية التى وضعها فى نفوس أهل جيلان ، وحاولت حكومته أن تنشر بين الشعب أنه كان شيوعيا ، لكن الفقيه العظيم ، والمقاوم الوحيد الذى كان أمة وحده فى عهد رضا شاه الأسود ، سيد حسن مدرس ، أعلن فى فتوى صريحة أن كوتشك خان ومن حاربوا فى صفه كانوا مسلمين مؤمنين حقيقيين .[١١٠]

أما الحركة الثانية فى إطار الحركات الإسلامية فى حماية الدب فهى حركة الشيخ محمد خيابانى ، ويلخص حسين كاظم زاده إيرانشهر فى كتابه عن الشيخ ، الذى نشره بعد استشهاده بأربع سنوات ، مفاتيح شخصية الشيخ فى أنها تتلخص فى نقطتين : الفكر والإرادة ، ويرى أن هاتين النقطتين هما اللتان يتلخص فيهما رقى الأمم ومجدها ، ويرى أنه لولا وجود الشيخ خيابانى فى آذربيجان فى تلك السنوات المحفوفة بالمخاطر لكان مصيرها – لا محالة – الانضمام إلى السوفييت لتلحق بالجزء المحتل وهو هدف من أهداف السوفييت على المدى القريب والبعيد .

ولكى نعلم موضع الشيخ من الحركة الإسلامية وتاريخها ـــ وهو موقف جدا غامض ـــ لابد من أن نعود إلى سيرة الشيخ السياسية والنضالية وفيها خطوات تعد علامات بارزة فى مراحل حياته وتكوينه الفكرى ، ومدى الالتباس الذى يمكن له أن يتم إن مزج الإسلام بفكر آخر أو اتخذه تكأة لترويج فكر آخر .

ولد الشيخ محمد خيابانى فى قصبة « خامنه » من توابع تبريز سنة ١٢٩٧ هـ ، كان والده حاجى عبدالحميد يعمل بالتجارة بين روسيا وإيران ، وأقام فى روسيا حوالى ثلاثين عاما ، وتلقى الشيخ تعليمه الأولى فى خامنه ثم سافر إلى أبيه وقضى معه فترة ثم عاد إلى إيران لتلقى العلوم الدينية ، وفى عنفوان شبابه شغل منصب إمام الجمعة فى مسجد كريمخان فى حى خيابان فى تبريز ، ثم سافر إلى داغستان وهى مركز من مراكز المسلمين داخل روسيا ، واشترك فى الجهاد ضد الروس إبان وقوف مسلمى داغستان أمام محاولاتهم ضمها ، ثم عاد إلى إيران لينضم إلى المجاهدين فى الثورة الدستورية ، وعندما حوصرت تبريز من قبل الروس حمل الشيخ سلاحه ،

واختير عضوا فى اللجنة التى نيط بها إدارة الولاية ، وعندما سقط محمد على شاه اختير كنائب من نواب تبريز فى المجلس النيابى ، وفى طهران بدا كنائب مستقل وإن كان متوحد الرأى دائما مع الجناح اليسارى فى المجلس المسمى بالحزب الديموقراطى ، وعندما وجه الإنذار الروسى لحل المجلس فى دورته الثانية ، انضم خيابانى صراحة إلى الحزب الديموقراطى ، وألقى خطبة نارية ضد الإنذار وضد حكومة وثوق الدولة التى قبلت الإنذار ، وعندما حل المجلس على أسنة الرماح ، ألقى خطبة أخرى فى ميدان « سبزه ميدان » وهو ميدان سوق طهران ، ثم اصطحب أسرته ورحل إلى مشهد ، ومنها انتقل إلى روسيا وبقى فترة فى بطروفسكى ، وبعد عدة شهور عاد إلى تبريز حيث استطاع مع بعض رفاقه أن يشكل مؤتمرا يضم نواب تبريز وولاية آذربيجان وكون منهم لجنة لإدارة المنطقة وأصدر جريدة « تجدد » التى ظلت طيلة خمس سنوات تبث أفكارها ، كما قام بتشكيل ميليشيات مسلحة فى آذربيجان ، إلا أن هجوم العثمانيين فى أواخر الحرب الأولى عطل فعاليات هذه المليشيات ، كان الشيخ محمد خيابانى يدرك أن الحفاظ على الدين والحرية فى حاجة إلى قوة لأن القوة لا تواجه إلا بالقوة .

وقد حاول الشيخ خيابانى أن يتصل بثورة الغابة ، وأرسل مبعوثه حاجى آخوند برسالة إلى ميرزا كوتشك وبعد أن بلغ حاجى آخوند الرسالة وأثناء عودته إلى تبريز أصيب بمرض الإسهال الدموى ، وتوفى فى الطريق ، وبذلك لم يتم اللقاء بين الحركتين ، كما كان خيابانى مرصودا من قبل العثمانيين ، وقد فاوضوه عن طريق مبعوثهم يوسف ضيا على حل الحزب الديموقراطى فى تبريز والانضمام إلى « اتحاد الإسلام » إلا أن خيابانى رفض فنفى إلى « قارص » ، وعندما عاد كان وثوق الدولة قد عين حاكما على آذربيحان ، وبدأ الصراع بينه وبين جماعة خيابانى ، وكانت انتخابات الدورة الرابعة للمجلس النيابى قد بدأت ، وبرغم كل محاولات وثوق الدولة إنجاح مرشحى الحكومة ، فازت جماعة خيابانى بستة مقاعد من تسعة مقاعد ، وكان وثوق الدولة يحاول بكل الوسائل أن يمنع وصول هؤلاء النواب إلى طهران ، مما عجل فى إعلان خيابانى للثورة المسلحة فى تبريز ، ولم تلبث أن سقطت وزارة وثوق الدولة المتهمة بالعمالة للإنجليز ، وحلت محلها وزارة مشير الدولة .

لم يكن خيابانى ميالا إلى البلاشفة كما أشيع ، بل إن كسروى وهو من أعدى

أعداء الجناح الديني يقول صراحة : « الحقيقة أن خيابانى لم يكن عنده أدنى ميل إلى البلاشفة ، ولم تكن لديه سوى أفكاره هو »[111] ، ويعود كسروى فيقول : « لقد انضم كثيرون إلى خيابانى ، لكن الكثيرين أبدوا عداوتهم له ، فكثير من زعماء الديموقراطيين لم يكونوا يتحملون أن ينهض خيابانى بهذا الأمر العظيم ، وأن ينسب إليه ، كما كان هناك أيضا من هم من أتباع وثوق الدولة لا يتورعون عن إطلاق الشائعات ضده ، كان خيابانى يريد أن يستولى على آذربيجان وبعد أن يسيطر عليها بزحف إلى طهران »[112] ولنلق نظرة على ما استطعنا الحصول عليه من أفكار خيابانى ، لنرى أن الشيخ وإن لم يكن بلشفيا ، فإن من الصعوبة بمكان اعتباره « إسلاميا » خالصا ، فقد كانت أفكاره مزيجا من الأفكار التحررية الليبرالية على النمط الغربى ، ولعل ما سلكه فى سلك البلاشفة انتسابه معظم حياته الجهادية إلى جماعة الديموقراطيين من ناحية وبعض مصطلحاته عن الشعب والطبقية من ناحية أخرى ، والواقع أن الشيخ لم يكن يملك من « الإسلامية » إلا اللقب ، وبينما وقف كوتشك خان أمام نفوذ البلاشفة المسيطر معتمدا على قاعدته من الإسلاميين ، فإن الشيخ محمد خيابانى وحده لم يكن يستطيع أن يقف أمام نفوذ جماعة الديموقراطيين اليساريين فى تبريز والذين كانوا ينظرون إليه « كشيخ » ، ومن ثم فمن العسير اعتبار حركة خيابانى ضمن الحركات الإسلامية اعتماداً على لقبه الدينى ، وإلا فإن كل ما وصلنا عن محمد خيابانى لايدور إلا فى الفلك الذى تدور حوله أفكار الزعماء ـــ حتى وإن كانوا من رجال الدين ـــ الذين لا يملكون رؤية إسلامية واضحة وهو فلك : رفض الاستبداد ورفض السيطرة الأجنبية ، لكن تبقى نقطة أخرى لوضع الزعيم ـــ أى زعيم ـــ فى فلك الإسلاميين وهى أن يملك رؤية إسلامية واضحة لحل المتناقضات التى يعانى منها مجتمعه ، فهل نلمس هذه الرؤية عند محمد خيابانى ؟

تدور أغلب الأفكار التى نقلها إيرانشهر حول نقاط خمس : الحرية والاستقلال ، والتجدد (العصرية) ، والترق (التقدم) ، وفلسفة التطور الاجتماعى وظروف النجاح ، والأخلاق . وتحدث خيابانى عن أضرار الاتفاقيات والمعاهدات السياسية من منطلق اتفاقية إيران وانجلترا الموقعة سنة ١٩١٩ والتى كانت السبب المباشر فى ثورته ، وبين ما يمكن أن تخفيه دهاليز السياسة والديبلوماسية ولغتها الشائكة التى تمزج السم بالعسل ، والتى لا يمكن أن تحل إلا بوعى سياسى شامل .

وأعلن خيابانى أن الهدف الرئيسى من ثورته هو منح إيران حالة من الثبات والاستقرار ، وأن هذا الثبات والاستقرار لا يمكن أن يتما إلا عن طريق حكومة ديموقراطية ، ولقيام الحكومة الديموقراطية لابد من أن يعرف الشعب حقوقه أولا ، ودق خيابانى على الوضع الطبقى فى إيران الذى من شأنه أن يفرز من كل طبقة شريحة محافظة يهمها فى المقام الأول أن تحافظ على مكاسبها ، فثورته إذن – وكما أعلن – من أجل الديموقراطية ومحو الظلم لا من أجل الإسلام ، وما تقدم تحليل لخطبة من أخريات خطبه نشرت فى صحيفة التجدد ، فهل يمكن أن يعتبر ما قال أساس ثورة إسلامية ؟

ولأن محمد خيابانى لم يطرح حلا إسلاميا ، ولأن من انضموا إليه من الطلاب الدينيين والتجار المحافظين إنما انضموا من منطلقات إقليمية ، لم تستطع الحركة أن تستقطب الجماهير الواسعة حولها ، ولما كان مستهدفا ومكروها من الديموقراطيين الذين لم ينسوا أنه من « المشايخ » فإن قمع حركته والقضاء عليه شخصيا لم يكلفا الحكومة عشر معشار الجهد الذى تكلفته فى القضاء على حركة الغابة ، فما أن تولى « مخبر السلطنة » حكم تبريز ، حتى استطاع أن يخدع خيابانى ، وأن يتفق مع قوات القوزاق ، فأجرى انتخابات المجلس فى مكان بعيد جذب إليه « المجاهدين » وخلت تبريز للقوزاق ، وعندما سمع خيابانى بسقوط « عالى قابو » مركز تجمع الديموقراطيين اختفى فى منزل أحد رجال الدين فى تبريز وهو شيخ حسنعلى ميانجى ، ثم استشهد فى تراشق بينه وبين القوزاق ، وأخرجت جثته حيث عرضت على سلم صغير خارج مقر « مخبر السلطنة » . وكان أبلغ ما قيل فى رثاء الشيخ تلك المرثية التى كتبها الشاعر بهار وهو شاعر اليسار الأكبر آنذاك فى إيران ، والتى ختم كل مقطع منها ببيت يقول :

لو أن دم خيابانى المظلوم يفور لارتدت إيران بأكملها كفنا أحمر(١١٣)

ولم تنته حركة خيابانى عند هذا الحد ، فقد ثار أتباعه مرة ثانية تحت قيادة لاهوتى خان أحد ضباط الجندرمة الإيرانية الذين كانوا على عداء تقليدى مع القوزاق الذين كانوا تحت القيادة الفعلية لرضا خان آنذاك ، وكانت حركة لاهوتى خان لا تهدف إلا إلى عزل رضاخان من منصبه كوزير للحربية ، ووجد رضا خان أن الحركة موجهة له شخصيا ، وبينما كان يعد قواته كان اليسار قد استولى على حركة لاهوتى

خان تماما ، وأعلنوا برنامجا إصلاحيا يتجاوز البرنامج الذى أعلنه خيابانى قبلها بعامين ، ويدعو إلى تطبيق نظام اشتراكى فعال فى إيران كلها ، إلا أن الثورة لم تستمر طويلا لتطبق برامجها المعلنة ، فقد زحفت عليها قوات القوزاق وهرب زعماؤها وسلمت تبريز .

كانت هناك حركات أخرى فى مناطق أخرى فى إيران لايمكن أن تصنف فى إطار الحركات الإسلامية أو تلك الحركات الإسلامية التى تسلل إليها اليسار ، كانت ببساطة رد فعل لوثوب الضباط على السلطة ، ومن بين الحركات التى قامت فى نفس تلك الفترة حركة الكولونيل محمد تقى بسيان فى خراسان فى خريف ١٩٢١ ، كان بسيان عضوا فى جماعة الديموقراطيين أيضا ، وكان قائدا للجندرمة فى الحرب العالمية الأولى وخاض بعض العمليات العسكرية ضد الروس والانجليز ، ثم سافر إلى ألمانيا وأمضى فيها ست سنوات عاد بعدها لينصب قائدا على حامية خراسان ، وبعد انقلاب رضاخان قام بالقبض على قوام السلطنة حاكم خراسان آنذاك وإرساله مخفورا إلى طهران وبعد سقوط وزارة سيد ضياء الدين ، فوجىء بأن الذى حل محله هو قوام السلطنة نفسه ، فاتضحت له ماهية الانقلاب المزعوم وتمرد ضد الدولة ، وأسس لجنة قومية فى مشهد ، كان بسيان يرى فى انقلاب رضاخان ألعوبة فى يد الانجليز ، وكانت كل إجراءاته إبان سيطرته على خراسان تبين أنه ثار لكى يقطع النفوذ الانجليزى عن إيران ، فقبض على جماعة من جواسيس الانجليز ووضع مراسلات القنصلية الانجليزية فى مشهد تحت المراقبة ، لكن الدولة حركت عليه بعض خانات « إقطاعيى » خراسان وقتل وهو يخوض معركة ضدهم[١١٤] .

ولم تكن الحركات الثورية حكرا على الشمال الإيرانى فقط ، فقد خاضت منطقة الجنوب خاصة تلك المنطقة المسماة تنجستان حربا ضروسا ضد الانجليز الذين كانوا يحتلون المنطقة منذ حوالى نصف قرن قبلها ، وقامت الحرب تحت قيادة جمع من خوانين « كبار ملاك » المنطقة هم رئيس عليخان دلوارى وشيخ حسين خان جاه كوتاهى وزائر خضرخان أهرمى ، واستمرت الحرب ثمانى سنوات « ١٩١٤ - ١٩٢٢ » ، وكان حسين خان يلقب بـ « سالار إسلام » أى قائد الإسلام ، وكان الهدف الأول من الحرب هو إجلاء الانجليز عن الجنوب ، كما كان المشتركون فيها من الفلاحين والعمال الزراعيين فى المنطقة ، كما كانت الشعارات

المعلنة فى الحرب شعارات إسلامية ، واستشهد قائدها رئيس على وهو يهتف « ليدم الإسلام وليحيا إيران »[١١٥] ، ومع ذلك فإن الكتب الأوربية والفارسية التى كتبت فى عهد الشاه لا تنظر إلى هذه الحرب الطويلة إلا على أنها من تحريك الألمان .

كانت الحركات ذات البعد العسكرى والأيديولوجى آخر ضروب المقاومة المسلحة فى إيران ، فبعد أن ثبت رضاخان على سدة الحكم ، راحت إيران فى غيبوبة ، اللهم إلا من بعض المناوشات التى كانت تتم تحت قبة البرلمان أو المناورات الحزبية ، ولم تقم حركات مسلحة إلا فى أوائل سبعينيات هذا القرن .



الفصل الرابع

رضـا خـان وسيد مـدرس
الرجل الأوحد والرجل الأمة

بينما كانت إيران تموج بهذه الحركات ، وكان القوميون يحاربون بالخطب والكلام فى مؤتمرات الصلح فى برلين ، وكانت إنجلترا تسعى حثيثا لبسط سيطرتها على إيران بعد أن خلا لها الجو ، وظهر رضاخان فى الأفق ، ضابطا قويا من ضباط القوزاق وسرعان ما التقطته الأعين الانجليزية الخبيرة ، فقد توسمت ما تبحث عنه فى هذا الضابط الذى ينحدر من أسرة عسكرية ويتمتع بقدرة كبيرة من القسوة فى قمع المعارضة ، واستغلال أدنى فرصة تلوح لصالحه ، وعدم الارتكاز على أى مقومات دينية أو خلقية ، وقد بدأ فى تركيز قوته أولا بتطهير القوزاق من الضباط الروس ، ثم كان عليه أن يبحث عن وجه مدنى يختفى خلفه ، سرعان ما وجده فى شخصية ضياء الدين الطباطبائى وهو صحفى كان ـــ بالصدفة أو بالتدبير ـــ يتمتع بالرضا السامى للانجليز ، ووجد الانجليز فى الشابين الطموحين صيدا ثمينا لتعويض فرصتهم التى ضاعت لوضع إيران تحت الانتداب ، لتكن إيران تحت حكم إيرانى صورى مبارك من الإنجليز ، ومن ثم كان الانقلاب العسكرى فى فجر ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ خلع الحكومة السابقة وتكونت حكومة جديدة برئاسة الصحفى الشاب ضياء الدين طباطبائى استمرت إثنين وتسعين يوما ، أما رضاخان فقد شغل فيها منصب وزير الحربية ، وخلال عامين كان الخلاف مستمرا بين الحليفين السابقين : طباطبائى ورضاخان ، كان كلاهما يرى أن الآخر قد أدى دوره بالنسبه له وأن عليه أن يتنحى ، كما بات الانجليز يعلمون جيدا على أى الجوادين يكون الرهان ، وكان الخلاف يستعر بالطبع لأسباب عديدة تبدأ من اختلاف وجهات النظر بين الصحفى الشاب ذى الميول الرومانسية مفلوت اللسان والقائد العسكرى الجهم الذى يجيد

السباحة مع التيار ويهدف إلى هدف بعيد وشديد الطموح هو الجلوس على عرش الطاووس ، ولم يكن طباطبائى يمانع فى عزل أحمد شاه ، لكنه كان يريدها جمهورية ، وكان النصر فى المرحلة الأولى إلى هذه النتيجة وهذا الهدف المنشود لرضاخان الذى قر عينا برئاسة الوزارة (أكتوبر ١٩٢٣) ، وهرب أحمد شاه إلى أوربا ، وخلال عامين آخرين ، لم يترك رضاخان ألعوبة لم يقم بها ، فهو جمهورى عندما يرتفع صوت الجمهورية ، وإسلامى عندما تصل أنباء ثمار جمهورية أتاتورك أول جمهورية فى العالم الإسلامى ويتظاهر باحترام البرلمان بينما يعمل على تصفيته ويكتل النواب معه بالشراء والإرهاب والاغتيال ، ويتظاهر باحترام رجال الدين وهو ينوى تصفيتهم تماما ، وفى النهاية بلغ رضاخان اللقب والكرسى الذى كان يريده وتوج ملكا على إيران فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، وخلال تلك السنوات لم يصمد أحد ، وكان الأمر كما عبر عنه حسن تقى زاده « تلك أيام لم يكن فيها إلا ممثل واحد ، أما الباقون فدمى بين يديه »(١١٦)

لكن حسن تقى زاده حينما أراد أن يعبر عن فشله فى وقْف رضاخان عند حده عز عليه أن يقول كلمة حق فى رجل كان أمة وحده ، ولا يمكن أن نتتبع خطوات رضاخان بالتفصيل نحو عرش الطاووس دون ذكر للرجل الذى وقف لرضاخان فى كل خطوة من خطواته ، بحيث وصفه رضاخان نفسه بأنه الرجل الوحيد فى إيران . نعم .. فى هذه الرحلة القصيرة بحكم الزمن ، المتشابكة بحكم ما جرى فيها من أحداث كان الذى وقف أمام رضاخان يعد عليه خطواته ويحسب عليه أنفاسه ويضع العراقيل أمام كل خطوة من خطواته هو سيد حسن قمشه إى الشهير بسيد حسن مدرس ، وهو رجل دين اتخذ من المجلس النيابى لا من المنبر ميدانا لقتاله ، حقيقة أنه لم يمتشق سيف الشريعة ، ولم تكن له علاقة حميمة بالمشيخة التى تقلص دورها فى تلك السنوات العجاف ، لكنه ظل ممثلا لتلك الظاهرة التى ينفرد بها الشارع الإيرانى وهى أنه لا يتحرك جماهيريا إلا بإشارة من أصبع أحد رجال الدين .

كانت انطلاقة سيد حسن مدرس من معاهدة وثوق الدولة مع الانجليز ، تلك المعاهدة التى رأينا كيف حركت حرب العصابات فى غابات جيلان وثورة خيابانى فى تبريز ، وبهمة سيد حسن تم إلغاء المعاهدة وإسقاط وثوق الدولة ، ومصداقا لقاعدة

عبر عنها مدرس بأنها « قاعدة دفع الفاسد بالأفسد » وثب باقتراحه هو قوام السلطنة على كرسى رئاسة الوزراء[١١٧] ، وكان على قوام السلطنة « الأفسد » أن يرعى حق السيد المسيطر على المجلس ببيانه وقوة حجته وجرأته الشديدة ، ويجاريه فى مراقبة « الفاسد » رضاخان الذى كان من موقعه كوزير للحرب يتشكل كديكتاتور لم تر له إيران مثيلا ويتلمظ للوثوب على عرش القاجاريين ، مما عجل فى سقوطه وتولى مستوفى الممالك رئاسة الوزراء ، وبالرغم من أن سيد حسن قال « ينبغى أن تسقط وزارة مستوفى الممالك فى نفس اليوم الذى تعرض فيه برنامجها »[١١٨] لكن رضاخان كان يريد لوزارة مستوفى الممالك أن تبقى فبقيت ، فمن سوى هذا المكروه الضعيف يمكن أن يمهد له نفسه كرسى الوزارة ؟ وها هو مدرس يجد نفسه بعد قليل أمام عدوه اللدود يطلب لنفسه كرسى رئاسة الوزارة داخل المجلس الذى كان يسمى نيابيا والذى أصبحت أغلبيته — خوفا وطمعا ورهبا — تسير فى اتجاه رضاخان ، وضاعت صرخات سيد مدرس داخل المجلس وهو يصيح « لاشك عندنا فى كفاءة رضاخان كوزير للحربية ، لكن دعوا الجندى لعسكريته وعليه إلا يتدخل فى سياسة المملكة ، إنكم لا تكلفون حدادا مهما كان ماهرا بأعمال النجارة فى بيوتكم مع أنه عمل هين ولا قيمة له ، فكيف تسمحون لشخص أنتم تقولون عنه وهو يقول عن نفسه إنه لم يقم بأى عمل طوال حياته إلا الجندية بأن يتولى المسئولية المهمة والعمل المعقد لدولة مثل إيران ؟ »[١١٩] لكن متى كان للأقلية صوت والأغلبية نفسها فى رعب ؟ وهاهو رضاخان على مسند رئاسة الوزارة فى وقت واحد — لعلها مصادفة — لرئاسة أتاتورك لتركيا ، ويتبادل الحاكمان الدميتان برقيات التهنئة ، فقد وثبا فى وقت واحد على قمة الحكم فى دولتين إسلاميتين كبيرتين ، ويفكر رضاخان وغالبا ما كان يفكر بصوت مسموع : ما الذى يمنعه من خلع آخر ملوك آل قاجار أحمد شاه الذى فر إلى أوربا هلعا من مصير كمصير خليفة المسلمين فى تركيا ، وهاهو ملك بالاسم يقضى أوقاته كلها على شواطىء نيس والكوت دازور ؟ وهكذا بدأ قائد الأوركسترا فى السماح بإطلاق النغمة الأولى لمعزوفة الجمهورية كضوء أخضر لبقية الجوقة ، وتبعه أعضاء الأغلبية فى المجلس والصحفيون الأبواق والمرتزقة يلمزون أحمد شاه بما هو فيه ، ويزينون الجمهورية للناس ، وكان مدرس فى تمام وعيه لما يحدث ، كما كان يعلم أن الجمهورية مجرد نظام ، لكن أن يكون أتاتورك هو النموذج والمثال ، وأن يكون شبيهه فى إيران هو رئيس جمهوريتها

فدون ذلك خرط القتاد ، ويقوم مدرس بالاتصال بالعلماء فلا أمل فى مجلس لو رشح رضاخان نفسه أمامه إلها لرد عليه بالتصفيق ، ويطارده جواسيس رضاخان ويعدون عليه خطواته وهو يشاهد مهازل التمهيد للجمهورية على كافة المستويات : من رجال الفكر والثقافة — فلاسفة الحتمية الشاهنشاهية فيما بعد — إلى نواب المجلس ، إلى مظاهرات العوام التى تطالب بالجمهورية ، وظل مدرس صامتا يشاهد الملهاة حتى افتتح المجلس ، كان من الواضح أن أنصار رضاخان الذين يسمون أنفسهم بالإصلاحيين سوف يتغلبون تماما على هؤلاء النواب الجدد الذين لم تنبت لهم أظفار بعد ، وأن الأمر كله سوف ينتهى فى جلسة واحدة ، وكان كل همه أن يعرقل الأمر قليلا ، فأفسد جلسة عن طريق الطعن فى قانونية الرئاسة ، وقام خطيبا فى الجلسة التالية معتمدا على الدستور ومواده هذه المرة ، وبأسلوبه العظيم شديد السخرية ، استطاع أن يخرج الإصلاحيين على طورهم ، فإذا بأحدهم ويدعى « إحياء السلطنة » ينهض من مكانه إلى حيث يقف سيد مدرس ويصفعه صفعة شديدة تسقط عمامته ، ثم ليشتبك النواب بالأيدى ، وهذا بالضبط هو ما كان يريده مدرس ، فقد دوت الصفعة فى طول إيران وعرضها ، ووصلت الرسالة التى أراد مدرس إبلاغها إلى الشارع : إذ كانوا لم يقروا نظام الجمهورية بعد وتجرأوا على صفع هذا الفقيه الشيخ السيد فما الذى يمكن توقعه بالنسبة للدين إن هم أقروها ؟ وارتكبت الحكومة خطأ آخر فأغلقت المساجد كيلا يجتمع الناس فيها فزادوا من مخاوفهم على الدين ، و لم يلبث المجلس أن أحيط بالجماهير تهتف « تسقط الجمهورية ويحيا مدرس » ، ويرد أتباع الحكومة « لتحيا الجمهورية وليمت مدرس » ويقف الشيخ هاتفا وسط هذه الجماهير « لتسقط الجمهورية ولتحيا نفسى »[١٢٠] انتهى ذلك اليوم بأربعين أو خمسين قتيلا ، وعدد كبير من الجرحى ، لكنه أحدث صدعا فى الجمهورية التى لم تولد بحيث لم تقم لها بعدها قائمة .

لكن مدرس لم يستفد من انتصاره هذا ، كان يستطيع أن يستغل المد الجماهيرى فى الخلاص من رضاخان كلية ، لكنه لم يفعل ، وظل بعدها مشغولا فى عمله كأستاذ فى مسجد سپهسالار ، وهاهو رضاخان يفهم قوانين اللعبة ، إن كان هذا المجلس سوف يقف حجر عثرة أمام مشاريعه ، فليحجم من قوة المجلس وليأخذ منه صلاحيات لنفسه ، حتى لا يتشدق الشيخ بمسألة القانون هذه ، ويتفق

مع نوابه ، ويقدم استقالة تكتيكية يعلم أن أنصاره فى المجلس لن يقبلوها ، وعندما يهرع الأنصار إلى منزله يشترط للعودة أن يمنح سلطات استثنائية ، ويأخذ رضاخان البيعة على العبودية ، وبعد أن حجم المجلس يلتف حول الهيئة الدينية ليجرد مدرس من القاعدة التى يمكن أن يلجأ إليها ، ويتقرب إلى رجال الدين الذين طردتهم السلطات الانجليزية من العراق ، ويمارس شعائر المذهب الشيعى حتى ما يتصل منها بالمأثور الشعبى ، ويحاول بكل ما أوتى من دهاء أن يشاهد « متدينا مخبتا » ويتدخل السماسرة الأجانب للإصلاح مابين القطبين فيلتقيان فى البرلمان ، ويخدع رضاخان مدرس ، وينصرف من مجلسه لكى يأمر باغتيال الشاعر ميرزاده عشقى الذى سخر مر السخرية من جمهوريته ومن ألاعيبه . لكن مصرع عشقى يمنح مدرس جرأة أكثر فأصبح يجاهر فى مجالسه وبين طلابه بمخاطر الديكتاتور الذى انتقل من مرحلة المضغة إلى مرحلة العظام ، ولم يعد هناك إلا أن يكسى باللحم ، ويرى رضاخان أنه أصبح الفارس الوحيد فى الميدان وأن خصمه ليس إلا مجرد شيخ لا يملك إلا لسانه وهو سريع الغضب سريع الرضا ، ويسبر غور الشيخ بالاقتراب أكثر من منطقة الدين ، ويقوم بإلغاء مجالس تعزية آل البيت ، ويجيب الشيخ بتقديم استجواب إلى المجلس بشأن تجاوزات رضاخان ، وعند خروجه من المجلس يلتقى بغوغاء رضاخان يهتفون « ليمت مدرس » فيلتفت إليهم قائلا : بل ادعوا لى بطول العمر ، فإن مت لن تقبضوا » ، ويلحق به رضاخان ويأخذه من جيب ثوبه جاذبا إليه صائحا : ماذا تريد منى أيها السيد ؟ فيجيبه وعنقه الضعيف بين قبضته : أريد ألا تكون[١٢١] ويقوم رضا خان ومعه سيف المعز وذهبه بتأليب كافة القوى على سيد مدرس ، ويتهمه بأنه كان ضليعا مع الشيخ خزعل ثائر خوزستان ، وبالرغم من أن رضاخان لم يحارب الشيخ خزعل بل استسلم له الشيخ دون قتال فإنه عاد من شيراز إلى طهران عودة الفاتحين ، وعندما تم هذا الاستقبال لمعركة لم تحدث ــ وإن تحدثت عنها كتب التاريخ البهلوى ــ ذهب سيد حسن مدرس إلى أصفهان حيث استقبل استقبال الملوك[١٢٢] ،كان افتتاح الدورة الخامسة للمجلس يقترب ، وقد أزمع رضاخان أن ينهى فترة ترقبه وأن يجنى ثمار ما غرسه ، وها هو يجد الفرصة مواتية عندما أعلن أحمد شاه المرعوب أنه لن يعود من أوربا ، ويدبر رضاخان قحطا لكى يبدو بمظهر منقذ الشعب ضاربا على وتر الرغيف بعد أن فشل فى العزف على وتر الدين ، وهكذا ففى جلسة التاسع من آبان ١٣٠٤ هـ (١٩٢٥) وفى قانون من

مادة واحدة ألغيت سلطة آل قاجار لكى تضيع التكأة القانونية الوحيدة التى تستند عليها المعارضة ، كان مدرس غائبا عن الجلسة ، وفى الجلسة التمهيدية قبلها بيومين بدأ رضاخان ــ الذى كان فى سبيله لأن يكون ملكا ــ فى تصفية أعدائه بالأسلوب الوحيد الذى أجاده وهو الاغتيال ، ويتعرض الشاعر بهار لحادثة اغتيال ينجو منها لتأخره داخل المجلس ويغتال شبيه له فى ردهة المجلس ، وبعدها بقليل يتعرض مدرس لحادث اغتيال : كان وحيدا فى الشارع ذاهبا لصلاة الفجر ، لم يكن هناك باب واحد مفتوح يلجأ إليه ، فرفع عباءته على عصاه وأقعى فاخترق الرصاص العباءة التى ظنها الجلادون جسد الضحية ، وعندما أرسل إليه رضاخان برقية سؤال من مازنداران أجابه : « برغم أنوف الأعداء ، لايزال مدرس حيا »(١٢٣) ، وفى ١٢ ديسمبر حيث « التصويت على تتويج » رضاخان غاب ثلاثون من الأعضاء منهم مستوفى الممالك وسيد حسن مدرس ، وصوت أربعة من بين مائة وخمسة عشر عضوا ضد رضاخان : حسن تقى زاده وحسين علاء ومصدق السلطنة « محمد مصدق » ويحيى دولت آبادى . وكان مدرس يفكر فى شىء آخر ، كان يريد أن يقضى على رضاشاه بأسلوب رضاخان لكن المحاولة تكتشف ، ويقبض على سيد حسن مدرس ، وينفى إلى « خواف » ولينهى رضاخان حياته بعد ذلك ، يذهب إليه الجلادون بعد تسع سنوات كاملة من النفى ، يمزجون له الشاى بالسم وهو ينظر ، وكان صائما فيستمهلهم إلى الإفطار ، فلا يمهلوه ، فيستأذنهم فى الصلاة ، ويظل يصلى حتى يحين أوان الإفطار ، فيفطر على كأس السم ، ويواصل صلاته متهلل الوجه لايبدو عليه أثر ، فيهجم عليه الجلادون ويخنقونه أثناء الصلاة (١٢٤) وتنطوى صفحة من صفحات المجد والعظمة فى تاريخ إيران المعاصر لكى تبدأ صفحة أخرى من الدم والشهادة .

صعد رضا شاه بهلوى إلى الحكم ، وتوارت كل القوى السياسية فى الظل ، فى السجون والمنافى أو تحت التراب بعد اغتيالات سريعة كانت دائما ما تقيد ضد مجهول ، وتسكت عنها المصادر الفارسية ، أما المصادر الأوربية فلا شأن لها إلا التسبيح بحمد الإصلاحات التى قام بها رضاشاه من أجل « عصرنة » إيران ، وكانت هذه « العصرنة » القشرية الظاهرية على أشلاء قيمة يقدسها الإنسان كثيرا وهى الحرية ، وهل كانت هذه الإصلاحات المزعومة التى قدمها لإيران تساوى ما سلب

منها ؟ وعلى أية أيديولوجية كانت ترتكز ؟ ومن الطبقة التى استفادت منها ؟ لم يكن رضاشاه ديكتاتورا مصلحا كما يقال ، فكيف يجتمع الضدان : الديكتاتورية والصلاح ؟ كان رضاشاه يغلب منفعته الشخصية على أى نفع يمكن أن يعود لبلده ، ولم يكن يطيق أن يظهر رجل آخر إلى جواره فى أى مجال من المجالات ، وقد فتك أول ما فتك بأولئك الذين ساعدوه فى الوثوب على السلطة من أعضاء المجلس ، فقد كان « داور » من أهم أعضاء الأغلبية فى البرلمان ، وانتهى بعد عدة مناصب بالانتحار لأن الشاه وبخه على الملأ ، أما « تيمورتاش » الذى فعل فعل الأراذل والسوقة فى المجلس ، فقد كوفىء بوزارة المعارف شغلها خمس سنوات ثم صدر قرار إقالته فى سطر واحد فى الصحف(١٢٥) ، وكان جيش الديكتاتور المصلح هو الدعامة التى يرتكز عليها ، ولم تلبث أن تكونت طبقة أخرى من كبار المقاولين ورجال الأعمال الذين التفوا حول القوى الانجليزية التى سارعت لتأييد الرجل « القوى » ، ومع ذلك فلم يقدم جيش الشاه نجاحا إلا فى قمع مواطنيه ، كما أن رجال أعماله لم يقوموا بمشروع واحد يستفيد منه مجموع الشعب ، كانت مشروعات مد الطرق والسكك الحديدية تخدم فى المقام الأول مشروعات الشاه الخاصة والعسكرية لإحكام قبضته على إيران ، بينما لم تدخل المجارى العاصمة طهران إلا أوائل الخمسينيات ، ولم تدخل المياه النقية منازلها إلا سنة ١٩٥٦ ، وتحت ظل الإرهاب كان الفساد يستشرى بين كافة الطبقات ، وكانت الطبقة المسيطرة فى ظل الرجل القوى تفعل ما يحلو لها وتثرى بلا حدود ، أما محاولات النقد الفردية من قبل بعض الصحفيين فلم يكن هناك سوى رد واحد عليها ، هو إسكات الصوت إلى الأبد ، أما الأحزاب فقد اختفت تماما ، وأسس الشاه « مؤسسه تربية الأفكار : سازمان برورش أفكار » لصياغة العقل الجماعى للشعب ، أليس عجيبا أن تكون فترة حكم رضا شاه فترة صمت بالنسبة لكبار الكتاب فى إيران ؟ هذا مفهوم جيد إذا علمنا أن الشاه قبض على اثنين وخمسين من كبار الكتاب والشعراء والمفكرين وزج بهم فى السجن ، أما من نجا منهم بجلده وهرب إلى الخارج فقد كان يرى أن الكلام ــ مجرد الكلام ــ فى هذه الحال عبث(١٢٦)

وحين كممت الأفواه بدأ الشاه فى عملين : الأول : الاستيلاء على معظم ثروة إيران لنفسه ، والثانى : ماسماه ببرنامجه الإصلاحى .

أصبح الشاه بمصادرته لأموال ضحاياه أكبر مالك فى إيران فى حين أنه عندما قام بانقلابه لم يكن يملك شروى نقير ، وفى سجن « غار الوزراء » كانت هناك حجرة يوقع فيها الضحايا عقود التنازل عن أملاكهم للشاهنشاه الأعظم عن طيب خاطر ، ومن تقرير لأحد أعضاء مجلس العموم البريطانى « لقد قضى رضا شاه على اللصوص وطهر الطرق من قطاعها ، لكنه أفهم أمته أنه من ذلك الوقت فصاعدا ينبغى أن يكون هناك قاطع طريق واحد فى إيران كلها »(١٢٧) وهناك تقرير مفصل لأحد الضحايا وعدد الملاك الذين رآهم فى السجن وكيف تنازلوا عن أملاكهم يضيق المجال هنا عن ذكره(١٢٨) وتقرير آخر يبين كيف غصبت أملاك قيمتها أربعون مليون تومان مقابل سته آلاف تومان(١٢٩) ، وبعد بيعهم الصورى أو تنازلهم كانت حقن الدكتور أحمدى فى انتظارهم ، وكان أمثال ركن الدين مختارى ومصطفى راسخ وجهانسوزى ومقدادى وفرشجى وجمشيدى وياورى وعقيلى بور وغيرهم من ملوك التعذيب فى انتظارهم يضعون أساليب للقتل والتعذيب كونت تراثا للسافاك فى عهد ولده فيما بعد ، وكانت الزنزانات الموبوءة سلفا بالتيفوس(١٣٠)،وعندما كان أحد السجناء يظل حيا ويصل الخبر للشاه كان يصيح « لايزال حيا ؟ ترانى أعددت لهم فندقا ؟ » وكانت عظام الضحايا تتسرب وتدفن فى الحدائق المجاورة ، وكان نظام رضا شاه أول نظام فى التاريخ يجعل الانتقال من بلد إلى بلد داخل إيران بتصريح من وزارة الداخلية ولم يلغ هذا القرار الجائر إلا بعد سقوط رضاخان (١٣١)،وفى مقال لعميدى نورى كتبه بعد وفاة رضا شاه فى منفاه « لقد سعى كثيرا فى أن يجعل إيران دولة عصرية فى الظاهر ، لكن خدماته لا تعد شيئا بالقياس إلى مفاسده ، فإن كفة مساوئه ترجح بكثير ، لقد سود حكم القهر والإرهاب ياة الناس ففقدوا كل ما يملكون ، وتنحى الكتاب والمفكرون أو وسعتهم السجون ، وساد فساد خلقى فظيع ، وكان رضاخان يقوم ليل نهار بتزويد بناء قائم على ماء » (١٣٢)، ويقارن آخر بين فترة حكم رضاشاه الفترة الدستورية وماقبلها ، تلك الفترة التى كان رضا شاه يشيع أنها أشد فترات تاريخ إيران المعاصر فوضى واضطرابا : « إذا كان يقال إن عدم الأمن كان سائدا فى تلك السنوات ، فإن المرء كان يعلم أنه يتعامل مع لص ، واللص لأنه لص يسرق مال الناس عمدا ويقطع الطرق ، لكن فى تلك السنوات العشرين ـــ أى فترة حكم رضا شاه ـــ وباسم القانون وعلى أيدى موظفى الشهر العقارى والشرطة – وكل منهم كان من المفروض أنه حارس على حقوق الناس

وأموالهم ، كانوا يسلبون حيوات الناس وأموالهم ، وإذا امتنعوا ألقى بهم فى السجن .. ففى تلك السنوات الستة عشرة ــ أى فترة الثورة الدستورية وما بعدها ــ متى حدث أن دخل الأمراء بيوت الناس عند مطاردتهم للفتيات والنساء ؟ وهل ألقى بوزير أو أى متهم فى السجن دون محاكمة ودون ثبوت تهمة ؟ هل بدر من الشاه أقل تعد على أرواح الناس وأموالهم ، فى تلك السنوات لم يكن الناس يقضون فى السجون دون تحقيق ، لم يكن رئيس الديوان الأعلى للقضاء يعفى من منصبه لأن قضاته حكموا ببراءة وزير غير مذنب ، لم يطلق الرصاص فى صحن الإمام الرضا على كل أولئك الأبرياء و لم يكن الأحياء يلقون بأنفسهم بين الأموات ، إن كل شىء فى المملكة نابع من الأمن الاجتماعى ، فإذا كان هناك أمن اجتماعى فإن حارة متربة ضيقة أفضل من شارع كبير معبد ، وبغلا أعرج أفضل من عربة فارهة ، ومنزلا من طابق واحد من اللبن أفضل من عمارة متعددة الطوابق ، ورداءً واسعا سيىء الشكل أفضل من ملابس على آخر طراز، ومصباح غاز أفضل من مصباح كهربى ، إن حكومة القمع الديكتاتورية قد خنقتنا خلال هذه السنوات العشرين وقضت على كل نتاجنا وأحاسيسنا »(١٣٣) ولننظر إذن إلى ماهية البرنامج الإصلاحى لرضا شاه وأسسه العامة ، كان الشاه يهدف إلى خلخلة البنية الاجتماعية لإيران لضرب رجال الدين ولتأمين نظام حكمه وسلطته ، فقد كانت قوة رجال الدين هى القوة التى يحسب لها ألف حساب ويعلم أن جذورها ممتدة داخل التراب الإيرانى ، وكان بالطبع يخشى نفوذهم المادى والروحى ، أما نفوذهم المادى فقد جردهم منه تماما . كله بحله للأوقاف ، وأما النفوذ الروحى فقد جردهم من رسمياته بنبذهم وإحيائه لإيران القديمة قبل الإسلام وفصل التعليم الدينى عن التعليم المدنى وتجريدهم من سلطة القضاء الشرعى ، ويقدم مهدى بازرجان تحليلا قيما لإصلاحات رضا شاه ومحاكمة لعصره أمام المحكمة التى كانت تحاكمه وقضت عليه بالسجن عشر سنوات :

لننظر إلى إصلاحات الملك السابق « الآن الأسبق » ولنستنبط منها ماهية إصلاحات الديكتاتور المستبد ، ومن أهمها : إعداد جيش قوى ، وخلع الحجاب عن النساء وتغيير ملابس الرجال ، وإرسال البعثات إلى الخارج ، وتأسيس جامعة طهران ، مد الخطوط الحديدية فى كل إيران ، وإصلاحات القانون ونظام القضاء ، إدخال الكلمات الحديثة فى اللغة الفارسية ، إضعاف سلطات رجال الدين ، بناء

بعض المصانع للسكر والنسيج والفحم والحديد والصلب ، إنشاء البنك الوطنى ، إلغاء الامتيازات الأجنبية ، تعديل اتفاقية البترول ، هذه الإصلاحات بالرغم من تنوعها وتعدد ميادينها تشترك فى سمة أو عدة سمات ، فهى تقليدية تماما وجبرية وسطحية وليس فيها أدنى ابتكار واهتمام بعموم الأمة أو اعتناء بالعمق والدوام ، ومعظمها كان الهدف الأول منه إرساء أسس سلطته وتعميق سيطرته وتشديد قبضته واستبداده ، وضمان مصلحته الشخصية لا مصلحة المملكة ، ولم يكن أى من هذه الإصلاحات لاينسجم مع مصلحة المستعمر ، كان اهتمام الشاه منذ ولى السلطة إلى أن تركها موجها لتشكيل جيش قوى ، كل هذا لحماية سلطته فحسب ، وإلا فماذا فعل هذا الجيش عندما استولى الانفصاليون على آذربيجان ؟ أما خلع الحجاب وتغيير ملابس الرجال فعلاوة على أن كل هذا قد حدث بعد زيارته لتركيا ، إلا أنه : ألم يكن يتنافى فى الأصل مع الحرية والمدنية أن ترتكب كل هذه الفضائح والفظائع فى سبيل هدف ظاهرى وشكلى كهذا الهدف ؟ وهل حدث هذا فى كل الدول التى خلعت الحجاب ؟ وهل يكمن التقدم الأوربى فى سفور النساء وارتداء الرجال السترات والسراويل ؟ ثم تأتى البعثات : ألم يقل رضا شاه نفسه لمهدى بازرجان ورفاقه من الشباب الذين كانوا موفدين فى أول بعثة أوفدها الشاه إلى فرنسا : « لعلكم تتعجبون ، كيف أرسلكم إلى بلد يختلف عن بلدنا فهم جمهوريون وأحرار ، ولكنهم أيضا وطنيون ، وأنتم ستتعلمون منهم الوطنية والعلوم والفنون » [١٣٤] أما الحرية فلا .. ثم ماذا قدمت هذه البعثات ؟ كانت تهدف إلى تقديم طبقة من البيروقراطيين ، تلك الطبقة التى كانت ترهف آذانها لأوامر السلطان لكنها لا تملك حرية التفكير ، طبقة « خادمة » بكل ما فى الكلمة من معنى ، فالادارات الحكومية « جبَّانة » تدريجية للشجاعة والشرف وحرية الإرادة والتفكير .[١٣٥]

أما الخط الحديدى الذى يعد نموذج الإصلاح ومجال الدعاية والذى تكلف مبالغ طائلة ليكون تحت تصرف الأجيال الحاضرة فى إيران ومازالت إيران تتكلف فى سبيله مبالغ طائلة سنويا ، فإن السؤال الذى يثير علماء الاقتصاد : أكان من الضرورى إنشاء هذا الخط الحديدى أم إنشاء عدة شركات للنقل ؟ ومن المسلم به أن شبكة الخطوط الحديدية إذا كانت قد ألحقت بإيران أضرارا اقتصادية جسيمة فإنها لم تنفع دون ضرر إلا الأهداف الاستراتيجية للحلفاء فى الحرب الثانية وكبار

المقاولين الأجانب ، كما كانت منذ تأسيسها تحت تصرف الاستراتيجية الانجليزية ، أما وزارة الطرق فقد كان جل اهتمامها منصبا على ولايات الشمال ، بحيث كانت ميزانية الطرق التى تخدم الأملاك الخاصة فى مازنداران أضعاف ما أنفق على مجموعة الطرق التى استحدثت فى الجنوب والغرب ، هذا ناهيك عن إصلاحات القضاء التى انحصرت فى تكليف القضاة بارتداء الأرواب وتشييد المبانى الباذخة .[١٣٦]

كان الهدف من تشجيع الطبقة البيروقراطية من ناحية ، وإقامة الشركات الاقتصادية الكبرى من ناحية أخرى هو القضاء على طبقة صغار التجار والمهنيين الذين كانوا الأساس والقاعدة الجماهيرية للثورة الدستورية ، كما كان الهدف أيضا هو أن يكون الاعتماد الكلى فى الارتزاق على الدولة ، بحيث إن من يخرج على نظام الحكم يموت تدريجيا أو يضطر إلى مغادرة البلاد ، ولا بأس بهذه الشركات والمصانع كواجهة تخلب لب الزائر الذى لا يدخل البيوت ولا يعرف ما فيها ، كما لا يسمح له بالطبع بزيارة أماكن معينة تحرص البلاد النامية على إخفائها عن الزائر كما تخفى العورات [١٣٧]،لم يكن الأساس هو بلورة شكل الدولة أو إظهار الشكل القومى لها ، فهذان ــ فى رأى بازرجان بالطبع ــ هدفان نبيلان ، لكن ينبغى قبل كل شىء أن تكون الوسيلة قانونية ، وأن تعم المصلحة المجموع ، أما إذا كانت الوسيلة هى الإبادة كما حدث فى حالة بعض القبائل ، وكان يمكن توطينها ، وإذا كان الهدف هو الاستعمار وخدمة الأجنبى الذى يحمى النظام ، فقد يكون البناء كله واهى الأساس ينهار عند أول ريح .

وإذا التمس الباحث الأعذار لكل إصلاحات رضا شاه ، وافترض فيها حسن النوايا ، فإنه لا يمكن إلا أن يقف أمام تصفية النفوذ الدينى ومطاردة السلطة لرجال الدين مطاردة لاهوادة فيها باحثا عن تفسير مقنع ، فلم يكونوا جميعا من « المسيسين » ، ولا يمكن أن تلتصق بهم جميعا صفة الجمود والرجعية ، ومن بينهم من كان أكثر هضما لأفكار التقدمية والحضارة وأوسع أفقا من كل فلاسفة وخطباء « هيئة تنمية الأفكار » مجتمعين ، كما أنه من المستحيل أن نفهم الاستيلاء على أموال الأوقاف التى كانت تنفق على التعليم الدينى وإنشاء المساجد وتحويلها إلى « وزارة الفنون » إلا فى إطارها الذى ينبغى أن تفهم فيه ، وهو الهجمة الشرسة على الدين والتى بلغت الهجوم على المساجد ودخولها بالأحذية،لأن شيخا وجه نظر سيدة هى

زوجة رضا شاه إلى أن دخولها المسجد سافرة مكشوفة الرأس أمر غير مستحب ، كان رضاخان يسير على هدى تجربة العلمانية الأتاتوركية مع بعض التحفظات أملتها القاعدة المتينة للهيئة الدينية فى إيران ، وكون المذهب الشيعى أقلية فى بحر من السنة ، وفى عام ١٩٢٨ كان القانون المدنى قد حل محل الشريعة تماما ، ولنقرأ معا عبارة الباحث الانجليزى بيتر آفرى يقول بلهجة الانتصار والشماتة : « وما أن بدأ عام ١٩٣٦ حتى كانت إيران قد تخلصت تماما من الدين »[١٣٨]

والخلاصة كما يرى مهدى بازرجان : « أن النظام المستبد حينما يقوم ببعض الإصلاحات فإنما يقصد فى المقام الأول أن تكون إصلاحات صورية الهدف منها شغل الناس من ناحية أو تقوية أسس الاستبداد وتثبيت أقدامه من ناحية أخرى ، أو تقوية النظام الأجنبى الذى يحمى المستبد ، إن كل تغيير يقصد منه إصلاح ظواهر الناس ليس تغييرا ، الإصلاح الحقيقى هو الذى يقوى من شخصية الأمة ويزيد من قدراتها ، وإلا فإن ركوب السيارات والسير فى الطرق المعبدة أمر قد يسر أيضا « للخدم » فى بعض الدول ، لكنه لن يغير من كونهم خدما .. إن إصلاحات المستبد عندما تكون عظيمة تكون مثل عاصفة على سطح البحر تثير الأمواج لكن الأعماق هادئة .. وإذا كان المستبد مصلحا ، فأى إصلاح أولى من احترام الناس وإشراكهم فيما يهمهم من الأمور »[١٣٩]

تبقى سياسة رضا شاه تجاه الأجانب وهنا يتجلى الفصام الشاهنشاهى الذى أورثه ولده من بعده ، فبينما ألغى الامتيازات الأجنبية سنة ١٩٢٨ ، كانت الاتفاقية الجديدة بشأن البترول الإيرانى لا تقدم جديدا ، اللهم إلا ما أحيط بها من دعاية ، وكان رضاشاه يتظاهر بكراهية الأجانب ، لكن كراهيته لم تكن تتجلى إلا فى الرقابة على الكتب ، وفى السنوات الأخيرة من حكمه خانه صدق التحديد لاتجاه الريح ، فيمم وجهه شطر ألمانيا النازية ، وفى سنة ١٩٣٧ صار الألمانى النازى ليند يثلات المستشار المالى لحكومة إيران بدلا من ميليسبو ، وفى نفس العام انضمت إيران إلى حلف سعد آباد الموجه إلى السوفييت ، وكانت ألمانيا على رأس الجدول التجارى ، وفى أكتوبر ١٩٣٩ – بناء على بروتوكول سرى – صدرت إيران إلى ألمانيا حوالى ثلاثة وعشرين ألف طن من القطن وستة آلاف طن من الصوف ، وأغرقت البضائع الألمانية السوق الإيرانية وكان الأساتذة والمعلمون والخبراء الألمان يعملون فى وزارة المعارف ،

وبينما كان الشاه يكره الكتب كراهية التحريم قدمت إليه الحكومة الألمانية سنة ٣٩ مجموعة تتألف من سبعة آلاف وخمسمائة كتاب كان من المفروض أن تمد القارىء الإيرانى بالثقافة الألمانية النازية والقرابة بين الرايخ الثالث والحضارة الآرية فى إيران [١٤٠] وخاضت الصحف آنذاك ومن أهمها صحيفة « إيران باستان : إيران القديمة » فى إرجاع كل الرموز النازية ومن أهمها الصليب المعقوف إلى أصول إيرانية قديمة وفى الربط بين ماضى إيران قبل الإسلام كـ « آرية خالصة » وألمانيا النازية التى تحمل لواء الآرية [١٤١] ويقدم الصحفى الأمريكى جورج كيرك فى كتابه « الشرق الأوسط إبان الحرب » هذه الفقرة التى تحمل مغزى عميقا « كان مما يدل على نظرة الشاه ومنافقيه إلى السياسة الخارجية مارواه الصحفى السويسرى والتر بوزهارد أنه وجد فى فندق تبريز أثناء الحرب سنة ٤٠ تقويما معلقا على الجدار يقدم صورا للرجال العظام فى كل العصور ، وفى وسط الصورة كان رضاشاه ونابليون وفى جهة موسولينى وهتلر وأتاتورك ، وفى الناحية الأخرى تيودور روزفلت وآل بوربون والإسكندر الأكبر ، وفوق الجميع النبى موسى يحمل لوحة وصاياه » [١٤٢]



الفصل الخامس

الإسلاميون والقوميون - تجربة معادة كاشانى ومصدق

كان من نتيجة سياسة رضاشاه الخارجية أن اجتاحت جيوش الحلفاء إيران ، وخلع رضاشاه وغادرها « ٢٧ سبتمبر ١٩٤١ » يحمل هو الآخر صندوقا من ترابها ، وتولى محمد رضاشاه الحكم ــ شابا فى الثانية والعشرين من عمره ــ على وطن محتل وشعب دام كبته عشرين سنة ، وبتولية محمد رضاشاه بدأت فترة يعبر عنها أحد الكتاب بأنها فترة الآمال العليا ، فإن جيوش الحلفاء ، وفلسفة الاستعمار الجديد ، لم تكن ترى أن الحجر على حق الشعوب « فى الكلام » واجب مادامت ثرواته فى الشمال والجنوب تنهب نهبا مستمرا ، كما كان الشاه الجديد الشاب غير المتمرس بلا أظفار ولا أنياب بعد ــ وهى صفة للحكام الشرقيين عموما عند ظهورهم ــ فأفرج عن المسجونين السياسيين وأطلقت حرية الصحافة ، وعاد كثير من المنفيين ، ولم يكد يمر عامان حتى لمعت فى الأفق السياسى لإيران أسماء خمسة عشر حزبا ومائة وخمسين صحيفة ، وأسماؤها واتجاهاتها تصيب الرأس بالدوار ، ورؤساؤها فى الأغلب الأعم من السياسيين القدامى الذين أشفقوا من فقدان تأثيرهم ، كما أن عددا كبيرا من المثقفين اليساريين الذين نفوا أو سجنوا فى عهد رضاشاه وجدوا الفرصة مواتية والجيش السوفييتى يعسكر فى الشمال لممارسة نشاطهم ، فوضح لهم تأثير أكبر مما كان واقعه لأنهم كانوا أكثر تنظيما ، وكانت معظم الأحزاب أحزاب أشخاص ، أما التيار الإسلامى فقد افتقد التنظيم وافتقد القدرة ، وحتى الألمان كان لهم حزب يمثلهم ويدافع عن سياستهم اعتمادا على أن هناك أملا فى أن يكسب الألمان الحرب . أما التيار الإسلامى فقد دمغ من كل التيارات الموجودة بالرجعية والتخلف فقد كان الإنجليز والروس والأمريكان هم الذين يحتلون إيران وكفى ، كان عملاء

ألمانيا يسمون أنفسهم « مليون إيران : قوميى إيران » بينما كانوا يثيرون القلاقل بتوجيه من جواسيس الألمان فى الأقليات الكردية والبختيارية والقشقائية ، ومن جديد ظهرت الجمعيات الماسونية ، كان هذا هو معنى الديموقراطية فى المعسكر الغربى ، أن تكون لكل التيارات ـــ حتى التيار الألمانى الذى يمثل العدو ـــ أحزابها التى تدافع عنها ، بينما يبقى الإسلام وحيدا وكأن الأمر لا يعنيه ، ليس هذا فحسب بل تصنف الأحزاب التى كونها الملاك والتجار وأصحاب المصالح الخاصة على أنها أحزاب إسلامية .

كان الحزب الوحيد المنظم الذى يتجمع حول فكرة واضحة وتؤيده قوات موجودة بالفعل داخل إيران هو حزب « توده » الشيوعى برئاسة سليمان محسن إسكندرى وهو أمير قاجارى ، وقد أسس الحزب داخل جمعية للعمال الإيرانيين كانت تعمل فى حقول النفط فى باكو سنة ١٩١٧ ، ومر بنا أثناء الحديث عن حركتى الغابة وخيابانى كيف ساهم الشيوعيون فى هذه الحركات لفصل مناطق إيرانية لصالح الروس ، ورغم ماضى الحركة فإن توده ولد قويا « يناير ١٩٤٢ » ، وكان الحزب – لأسباب معلومة – يركز قوته على طول الساحل الشمالى لإيران ، وبينما كانت تقديرات الحكومة أن الحزب لايزيد على ثلاثة آلاف عضو ، فإن تقدير الحزب يصل بهم إلى ثلاثمائة ألف عضو ، وكان الحزب يمثل بالنسبة للروس « حصان طروادة » داخل إيران ، وبعد عامين فقط كان للحزب ثمانية أعضاء فى المجلس « هذا والروس فى إيران والانتخابات شبه حرة » ، لكن كل سياسات الحزب المعلنة وغير المعلنة اتضح فى النهاية أنها لاتهدف إلا إلى التهام آذربيجان وكردستان [١٤٤]، وقد انتهت كل شعبية لتوده ، خاصة بعد أن تخلى عنه الروس لصالح الحكومة مقابل بعض المنافع كديدن السياسية السوفييتية . [١٤٥]

لم يكن محمد رضا قد ظهر فى الصورة بعد ، كان ينظر ويتعلم فحسب ، وكان الدرس الذى خرج به من أحداث آذربيجان وكردستان مؤلما ، لكن النتيجة الحتمية لتربية الشاه ومفاهيمه ، والمبدأ الذى ظل يحكمه أنه لا يمكن أن يعيش إلا ظل حماية أجنبية وقوة كبرى ، وكانت قوة أمريكا آنذاك قد ظهرت فى الساحة الدولية كوريثة للامبراطوريات وزعيمة للعالم الغربى بعد الحرب الثانية ، ومن ثم بدأ الشاه فى الاعتماد الكلى على الولايات المتحدة ، وفى نفس الوقت كان حزب تودة

قد انكشف على حقيقته دون زيف .. ولم يكن هناك ما يطرح فى الساحة إلا الإسلام ، لكن التيار الإسلامى لم يستفد أيضا هذه المرة من تجربة الحركة الدستورية عندما رضى بأن يحارب فى جبهة واحدة مع القوميين العلمانيين متمثلين فى الجبهة الوطنية بزعامة محمد مصدق .

يمثل التحالف بين محمد مصدق وآية الله الكاشانى (١٤٦) فصلا من فصول العمل الثورى الإسلامى ، كما يمثل أيضا فشل التحالف بين التيارين الدينى والقومى العلمانى كما مثلت حركة الغابة فشل التحالف بين التيارين الدينى واليسارى ، والواقع أن آية الله الكاشانى صور فى هذه الحركة كزعيم من زعماء السوق ، وكراع للمنظمة العسكرية « فدائيان إسلام » ، كما صورته المصادر التى كتبت فى عهد الشاه كمهادن للشاه ومنضم إلى معيته فى صراعه ضد مصدق ، وسوف نرى أن الخلاف بين كاشانى ومصدق كان خلافا بين فكرين وبين اتجاهين : اتجاه كان يقود الجماهير ويعلم هدفه جيدا وهو الاتجاه الإسلامى ، واتجاه كان يستغل هذا الاتجاه ويستخدمه ويخشاه فى نفس الوقت وهو هنا الاتجاه القومى ، وهذا الدرس من الدروس التاريخية التى وعتها الثورة الإسلامية جيدا .

ظهر نشاط آية الله الكاشانى مع احتلال الحلفاء لإيران خلال الحرب العالمية الثانية كأبرز رجال الدين المعادين للاحتلال وقواته مما جعلهم يطلقون عليه الشائعات بأنه كان يعمل لصالح ألمانيا والمحور ، وفى خرداد سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٤٣) هجم الضباط الانجليز على منزل آية الله الكاشانى إلا أنه استطاع الهرب ، ثم تم القبض عليه وانتخابات المجلس النيابى على الأبواب ، وكان رد الجماهير على اعتقاله ، أن انتخب بأغلبية ساحقة نائبا عن طهران ، إلا أنه ظل فى السجن وحذف اسمه من سجل المجلس ، وظل ثمانية وعشرين شهرا بين السجن والنفى ، وفى التحقيق معه لم ينكر أنه عدو للانجليز بل وأضاف أنه عدو لكل أجنبى يدوس إيران بقدميه(١٤٧) ، ثم ظهر اسم كاشانى مرة أخرى بعد إعلان تقسيم فلسطين وقيام إسرائيل ، كان رد الفعل الأول فى الدول الإسلامية من قبل إيران ، وعلى يد آية الله الكاشانى الذى كان أول من فكر فى قطع أيدى الانجليز عن نفط إيران وشل فاعليتهم وقدرتهم فى الشرق الأوسط ، فعلى يد الكاشانى وضعت القضية الفلسطينية – منذ ذلك الوقت المبكر – فى إطارها الصحيح وهو الإطار الإسلامى ، يقول فى إحدى

خطبه « إن تأسيس الدولة اليهودية سوف يكون فى المستقبل أس الفساد بالنسبة لكل الدول الإسلامية فى الشرق الأوسط ، ليس هذا فحسب بل لكل دول العالم ، وعلى كل المسلمين فى العالم أن يقاوموا هذا الظلم الفاحش » (١٤٨) والتقت معه فى هذا المجال منظمة « فدائيان إسلام » حيث تقدم إليه خمسة آلاف شخص متطوعين للقتال على أرض فلسطين ، إلا أن حكومة « هجير » وقفت ضد تحركهم إلى فلسطين مما جعل آية الله الكاشانى يشدد هجومه عليه ، وبالرغم من أن المرجعية العظمى فى ذلك الوقت لم تكن ترى ضرورة لاقتراب رجال الدين من أى نشاط يمكن أن يشتم منه أنه نشاط سياسى ، فإن الحركة الإسلامية المؤيدة للحق الفلسطينى استمرت طيلة عامين مما أدى إلى استمرار نفى آية الله الكاشانى ، وربما كان اغتيال هجير والمتاعب والعقبات التى صادفت حكومة ساعد من بعده راجعا فى بعض جوانبه إلى هذا الموقف ، كما كان تضخم دور حزب « تودة » ، وفراغ الشارع الإيرانى من عنصر جماهيرى ، ثم احتجاج الأقلية فى المجلس من الأسباب التى أدت إلى الإسراع بإعادة الكاشانى من منفاه « يونيه ١٩٥٠ » بعد أن استمر فى فترة نفيه الأخيرة عاماً ونصفاً ، واستقبل استقبالا لم يفقه استقبال فى التاريخ إلا استقبال آية الله الخمينى بعد ذلك التاريخ بنحو ثلاثين عاما .

وهكذا عاد الكاشانى مع افتتاح المجلس النيابى لدورته السادسة عشرة وصعود « رزم آرا » على كرسى الوزارة ، وكأنما عاد ليجد « قدره » ساخنا بالتعبير الإيرانى ، وفهم بحسه السياسى لماذا صعد « رزم آرا » على كرسى رئاسة الوزارة فى مثل هذه الظروف ومعركة البترول تتجمع سحبها فى الأفق ، فوجه بيانا اتهم فيه « رزم آرا » بالعمالة للإنجليز وأنه ما جاء إلى الحكم إلا لحماية سيطرتهم على البترول ، وفى اللقاءات الجماهيرية أواخر عام ١٣٢٩ هـ « أوائل عام ١٩٥١ » فهمت الجماهير بحسها التاريخى ما يريده الكاشانى فطالبت بتأميم البترول ، كانت رئاسة « عسكرىٌ » للوزارة لا تنبىء بخير فى مجتمع كانت لاتزال ويلات فترة حكم عسكرى آخر ماثلة فى أذهانه ، بحيث اعتبر بعضهم رزم آرا « رضاخان » آخر ، وإن كان مثقفا ، كما اعتبرت الجبهة الوطنية رئاسته للوزارة شبه انقلاب عسكرى ، وفى نفس الوقت تغير السفير الأمريكى فى طهران وجاء السفير الجديد « جريدى » ليعلن على الملأ أنه إن أرادت إيران أن تنجو من محنتها فعليها أن تهتدى تماما بتعليمات أمريكا ، ومن ناحية

أخرى كان رزم آرا الذى يجيد الروسية يتباحث مع سادتشيكوف السفير الروسى ، بينما شاع أن الأعداء التقليديين ، أى الانجليز ، قد تباحثوا سرا مع الروس والأمريكيين على اقتسام غنمية البترول وإقرار ديكتاتورية جديدة فى إيران ، وكان الشارع الإيرانى يغلى وهو يرى تاريخ أوائل القرن يعيد نفسه فى منتصف القرن ، بينما تتشدق الحكومة بمشروعاتها لإطلاق الحريات وتعديل الدستور بما يكفل « مزيدا من الديموقراطية » ، وزاد الطين بلة هروب عدد من زعماء الشيوعيين من سجن القصر واتجاه أصابع الاتهام إلى رزم آرا نفسه الذى كان يهدف بفعلته هذه إلى إعادة التوازن إلى الشارع الإيرانى الذى أصبح « كاشانيا » ، واستمرت هذه البلبلة حوالى شهر ، انتهت باغتيال رزم آرا فى ٤ مارس سنة ١٩٥١ على يد خليل طهمسبى الذراع الأيمن لنواب صفوى زعيم فدائيان إسلام ، وأحد أتباع آية الله كاشانى المقربين اغتيالا هز إيران[١٤٩] وألقى الرعب فى الهيئة الحاكمة التى بدأت فترة من التنازلات للجبهة القومية الوجه « الرسمى » الذى كانت تراه مسئولا عما يحدث ــ فى رأى لذبيح ــ [١٥٠] بينما من المرجح أن كل اضطراب جماهيرى كان يقابله تنازل للجبهة الوطنية على أساس أنها القوة الوحيدة التى يمكن أن تلتقى معها السلطة فى منتصف الطريق خلافا لكاشانى وتودة .

وغداة يوم الاغتيال ، كانت إيران من أقصاها إلى أدناها تتحدث عن تأميم البترول ، لا كمطلب جماهيرى ملح بل كمبدأ لا يمكن الرجوع عنه ، وكان آية الله الكاشانى هو المسيطر الفعلى على الجماهير الإيرانية ، وفى ٢٩ مارس وافق المجلس على مادة واحدة بتأميم البترول ، ولم يكن مصدق قد جلس بعد على أريكة السلطة ، كانت الجماهير فى الشارع الإيرانى وبيانات آية الله الكاشانى هى التى أزاحت رزم آرا وأممت البترول ، ومع ذلك لايذكر تأميم البترول فى إيران إلا مقرونا باسم مصدق .. وهكذا حقا يكتب التاريخ .

واجه الشاه تأميم البترول بأن وضع حسين علاء على رأس الوزارة فأعلن الأحكام العرفية قبل أن يصدق المجلس على رئاسته ، وكان إعلانها شاملا طهران وخوزستان « منطقة البترول » ، وقمع إضراب عمال النفط بقسوة ، كما ظهرت البوارج الانجليزية فى المياه الإيرانية ، مما جعل المجلس لا يمنح الثقة اللازمة لحكومة علاء ، وظهر اقتراح بأن يتولى محمد مصدق رئاسة الوزارة ، كان بطلا من أبطال

تأميم البترول « وإن لم يكن البطل الوحيد أو رأس الأبطال كما ذكرت كتب التاريخ حتى الشاهنشاهية بعدها » .. ترى إذا كان مصدق هو البطل الوحيد ألم يكن من الممكن أن يلقى به التاريخى الشاهنشاهى فى زوايا النسيان كما ألقى بكوتشك خان وخيابانى وسيد حسن مدرس وأبى القاسم الكاشانى ؟ « وكان مصدق مشمولا برضا الكاشانى ، كما وقف الكاشانى إلى جواره عندما رفض المجلس أن يوافق على بعض الأسماء المرشحة » كان ضمن الأسماء التى رفضت العقيد ــ آنذاك ــ زاهدى قائد الانقلاب الشاهنشاهى فيما بعد ضد مصدق وبعض الأسماء الأخرى الشهيرة بعلاقتها الحميمة مع الإنجليز « كان كاشانى يثق فى مصدق ، وكان يهدف إلى نوع من الاستقرار يمكن له أن يواجه التهديدات الموجهة للوطن فى الداخل والخارج . [١٥١]

ومن المهم أن نذكر أن حكومة مصدق كانت تتمتع بالرضا السامى للشاه نفسه فهو من ناحية كان يراها مناسبة تماما لخوض معركة ما بعد التأميم والتى كانت فى حاجة إلى نوع من التفهم والوسطية ، وأثبت مصدق فى اختياره لأعضاء أول حكومة للشاه نفسه أنه ليس المتطرف الذى كان يظنه ، وأنه برد وسلام بالنسبة للكاشانى ، وأنه ليس من الممكن أن يفقد الشاه الأمل فى إمكان التفاهم مع الجبهة « وهو ملمح ظل موجودا فى التاريخ الشاهنشاهى حتى مغادرة البلاد ، والدليل ؟ شابور بختيار » [١٥٢]

وكان على حكومة مصدق أن تواجه أمرين : التهديدات الانجليزية والصحافة اليسارية التى هاجمت حكومة مصدق هجوما شديدا على أساس أنها حكومة إمبريالية ، وبرغم أن مصدق لم يكن يتخوف من أحد قدر تخوفه من الكاشانى ، وبرغم أنه جعل همه الأول أن يقضى على الصلة الموجودة بين الكاشانى وفدائيان إسلام ، واتهم الجماعة بأنها تنوى اغتياله ، وهاجمت الشرطة مقر المنظمة وقبضت على كثير من قادتها[١٥٣] فإن آية الله الكاشانى كان يسيطر على الشارع ويمسك بنبضه ويمكن الحكومة الوليدة من اجتياز العقبات عقبة بعد عقبة ، وكان بيانه فى ميدان بهارستان مقويا للأمة مهددا للانجليز بأنهم إن اقتربوا من حقول النفط فإن الأمر لن يكلفه أكثر من عود ثقاب « فالنفط من أجل الأمة وليست الأمة من أجل النفط .. وفتوى الجهاد لا تزال موجودة » وفى نفس البيان حث الكاشانى الأمة على مساعدة اللجنة التى كونت لتسلم مناطق النفط من الانجليز كل مساعدة ممكنة . [١٥٤]

وفى تلك الأثناء ، وبينما كانت اللجان تنهمر على إيران ، والوساطات تتوالى ، والتدخلات تتسع ، وأمريكا تحاول الصيد فى الماء العكر ، كانت التقارير السرية الأمريكية تمتدح مصدق واستعداده للتفاهم ، وقد نشرت الفيجارو فى أبريل ١٩٥٢ ضمن تقرير مفصل لهندرسون السفير الأمريكى فى طهران أرسله إلى وزارة الخارجية الأمريكية أن مصدق أبدى حسن نواياه بالنسبة لقبول شروط البنك الدولى لحل قضية النفط الإيرانى ، وحسن نواياه بالنسبة للاتفاقية العسكرية بين أمريكا وإيران ، لكن هناك حجر عثرة يقف دون وصول المباحثات إلى نتيجة ، وهو آية الله الكاشانى الذى يعتبر عنصر خطر بالنسبة لمصالح الغرب ، وأنه هدد أخيرا بأنه سوف يغادر طهران ، إلا أن مصدق حال بينه وبين ذلك ، لأن مغادرة كاشانى لإيران سوف تقلل من شعبية مصدق ، وواضح أن الخلاف بينهما كان حول العلاقات مع أمريكا وشروط البنك الدولى ، فقد حذر كاشانى مصدق من مغبة هذه السياسة على المدى القريب والبعيد ، وليس المهم أن مصدق قد عدل فى وجهات نظره فى هذا الموضوع ، بل المهم أنه أحدث انقساما داخل الجبهة الوطنية نفسها ، فمنهم من يتبنى وجهة نظر مصدق فى التفاهم ومنهم من يحبذ وجهة نظر الكاشانى المتشددة(١٥٥)

وبرغم هذا الخلاف بين وجهات النظر كان آية الله الكاشانى يمثل صمام الأمان بالنسبة للأزمات التى تواجهها حكومة مصدق والمعادل الموضوعى الموازن لوجود « تودة » المحدود فى الشارع الإيرانى ، وتجلى هذا التوازن فى انتخابات آذر سنة ٣٠ (ديسمبر ١٩٥١) فما أن تمت الانتخابات التى تخللتها بعض حوادث العنف حتى اعترض نواب الأقلية ، وانتهزها تودة فرصة لتأليب الشارع الإيرانى على حكومة مصدق ، فعقد آية الله كاشانى مؤتمرا شعبيا دعا من خلاله إلى وحدة الصف فى تلك الأيام التى يواجه فيها الشعب بأكمله — لا فصيلة واحدة منه — الاستعمار العالمى .(١٥٦)

وتجلى موقف الكاشانى ودوره مرة أخرى فى حركة ٣٠ تير سنة ١٣٣١ (٢١ يوليو ١٩٥٢) والتى تعد بكل ملامحها مشروع ثورة لم يقدر لها أن تستمر، فعندما ضيق الخناق على مصدق وأرغم على الاستقالة وتبوأ قوام السلطنة رئاسة الوزارة لم تدم وزارته أكثر من أربعة أيام ، وبينما كان قوام مدعوما بالشاه والجيش بدباباته ورشاشاته والقوى الأجنبية ، كانت الحركة التى هبت تقف إلى جوار الشرعية

ومصدق ويقودها رجل دين وترفع الشعارات الإسلامية تنبىء عن القوة الحقيقية الموجودة على أرض إيران ، كان آية الله الكاشانى يثبت أن الإسلام هو الحافظ للحدود والثغور وهو عامل الوحدة والثورة ، وهو الذى يستطيع أن يقف أمام مؤامرات الداخل والخارج . وكان الناس الذين لبوا نداء آية الله الكاشانى فى ٣٠ تير وخرجوا إلى الشوارع يرتدون الأكفان ولا يملكون سلاحا سوى إيمانهم هم بعض أولئك الناس الذين لبوا نداء آية الله الخمينى بعدها بنيف وعشرين عاما فى إثبات رائع للتواصل الجهادى فى تاريخ إيران المعاصر(١٥٧)

كان من الممكن لحركة ٣٠ تير - التى انتهت بعودة مصدق إلى رئاسة الوزارة كرمز للنضال الشعبى ، وبعد أربعة أيام فقط من رئاسة قوام - كان من الممكن أن تؤدى إلى نتيجة لو أن مصدق قدر النبض الحقيقى للشارع الإيرانى حق قدره واستغله إلى الوجهة التى ينبغى أن يستغل فيها ، وتبنى الاتجاه ، لكن شيئا من هذا لم يحدث ، والغريب أنه خلال حركة تير كان قوام ـــ ذلك الثعلب الداهية ـــ هو الذى أدرك حقيقة اتجاه الريح ، وبعد أن فشل فى مفاوضاته مع آية الله الكاشانى لاستجلابه إلى صفه مخوفا بالنفوذ الشيوعى الذى تمكن له سياسة مصدق ، ثم فشل حتى فى إلزام الشيخ جانب الحياد ، وأصدر بيانه المعروف الذى كان يجب أن يحفز مصدق على اتخاذ موقف آخر ، ذلك البيان الذى قال فيه بالحرف الواحد « لقد عنت للملاح سياسة أخرى وسوف تنفصل السياسة عن الدين بعد ذلك » (١٥٨) ولم يُجْد تهديد قوام للكاشانى بالجيش فتيلا ، فكان رد فعله أن هدد الشاه نفسه باعتباره رأس النظام ، ووجه خطابا للجيش دعاه فيه إلى المقاومة الإسلامية ... كان كاشانى يقدم لمصدق التكأة والجماهير والاتجاه ، ولم تهتز منه شعرة بأمر القبض عليه والذى أذاعته كل وكالات الأنباء فى ٢٩ تير ، وكان من الأسباب المباشرة لنزول الجماهير إلى الشوارع فى ٣٠ تير ، لكن كل هذا أتى برد فعل عكسى عند مصدق فقد كان سببا فى تخوف مصدق من الرجل الذى قام لتأييده ، فقد كان مصدق ينتمى قلبا وروحا وكيانا وفكرا إلى الجناح الآخر ، وكانت كل مصالحه مع الجناح الآخر ، ولم يكن يتصور أن يكون هناك نظام مختلف فى إيران ، فضلا عن أن تركيبته الفكرية لم تكن تمكنه من تصور قيام نظام إسلامى ، ولم يبق من الرجل الموقف إلا الرجل فحسب عندما أدرك أن نبض الجماهير الحقيقية فى يد كاشانى ، وكانت معادلة محمد على والسيد عمر مكرم فى سبيلها إلى الظهور مرة أخرى ، إلا أن المعادلة

هنا أسقطت الطرفين معا ، فقد كانت الساحة فى إيران تريدهما معا ، فلما تفرقا ، انفرط عقد الساحة وضاعت بددا .

وهكذا فعندما عاد مصدق بعد أحداث ٣٠ تير لم يكن همه أن يرأب الصدع بعد أحداث ٣٠ تير الدامية والتى كانت بمثابة حرب أهلية مصغرة بقدر ما كان همه أن يثبت للهيئة الحاكمة أنه ليس الرجل الذى ظنوه ، وبمجرد عودته إلى سدة الحكم أرسل مصحفا إلى الشاه كتب على ظهره « أكون عدوا للقرآن إذا نويت القيام بعمل يخالف الدستور ، حتى إذا خالفوا هم الدستور وغيروا نظام الحكم فلن أقبل أن أكون رئيسا للجمهورية »[١٥٩] ومع ذلك جمع فى يده إلى جوار رئاسة الوزارة وزارة الحربية ، كما حرم الشاه من لقاءاته مع السفراء الأجانب وحده ، وأصر على حضور وزير خارجيته هذه اللقاءات[١٦٠] مما أحدث صدعا فى الجبهة الوطنية نفسها التى لم تكن تنتظر من رجلها كل هذه المركزية ، وكان هذا الصدع فى حد ذاته سببا فى نجاح ترشيح كاشانى لرئاسة المجلس التى لم يستمر فيها إلا ما يقرب من عام ، وكان مجلس كاشانى هو الذى قرر اعتقال قوام السلطنة ومصادرة أمواله وهو الذى قرر الإفراج عن خليل طهمسبى قاتل رزم آرا ، وربما قصد مصدق من تنصيب كاشانى على رئاسة المجلس أن يصيب الرجل بعض رذاذ السلطة ، وأن يجعله مسئولا معه فيما يمكن أن يقع فيه من أخطاء من جراء هذه الصلاحيات الواسعة ، لكن آية الله الكاشانى على كرسى رئاسة المجلس هو نفس آية الله الكاشانى الذى كان يجلس فى عقر بيته وتسعى إليه الجماهير ، وكانت حدة الصراع آخذة فى الازدياد بين الرجلين : مصدق أصبح يرى فى كاشانى عقبة أمام سياسته التى تقف عند حدود ، وكاشانى يرى أنه من المستحيل على مصدق أن ينتهج سياسة إسلامية هى الوحيدة الصالحة لإيران فى رأيه ، ومن ثم اعترض كاشانى على تنصيب بعض أصحاب الماضى المعلوم فى مراكز حساسة ، فلم تكن دماء الناس التى سالت فى ٣٠ تير من أجل أن يأتى أمثال اللواء وثوق والدكتور اخوى ونصرت الله أمينى وشاهبور بختيار إلى السلطة ، وهدد كاشانى بأنه سوف يغادر إيران ، ورد مصدق بأن عليه أن يكبح جماح نفسه فترة من الزمن وأن الإصلاح فى حاجة إلى أيدٍ مطلقة فى السلطة ،[١٦١] . كان هذا يعنى عند كاشانى أن مصدق قد ارتدى ثياب قوام وأنه جاد فى فصل الدين عن السياسة ، وأن الأمر قد بلغ به أن العداوة لكاشانى أصبحت جواز

مرور إلى المراكز الحساسة فى السلطة ، وبالرغم من أن المجلس قد أعلن أن قوام السلطنة « مفسد فى الأرض » فإن مصدق وضعه تحت حمايته الشخصية ، كما حاول بكل السبل أن يعرقل محاكمة مجرمى ٣٠ تير والتى كانت مطلبا جماهيريا ، وظل الخلاف دائرا حول هذه النقاط دون مواجهة صريحة ، فقد كان كاشانى يرى بادرة أمل فى الوزارة التى قطعت العلاقات مع بريطانيا وخطت خطوات واسعة نحو حل مشكلة النفط ، ومن ثم كان ينفى نفيا قاطعا وجود أى خلاف بينه وبين الحكومة ، إلا أن مصدق كان ينفذ سياسة مرسومة قيل إنه وعد بتنفيذها قبل ٣٠ تير وهى أن ينحى المتشددين من مؤيديه لكى يستطيع أن يظفر بمعونة أمريكا فى حل مشكلتى النفط والانهيار الاقتصادى ، ومن هنا اتضح الخلاف جليا بين الرجلين : أحدهما لا يختلف فى معدنه عن قوام السلطنة ، يرى أن كل المشاكل يمكن أن تحل بالسياسة ولا بأس من عون خارجى مع المحافظة على شكل السلطة طلبا للاستقرار ، ويؤمن إيمانا راسخا بأن الدين منفصل عن السياسة دون أيديولوجية بديلة يطرحها إلا ليبرالية غربية مشوهة ، والثانى يرى أن الدين هو أساس السياسة وأن الغرب مهما تعددت أسماؤه عدو ينبغى أن يحذر ، وأن الشاهنشاهية هى أس البلاء وهى محل نظر ، وأن الذى أفسد لا يمكن أن يصلح .. وكان لابد من أن يحدث الصدام .

فى مواجهة هدف مصدق بتحجيم الاتجاه الإسلامى ، أراد كاشانى أن يجعل منه تيارا عالمياً ، فبات يؤكد فى خطبه وأحاديثه على ضرورة الوحدة الإسلامية فى مواجهة الكتلتين معا ، وأكد فى حديث آخر له أن رؤساء الدول الإسلامية وممثلين عنها سوف يجتمعون فى المستقبل القريب فى طهران ، لم يكن كاشانى يفترض أن مصدق سوف يحول بينه وبين ما يريد ، أو أن الأحزاب المتطرفة وعلى رأسها حزب توده ــ والذى كان كاشانى يرى أنه مجرد أداة غربية لتخويف السلطة حتى ترتمى فى أحضان الغرب ــ سوف تعمل ضده . كان يرى أن الجماهير سوف تحميه ، وهكذا فما أن وجه كاشانى بيانه باللغة العربية إلى الشعوب الإسلامية ، وما أن نشرت الصحف الإيرانية ترجمة فارسية للبيان الذى يضع خطة عمل إسلامية شاملة ويحدد موعدا للمؤتمر الإسلامى فى خريف ١٩٥٣ ــ وربما كان انقلاب زاهدى فى أغسطس ٥٣ راجعا إلى هذا السبب ــ ليس هذا فحسب بل ويدعو إلى تشكيل جيش إسلامى .. ما أن صدر البيان حتى بدأ مصدق يضع العراقيل أمام المجلس النيابى

هادفا إلى حله ، كما احتج فاطمى وزير الخارجية على قيام كاشانى بعمل يراه من صميم اختصاصاته وهو الاتصال بالدول الإسلامية ، وأرسل مبعوثا من لدنه إلى كاشانى يرجوه الرحيل إلى لبنان كى يستطيع مصدق تنفيذ مشروعاته(١٦٢)

وبالرغم من أن المجلس لم يحل ، فإن مصدق الذى كان يستند أول ما يستند على الديموقراطية قدم للشاه سند ضعفه ، فبدأت السلطة تحرك قبائل البختيارى ضد مصدق ، بل وبدأ طرح مشروع ٩ اسفند (٢٨ فبراير) والذى يقضى بأن يغادر الشاه إيران بينما يقوم زاهدى بانقلاب عسكرى يقمع حكومة مصدق ، ولم يكن هناك بد ـــ وهو من أخطاء كاشانى البشعة ـــ من أن يقف كاشانى ضد مغادرة الشاه إيران ، وهكذا ففى ٢٨ فبراير عندما هب مصدق لتوديع الملك والملكة فوجىء بجموع تهتف : « الشاه أو الموت » ، ثم اتجهت إلى قصر مصدق بالقرب من القصر الملكى وحاصرته ولم يجد مصدق بدا من الاعتصام بالبرلمان (١٦٣)، وهكذا خسر مصدق شعبيته ، ودخل كاشانى التيه الذى لم يخرج منه ، حقيقةٌ ينبغى أن تقالَ مهما صدمت أحدا ، فإن الذى حرك مظاهرات ٣٠ تير الدامية لكى يخرج قوام السلطنة من الحكم ، لم يكن يعييه أن يحرك مظاهرات أخرى فى ٩ اسفند ليقضى على الشاه ومصدق معا ، لكن كاشانى كان قد ابتلع طعما تقليديا وهو الخوف من الشيوعية وتوده ، وكان الشيوعيون فى مرحلة وفاق مع مصدق ضد التيار الدينى ، وبدأت حملة شرسة ضد آية الله الكاشانى فى صحف اليسار بحيث إن شعار « مصدق منتصر وكاشانى جاسوس » أذيع من راديو طهران ، ثم كان اغتيال رئيس الشرطة أفشار طوس فى ٢٦ أبريل ١٩٥٣ سببا فى تكثيف الحملة ضد كاشانى وإقالته من رئاسة المجلس (١٦٤) ولا شك فى أن الجيش والسلطة الشاهنشاهية وتودة كانوا يشاهدون هذا الخلاف العجيب متعدد الأطراف وهم لا يصدقون أنفسهم من الفرح ، فتعجل الشاه أكل القدر وهو ساخن فحدثت التجربة الثانية لإسقاط الشاه فى ١٦ أغسطس ٥٣ وهى التى قمعت وجرت مصدق وكاشانى وتودة وعصرا من الصراع إلى الهاوية ، وكان كاشانى قد أرسل خطابا إلى مصدق فى ٢٧ مرداد « أى قبل انقلاب زاهدى المضاد الذى أعاد الشاه بيوم واحد فقط » ، وأخذ كاشانى يلوم مصدق على قيامه بتلويث سمعته وتحريض الغوغاء عليه وسجن أبنائه وأتباعه والقضاء على المجلس النيابى بحيث لم يعد هناك شيء ترتكن إليه الأمة الإيرانية ، كما حذره

من أن زاهدى الذى حماه مصدق ضد كاشانى فى سبيله إلى القيام بانقلاب عسكرى ، وها هى أمريكا التى تقدمت من إيران زاعمة أنها سوف تساعدها فى استرداد نفطها من الانجليز تسعى لأخذ هذا النفط لنفسها ، وكرر كاشانى تحذير مصدق من انقلاب زاهدى الوشيك ، ولم يرد مصدق على هذا الخطاب المطول إلا بعبارة واحدة « إننى مؤيد يعون شعب إيران ... والسلام » (١٦٥) وهكذا فإن هذه الوثيقة التى ظهرت بعد أكثر من ربع قرن من كتابتها توضح أن كثيرا مما اتهم به كاشانى كان باطلا : لم يتفق مع زاهدى ، ولم يتباحث مع أمريكا ، ولم يسلم مصدق ، بل إن مصدق برده هذا الذى يجافى أبسط مبادىء الذوق بصق على اليد التى امتدت إليه ، وبدا وكأنه يريد أن يقول له : دعك من هذا ، ولا دخل لك فيما سيحدث ، ولا علاقة لك بالشعب ، فالشعب معى ، ولعله كان يقصد بالشعب شراذم حزب تودة التى أسلمته إلى الجلاد (١٦٦) فكانت والمخابرات المركزية ورعاع حى الدعارة فى طهران بزعامة شعبان المجنون على قلب رجل واحد فى إنهاء « الإجازة الديموقراطية » .

ترى لو كان آية الله الكاشانى قد ارتكب شيئا مما اتهم به ، أكان من الممكن أن يتحدث عنه وزير البريد والتلغراف فى حكومة زاهدى العسكرية قائلا فى الإذاعة « أخيرا تم القبض على شخص مجهول ومغامر يسمى سيد أبو القاسم كاشى بتهمة التحريض ضد الدولة وتضليل العامة »(١٦٧)، لم يكن هذا البيان المقتضب الذى يجعل من آية الله الكاشانى شخصا مغمورا لا يعنى شيئا إلا أنه فى ظل الحكومة التى كانت تحبس أنفاس الناس ، والتى كانت منهمكة فى المحاكمات ونصب ساحات الإعدام على قدم وساق ، والشاه على رأس الحكم فعليا فى نظام قيل إن « ثورة شعبية » جاءت به ، وفى ظل ظروف كانت توصف بأنها ظروف « اختناق كامل » .. لم يكن آية الله الكاشانى قد سكت بعد ، فأين ذلك الاستسلام المزعوم الذى اتهم به كاشانى ؟ وأين المهادنة ؟ ويظل صوت آية الله الكاشانى يرتفع وحده فى كل مناسبة ، فبعد إعادة العلاقات مع بريطانيا نادى الكاشانى بأن يوم إعادة العلاقات ينبغى أن يكون يوم حداد وطنى(١٦٨) كما حذرالمجلس الجديد الذى « انتخب » فى ظل هذه الظروف بعد فترة « الإجازة الديموقراطية » بأن أى قرار يتخذه لن يكتسب أى نوع من الشرعية ، وحينما بدأت مباحثات النفط فى المجلس الجديد بشكل سرى ، أراد أن يحتج ، لكن القانون لم يكن يسمح بأى نوع من الاجتماعات ، فوجه الكاشانى خطابا

إلى السكرتير العام للأمم المتحدة داج همرشلد : « إن العالم الحر يعلم أن الوضع فى إيران لم يكن فى وقت من الأوقات مثيرا للأسف مفتتا للقلب مثلما هو الآن ، لقد صادرت الحكومة كل الصحف الوطنية ، وفرضت حراسة شديدة على المطابع تسلب إمكان نشر الحقائق ، وأخبار الذين يقتلون كل يوم فى الشوارع على إيدى عمال الحكومة لا تنشر ، وفى ظل هذه الظروف لا يستطيع المراسلون الأجانب نقل الحقائق .. إن المجاهدين إما هم فى السجون أو رهن الاعتقال فى بيوتهم فى ظروف مشددة ، وفى هذا الجو فرض اللصوص والمجرمون وعملاء الاستعمار على أسنة الرماح كنواب للشعب ، ومن البدهى أن الحكومة الحاضرة تحكم بلا قانون ، ومن ثم فكل قرار تتخذه لن يعترف به من قبل الشعب الإيرانى ، وأية دولة أو مؤسسة خارجية تقدم أموالا لهذه الحكومة لن يكون لها أى اعتبار ، وعليها أن تطلبها فيما بعد من الأشخاص الذين قدمتها لهم ، وكل قانون تصدره الحكومة ويقره المجلسان فاقد لأى اعتبار وصلاحية »(١٦٩) وعندما تم اتفاق النفط على أن تأخذ امتيازه سبع شركات تتبع أربع دول هى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وهولندا ، ووافقت الحكومة الجديدة على دفع تعويضات لانجلترا عن سنوات التأميم ، لم يصمت آية الله الكاشانى وأصدر بيانا يحذر الدول الغربية من سياستها التى لن تؤدى إلى شىء إلا إلى سيطرة الشيوعية فى البلاد التى تقع بين براثنها ، وحذر انجلترا من أنها لم تستفد من خبرتها الاستعمارية طيلة قرن كامل فى تعديل سياساتها ، ويحذر من هذه السياسات التى تزيد فى غضب الشعب الإيرانى الذى يرى ثروته تنهب على أيدى الأجانب ، وأن انفجاره لن يستغرق وقتا طويلا ، ويختتم بيانه هذا الذى أصدره فى أكتوبر ١٩٥٤ بأنه مستعد للموت بشرف خير من حياة الذل والعار ، فهذا هو مبدأ الحسين عليه السلام ، عليه عاش وعليه سيموت(١٧٠)

كان الدكتور مصدق قد حوكم فى جلسات طويلة ، وفى الجلسة الثالثة والخمسين اختتم دفاعة عن نفسه قائلا : « إن جرمى الوحيد ، بل البشع والبشع جدا هو أننى أممت صناعة النفط فى إيران ، وأنهيت استعمار أعظم امبراطورية فى التاريخ ونفوذها فى هذا البلد ، وحياتى ومالى ووجودى أنا وأمثالى ليس لها أدنى قيمة فى مقابل حياة ملايين الإيرانيين وأجيالهم القادمة واستقلالهم وعظمتهم وكرامتهم ، وأنا لست آسفا على كل ما سوف يحدث لى ، وأنا متأكد من أننى قمت بمسئوليتى

التاريخية بقدر ما أمكننى ، وعمرى وعمركم وعمر كل إنسان سينتهى بعد بضعة أيام آجلا أو عاجلا ، لكن الذى سوف يبقى هو حياة أمة مظلومة وكرامتها »[١٧١] ، وكان الحكم على مصدق بالسجن ثلاث سنوات نظرا لخدماته السابقة للأمة والشاه (!!) فماذا حدث بالنسبة لكاشانى ؟

كانت محاكمات ما بعد انقلاب زاهدى والمخابرات الأمريكية قد انحصرت فى أولئك الذين شاركوا مشاركة فعلية فى الحكم قبل الانقلاب وعلى قادة حزب توده وأعضائه لأسباب لا تخفى ، ولم يقدم أحد من التيار الإسلامى للمحاكمة أملا فى أن يسكت كاشانى وخوفا من ثورة الجماهير الحقيقية ، لكن كاشانى لم يسكت ، و « فدائيان إسلام » لم تخف ، وظل موقف كاشانى المعارض،حتى لإعدام الشيوعيين، غصة فى حلق الدولة ، وسرعان ما تعرض حسين علاء رئيس الوزراء لحادث اغتيال إبان ذهابه إلى بغداد لحضور اجتماع رؤساء وزراء دول حلف بغداد ، وكان هذا فى أعقاب اتفاق النفط الجديد ، وكانت الأمور قد هدأت نسبيا ، واتخذ الحادث ذريعة لجر فدائيان إسلام إلى المحاكمة فقبض على نواب صفوى وعبد الحسين واحدى وخليل طهمسبى وحوكموا محاكمة سريعة وحكم عليهم بالإعدام ، وقبل تنفيذ الحكم ، كان عليهم أن يؤمنوا ظهورهم ، فقبضوا على آية الله الكاشانى بتهمة إصدار الفتوى باغتيال رزم آرا ... كان الكاشانى آنذاك فى الثمانين من عمره ، وكان قد فقد ولده الأكبر مصطفى الكاشانى فى ظروف مريبة ، فقد كان نائبا فى المجلس بعد الانقلاب وعارض اتفاقية النفط ، ثم مات فجأة .. على كل حال ، عقدت لكاشانى محكمة عسكرية ، وفشلت كل محاولات المرجع الأعظم آية الله البروجردى لإطلاق سراحه « أوائل سنة ١٩٥٥ » ، ودافع كاشانى عن نفسه ونفى التهم التى وجهت إليه ، وبين أن ما قام به إنما قام به من أجل دينه وبلده ، وأنه لا يطمع فى أن يعيش فوق ما عاش ، واختتم دفاعه قائلا « إن ربك لبالمرصاد .. وحمل الظلم لا يصل إلى منزل »[١٧٢] ، وحكم عليه بالسجن الانفرادى ، وتم الافراج صحيا عنه فى يناير ١٩٥٦ ، لكن الشيخ المهدم لم يصمت ، إذ شوهد قبيل وفاته « فى مارس ١٩٦٢ » يصعد منبر مسجد بامنار وحوله أكثر المناضلين فى حركة تأميم النفط ، وخطب محرضا الناس على الثورة والصمود فى وجه الحكم العميل[١٧٣] كما قيل إن الشاه زاره فى منزله بعد آخر خروج له من داره ، أى خطبة مسجد با منار ، ولم

يكن الشيخ يقوى على الكلام ، فأدار وجهه نحو الجدار كيلا يشاهد وجه الشاه[١٧٤] .

كانت تجربة الكاشانى محل جدل شديد ، وهناك أسباب عديدة ذكرها المحللون إجابة عن السؤال الذى يطرح نفسه : لماذا فشل الكاشانى ؟ فمن قائل إن الكاشانى برغم منطلقه الإسلامى كان أشبه برئيس حزب ، فلم يكن يوما من الأيام مرجع تقليد ولم يكن زعيما روحيا ، كما أنه لم ينجح فى ضم مرجع التقليد الأعظم آنذاك آية الله البروجردى إلى صفه ، كان مرجع التقليد الأعظم يرى فى اندفاع « رجل دين » اندفاعا بهذه الشدة أمرا غير لائق ، فضلا عن أن الكاشانى لم يكن مدرسا فلم يكون مدرسة سياسية قط .. وبرغم هذا الاندفاع الذى يصفه به بروجردى يوصف فى بعض ما وجه إليه من نقد بأنه لم يكن حاسما : فقد هادن رضاشاه فى بعض فترات عمره رغم كرهه الشديد للديكتاتورية وبينما يؤمن بالعمل البرلمانى يتبنى جماعة فدائيان إسلام ، وبينما يعرف تماما تاريخ مصدق كعلمانى يحالفه ، ثم يقف أمام مغادرة الشاه إيران فى فبراير ٥٢ خوفا من الشيوعية مع استطاعته انتهاز الفرصة للقضاء على الشاه ومصدق معا ... وفوق كل ذلك كانت الأسس الأيديولوجية عند كاشانى غير واضحة المعالم ، وكان فهمه للإسلام ضبابيا غير متكامل كنظرية حاسمة بحيث أرسل بعض الملات من أتباعه للمشاركة فى مؤتمر شيوعى[١٧٥]

لكن يبقى للكاشانى ما أضافه للتجربة الإسلامية : إحساسه المتميز بالعلاقات الدولية وإحساسه بالطبيعة العالمية للاستعمار ، وإثباته وحزب تودة فى قمة تنظيمه أن الشارع الإيرانى لا يحركه إلا رجل دين .. وهناك رأى غير مرجح أن ثمة علاقة كانت قائمة بين الكاشانى والخمينى ، وقيل إن آية الله الخمينى كان موجودا فى منزل الكاشانى يوم أن هاجمه أتباع مصدق بالحجارة فى ٣١ يوليه ١٩٥٣ حين سرت شائعة أن الكاشانى قد تخلى عن مصدق وسلمه للشاه[١٧٦] ، ويظل ماقاله الإمام الخمينى عن تجربة الكاشانى أبلغ ما قيل عن هذه التجربة « كان يريد البترول .. ولو كان يريد الإسلام لنال الإسلام والبترول معا »



هوامش القسم الأول

(١) على شريعتى : ياد وياد آوران ص ٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٨ .
(٣) نفس المصدر : ص ١٧ .
(٤) على شريعتى : على ، مكتب ، وحدت ، عدالت ص ١٦٥ .
(٥) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ، ٧٤ . تحقيق طه الزينى .
(٦) المصدر السابق ص ٧٥ .
(٧) نهج البلاغة للإمام على شرح علينقى فيض الإسلام ص ٩٩٣ — ٩٩٦ . طهران ١٣٤٥ هـ
(٨) على شريعتى : بدر مادر ما متهميم ص ٥٨ — ٥٩ .
(٩) المصدر السابق ص ٤٥ .
(١٠) على شريعتى : فاطمة ، فاطمة است .
(١١) على شريعتى : بدر ، مادر ، ما متهميم ص ٣٢ .
(١٢) آرنولد وجوبينو ودونالدسون .
(١٣) على شريعتى : شهادت . الطبعة الرابعة ص ٧٦ .
(١٤) انظر ما نسب إلى عبدالله بن سبأ وكيسان مثلا ، ثم إلى أبى الخطاب الأزدى أو عبدالله بن ميمون القداح أو حمدان قرمط .. وكلهم سواء كانوا من العرب أو غيرهم تحوم الشبهات حول مجرد وجودهم ، فضلا عن نظرياتهم المطولة ، انظر : باب الغلو والغلاة فى كتاب الصلة بين التصوف والتشيع لكامل مصطفى الشيبى .
(١٥) أبو نعيم الأصفهانى : حلية الأولياء ٣ / ١٣٦ .
(١٦) كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٥٨ .
(١٧) انظر : الحركات السرية فى الإسلام . رؤية عصرية . للزميل الصديق محمود إسماعيل ص ٨٣ — ١١٨ « من طبعة روزاليوسف » .
(١٨) لتفصيلات أكثر أنظر : محمد كامل حسين : الطائفة الإسماعيلية — برنارد لويس : أصول الإسماعيلية — إبراهيم الدسوقى شتا : جامع الحكمتين لناصر خسرو . ترجمة ودراسة .
(١٩) زند كانى شاه عباس أول جـ ٢ ، ص ٢٩٤ .
(٢٠) على شريعتى : مسئوليت شيعة بودن ص ٣٠ — ٣٨ .
(٢١) على شريعتى : ياد وياد آوران ص ٢٨ — ٣٥ .
(٢٢) على كريمى جهرمى : خط سرخ شهادت ص ١١١ طهران ١٣٦٢ هـ . ش .

(٢٣) على شريعتى : شهادت ص ٤٣ .
(٢٤) المصدر السابق ص ٥٢ ــ ٥٤ .
(٢٥) نفس المصدر ص ٧٦ .
(٢٦) شهادت ص ٧٧ ــ ٧٨ .
(٢٧) المصدر السابق ص ٨٠ .
(٢٨) نفس المصدر ص ٩٧ .
(٢٩) شهادت ص ٩٠ .
(٣٠) المصدر السابق ص ١٠٤ .
(٣١) مهدى بازرجان : مدافعات ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩ . الطبعة الثالثة ــ خارج إيران ١٣٥٦ هـ .
(٣٢) على شريعتى : انتظار ، مذهب اعتراض .

(٣٣) W. Montogomry Watt, Early Stages of Imami shi'ism, in Religin .and Politics in Iran, Edited by Nikki R, Keddie, P.P. 27-30, U. S. 14. 1983.

(٣٤) حميد عنايت : انديشهء سياسى در إسلام معاصر ، ترجمه عن الانجليزية بهاء الدين خرمشاهى ص . ٢٩٦ طهران ١٣٦٢ هـ .
(٣٥) المصدر السابق : ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧ .
(٣٦) نفس المصدر : ص ٢٩٧ .

(٣٧) Cole (Jaun. R.), Imami Jurispurdence and the Role of the Ulama,Murtaza Ansari in R. P. 39.

(٣٨) عنايت : ص ٧٦ ــ ٧٨ .
(٣٩) حامد الجر : دور العلماء المعارض فى السياسة الإيرانية المعاصرة ، ضمن كتاب إيران ١٩٠٠ ــ ١٩٨٠ . ص ١٧٩ . بيروت ١٩٨٠ .
(٤٠) عنايت : ص . ٧٤ .
(٤١) عنايت : ص ٤١

(٤٢) IRFANI (S.), Irans Islamic Revolution, P . 5 . London, 1983.

(٤٣) Cole, P. 36

(٤٤) Ibid, PP.40 - 46

(٤٥) سيد جلال الدين مدنى : تاريخ سياسى معاصر إيران جـ ١ ص ٤٢ قم ١٣٦١ هـ .
يرفند إبرهيميان : خلفيات وعوامل الثورة الدستورية مقال فى إيران ١٩٠٠ ــ ١٩٨٠ ــ ص ٣٢ ــ ٣٦ .
(٤٧) يحيى آرين بور : از صبا تانيما جـ ١٠ ص ٣١٤ ــ ٣١٧ . طهران ١٣٥٥ هـ .

(٤٨) IRFani, PP. 21- 23-

(٤٩) Ibid, PP. 24.

(٥٠) Browne (E-g.), Persian Revolution (1905-1909) P. 50 Cemb. 1985

(٥١) تاريخ سياسى معاصر إيران ــ مجلد ١ ص ٢٤ .

(٥٢) المصدر السابق ص ٢٥ ـــ ٢٦ .

(٥٣) كان هناك بعض أمراء الأسرة المالكة يفكرون فى اتحاد بين الدولة العثمانية وإيران ومنهم أبو الحسن ميرزا الذى يصفه كسروى كبير المؤرخين العلمانيين بصفة الأمير الواعظ ، ويصف هذا الفكر المتقدم جدا بأنه « هوس » . أحمد كسروى : تاريخ مشروطه ء إيران . الطبعة الثالثة ص ١٠٨ طهران ١٣٣٠ هـ .

(٥٤) ناظم الإسلام كرمانى : تاريخ بيدارى إيرانيان ص ٦٨ ـــ ٧٦ طهران ١٣٦٣ هـ .

(٥٥) المرجع السابق . ص ٢٠

(٥٦) IRFani, PP. 26- 28.

(٥٧) تاريخ بيدارى : ص ٣٦ ـــ ٤٢ .

(٥٨) Avery (P.) Modern Iran , P.104, London 1956

(٥٩) Browne, Persian Revoluton, PP. 63-97.

(٦٠) تاريخ بيدارى ص ٧٧ ـــ ٩١ .

(٦١) التفاصيل فى تاريخ بيدارى ص ١٥٩ ـــ ٢١٩ .

(٦٢) مقال إبراهيميان : سابق الذكر ص ٤٦ . والتفاصيل والنص فى بيدارى . ص ٢٢٨ .

(٦٣) يرفند إبراهيميان : ص ٤٦ ـــ ٤٨ .

(٦٤) تاريخ بيدارى إيرانيان : ص ٣٤٩ ـــ ٣٥٠ .

(٦٥) المصدر السابق : ص ٤٠٢ .

(٦٦) يرفند إبراهيميان : خلفيات الثورة الدستورية ٤٩ ـــ ٥٠

(٦٧) تاريخ بيدارى : ص ٢٨٦ .

(٦٨) المصدر السابق ص ٢٩٦ .

(٦٩) أحمد كسروى : تاريخ مشروطهءإيران ص ٧٤ .

(٧٠) تاريخ بيدارى : ص ٣٢٣ ـــ ٣٢٤ .

(٧١) المصدر السابق : ص ٣٣٣ .

(٧٢) نفس المصدر : ٣٣٩ ـــ ٣٤٠ .

(٧٣) تاريخ بيدارى : ص ٥٠٥ .

(٧٤) عنايت : انديشة ء سياسر در إسلام معاصر ص ٢٨٥ .

(٧٥) المصدر السابق ص ٢٨٨ .

(٧٦) من مقدمة ناشر الطبعة الجديدة من تاريخ بيدارى ص . يازده .

(٧٧) AZar Tabari, Shi'i Clergy in Iranian Politics, Religion & politics, P.57.

(٧٨) تاريخ بيدارى : ص . ٤٨٠ .

(٧٩) سيد جلال الدين مدنى : تاريخ سياسى معاصر إيران . مجلد ١ هوامش ص ٥٩ ـــ ٦٠ .

(٨٠) المصدر السابق : ص ٦٠ .

(٨١) تاريخ بيدارى ص ٢٨٤ وانظر أيضا :

(٨٢) Browne, Persian Revolutin , P. 207.

(٨٣) مدنى : ص ٦٢ .

(٨٤) المصدر السابق : هوامش ص ٦٢ ـــ ٦٣ .

(٨٥) عنايت : ص ٢٩٥ .

(٨٦) ميرزا محمد حسين نائيني : تنبيه الأمة وتنزيه الملة : نشره مشروحا آية الله سيد محمود طالقاني — تهران بدون تاريخ ، تاريخ المقدمة ١٣٧٤ هـ . ص ١٤ — ١٥ .

(٨٧) المصدر السابق : ص ٣٧ .

(٨٨) نفس المصدر : ص ٤٨ .

(٨٩) نائيني : ص ٥١ .

(٩٠) المصدر السابق : ص ٥٧ .

(٩١) نائيني : ص ٥٩ .

(٩٢) المصدر السابق : ٦٤ — ٧٢ .

(٩٣) نفس المصدر : ص ٧٦ — ٧٧ .

(٩٤) نائيني : ص ٨٠ — ٨١ .

(٩٥) المصدر السابق : ص ١٠٤ — ١٠٦ .

(٩٦) نفس المصدر : ص ١١٩ — ١٢٤ .

(٩٧) نائيني : ص ١٣٧ — ١٤٢ .

(٩٨) Browne, Persian Revolution, P.262

(٩٩) مدنى : ص ٦٤ .

(١٠٠) مقدمة سيد محمود طالقانى على تنبيه الأمة ص ١٧ .

(١٠١) تاريخ بيدارى : ص ٣٩٤ .

(١٠٢) المصدر السابق : ٣٩٤ — ٣٩٥ .

(١٠٣) نفس المصدر : ص ٣٩٤ .

(١٠٤) سيد جلال الدين مدنى : تاريخ سياسى معاصر إيران مجلد ١ ص ٨٣ .

(١٠٥) المصدر السابق : ص ٨٤ .

(١٠٦) محمد رضا حكيمى : : بيدار كران أقاليم قبله ص ١٥٥ — طهران ١٣٥٦ هـ ، تاريخ مقدمة ، .

(١٠٧) IR Fani, Irans Islamic Revolution. P. 51

(١٠٨) Ibid, PP. 53- 66.

(١٠٩) LENCZOWSKI (9), Russia and the West in Iran P. 57, New york 1949.

(١١٠) Avehy, Modern Iran PP. 216 - 217

(١١١) IRFani P.53.

(١١٢) أحمد كسروى : تاريخ هيجده ساله آذربيجان ص ٨٦٥ . طهران ١٣٥٣ هـ .

(١١٣) المصدر السابق : ص ٨٧٠ .

(١١٤) محمد رضا حكيمى : بيدار كران أقاليم قبله ص ١٣٤ — ١٧٥ .

(١١٥) مدنى : ص ٨٨ — ٩٠ .

(١١٦) المصدر السابق : ص ٩١ — ٩٥ .

(١١٧) Avery, Modern Iran, PP. 216- 217

(١١٨) إبراهيم خواجه نورى : بازيكران عصر طلائى : سيد حسن مدرس . ص ١٢ — ١٨ . طهران ١٣٥٨ ، طبعة جديدة ، .

(١١٩) المصدر السابق : ص ٣٢ .

(١٢٠) نفس المصدر : ص ٦٠ .
(١٢١) خواجه نورى : ص ٨١ ــ ٨٧ .
(١٢٢) خواجه نورى : ص ١٠٩ ــ ١١٨ .
(١٢٣) المصدر السابق : ص ١٢٦ .
(١٢٤) نفس المصدر : ص ١٤٢ ــ ١٦١ .
(١٢٥) خواجه نورى : ١٥٦ ــ ١٦٦ .
(١٢٦) مدنى : ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .
(١٢٧) هناك تفصيلات عن هذا الموضوع فى الكتاب الروائى لبزرج علوى ينجاه ودونفر .
(١٢٨) كذشتة جراغ راه آينده : كتاب وثائقى ، نشر جامى (جبهة آزادى مردم إيران : جبهة تحرير الشعب الإيرانى) ص ٩٢ . بدون تاريخ أو مكان نشر .
(١٢٩) المصدر السابق : ص ٩٠ ــ ٩٢ .
(١٣٠) نفس المصدر : ص ٩٣ ــ ٩٤ .
(١٣١) المصدر نفسه : ص ١٤٢ ــ ١٤٧ .
(١٣٢) كذشته : ص ٥٥ .
(١٣٣) المصدر السابق : ص ٥٦ .
(١٣٤) نفس المصدر : والمقال لأرسلان خلعتبرى . ص ٥٩ .
(١٣٥) مهدى بازرجان : مدافعات : ص ٣٣١ .
(١٣٦) مدافعات : ٢٩٢ .
(١٣٧) مدافعات : ٣٠١ .
(١٣٨) نفس المصدر : ص ٣٣٢ .
(١٣٩) Avery, Modern Iran, P . 292 .
(١٤٠) مدافعات : ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ .
(١٤١) Lenczowski , Russia and THe west in Iran, P. 162.
(١٤٢) كذشته : ص ٦٣ .
(١٤٣) Kamshad (H.), Modrn Persian Prose Literature P.56 Combridge 1966,
(١٤٤) Russia and the west in Iran, P .187.
(١٤٥) Avery , modern Iran, PP. 386-390
(١٤٦) لمعلومات أكثر اتساعا عن تاريخ اليسار فى إيران ونشأته ، أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب : الثورة الإيرانية : الصراع ــ الملحمة ــ النصر . الزهراء للإعلام العربى سنة ١٩٨٦ .
(١٤٧) ولد آية الله أبوالقاسم الكاشانى سنة ١٣٠١ هـ فى طهران ، وفى سن السادسة عشرة انتقل مع والده آية الله مصطفى الكاشانى إلى العراق حيث درس هناك ونال درجة المجتهد وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، ثم قتل والده فى صدام مسلح ضد الانجليز سنة ١٩١٧ ، واشترك أبو القاسم الكاشانى إلى جوار عدد من كبار المشايخ منهم : آية الله شيخ الشريعة الاصفهانى وآية الله سيد على داماد وآية الله الشيخ مهدى الخالصى وغيرهم فى الثورة على الانجليز سنة ١٩٢٠ ، وعاد إلى طهران بعد فشل الثورة . مدنى : مجلد ١ ص ١٤١ .
(١٤٨) مدنى : ص ١٤١ ــ ١٤٢ .
(١٤٩) المصدر السابق : ص ١٧٢ .

(١٥٠) نفس المصدر : ص ١٨٠ ــ ١٨٢ .
(١٥١) سبهر ذبيح : إيران در دوران دكتر مصدق : ترجمه عن الانجليزية محمد رفيعي مهرآبادى : ص ٥٤ . طهران ١٣٦٣ هـ .
(١٥٢) مدنى : ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥ .
(١٥٣) سبهر ذبيح : إيران در دوران مصدق ص ٥٤ .
(١٥٤) المصدر السابق : ص ٥٨ .
(١٥٥) مدنى : ص ٢١٢ .
(١٥٦) المصدر السابق : ص ٢١٨ .
(١٥٧) نفس المصدر : ص ٢٢٧ .
(١٥٨) ذبيح : ص ٩٦ ــ ٩٨ .
(١٥٩) مدنى : ص ٢٣٥ .
(١٦٠) المصدر السابق : ص ٢٤٨ .
(١٦١) ذبيح : ص ١٠٩ .
مدنى : ص ٢٥١ .
(١٦٢) **Yann Richard, Ay atollah Kashani, in riligion and Politics in Iran, translated by Nikki**
(١٦٣) Keddie, P. 113
(١٦٤) Ibid, PP.113- 114
(١٦٥) مدنى : ص ٢٧٨ .
(١٦٦) المصدر السابق : ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .
(١٦٧) لمعلومات أكثر عن الانقلاب ودور اليسار ، انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب .
(١٦٨) مدنى : ص ٢٩٨ .
(١٦٩) المصدر السابق : ٣٠٠ .
(١٧٠) نفس المصدر : ص ٣٠٣ .
(١٧١) مدنى : هامش ص ٣١٣ ــ ٣١٦ .
(١٧٢) المصدر السابق : ٣٢٣ .
(١٧٣) مدنى : ص ٣٣٨ .
(١٧٤) المصدر السابق : ص ٣٥١ .
(١٧٥) Yann Richard, P , 119 .
(١٧٦) Ibid, PP. 121- 123



القسم الثاني

الأيديولوجية

الباب الأول

فلسفة التراث
عند على شريعتى



الفصل الأول

بناء الذات الثوريّة

للدكتور علي شريعتي

ليس المقصود هنا ببناء الذات أن نفعل كما يفعل المرتاضون أو الرهبان أو العباد الذين يتبعون ديناً معينا ، وذلك فى انفصال عن العصر وانفصال عن كل العلاقات الموجودة ، أو التى ينبغى أن توجد بين الذات وبين المجتمع ، وذلك استناداً على قيم خيالية أو مجردة أو موروثة عن طائفة أو قوم أو مستندة على مثاليات خاصة مستنبطة من الأخلاق الدينية أو الصوفية ، كما أنه ليس المقصود هنا أن نفعل كما يفعل الماركسيون [1] ، فنعتبر أن بناء الذات مجرد وسيلة تعدنا للاشتراك فى حركة سياسية عصرية .

بل إن بناء الذات عبارة عن « إعداد الذات ثورياً فى صورة أصل وأصالة وهدف ، أى « أن يوهب الجوهر الوجودى للذات تكامله » ، وذلك التكامل يستتبع الاشتراك فى القدرالشعبى ، الذى يستوجبه تكاملنا وإنسانيتنا : والقيام ببناء الذات يستوجب الاعتراف بهذه الأصول :

١ ـــ إن الإنسان صاحب دور فى مسيرته التاريخية وفى تغيير نظامه الاجتماعى ، وليس هدفنا هنا عبادة الفرد أو عبادة الزعيم أو عبادة الشخصية ، فكل ذلك كفر وشرك وآفة ، بل إن ما نقصده هنا هو الاعتقاد بوعى الإنسان وإرادته واعتبارهما علة فى مسيرة التاريخ الجبرية والتطورات الاجتماعية ، وهى فى حد ذاتها تعتمد على القواعد العلمية وعلى الأسباب والعوامل المادية ، وهذه هى نفس العلاقة القائمة بين الإنسان والطبيعة .

٢ ـــ إن الإنسان لا يستطيع أن يبقى مخلصاً وصادقاً فى ثورة اجتماعية حتى النهاية ووفياً لها ، إلا أن يكون ثورياً قبلها ومتناسقاً معها ، فليس الإنسان الثورى

هو الإنسان الذى يشترك فى ثورة اجتماعية فحسب ، فما أكثر الانتهازيين والمغامرين والنفعيين الذين يشتركون فيها ، وهم جرثومة الانحراف فى كل الانتفاضات ، وفشل كل الانتفاضات من جراء اشتراكهم فيها ، لأن الثورى قبل كل شىء جوهر أعيدت صياغة ذاته ، إنسان جعل ذاته التى بنيت إيديولوجياً خليفة لذاته الموروثة عن التقاليد والغريزة .

٣ ــ إن الإنسان ــ بالمعنى الفردى وبالمعنى الجماعى ــ ليس على الدوام وعلى الإطلاق وليد بيئته أو ربيبها . وأقصد البيئة ، الصبيعة بمعناها المادى ، والبيئة الجغرافية والإقليمية كما يتحدث عنها الجغرافيوان ، والبيئة التاريخية كما يفسرها المعتقدون بحركة التاريخ ، وأيضا البيئة الإجتماعية كما يتحدث عنها علماء الاجتماع والبيئة الطبقية كما يتحدث الماركسيون كما أن الإنسان ليس مخلوقاً جبرياً خاضعاً للوراثة ، كما يعتقد علماء الأحياء والوراثة والفاشيون ، وفى نفس الوقت لا أريد أن أنكر دور كل هذه العوامل الاجتماعية والمادية والطبقية ، ولكن مع الاعتراف بكل هذه العوامل يمكن القول بأن الإنسان يستطيع أن يكون من صنع نفسه ، أى أن يكون شريكاً فى بنية ذاته ، ولا ينبغى أن يجرنا هذا القول إلى نوع من المثالية ، أو على الأخص إلى نوع من الرومانسية الفلسفية العاطفية ، التى يتحدث عنها دائماً صناع المدن الفاضلة ، أولئك الذين يتصورون أن الإنسان جوهر مجرد ومنفصل عن بيئته الطبيعية والاجتماعية وحركة التاريخ الجبرى ، بل إن الإنسان بالفعل وليد الطبيعة وربيب تاريخه ومجتمعه وطبقته ، وهو أيضاً يخضع لتأثير ظروف مولده وقواه الحياتية وملامحه . لكن الإنسان التكاملى الحيوى الساعى نحو الحرية يسبق كل هذه العوامل الجبرية والعلمية والمادية ، ويتغير من صورة « المعلول » إلى صورة « العلة » بقدر نضج إرادته ووعيه الذاتى ، ومن هنا فإننا حينما نذكر لفظ « إنسان » ، فإنما نقصد اكتشاف تلك العلة ، التى لعبت فى مسيرة الطبيعة والتاريخ دور العامل والخالق والصانع والمدبر والمستخدم الواعى ، ومثل هذا الإنسان يستطيع أن يسيطر على المسير المادى والعلمى للتاريخ ، وبقدر ما تعبأ إرادته إلى جوار وعيه ومعرفته المادية والطبيعية .

وكما أننا نرى فى مجال الطبيعة أن الإنسان بعمله العلمى (أى العمل الملازم للعلم أو التجربة) ، يستطيع أن يغير الطبيعة ، وكما أنه أيضاً يستطيع عن طريق

أيديولوجية إجتماعية أن يغير نظامه الاجتماعى إلى النظام الذى يريد ، يستطيع أن يغير نفسه بالعمل فى حقل ذاته إلى الإنسان الذى يريد . ومن هنا ، فإن بناء الذات واقع علمى عينى شأنه شأن بناء المجتمع وبناء الطبيعة ، ويزيد عليه فى أنه رسالة إنسانية .

ومنطلق القرآن الكريم فى فهم الإنسان متفق تماماً مع هذا التفسير ، يقول تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾[٢] أى : أننا خلقنا الإنسان بالنسبة لاستعداده وإمكانات تكامله فى أعلى مرتبة علمية ، ثم رددناه بعد ذلك إلى أدنى الدرجات ، فالقرآن لا يتناول الإنسان كمثل مجرد ومطلق وخارج على النظام المادى والعلل والعوامل العينية والعلمية ، كما أنه لا يتناوله كظاهرة عفوية تظهر من التسلسل الجبرى للتاريخ أو الطبيعة أو الوراثة . أى أن الإنسان بالقوة ظاهرة سامية فوقانية ، لكنه بالفعل ظاهرة مادية ترابية بيولوجية . إن خلقة الإنسان فى القرآن ليست من جبلة مادية فحسب ، بل مادية دنية ، أى أنه واقعياً من تراب ومعنوياً فى أدنى مرتبة : (من صَلْصَالٍ مِنْ حمأٍ مَسْنُوْن) [٣] ، لكنه بالقوة يستطيع أن يرتفع إلى حدود العلة المستقلة عن القوانين المادية ، ويصل إلى مرحلة استغلال الجبر الطبيعى ، والوراثة والتاريخ والمجتمع ويكون مدبر الدنيا المادية ، أى صاحب السيادة على الوجود ، ويقطع هذه المسيرة العلمية من « التراب » إلى « الله » . وهذا التطور ، تطور مادى وعلمى وجبرى ، وفى نفس الوقت يتجه إلى نيل الحرية التى بها يتحقق الجانب الإلهى فى الإنسان ، وفى هذا المسير يتحدد المسير الطبيعى لجماعات البشر نحو الكمال والتكامل ، وفيه أيضاً تتحدد رسالة الإنسان ورسالات كل العارفين فى هداية الخلق ، وفى هذا المسير تجد فلسفة بناء الذات وجهتها وفلسفتها . ليس بناء الذات فى الإسلام « رياضة سلبية » ، لكنها « تربية إيجابية » .

وفى هذا المجال هناك سورة مستقلة فى القرآن الكريم ، وفى هذه السورة يصور كل إنسان ــ وهو فى نظر القرآن يساوى الإنسانية جمعاء ــ بأنه بذرة ، ورسالة الإنسان فى مواجهتها من الطبيعى أن تكون رسالة الفلاح ، فإذا أحسن الفلاح العمل فإن البذرة تنجو من جنين التراب والطين ، وتتفتح ، وتتهيأ كل العوامل المادية والعلمية من أجل إنماء هذه البذرة على خير وجه ، وحتى تورق وتؤتى أكلها ، وعلى هذا النسق يجنى الفلاح ثمرةً من بذرته ، وهذا على عكس الفلاح الغافل الجاهل والمتساهل المهمل ، أو الخائن الذى ينسى بذرته ، وبالتالى تضيع هذه البذرة تحت

التراب ، وتختفى ، وتتحلل فى زوايا النسيان ، وحينئذ يبقى الفلاح خائباً خالى الوفاض ، وفى هذه التربية لا يستند القرآن الكريم حقيقة إلى مسائل ذهنية أو مثالية أو ميتافيزيقية ، لكنه يستند فى كل الظواهر والمظاهر على عوامل الطبيعة :

﴿ **والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها. والليل إذا يغشاها. والسماء وما بناها. والأرض وما طحاها. ونفس وماسواها** ﴾ [٤] ، هذه هى العوامل المقدسة التى ينبغى أن تستخدم فى بناء النفس وفى إنبات هذه البذرة المدفونة داخل طبائعنا وداخل الجبر الوراثى والتاريخ والنظام الاجتماعى لنا ، وهنا : أنت المسئول ، أنت فلاح بذرتك : ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ أى تعهد تلك البذرة بالرعاية ، ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾ أى أخفاها فى باطن التراب .

هذا الفهم للإنسان الذى يستطيع أن يخاطب المفكر الواعى فى كل مكان وتحت ظل أى نظام ، وأياً كانت طبقته قائلاً له : إنك تستطيع أن تتخلص من حتميتك الطبقية والتاريخية والاجتماعية ، مثل هذا التفسير للإنسان يستطيع أن يدفع المفكر المنتسب إلى الطبقة البورجوازية أو الارستقراطية أو إلى أدنى الطبقات العليا وأحطها ، يستطيع أن يدفعه إلى خلع ثوبه الطبقى وأن يثور بالرغم من طبقته وينضم إلى مسيرة الطبقة المعادية لطبقته ــ أى طبقة الكادحين والمظلومين ــ بل ويوجهها ، وبمثل هذا التفسير لا يمكن أن يوجه الإنسان إلى التسليم ، حينما يسيطر نظام لا إنسانى على المجتمع ، أو تسيطر الأرستقراطية القديمة أو الرأسمالية الجديدة على المجتمع .

لكن ينبغى أن يكون لبناء الذات هدف . إن ما يعطى لبناء الذات معنى هو وجود إيديولوجية ومثال . والمفهوم الضمنى لبناء الذات هو أن هذا البناء يتم من أجل الوصول إلى هدف ما ، أو القيام بعمل ما أو اكتساب ملامح ما . ومن هنا قبل أن نصل إلى الأسلوب ، ينبغى لنا أن نحدد الأهداف ، فإذا كان لإنسان ما غرض أن يشارك فى حركة سياسية أو اجتماعية أو سياسية فى عصره ، فلا شك فى أنه سوف يحدد بناء ذاته فى إطار هذا الغرض ، وإذا كان هدفه نضج القيم الوجودية والباطنية ، فنفس الأمر ، وإذا كان الغرض تنمية الرؤية الفكرية والعلمية والفلسفية فلا اختلاف ، ينبغى إذن قبل القيام ببناء الذات تحديد الإيديولوجية ، بالنسبة لنا : لا تطرح مسألة بناء الذات إلا بعد وجود الأيديولوجية ، فما هى إيديولوجيتنا ؟

إن أول خطوة فى طريق بناء الذات هى أن نقوم دائماً بتقوية هذا الهاجس أو الخوف الداخلى فى ذواتنا من أن نسقط فريسة « الاغتراب عن الذات » وأعظم مصائب الاغتراب عن الذات عند مفكر ما هو التقليد ، والتقليد يعنى أن يسجن المرء فى أطر حددت فى غيبة منه ، ويمكن أن تكون هذه الأطر :

١ ــ تقليدية ، أى فرضت عليك قبل أن توجد ، وأولئك الذين وضعوا هذه التقاليد كانوا مبتكرين ، لكنك وأنت تقبلها غريب عن ذاتك .

٢ ــ حينما يسيطر عليك إحساس كاذب بأنك قد تخلصت من السنن القديمة الموروثة ، ومن الممكن ألا تكون قد اكتسبت هذا الخلاص بنفسك ، بل يمكن أن تكون جاذبية التقليد لبعض الصيغ المسيطرة على العصر ، أو القوى ذات الوزن الأعظم أو القدرات الجبارة التى ركزت سيطرتها على العصر ، قد نقلتك من سجن التقاليد إلى سجنها هى ، وأنت تحس أن تغير السجن هو الخلاص فى حين أنك انتقلت من نوع من الاغتراب إلى نوع آخر . وأول خطوة هى كشف الذات والإيمان بظروفها الإنسانية . وليس هذا بلا شك بمعنى العجب الجاهل ، بل يعنى العودة الواعية إلى القيم الإنسانية ، التى كانت لدينا وسلبت منا . ولا جدال فى أن إنسان الغد هو ذلك الإنسان الذى يفكر ووجهه متجه إلى الغد ، سوف يكون إنساناً اكتسب جدارة التحرر من كل السجون السابقة والحالية ، أى تلك التى أورثناها ، أو التى أمليت علينا عن طريق الاستعمار ، وسوف يكون قد حصل على السعة الذهنية التى تمكنه من كشوف جديدة لم يتوصل إليها القدماء . إن أيديدلوجية الغد نتيجة تجارب عديدة اكتسبتها الإنسانية بأثمان باهظة : الطرق المسدودة والمتاهات ، ومن هنا فهى رجعة عن كل الطرق التى لم تؤد إلى خلاص الإنسان ، أو كشف لعوامل الإخفاق التى أدت إلى إنكسار المثاليات الكبرى . إن إيديولوجية الغد لا ينبغى أن تكون نابعة من الترسبات الذهنية والإيحائية التى لدينا ، ولا من الإدراكات التى نعلم وأحياناً لا نعلم من أين تصل إلينا : وسائل الإعلام رسمية كانت أو خفية .

ومن أجل اختيار مثاليات حسنة ، ينبغى أن يكون ارتكازها على أسس ثابتة ، وأى أسس أكثر ثباتاً من حركة التاريخ ــ أى السير التطورى النوعى للإنسان ، لكن أى مسير تطورى نوعى للإنسان ؟

إذا أردنا أن نختار ثلاث كلمات من بين هذا البحر المتلاطم من كلمات البشر ، فهناك ثلاث كلمات اختارها التاريخ ، أعنى حركة التاريخ ، تتقدم بأقصى سرعة لكى تبلور هذه المعانى والأبعاد الثلاثة : أولاً : الإحساس العرفانى « التصوف الممتزج بالبحث فى المعرفة » ، أى ما يعطى الدافع للانجذاب الوجودى فى جوهر الإنسان نحو القيم السامية ، ويعطى أيضاً الطاقة للإنسان تلك الطاقة التى لاتتيسر قط فى المواد ذات السعرات الحرارية ، وما خلقه العشق والعبادة فى تاريخ الإنسان ، يعد أغنى كنوز الثقافة ، هو قيمة التاريخ وجماله ، هو الذى جعل من أناس صغار عواصف عظيمة وجعل من العالم الصغير عالماً كبيراً ، بحيث أصبحت الطبيعة فى مقابل عظمتهم ليست أكثر من حصاة مركولة بالأقدام . هؤلاء البشر العظام وتلك الأرواح العظيمة تلك التى تعجز حضارة اليوم الصناعية والبورجوازية الحاكمة ، وعلوم الاقتصاد والتكنولوجيا عن خلقها .

ثانياً : التطور الإنسانى : وحين أقول الإنسانى ، فإننى لا أقصد أولئك المنعمين فى كل مجتمع ونظام فحسب ـــ فهم طفح على وجه المجتمع البشرى ـــ لكنى أقصد الجموع التى لا حصر لها التى كانت تشكل على مدى عصور التاريخ الأرضية الأساسية للبشرية ولا تزال كذلك ، هؤلاء الذين كانوا المنتجين على الدوام والمحرومين فى نفس الوقت ، هؤلاء الذين كانوا يمنحون الطعام دائماً وكانوا جياعاً دائماً ، تلك الجموع الإنسانية العظيمة التى قطعت الطريق على مدى تطور التاريخ من أجل اكتشاف قيمها وبالتالى اكتشاف حقوقها الإنسانية وبالتالى كشف مصائبها وأعداء طبقتها وبلاياها ، وفى النهاية كشف طريقها إلى العدالة والقضاء على مساوئها وكل القوى والنظم التى استضعفتها . إن تبلور شخصية الجموع التى لا شخصية لها فى سبيل تحقيق العدالة البشرية والمساواة الطبقية ـــ أو من الأفضل ـــ محو الفوارق بين الطبقات ، هذا التبلور فى تقدم ليكون البعد الثانى من أبعاد التاريخ فى المسيرة الحتمية .

ثالثاً : إن الإنسان ظاهرة من صنع الطبيعة ومع ذلك فبعمله سيطر على الطبيعة وجعلها ذات دور سلبى ، صنع التاريخ وصار من صنع التاريخ ، وهو بسيطرته على التاريخ يصنع نظامه الاجتماعى ويفرضه ، وبالسيطرة على نفسه الغريزية ، يُغَلِّب الإنسان المثالى على الإنسان الواقعى ، أى يغلب ما ينبغى أن يكونه على ماهو قائم

بالفعل ، ومن هنا فإن البعد الثالث للتاريخ نحو الحرية هو الإنسان المتحرك . لكن ما السجون التى تضغط بجدرانها على الإنسان ؟

السجن الأول : هو الطبيعة والجغرافيا ويستطيع بالعلوم الطبيعية والتكنولوجيا أن يتحرر منه .

السجن الثانى : حتمية التاريخ ، ويخلصه منه كشف قوانين التاريخ وتطور التاريخ وتكامله .

السجن الثالث : النظام الاجتماعى والطبقى ، وتخلصه منه إيديولوجية ثورية .

السجن الرابع : سجن النفس ، **﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾**(٥) الإنسان معجون من الدنيا والآخرة ، من عناصر إلهية وعناصر شيطانية ، هناك عوامل جذب تجذبه نحو التراب ، وعوامل جذب أخرى تصعد به إلى السماء ، ولكن الإنسان نفسه نوع من الاختيار ، ومن هنا تطرح مسئوليته ووعيه ، ومن هنا كما يقول مولانا جلال الدين الرومى « يتخلص من كثرة الأحوال المختلفة والمتناقضة فى حرب النفس » ، فيبدل خليطاً من التراكيب الغريزية والبيولوجية ، إلى إرادة جوهرية مصفاة واعية مختارة خالقة ومحددة للدافع والمثل ، وعلى هذا النسق يصل إلى « الفلاح » ، والفلاح هو حرية الإنسان من السجن الرابع : سجن النفس ، تلك النفس التى وضعت على معرفته بذاته ـــ نتيجة لتلاحم الغرائز الطبيعية والعادات التقليدية ، والحتميات التاريخية والاجتماعية معاً ـــ تأثيراً يصيب بالجمود والتحجر . ومن هنا فالبعد الثالث للتكامل التاريخى نحو كشف الحرية أو خلقها هو جوهر الإنسان : فالحرية السياسية والفكرية والفنية وحرية العقيدة ، حرية شكل الحياة وحرية الاختيار ، هى غنيمة الإنسان العظمى على مدى تطوره التاريخى .

الحرية ، العشق ، والمساواة .....

وإذا كان هناك مفكر ما ، مفكر يريد أن يتخلص من كل هذه السجون الذهنية والمادية ، ويؤسس إيديولوجيته العامة على أساس من مسيرة التطور النوعى للإنسان ، والحركة الكلية للتاريخ ، إذا كان مفكراً أوربيا فلابد من أن يفكر فى هذه النماذج الثلاثة :

باسكال : هذا الجوهر للعشق الذى كان يحس فى نفسه بعاصفة من قلق الفطرة الإنسانية ، للتسامى عن طريق عبادة القيم المطلقة ، التى تحتوى الإلوهية عليها .

ماركس : ذلك الرجل الذى استخدم كل شىء فى انتفاضته لكى يمنع فحسب استغلال أقلية لأكثرية محرومة ومستغلة ومستضعفة ، واستخدم عمله من أجل إثبات حق الجماهير ، التى لم يكن لها حق فى أى نظام إلا العمل والجوع وإلا أن تُركب ، وحتى النفس الأخير احتفظ فى ذاته بكراهية القهر والظلم والرأسمالية والحياة المنحلة للبورجوازية الحاكمة فى زمانه والخداع والجهل والاحتيال الفكرى الذى كان يمارس باسم الدين ، احتفظ بالكراهية لكل هذا حية فى نفسه حتى النفس الأخير ، وظل وفياً لهذا الإحساس المقدس .

سارتر : ذلك الشخص الذى يعتبر الحرية هى محك الخير والشر والحق والباطل ، وبالرغم من أنه لم يكن يعتقد بأى معنى لحياة الإنسان أو نتيجة لوجوده وحياته ، فإنه كان يعتبر الحرية هى مثال فلسفة الحياة وفلسفته الوجودية ، وبلغ إيمانه فى الإرادة الإنسانية حداً جعله يقول : « لو أن مشلولاً لم يصبح بطلاً فى العدو فهو مسئول » وعلى كل فهو الرجل الذى جرت على لسانه هذه الكلمة الخالدة « أنا أختلف معك فى أفكارك ، لكنى مستعد للتضحية بنفسى حتى تستطيع أن تبين أفكارك بحرية » قل إذن مالديك .

على كل حال هى فلسفة ، لا هى ظل الله ولا ابن الله ولا شمس الطبيعة ، ولا هى عبادة للفرد الأسمى وصب المجد الإلهى أو العناية الربانية فى دمه ، أو وضع طائر السعادة الهمايونى فوق رأسه ، ولا هى نابعة من دم خاص وجنس خاص بحيث اترعت الأرستقراطية دمها وضيقت الساحة على كل شىء حتى على الإنسانية ، لكنها تعد إرادات حرة وانتخابا لأفراد مجتمع ما فرداً فرداً كمنبع لقدرة حاكمة ، وتزرى بالقوى العظيمة والشخصيات العالمية عن طريق وخزة من قلم كاتب ، أو فن من فرشاة رسام ، أو معجزة من مخرج ، وتدافع عن الإنسان الذى لا ملجأ له لكنه لا يمرغ الرأس فى التراب ، أمام السلطة الحاكمة وتحميه بقوة القانون ، وتدافع عنه أمام نظار جبار ، ذلك الجبروت الذى يستطيع به أن يشق أجواز الفضاء ، لكنه لا يملك القدرة على كسر قلم ، يستطيع أن يكتسب الفلك المسيطر على الطبيعة ، لكنه لا يملك القدرة على إسكات فم .

وإذا كان هذا المفكر يعيش فى الشرق ، ويريد أن يمارس نفس التجربة فمن حسن الحظ أنه يمتلك مقومات هذا الأمر أكثر من زميله الغربى فلديه : بوذا : النبى غير المرسل لحرية الجوهر الإنسانى .

الحلاج[٦] : البحر البركانى الذى يتموج حتى قاعه .

مزدك [٧] : الرجل الذى حرر نعم الحياة من سجن الملكية الضيق قبل ماركس بألف ومائتى سنة ، وقبل أن تقوم الثورة الصناعية والانتاج الجماعى والآلة البخارية ، وقام بالكفاح ضد « جمع الذهب » و « جمع النساء » عند حلف الأكاسرة ورجال الدين ، وكان من فصول هذا الكفاح « حديقة الشهادة » تلك الحديقة الرهيبة التى غرس فيها عشرون ألف إيرانى من رءوسهم فى التراب ، هذه الأشجار المقدسة التى أثمرت فى الإسلام ، وقطف التشيع الثورى العلوى ثمارها .

لكن إذا كان المفكر مسلماً وشيعياً على الخصوص ، فليس فى حاجة إلى المزج بين هذه الشخصيات الثلاث لكى يحصل على إمام ، فلديه « على » فهو الذى كان أكثر حساسية من مزدك وثورية من ماركس ، وعاش هكذا ، يكره المستثمرين ويهاجمهم ، وكان متعاطفاً مع المحرومين ، بحيث قال فى شأن ما أخذه عثمان من بيت المال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته ، فإن العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق » [٨] ، تلك الروح العظيمة التى كان غضبها يشتد حين ترى ظلماً ، وحين سمع أن أعداءه أغاروا على أرض يحكمها وآذوا إمرأة يهودية كانت فى ذمة حكومته ، صعد المنبر غاضباً وكأن الألم صفعه على وجهه وصاح : « فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوماً بل كان به عندى جديراً » ، وكأنه يحس أنه لا يستطيع أن يتحمل تحت ثقل هذه المصيبة ، وأولى به أن يسلم الروح ــ الإنسان الذى عاش كما يعيش الفقراء (فى حين أنه كان حاكماً على أعظم الإمبراطوريات) ، وحتى يجعل نفسه بأجا واحداً مع أكثر الناس تحت حكمه فقراً ، الشخص الذى عنف ميثم التمار صديقه الحميم ، حين رآه يفصل بين التمر الجيد والتمر المعطوب فى كومين فى الطبق ، الذى يبيع فيه وأمره أن يخلطهما ويبيعهما بثمن متوسط . وماذا يعنى هذا ؟ ماذا تعنى صرخته فيه : لماذا تفرق بين الناس ؟ وقيامه بنفسه بخلط الثمار ؟ إنه لا يعنى « لكل بقدر

عمله أو المساواة فى ملكية وسائل الإنتاج فحسب » بل يقدم لنا تصوراً لأعلى نظام اشتراكى ممكن ، أى « التساوى فى الاستهلاك » .

أما احترام حقوق الإنسان وحرية الفكر فقد بلغ فيهما درجة أنه كان يصلى ويشوش عليه الخوارج أعداؤه الألداء صلاته ، ويخطب فيقاطعون خطبته ، بل ويسخرون منه ، وكان فى أوج عظمته وقوته ولم يلحق بإنسان أدنى أذى ، كان حاكماً يسيطر على رقعة واسعة من العالم ، ولم يكن لديه سجن سياسى ، ولم يكن لديه سجين سياسى واحد ، ولم يقم باغتيال سياسى واحد . وحين قدم إليه طلحة والزبير ، وهما من أخطر الشخصيات القوية التى كانت تتآمر ضد نظامه ، حين قدما إليه طالبين الخروج من تحت رقابته ، وكان يعلم أنهما ذاهبان لتنفيذ مؤامرة خطرة ، سمح لهما ، لأنه لم يكن يرغب فى أن يسن سنة للطغاة والجبابرة ، بمقتضاها يدوسون حرية الإنسان فى سبيل السياسة .

أما بالنسبة للعشق والإحساس العرفانى الصوفى : فالحلاج رماد بارد من بركان وجوده ، كان هناك جوهر فى روحه ويحس بقلق فى ألم وجوده بحيث إن تلك الروح التى تسامت فى صعودها ، إلى حيث لا ترقى خيالاتنا ، كانت تحس بغشية من تأخرها وضعفها وحيرتها فى كنه وجودها . وفى تهجده ودعائه فى خلوته ، تلك التى تبرز صفاء إخلاص الجوهر الإنسانى ، كان يحمد الله تعالى قائلاً : « كم من الزلات أمنتنيها وكم من المديح وضعته على أفواه الخلق لا أرى نفسى جديراً به ، وكم من المستقبحات فى حجبتها عن أعين الخلق » .

وبهذه النظرة واضح إلى أى مدى يمتد الأمر ويتسع ، وعلى أننا فى اختيار طريقنا ، لم نختر الطريق الذى سار فيه السائرون ، أو الطرق الفرعية التى يدلوننا عليها ، ولا تلك التى تنيمنا وسائل الإعلام بها ، ولا نحن سقطنا فى خيالات المفكرين ، ولا أهرعنا إلى التصورات الفلسفية لفلاسفة المدينة الفاضلة ولا إلى تسللات الصوفية ، لكننا كشفنا أكثر الطرق استقامة وهو الطريق الذى يميز الحركة التكاملية للجوهر الإنسانى فى التاريخ . أجل ، بهذه النظرة ، واضح إلى أى مدى يتسع الأمر ، وواضح إلى أى مدى يختلف هذا الطريق العظيم عن الأزقة الضيقة المظلمة والجدران العالية ، بل وأحياناً السقوف المغطاة التى تفصل السالك عن بقية المسيرات ، وتخفى الأفق عن عينيه . لكن هذه النظرة فى نفس الوقت ، تشير إلى

أن فهم هذه الأبعاد الثلاثة : الحفاظ على التناسق وإشراق العاطفة والإيمان ، ونظرتنا تعتمد على هذه الأسس الثلاثة الرحبة المتباعدة ، إلى أى مدى تحتاج إلى جرأة فكرية وثورة جوهرية فى أرواحنا ، وتغيير لكل القوالب الذهنية لصورنا الفكرية وأبعادنا العاطفية ، خاصة أن هذه الأبعاد الثلاثة قد انفصلت عن بعضها فى مسيرة التاريخ ، فهى بمثابة ثلاثة أنهار تفرعت عن شاطىء وجود الإنسان إلى جداول صغيرة ، يشتد تباعدها عن بعضها البعض فى كل لحظة ، وهذه هى مأساة التاريخ الكبرى ، ومظهر تشتت الوجود الإنسانى وليتها انفصلت فحسب ، إلا أنها فى صراع كل مع الآخر ، وألقى فى روع كثير من الأفكار تلك الخدعة الكبرى ، التى ترى بأن كلاً منها مناقض للآخر .

والعجيب أن الأمر على خلاف ذلك تماماً ، فوجود كل عنصر معتمد أساساً على وجود العنصر الآخر ، فلا يمكن أن يوجد اشتراكى صادق ويبقى قبل أن نشكل فى ذواتنا جوهراً خالصاً وإلهياً ، يدفعنا إلى عدم المطالبة بحقوقنا الشخصية ، إذا كان هناك فرد واحد يقل عنا فى الحقوق ، أى أن نفسر المساواة على أنها المساواة مع الآخرين فى الحقوق وليست نيل حقوقنا الخاصة ولا يتأتى هذا إلا بتحقق نوع من الإيثار يعد التكامل الروحى الفعلى للجوهر الإنسانى ، كيف يمكن أن تنعدم الطبقات فى مجتمع تحرك أفراده البواعث المادية ، وتشكل فيه الفلسفة المادية تفاسيرنا لوجودنا وحيواتنا ؟ ومن هنا يستطيع إنسان « مؤمن بالقيم » أن يقيم مجتمعاً اشتراكيا ، وعلاوة على ذلك كيف يمكن التفكير فى التكامل الروحى لجوهر الإنسان والذى يدعوه إليه « العشق والإيمان » وكيف يمكن التفكير فى عبادة الله أى عبادة المثل العليا ، فى حين أن النظام الذى يعيش الناس فى ظله نظام تسيطر عليه نزعات المال والاستهلاك والبواعث الغريزية والمادية والبورجوازية والرأسمالية والملكية والفردية والاستغلال الطبقى ؟ ، أما العلاقات ـــ العلاقات الإنسانية ـــ فهى علاقات جماعة من الوحوش تشرع مخالبها وتتقاتل حول جيفة ، وإذا أغمض أحد عينيه ، تعرض للنصب والاحتيال . إن النظام الرأسمالى ، ونظام السوق يستوجب على الإنسان أن يسعى سعى الكلاب من الصباح إلى المساء ، وأن يحلم بالمال من المساء إلى الصباح وإلا حرم من الحياة ، وحينذاك إلى أى شىء تصير إليه حرية الجوهر الإنسانى ؟ فى نظام قائم على صراع الطبقات والاستغلال وخضوع كل القيم الإنسانية لسيطرة المال ،

كيف يمكن الحديث عن الديموقراطية والحرية السياسية والفكرية ؟ أديموقراطية ورأسمالية ؟ كيف تجتمعان معا ؟ ، اللهم إلا أن نجعل الديموقراطية غطاء كاذباً لاستغلال الإنسان للإنسان وهذا أحط أضرار الديموقراطية وأكثرها خداعاً . من الممكن فى مثل هذا النظام أن يحس الإنسان بالحرية لكنه إحساس كاذب ، من الممكن لكل فرد فى مثل هذا المجتمع أن يعبر عن رأيه بحرية ، لكن قبل ذلك تكون الرأسمالية هى التى وضعت رأيها فى صناديق الاقتراع ، لأن المال عن وعى أو غير وعى هو الذى يصنع الرأى . فى ساحات اللعب التى يركض فيها كل شخص حراً ، لاشك فى أن الراكبين هم الذين يسبقون ، أما الراجلون فهم الذين يتخلفون دائماً عن هذه الحرية والمساواة فى الحقوق السياسية .

ومن هنا فليس من الممكن نيل الحرية والإحساس العرفانى والإخلاص الأخلاق ، قبل أن يكون نظام الحياة نظاماً يحرر الإنسان من قيد الحياة المادية ، ومن أسس الاقتصاد ومن الصراع الذى وصف فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر** ﴾[9] . فى مجتمع اشتراكى – اشتراكى حقيقة – ليس من الممكن تركز الملكية الفردية فى بيروقراطية جامدة ومستمرة ، وتسمى بالحزب الواحد أو ديكتاتورية الطبقة ، وهى فى الحقيقة ديكتاتورية الفرد أى الزعيم . وهو ديكتاتور يؤمن نظرياً بإلغاء الشخصية ، ويعتقد بعدم وجود دور للفرد فى مسيرة التاريخ ، لكنه عملياً يتجاوز فى عبادة الفرد حدود الفاشية . ومن هنا فالإنسان الاشتراكى ـــ قبل كل شىء ـــ إنسان إلهى ، هو جوهر صافٍ متسامٍ ، إنسان بلغ حد الإيثار ، له توجهه الأيديولوجى المتناسب مع نظرته الشاملة للحياة . وأيضا فإن الإنسان الذى يفكر فى الحرية ـــ الحرية الحقيقية للإنسان لا الحرية التجارية ـــ إنسان يعيش فى مجتمع تخلص سلفاً من أسر النظام الرأسمالى ، ولم يجعل نظام الطبقات الإنسان ذا قطبين وشقين ، وليس الشرك الطبقى أو العرقى أو الجنسى مسيطراً عليه . ومن هنا نرى أن هذه الأبعاد الثلاثة التى تتصارع فيما بينها عليها أن تتحد حتى لا يتحقق التوحيد الإنسانى ، والتوحيد الاجتماعى ، والتوحيد الطبقى فحسب ، بل وتشتد سرعة حركة الإنسان التكاملية فى مسيرة التاريخ ، وفى نفس الوقت توجه هذه الحركة أيضاً وجهتها الصحيحة .

وبناء الذات يعنى النضج المتناسق لهذه الأبعاد الثلاثة فيها : أى أنه بينما نحس

أننا مزادكة فى بواطننا ، نقيم فى داخلنا عظمة بوذية وفى نفس الوقت نحترم الحرية الإنسانية ، بحيث نقدس مخالفينا فى الفكر ونتحملهم تقديساً للحرية ، وليس لأننا نستطيع ، نمنعه من حرية بيان أفكاره واختياره جبراً وقسراً ، وباسم الأصول المقدسة ندوس بالأقدام أكثر الأصول قداسة ، أى حرية نضج الإنسان عن طريق تنوع الأفكار ، وتنوع الاختيارات وحرية الخلق وحرية الفكر ، والبحث والاختيار ، باسم الأصول المقدسة لا ينبغى أن يداس هذا الأصل الأعظم بالوسائل البوليسية والفاشية ، لأنه حينما يسيطر ديكتاتور ، فاحتمال أن تجرى العدالة ، اعتقاد خداع وخطر ، وحينما تسيطر الرأسمالية ، فإن الإيمان بالديموقراطية وحرية الإنسان نوع من البله والسذاجة ، وإذا آمنا بالتكامل النوعى للإنسان ، فإن أدنى مساس بالحرية الفكرية للإنسان وأدنى قلق فى مواجهة تنوع الأفكار والتجديدات ، يعد مأساة .

وفى نفس الوقت الذى ينبغى أن نعتبر أنفسنا فيه مزدكيين ينبغى أن نفكر بطريقة بوذية ، أى أن نفكر فى النيرفانا البوذية التى توصل جوهر الإنسان إلى الطمأنينة النفسية والداخلية ، وينبغى أيضاً ألا نتوقف عن احترام ابتكار الآخرين واختيارهم وإيمانهم وأفكارهم . وكيف يمكن أن نصالح فى ذواتنا بين ماركس وسارتر والحلاج ، دون أن نضحى بأى واحد منهم فداء للآخر . هذا أمر صعب لكنه هو الذى ينبغى أن يكون منهم ، إن أعظم مآسى الإنسان فى العصر الحديث هى اعتناقه للبعد الواحد ، ليس فحسب طبقاً للتفسير الذى قدمه ماركوز ، لكن أيضاً إذا نظرنا إلى أننا اكتفينا باشتراكية مادية نكون قد ابتعدنا عن بعدين من أبعاد التكامل الإنسانى ، لكنا قد ضحينا بحرية جوهره ولكنا قد نسينا قيمته الروحية وانبساط جوهره وإذا فكرنا فحسب فى النيرفانا الهندية الخالصة ، وفى بحار الهند الروحية ، لسقطنا فى عزلة فردية ولسلمنا مصائر الآخرين لأيدى الطغاة ، فنكون قد دسنا أعز العواطف الإنسانية بالأقدام فى حين أننا نظن أننا قد أودعنا ذواتنا فى يد القيم الإنسانية السامية ، لكن إذا أسرعنا إلى المشانق كالحلاج واحترقنا فى نار جهل الأعداء ، واعتبرنا – مرفوعى الرأس – أن استشهادنا فداء لأنواع الضعف الموجودة فى دنيا الوجود وفى حيواتنا ، نكون قد متنا ميتة طاهرة لكن فى سبيل هدف مزيف ، ذلك أننا نكون قد أوصلنا أنفسنا إلى الجنة ، فى حين أننا تركنا الآخرين فى جهنم الحياة على الأرض ، وهو نوع من التفكير المرائى والهرب العبثى الذى ينبع من نسق

فكر التجار ، والجنة ليست مكاناً لهؤلاء ، وهى محرمة عليهم كما حرمها المسيح على الأغنياء فى قوله : « لأيسر على مرساة سفينة ضخمة أن تلج سم الخياط من أن يدخل غنى ملكوت السموات » . وينبغى — وهذا أهم من كل شىء — ألا ننسى أن التقدم فى واحد من هذه الأبعاد ليس منفصلاً عن الحركة المواكبة فى الأبعاد الأخرى ، فيستطيع المرء أن يقوم بتربية القيم الإلهية فى ذاته وأن يوجه همته إلى بسط فطرته وعظمته الداخلية ، ويقوم بتلقى انعكاس الإله فى فطرته فى نفس الوقت الذى يمتزج فيه بأقدار الناس المظلومين المحرومين ويحس بآلامهم ، ويكافح فى مسيرة خلاصهم ، ويغض الطرف عن مفاسد طبقته ، من أجل أن يزج بنفسه فى قدر الطبقات المحرومة من كل النعم الإلهية ، وفى هذا المجال يستطيع المرء فى تعاطفه مع الجماهير أن يسير بإخلاص إلى الحد الذى يصل فيه إلى مرحلة الإيثار ، لأنه يكون قد ربى القيم الإنسانية فى ذاته ، يستطيع المرء إذن أن ينمى هذين البعدين فى تناسق معاً ، حينما يخرج من مشيمة التعصب وحب الذات الفكرى والذهنى ، ويحترم حرية الآخرين ويحصل على فضيلة تحمل الآراء المخالفة بشكل يحير كل المتعصبين والحتميين وعباد المذاهب الجامدين . ومن هنا فإن بناء الذات فى هذه الأبعاد الثلاثة يتم معاً وبتناسق وباستمرار ، أى أن تقدم الإنسان فى بعد منها يفسر بأنه قابل للتقدم فى البعدين الآخرين ، بحيث ينبغى أن يعلم قبل كل شىء أن بناء الذات لا يمكن بأن يفسر كمرحلة منفصلة عن المشاركة فى بنية العصر ، كما تشير أحكام الإسلام إلى ذلك ، فالإنسان عندما يصل إلى سن التكليف يأمر على الفور بمسئولياته الفردية ، التى تحتوى على بناء الذات فى نفس الوقت مع مسئولياته الجماعية التى تشكل رسالته الاجتماعية والسياسية ، فقد كلف الإنسان بالصوم والصلاة ، فى نفس الوقت الذى كلف فيه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وبناء على ماسلف ، اتضحت الأبعاد الثلاثة الأساسية فى بناء النفس ، وينبغى لنا الآن أن نفسر أسلوب التربية المتناسق لهذه الأبعاد الثلاثة ، وخلاصة الأمر ، أن هذه الأبعاد الثلاثة ينبغى أن تتبلور وتشتد على الدوام وفى نفس الوقت مع ثلاث وسائل :

١ — العبادة . ٢ — العمل . ٣ — النضال الاجتماعى .

١ ــ العبادة :

من نافلة القول أن العبادة ليست بمعنى أداء الوظائف التقليدية والأوراد اللفظية (كما هو رائج ومعروف الآن بين المذاهب التقليدية) ، وأصل الاشتقاق اللغوى لكلمة العبادة يبين عمقها وأفقها فى ثقافتنا . فعبارة « عبد الطريق » تقال فى شأن طريق عن طريق أعد بحيث يوصل السالك بسهولة ويسر وباطمئنان وسرعة إلى الهدف . ومن هنا ندرك أن العبادة مسألة رئيسية وهى أساساً بمعنى بناء الذات ، إن الوجود الإنسانى الذى فرض علينا بما فيه من أغراض وميول وعبادات منحرفة يفرض علينا بالتالى مزالق وجواذب معوجة ومنحرفة عن الطريق وأنانية ، يستطيع أن يُصفى وينقى ويزكى تحت إشراف الوعى والإرادة الإنسانية وبنظام قاس يحد من انطلاقه ، فيصل إلى الإخلاص ،والإخلاص هو تفرد الوجود الإنسانى فى طريق الإيمان ، فى طريق القيم السامية الإنسانية ، فى طريق تسليم الذات كلية لله ، وفى طريق الخلق يصل إلى إثبات ذاته عن طريق نفيها ، تجربة عميقة تفيض بها ثقافتنا العرفانية أكثر من أية ثقافة فى العالم . إن الصلاة فى الإسلام خاصة فى بداية قيامه ، كانت تجذب الإنسان كل عدة ساعات مرة فى اليوم من مستنقع الحياة الفردية والاقتصادية ــ التى كانت كلها سعياً لسد احتياجاته الفردية ــ وتوقفه فى مواجهة الله ، وكانت تصحح الدافع لوجود الإنسان فى المسيرة الكلية فى حالة فياضة بالعواطف والجذب ، إما فى خلوة مليئة بالخلوص أو فى جماعة مليئة بالانفعال والوحدة . والصوم أيضاً نظام آخر ، نظام يمنح الإنسان القوة فى مواجهة مع أشد الميول الغريزية والفردية فى نفسه ، ويجعله مسيطراً عليها فى طريق الإيمان . ولا شك فى أن الإنسان الذى يريد أن يهب نفسه لمثل عليا إنسانية ، ينبغى له أن يتحرر من استحواذات الفردية عليه ، إن النصوص العرفانية لدينا مع الأشكال التى ذكرت للعبادات الإسلامية تعطينا فى مجموعها رياضة واعية . تمنع الروح عن التردى فى حمأة الحياة اليومية ، والسقوط فى سجن عبادة الاستهلاك ، وعبادة التنعم والمنافسات الدنية التى فرضتها الأجهزة التجارية على حياتنا ، ونتيجة لها صارت وطأة حمى الاستهلاك تزداد ثقلاً كل يوم ، وتقضى على كل قيمنا الإنسانية . يقول فيكتور هيجو : « يقف الصغير بلا حد أمام العظيم بلا حد » هذا هو تفسير معنى الصلاة .

والمقصود من العبادة هو الاتصال الوجودى المستمر بين الإنسان والله ، الإله ، الذى هو منبع الروح والجمال والهدف والإيمان وكل قيمنا الإنسانية ، وبدونه يغوص كل شيء فى مستنقع العبث واللامعنى والابتذال . ودَوْرُ العبادة اليوم أهم بمراحل من دورها بالأمس وأول الأمس . فبالأمس كانت بورجوازية بدائية سوقية هى المسيطرة علينا ، وأول أمس حكم انتاج تقليدى زراعى دورى وساكن مجتمعنا ، وكانت الفرصة موجودة على كل حال كى يفكر الإنسان فى الطبيعة والله معاً وفى وقت واحد ، وكل منهما كان على صلة بالآخر خاصة أن الطبقات المستغلة كانت ساذجة بسيطة عامية غير ذات تأثير ، أما اليوم والرأسمالية نظام خليط من الاقتصاد والثقافة والسياسة وعلم الاجتماع والقوى العسكرية ، ومثل شبكة سرطانية لم تمسخ الدنيا فحسب ، بل مسخت الإنسان من الخارج والداخل ، وكما نرى دون أن نعلم كيف وفى أى طريق نسير حتى نتغير ، وهذا التغيير بأسلوب وفى اتجاه يريدونه وأعدوه سلفاً ، والعبادة فقط هى العلاقة التى تستطيع أن تحمى الفرد فى مثل هذا النظام المرعب من مسخ وجوده وابتذال إنسانيته ونسيان كل القيم الإنسانية ، ويقيم لنا علاقة مع أصل الوجود ، وتحفظنا فى عالم تهجم عليه الميكنة والرأسمالية هجوماً عنيفاً ومدمراً ، وتهبنا ملاذاً عظيماً .

يقول هايدجر : إن الإنسان صاحب وجودين : أحدهما وجود اعتبارى أو مجازى ، وهو مجموعة العلاقات التى تربط الإنسان بالظواهر والأحداث والمشاغل التى تحيط به ، والدوافع والغرائز والعواطف والعادات والأحاسيس والأعراض التى تطرأ وتربطه بدورها بما يحيط به ، وهذا الوضع يشكل فى داخله « شخصية وجودية » عرضية ، هى التى تلون الـ « أنا » بألوان هى الظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعملية ، أو ما يعبر عنها جميعاً بكلمة « البيئة الخارجية » . وهذا التلوين هو الموضوع الرئيسى لعلوم الاجتماع والإنسان والنفس الفردى والجماعى ، وكلها ممكنة التفسير والتحليل بالمقاييس المنطقية والعلمية ، وهذا هو الوجود الذى تعرفه فروع العلوم الإنسانية المختلفة ، ولما كانت ذات طابع حتمى وعام وعينى ، فإن علم الإنسان المعاصر ، يعرف الإنسان بهذه الألوان فحسب ، ومن هنا فالعلوم الحديثة الإنسانية إما أنها تتعامل مع الإنسان فى إطار قوالب محددة وحتمية ، وإما أنها تضرب صفحا عن الغوص فى كنه الذات والوجود الجوهرى

للإنسان ، وتنفض يدها من إدراك السر والحقيقة الغامضة والعجيبة واللامتناهية للإنسان ، وتفسر البشر كظواهر أو مقولات مادية تعد من صنع العوامل والروابط الميكانيكية الطبيعية للعرق والوراثة ووسائل العمل والنظام الاجتماعى والأساس الاقتصادى والقوالب الطبقية والحرفية ومن إنجازها . ومن هنا وضع كل شخص فى مكانه من هذه الأطر وميز بهذه الحجب ، وفى الحقيقة فإن الوضع الخارجى والعوامل البيئية هى التى تفسره : الإنسان الفلاح ، الإنسان العامل ، الإنسان الإقطاعى ، الإنسان البورجوازى ، الإنسان البيروقراطى ، الإنسان الإدارى ، الإنسان التكنوقراطى ، الإنسان المفكر ، الإنسان الفنان ..... وهلم جرا .

لكن الإنسان ـــ بتعبير هايدجر ـــ له وجود ذاتى وحقيقى وهو عبارة عن جوهر وجودى مختف تحت هذه الألوان العارضة والحالات العابرة المنبثقة من الوضع الاجتماعى والعلاقات الخارجية ، ومعنى كون الإنسان إنساناً ذا أصالة وعلة مستقلة حرة عن العلل المادية وتسلسلها والحتمية الاجتماعية والصفات البيئية العارضة ، تنبع من هذا الوجود الذاتى الحقيقى الخاص بالإنسان وتنحصر فيه وفى الأحوال العادية ، عندما يحيا الإنسان حياته اليومية ، ويتخذ ردود أفعال بالنسبة لظواهر بيئته وأحداثها فحسب ، ويتشكل طبقاً للمقتضيات الإقليمية والوراثية والاجتماعية والطبقية والعملية التى تتعلق به ، ويغفل عن هذه الـ « أنا » التى هى النفس الإنسانية المتعالية فيه . والعشق والموت والهزيمة ، ثلاث لطمات قوية تخرجه من هذه اللجة وتفيقه ، وتحت ثقل هذه اللطمات ترتد أنظاره التى شغلت دائماً بالنظر إلى غيرها وما حولها ، ترتد إلى داخله . ويقلب الإنسان الطرف فى داخله فاتحاً عينيه متأملاً ذاته ، وفى هذا التغيير يدرك أحواله الحقيقية وهى أعمق عواطفه ومدركاته وتجاربه الإنسانية وأسماها وأصدقها ، ومن هذا الطريق يدرك نوعاً من الوعى مباشراً لا وساطة فيه يسمى بمصطلح مفكرينا « العلم الحضورى » أو اللدنى الذى يتوحد فيه العلم والعالم والمعلوم ، وتجربة هذه الوحدة ذات دور أساسى فى تكوين الوعى والتغيير الذاتى والانقلاب الوجودى الحقيقى ، ومن هذا الطريق يستطيع الإنسان ، مهما كان قالبه الاجتماعى وإطاره الطبقى بل ومهما كانت خصائصه الوراثية التى بها ولد وعليها نشأ ، يستطيع هذا الإنسان أن يحصل على القدرة المعجزة التى يخلص نفسه بها ويغيرها ويختار مسير حركة أيديولوجية أخرى ومصيراً طبقيا آخر : وقد يكون مفكراً مرتبطاً

بالبورجوازية ، أو أرستقراطياً ابن أرستقراطى ، لكنه بإخلاص وجودى وإيثار ثورى يضع نفسه فى خدمة فلاح أو عامل ، كلاهما فى الأصل عدو تقليدى لطبقته ، وقد يكون ربيباً للثقافة الأرستقراطية والتعاليم التى تتعلق بالجنس الأعلى أو الطبقة المحتكرة المصطفاة ، ومع كل ذلك يحصل على رؤية شعبية ، ويحس حقيقة فى أعماق روحه بآلام الطبقة المحكومة المحرومة وجراحها وعواطفها وميولها ، ويمتزج بها امتزاجاً حقيقياً ويتحد بها وحدة ذاتية ، وهى مرحلة أكثر تقدماً من العلاقة التى تتم على أساس مسئولية اجتماعية أو التزام فكرى أو يسارية مصطنعة . يصير من ذات الشعب ، لا غير شعبى يجعل نفسه مسئولاً فى عمله ملتزماً فى قلمه أمام الشعب . العبادة جهاد فى محو الألوان العارضة ، وتحطيم القوالب الاجتماعية الضيقة وصقل الوجود الحقيقى ، وبعث الأحوال الوجودية الحقيقية ، واستخراج الكنوز الخفية للوعى والوصول إلى حالة أكثر تقدمية ، من تلك التى وصل إليها عظماء العارفين فى موروثنا ، وهى حالة « وعى القلب » وكشف التزام أعمق وأشد اخلاصاً ورقياً وأكثر صدقاً ، من كل ما يفهمه الغربيون اليوم من هذه الكلمة ، وهذا هو الإلتزام الحقيقى أو بالتعبير القرآنى الذى ورد على لسان على : ميثاق الفطرة [١٠] .

٢ ــ العمل :

يبين القرآن الكريم والسنة النبوية ونمط الحياة التى عاشها صحابة رسول الله ربائب ثورته ، إلى أى مدى استند الإسلام على العمل . ونحن نعلم أن العمل الصالح يذكر على الفور فى الآيات القرآنية بعد الإيمان . وفى قول لرسول الله ﷺ حين سئل : ما الإسلام ؟ أجاب : هو العمل . وليس المقصود هنا أن نتردى فى نوع من البراجماتية وأن نجعل المقياس الفكرى مقياساً عملياً ، فهذا نوع من المنزلق المنحرف الذى يلقى بالإنسان معصوب العينين فى تهلكة العمل ، لأنه ينبغى لنا قبل كل شيء أن نكون قد أدركنا الأساس الأيديولوجى حتى يمكن التمييز بين العمل الصالح والعمل الطالح ، والعمل الذى يخدم الإنسان من العمل الذى يقدم خدمة شخصية للفرد أو العمل المضل أساساً . والعمل الصالح فى الإسلام على خلاف التصور الدينى الذى نفهم به هذا المصطلح اليوم ، فهو ليس العمل الدينى فحسب ، بل هو فى نفس الوقت العمل المادى والعمل الانتاجى ، فإذا تحدثنا عن العمل الدينى والعمل الفكرى والعمل الاقتصادى فليس هذا إلا لنتحدث بلغة العصر ، وإلا ففى

الإسلام ولغة الإسلام لا توجد بينها فواصل أو حدود ، ففى الأساس ينبغى أن تنعكس رؤية التوحيد على لغتنا . والمقصود باللغة : اللغة الفكرية والفلسفية وهناك نقطة فى غاية العمق فى الإسلام وهى أن كل عمل صالح ــ اقتصادياً كان أو سياسياً أو صحياً أو فى سبيل الناس ــ يفسر كنوع من العبادة الدينية ، حتى نوم الإنسان ، نوم الإنسان المؤمن ، حتى الطعام ، وحتى كسب العيش . واستناد الإسلام على العمل الاقتصادى له نفس المعنى : سئل الرسول ﷺ : ما أحب الأعمال ؟ قال : خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح ، وبالتالى فإن خير الأعمال عمل قام به المرء بيده ، وفى الحقيقة ، لاثمرة للإنسان إلا بما قدمت يداه ، وهذا يصدق تماماً على علاقة الإنسان بالله ، فالقيامة ، والمصير النهائى للإنسان كما وردا فى القرآن الكريم ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه** ﴾[11] ، وهذا أيضا هو الأساس الكلى فى العلاقات الاجتماعية والنظام الاقتصادى ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى** ﴾[12] والعمل مسألة مهمة جداً تطرح فى بناء الذات ، لكن ليس كمقدمة للحياة أو الدراسة أو الوصول إلى منصب أو جاه ، وليس العمل الإنتاجى ، لكن المقصود هنا العمل كرياضة فى بناء الذات ، العمل يعنى إلغاء دور الطبيعة على يد الإنسان ، العمل هو بطولة الإنسان فى مواجهة الطبيعة ، فالإنسان يسلب الطبيعة سلطتها ويبدلها بسلطته هو ، وهذا هو العمل المادى . والعمل الاجتماعى على نفس هذا النسق ، فالإنسان بعمله يغير مجتمعه ويصنعه ، والعجيب أن الإنسان يصنع فى الوقت الذى يصنع فيه : فالفردوسى نظم الشاهنامه وفى الوقت نفسه فإن الشاهنامه صنعت هذا الرجل العظيم الريفى الخراسانى ، ومايكل انجلو خُلق بينما كان يبدع تمثال داود ، ومن هنا فالعمل سلاح ذو حدين ، وهو تجلٍ للجوهر الوجودى الإنسانى ، والإنسان هو الذى يعمل فحسب ، ذلك لأن العمل عنده ليس أمراً غريزياً كما هو موجود فى كافة الحيوانات ، لكن العمل عبارة عن تجلى التحقيق العينى للإرادة والرغبة والقيم الخاصة بالإنسان . والإنسان يولد فى العمل ، ويصنع فى العمل ، وتتبدل أفكاره الذهنية إلى واقعية عينية ، وفى نفس الوقت يصقل جوهره الوجودى الحقيقى . لكن الدور الثورى للعمل فى بناء الذات عبارة عن تحرير العمل ، وكل إنسان سجين فى قوالبه الأسرية والطبقية والاجتماعية فكيف يمكن أن يتحرر من هذه السجون ؟ نحن نعلم فى نهاية الأمر أننا ما لم نتحرر لا نستطيع أن نتعهد ــ كبشر ــ بدور فى عصرنا ومجتمعنا ومن أجل الطبقة التى نحس بمسئولية نحوها ، فالسجين أداة ،

لا هو علة ولا هو عامل . وهذه المسألة تتخذ أبعاداً عميقة ويتسع نطاقها إلى درجة مثيرة للدهشة عندما تثار قضية المسئولية الثورية للمفكرين . فمن المفكرون فى الغالب ؟ لا جدال فى أن أكثرهم قد نشئوا فى الطبقة المتوسطة ، فالطبقات العليا قد تعفنت إلى درجة تدفعها إلى سلب كل القيم الإنسانية الحقيقية ، وكل الإحساسات الثورية من نشئها ، أولا تسمح أساساً بوجودها فيهم ، وفى الطبقات الدنيا عم الفقر والجهل والمذلة بحيث غرق الكثيرون فيها ، ولا هم لأفرادها إلا السعى لضمان حياة حيوانية ، وليس لهم إلا مثل حقيرة وقصيرة المدى . ومن هنا فإن المفكر هو من كانت القيم الإنسانية عنده فى درجة تمكنه من التفكير فى مصائر الآخرين ، ويكون على درجة من الوعى ، تمكنه من أن يحس بما يجب أن يفعله وما يمكن أن يفعله ، وبالطبع لا يمكن أن يكون إلا من طبقة لا الرفاهية والأرستقراطية بلغتا بها حد العبث والتفاهة والفساد ، ولا حرمها الفقر من التفكير ومن النضج الاجتماعى والأخلاق بل فى حاجة إلى طبقة لها من الإمكانات ، ما يجعلها تفكر وتدرس ، وعندها من الفراغ ما يمكنها من توسعة مداركها ومعنوياتها واكتساب القيم الأخلاقية والثروات الفكرية والمعنوية للتاريخ ، والكنوز التى وصلت إلى جيله على مدى عمر مجتمعه ، يقوم ببسط نطاق وجوده المعنوى ، وفى نفس الوقت لا تلقى به آفات الاستغلال والرفاهية فى مستنقع التفاهة والعبث والعلاقات الدنسة ، ومن هنا فالمفكرون يظهرون فى الطبقة الوسطى تلقائياً ، وهذا لا يعنى إطلاقا أن البورجوازية والفكر مرتبطان معاً ، فمثل هذا التعبير يلغى أساس التفكير على مدى التاريخ ، ويجعل منشأ الفكر دنساً وملوثاً ، ويصيب دور المفكرين ورسالتهم بلطمة شديدة ، حقيقة إن المفكرين اليوم يظهرون من بين الطبقات الوسطى وأحياناً من بين الطبقات العليا ، لكن ليس هذا ناتجاً من التجانس بين البورجوازية والفكر ، لكنه ناتج من أن الطبقة المتوسطة التى يعيش فيها الإنسان ، تتيح الفرصة أكثر للإنسان كى يبقى إنساناً ، وتتيح له فرصة النضج ، وذلك بالنسبة للطبقتين العليا والدنيا ، ففى حين ترديه الأولى فى الخواء ، فإن الثانية تنزل به إلى مرتبة العبودية الفكرية والسقوط الأخلاقى ، وفى نفس الوقت لا يعنى هذا الموضوع أننى أطالب بقطع الصلة بين المفكر والجماهير تماماً ، إذ يتحتم عليه الإيمان بأن الهدف الأصلى هو نجاة الجماهير وخلاصها ، وفى هذا المجال يجب ألا نتردى فى رومانسية يسارية ونعتبر أن الجماهير التى نفكر فيها نظرياً هى

نفس الجماهير الموجودة بالفعل ، والخلط بين هذين المبدأين قد أدى إلى أخطاء فادحة ، بل إلى مآسٍ فى العمل الاجتماعى ، والعمل ــ بالنسبة لمفكر زماننا الذى يخرج من بين الطبقة الوسطى ــ ذو ضرورة حيوية ، لأنه يحرره من البقاء فى مضيق البورجوازية الدنس المقترن بضيق الأفق والدنية سواء منها ما هو دينى أو غير دينى ، ويوسع أفقه الاجتماعى ، وأهم من ذلك كله يغير شخصيته تغييراً ثورياً عميقاً ، ويمنح جوهره الإنسانى النقاء والصفاء بالرغم من بيئة حياته وإطاره الطبقى .

إن المفكر الذى يستيقظ فى الصباح فيأكل إفطاراً معداً ، ويرتدى ملابس عادت لتوها من المغسل والكواء ، ويركب سيارته ، وبالطبع تنحصر دائرة تعامله فى أصدقائه ومعارفه وزملائه ومن هم على شاكلته من أهله ، وإذا تحدث عن الآلام الاجتماعية ، واستطاع أن يصرح بالرغم من سيطرة الحاكم ، تحدث عن اختفاء السكر أو البصل أو اللحم « الصابح » ، وحين يعود إلى منزله يجلس إلى مائدة معدة ، وحين يتحدث مع أسرته لا يدور الحديث إلا حول ما سوف يأكلونه فى العشاء ، والمشكلة التى تؤرقهم هى مشكلة الاختيار بين أطعمة متنوعة ، وهذا المفكر يكسب عيشه فى أقل الظروف إيلاماً أو أفضلها ، وهو فى أمان تام ، مثل هذا المفكر سوف تكون العلاقة الوحيدة بينه وبين الجماهير عن طريق الكتاب ، وسوف يكون الاتصال الوحيد بينه وبينهم عن طريق الألفاظ ، الألفاظ التى تسقط إليه عن طريق نشراته ومنشوراته وبياناته ، والكتب العلمية الفلسفية التى يقرؤها الأوربيون ، إنه يتحدث عن الثورة ، لكنه حين يفعل ذلك ينقل مفاهيم ثورى غربى ويترجمها ، بل إنه حينما تذكر كلمة جماهير لايتداعى إلى ذهنه سكان السوق والأزقة وجنوب المدينة وعمال القمائن ، بل هى لاتعنى عنده إلا أنها الترجمة الفارسية لكلمة Masse ، مثل هذا المفكر ينحدر إلى أقبح وأدنى أشكال الفكر . فهذا العمل هو عمل المفكرين الصفوة الذين لم يفهموا من أيديولوجية اليسار ، إلا أنها تتيح لهم اختيار اللون الأحمر لعرباتهم الفارهة ، أو التلذذ فى المجلس النيابى بالحدة اللفظية فى مواجهة المعتدلين والمحافظين والرجعيين ، والإحساس برضا كاذب لهذا العمل ، بأنهم على بعد خطوة واحدة من الموت ، وما أكثر الأشخاص الذين جعلهم انتسابهم لمذهب تقدمى – يضعونه جلداً وزينة على أجسامهم – غرق فى لذة الإحساس بالانتماء إلى الثورية واليسارية والفكرية ، والتقدم على كل الناس فى الجهاد والكفاح ، مثل هؤلاء الأشخاص هم الذين يؤيدون

العمل الفكرى والثقافى ، عندما يكون العمل الثورى مطروحاً ، وحينما يكون العمل الفكرى والثقافى مطروحا ، يجأرون بالصراخ قائلين : ألا حل إلا السلاح ، والخير كل الخير عندهم هو أن يستطيعوا عن طريق هذا النقاب العظيم ، أن يهربوا من المشاركة فى أى عمل أيا كان حجم هذه المشاركة .

وهذا المرض حينما يكون المريض به فاضلاً عالماً باللغات قارئا للأيديولوجيات ، مرض غير قابل للشفاء ، إذن دعه يموت بمرض عبادة الذات .

كيف يمكن التخلص إذن من هذه الآفة التى أمسكت بتلابيبنا جميعاً ، وتهددنا جميعاً ؟ ، أقصد المفكرين الذين هم مستفتحو كل عمل اجتماعى وطليعة كل ثورة جماهيرية بالعمل . فالعمل هو الذى يحمل الأيديولوجية من الحافظة والذهن ويغرسها فى أعماق وجود الإنسان وفطرته ، ويخلطه بطبيعته ويجعل منه عجينة واحدة ، وبهذا الشكل تتبدل الأيديولوجية إلى إيمان ، ويتبدل المفكر إلى إنسان مؤمن ، مؤمن بكل ما تحتويه هذه الكلمة من عمق وسعة وثراء .

والفصل بين معنى المؤمن والمسلم فى الإسلام وفى الثقافة الإسلامية دليل على هذه التجربة ، وبرهان على أن مفكرينا وعلماءنا كانوا على وعى بالفرق بين أولئك الذين يحتفظون بالنظرية فى أذهانهم ، كنوع من العقيدة والفكر والمثال ويقرون بها بألسنتهم وذواتهم غافلة عنها ، وأولئك الذين تغلغلت هذه المدرسة فى ذواتهم كنوع من الفطرة . والمسلم هو الذى سلم بالتوحيد تسليماً فكرياً ونظرياً ، لكن المؤمن هو الذى بلغ درجة التسليم الحقيقى . والمنافق فى أكثر أشكاله خفاء وعمقا ، شخص انفصل دافع وجوده الحقيقى عن دافع معتقده . والنفق لغة بمعنى الحد والفاصل ، ومعنى المنافق أنه إنسان ذو فاصل بين هذين المظهرين للحياة ، نوع من ازدواج الشخصية .

والإخلاص هو التفرد الوجودى والحقيقى أو بتعبير آخر التوحيد الحقيقى أى التوحيد بين الفكر ، والعمل ، فالعلاقة بين الفكر والعمل علاقة متباغلة ، وقد عبر عنها على ـــ الذى كان هو نفسه نموذجاً لهذا النوع من التوحيد ـــ قائلاً :

من الإيمان يستدل بالعمل ومن العمل يستدل بالإيمان

ومن هنا فالمفكر الذى يستمد وعيه من الكتاب على حافة الهاوية ، ويؤدى هذا الخطر إلى نوع من الغيبة عن النفس ذهنياً ، وإلى عبادة الكتاب والتأثر به ،

مرض فيه تطرح القيم الإنسانية أمام المفكر ، فى صورة ألفاظ منطقية وعلمية وفلسفية ، كلمات ذات معان ، لكنها تفتقد الروح والوجدان والإحساس ، بل إن المفكرين الذين يتحدثون عن العمل أحياناً وأصالته ، من الممكن أيضاً أن يقعوا فى نوع من الغربة اللفظية عن الذات . إنهم مثل وعاظ يأخذون نقوداً لكى يتحدثوا من فوق المنابر عن الأعراض الدنيا ، أو مثل المسلمين الذين كانوا يأكلون على موائد ألف ليلة وليلة ، ويرفعون عقائرهم بمدح زهد على ، ويظنون أن الله قد أنعم عليهم وحدهم بنعمة ولايته ، وأولئك الذين يعيشون مثل عثمان لكنهم يغازلون أبا ذر ليسوا قلة ، حتى أولئك الذين وضعوا أيديهم فى يد معاوية لكنهم يبكون على الحسين ، والذين يتحدثون مثل فاطمة لكن أسلوب الحياة الذى يتبعونه تقليد مثير للغثيان من « ملكة خاتون » . يعودون من الحج ـــ حيث المساواة على الأقل لعدة أيام ، وأيضاً كنوع من التظاهر الذى ينبغى التدريب عليه ـــ فيتباهون قائلين : كانت أحوالنا وجماعتنا وفندقنا وطعامنا أفضل من الجميع ، أو يحسون بالنشوة لأنهم تقدموا الجميع فى هذه الرحلة ، وأنهم بمناصبهم أو جاههم أو سحر نقودهم حلوا كل مشكلاتهم ، هؤلاء مثل أولئك الماركسيين أصحاب العربات الفارهة الحمراء ، مثل الذين يبحثون فى الدين عن تعويض مخدر لكل الضعف الذى يحسونه فى داخلهم ، كما يبحث أولئك الماركسيون فى الماركسية عن مهرب نحو اللامبالاة ، يبحثون عن طريق للفرار من القيود التى يضعها الدين على حياتهم : نوع من الكسل الصوفى الشديد أو اللامبالاة الفكرية .

ولا ينبغى أن نخدع فحسب باحتيال هذين العدوين الأخوين التوأمين بل ينبغى أن نكون دائماً على يقظة تامة لكيلا نسقط نحن أنفسنا فى نفس هاتين الآفتين . إن ما يباعد بيننا وبين هذا المرض هو العمل ، العمل الذى وصفه رسول الله صلوات الله عليه بأنه عمل اليد ، وما قصده من أن أحب الأعمال هو العمل البدنى ، والمقصود به هو عمل الطبقة التى تنتج ، وتجعل من عملها فى حد ذاته قيمة وتكدح فيه ، لا الكدح الذهنى والمعنوى بل الكدح العينى الواقعى ، وليس الجوع الذى يحسه صائم ، بل الجوع الذى يفهمه فقير معوز .

والمرض الآخر الذى يبتلى به المفكر هو مرض العلمية أو الفلسفية ، و لم تطرح هذه الآفة كمرض فحسب ، لكنها تفسر أيضا كأعلى درجات التكامل والنضج عند

مفكر ما . ومن هنا نرى اليوم مفكرين يلجئون عند التفكير فى خلاص الطبقات المحرومة ، والجهاد ضد فساد الرأسمالية والاستعمار ـــ اللذين عبأا كل قواهما ، إلى حمل الأصول البَدِهِيّة الإنسانية على نظريات فلسفية أو علمية مبهمة وغير ثابتة . إن الاشتراكية بمعنى ألا تعمل الأكثرية فى سبيل الأقلية التى لا تعمل ثم تبقى جائعة أمر بَدهِىّ ، ولا يشك فيه إنسان .. إن كان ثم إنسان . الاشتراكية بمعنى ألا يتركز مصير الإنتاج والاستهلاك المرتبط بمصير أمة أو مجتمع فى يد فرد واحد ، وتحت سيطرة أهوائه وميوله التى لا تفكر إلا فى الكسب من كل سبيل ، من أكبر الأضرار التى وضعت فى تاريخ الإنسان حتى الآن أن يوكل هذا المبدأ والأمر البَدهِىّ على فرضيات علمية لفلاسفة وعلماء من هذا القرن وذاك القرن وهم فى تغير مستمر ، وليسوا جميعاً يعتقدون بهذا . لقد أضرموا النار فى منزل ما ، وإخماد هذا الحريق لا يحتاج على الإطلاق إلى الاعتقاد بحدوث العالم أو قدمه ، أو الاعتراف بالعلة الأولى أو إنكارها ، أو إثبات أن المادة الآلية يمكن التوصل إليها فى المعامل أو لا يمكن .

وألم إنسان العصر ناتج من أنه ربط أكثر مثله قداسة التى أدت إلى الحركة والثورة على مدى تاريخه ، وكل القيم الإنسانية التى تشكلت فى ظلها ، التى أدت إلى ما لا حصر له من أنواع الجهاد والشهادة فى كل العصور ، وتحت ظل كل النظم ، ربطها إنسان العصر بفرضيات الفيلسوف فلان أو العالم فلان ، الذى هو من صنع عصره ، وربيب قرنه وبيئته الاجتماعية وموروثه الثقافى ، ومرحلة التكامل العلمى فى عصره . وهذه الفرضيات والنظريات ، إما أنها تتغير بمرور الزمان أو تلغى ، أو حتى إن كانت معاصرة قد لاتصادف قبولاً عند الأمم الأخرى ، هذا فى حين أن الجميع مقر ومعترف بأصالة هذه المبادىء اعترافا كاملاً وإقراراً مخلصاً . وكون هذه الأسس الفرضية واهية ، تصيب قدرة المثل والمبادىء وأصالتها وبقاءها بلطمة شديدة ، وتردى أتباع هذه المبادىء فى التشتت الذهنى والتعصب الفكرى ، وعلاوة على هذا تعطى للأغلبية من علماء الاجتماع ومصطنعى الفرضيات ، والعلماء ورجال الدين والسياسيين ورجال الدعاية المرتبطين بالرأسمالية العالمية ، وتعطيهم أفضل وسيلة للهجوم على المثل الدائمة والأصيلة الإنسانية ، واجتثاثها من جذورها عن طريق الهجوم على هذه الفرضيات الفلسفية والنظريات العلمية القديمة أو الحديثة ، لأن الرد عليها أو دحضها إن لم يكن سهلاً فهو ممكن . واليوم نرى كيف استطاعوا

أن يستفيدوا من أكثر القدرات المعنوية ، عند الإنسان خاصة الإنسان المحروم ، أى الدين ، للوقوف ضد تحقيق المساواة والثورة التى تلغى الفوارق بين الطبقات وضد الرأسمالية والملكية الاستغلالية الفردية ، وكيف استطاعوا استخدام كثير من الفلسفات المتنوعة والنظريات العلمية ، التى اشتقوها من علم الاجتماع حتى علم الأحياء من أجل إدانة الاشتراكية ، وهم يبينون أن اعتناق الاشتراكية يعنى التخلص من القيم الأخلاقية وعبادة الله والحرية والناحية الروحية ، فى حين أن هذه المفاهيم لا يمكن أن تتحقق إلا فى مجتمع لا طبقات فيه ومتحرر من الجشع ، وهذه المفاهيم لم تذبح إلا فى المجتمع الرأسمالى فحسب ، أو مسخت وحورت إلى صورة كاريكاتورية ساخرة ، كما نرى فى ناحية أخرى وياهول ما نرى أنه باسم الاشتراكية ، كيف تمتهن حرية الفكر وحرية العلم وحرية الإيمان ، وحرية الاختيار وتنوع الأفكار والطرق والابتكارات الإنسانية ، ويقضى عليها بقسوة وبوحشية غير إنسانية ، وفى حين أن هؤلاء يتصرفون بأسلوب فاشيستى وتقاليد جاهلية ، عندهم أيضاً تعاليم فلسفية وعلمية واجتماعية خاصة بهم . وأية مصيبة أفدح من أن تسلب الاشتراكية من إنسان القرن العشرين ، ما ناله فى ظل النظام الرأسمالى الغربى ، إلى حد أن المفكرين الأحرار المضادين للاستعمار ، وحتى اشتراكيى الدول المتأخرة الذين يتحملون آلاما لا نهاية لها من النظم الفاشيستية والاستعمارية ، وهم فى صراع مع الرأسمالية ، يختارون الدول الرأسمالية ملجأ سياسياً لهم ويفرون إليها ، وكم هو مخجل ! .. وكيف يقبل ذلك مسلم أى سبعمائة مليون إنسان كادح فى حرب مع الاستعمار والرأسمالية ، وينبغى أن يعبأ لها ، هل يمكن أن يقبل هذا العار ؟

وبالرغم من أن الإسلام يعتبر نفسه ديناً إلهياً ، ويرى أن رسوله مرسل من السماء ، ومن قبل الله من أجل هداية الناس إلى الطريق القويم ، مع كل هذا يعلن أنه : « لا إكراه فى الدين » [١٣] وأن كل سعينا من أجل تنبيه الناس إلى التمييز بين طريق الغى وطريق الرشد ، وبعد ذلك فالخيار فى يدهم ، الخيار الحر . ويكتب « على » لواليه : « أشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً يغتنم أكلهم فإنهم صنفان إما أخ لك فى الدين وإما نظير لك فى الخلق ... وإنما عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة ، فليكن صغوك لهم ، وميلك معهم » [١٤] ، وشاعر متشائم كفيف شكاك ووحيد

فى ريف المعرة ، يستطيع مع عزلته وضعفه أن يجهر باعتراضه على إيمان الحاكم وإسلام الحاكم ، وحتى على الله والدين ويبقى آمناً فى وقت كانت سلطة الإسلام قد اجتاحت الشرق والغرب ، وجعلت الامبراطوريات الكبرى فى العالم تجثو على ركبتها .

وحتى فى ظل نظام بنى العباس كان هناك علماء مثل « ابن أبى العوجاء » أو « ابن الكواء » وكانا من ماديى وملحدى عصرهما ، يستطيعان بحرية وطمأنينة فكرية القيام بالسخرية من الحج ، وهو من أكثر أركان الإسلام قداسة عند المسلمين ، وليس ذلك فى خلوة فكرية أو بين جمع من الصحاب ، بل فى مكة أمام الجميع . والآن : ها هم المسلمون المتألمون ، كيف يستطيعون بعد أربعة عشر قرناً من ظلم السلاطين واستبدادهم ، وقسوة الخلفاء ، وتسلط الطغاة الجبار المتعصب ، وجمود رجال الدين ورجعيتهم ، والجراح العميقة التى أحدثها كل هؤلاء فى قلوبهم وخواطرهم ، كيف يستطيع المسلم أن يقبل نظاماً يسلب منه ما كان متمتعاً به ، حتى فى ظل حكومة دينية ؟ وفى مثل هذه الحالة ، كيف لا تستطيع الرأسمالية والاستعمار العالمى ، أن يطمعا فى إغواء هذه الأمة العظيمة وتعبئتها واستغلالها فى مقاومة الاشتراكية ومناصبتها العداء ؟

إن التفكير فى هذه المآسى ، يحدد بناء الذات ويحدد الوعى والذكاء الذى ينبغى أن يقترن به ، ويعلمنا هذا الدرس العظيم ، وهو أن التحول إلى الثورية يستلزم قبل كل شىء ثورة ذهنية ، ثورة فى الرؤية وفى نمط التفكير عندنا ، ثورة تقترن بهذا الوعى الذى هو ثمرة تجربة التاريخ الإنسانى العظمى ، هذا الوعى هو عبادة الله الذى جره رجال الدين إلى الابتذال ، وهو الاشتراكية التى بدلها الشيوعيون إلى اقتصادية حتمية عمياء مادية ، وهو الحرية التى جعلتها الرأسمالية نقاباً للنفاق والخداع . والثورة الفكرية هدفها معرفة هذا المسخ الذى يعد أعظم مسخ فى زماننا ، وفى نفس الوقت الوصول إلى لياقة ذهنية ، تستطيع أن تحقق الوحدة بين مفاهيم العبادة والعمل والنضال الاجتماعى ، وأهم من هذا كله أن يخوض التجربة بنفسه وبإخلاص ، وأن يجعل هذه الأصول الثلاثة ملكة فيه ممتزجة بفطرته ، ولا تثبت هذه المثل فى عقيدته فحسب ، بل وتمد جذورها فى أعماق فطرته ، وتصل فى النهاية إلى المرحلة التى يحس فيها أنه لا تناقض بين هذه المفاهيم الثلاثة فى نفسه ، ويعتبر أن كل واحد فيها لا ينفصل عن الآخرين ، ويرى أنه تثليث لكنه فى الحقيقة والأعماق توحيد .

وينبغى أن نعلم أنه لا يمكن الوصول عن طريق الكتاب وحده إلى هذه الدرجة من بناء الذات فكرياً ووجودياً ، ولا عن طريق البحث والمعرفة ، لأن مجال الحديث هنا لا يتناول إقامة نظرية حديثة ، إن الحديث هنا عن بناء إنسان جديد وخلق هذا الإنسان ، ولا يُخلق إنسان جديد عن طريق النظرية فحسب ، والعمل لا يقوم بمساعدة الكتاب فى هذا المجال فحسب ، لكنه يمنع انحراف الإنسان ويحول دونه ، وفى نفس الوقت ـــ هو مثل الكتاب ـــ منبع للوعى والحصول على حقيقة وتجربة معنوية أخرى .

وقد وضح فرانز فانون [١٥] كيف أن المجتمع الذى يدخل فى مرحلة ثورية ، يساعد على نضج الوعى والذكاء عند جماهير الناس ، وإلى أى حد يقلل مرحلة السكون والصمت عند الصبية إلى سن الحادية عشرة والثانية عشرة ، بينما تصل هذه السن فى العائلات المرفهة والمجتمعات المتقدمة إلى الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، وفى المجتمعات الثورية يبلغ الصبى سن البلوغ الفكرى فى الثالثة عشرة والرابعة عشرة . ولدينا تجربتنا أيضاً ، إلى أى مدى يصل الاختلاف بين أطفال الأسر المحرومة ، الذين أحسوا بالألم والكدح والحرمان ، وهؤلاء غالباً من أسر كادحة ، والدمى التى نشأت فى ظل أسر مرفهة ، وإلى أى مدى يصل هذا الاختلاف بالنسبة لدرجة الوعى وتلمس واقعيات الحياة ، هذا يدل على أن العمل ليس مثل الكتاب منبعا للتجربة والوعى فحسب ، بل إن الوعى الصادق الموثوق به ينبع من العمل ، وأن ما يمكن الحصول عليه من الكتاب ـــ بالرغم من أنه يؤدى إلى نضج سريع ـــ من الممكن أن يكون مريضاً منحرفاً وهمياً ، أو يحمل معه عناصر تؤدى فى النهاية إلى مرض المفكر وتسميمه وانحرافه .

الكتاب والعمل كلاهما يؤثر فى بنية الإنسان ، فالكتاب يجعل العمل مصحوباً بالوعى الفكرى والقدرة على تحليل التجارب ، والتى قام بها أناس آخرون وعبقريات أخرى والاستفادة منها ، أما العمل فيثبت الفكر على أرضية الواقعية ويصحح مساره .

إن من يدافع عن حق العمال فى الإضراب ، ومن تعلم ودرس الأفكار الراقية عن التنظيم النقابى ، ليس تفسيرهما لمعنى الإضراب وإحساسهما به مماثلاً لتفسير من شارك فى إضراب عمالى بالفعل ، ومعرفة تفاعل مادة محترقة مع الأكسيجين نوع

من المعرفة ، لكن وضع اليد على مدفأة ساخنة معرفة أخرى . والمعرفة الحقيقية خليط من هاتين المعرفتين . والعمل بالنسبة للإنسان يلعب دور الخالق والمكمل والجلاء لجوهر الروح . والعمل بالنسبة للمفكر علاج ناجع ، ومغير للشخصية الطبقية والسلوك الاجتماعى والأخلاق والعواطف والميول الانحرافية ، التى وجدت بتأثير إطار طبقته ، وألقت بينه وبين جماهير الناس ـــ أولئك الذين يعملون ـــ بالفوارق والفواصل . وفى النهاية يعد العمل دعوة موجهة من قبل الطبقة الكادحة والمحرومة ، لضم مفكر من الطبقة الوسطى أو العليا يفكر فى نجاته ، ويفكر فى القيام بمسئوليته الإنسانية ، والعمل يجعل المفكر متجانساً مع الجماهير ، ويرفعه إلى درجة عبر عنها كاتب شعبى بقوله . « كان الناس فى الأزقة والأسواق يعتبروننى منهم » .

وفى نفس الوقت ينبغى أن نحذر نوعاً من تقليد عبادة الجديد عند المفكرين ، وهو رائج إلى حد ما ، فالتجول بين الناس ، والالتحام بالجماهير ، والتجول بين القرى أو النزول إلى الشارع ، كعمل يقتضيه الفكر أو تستدعيه اليسارية نوع من التظاهر والنفاق ، غالباً ما يكون مقروناً باحتقار للجماهير وخداع النفس ، وهو يمنح المفكر إحساساً كاذباً بالرضا ، لكنه رضا منحرف . وينبغى أن يتم العمل كما قام به الإمام الرابع . كان الإمام فى موسم الحج ـــ متخفياً ودون أن يعرفه أحد ـــ يقف فى طرق القوافل ، ويعرض نفسه على الحجيج كخادم ، وطوال موسم الحج ـــ الذى كان يستغرق أحيانا عدة شهور ـــ كان يشغل نفسه بالعمل بين الحجيج كخادم أو عامل ، ولأنهم لم يكونوا يعرفونه ويعرفون قيمته كانوا لا يحفظون له حرمة ، بل كانوا يذلونه ويحقرونه ويكلفونه بأعمال شاقة ، وكان يحس من ذلك بلذة ، إذ كان يجد نفسه فى تلك الحالة واحداً مع أشد الناس وأكثرهم حرماناً ، وكان ذلك بالنسبة له تجربة ثورية عظيمة .

والعمل يحمى الإنسان من الصوفية والكهنوت ، خاصة الصوفية الفكرية ، التى تجعل المفكر مجرد إنسان يفكر ، ويؤدى هذا تلقائياً إلى نوع من التخصص ، ونحن نعلم أن التخصص نوع من الكهنوت وغربة الإنسان عن نفسه . والنظم الثورية اليوم تهدف إلى ألا يكون الإنسان حبيساً بين جدران تخصصه ، فتقدم برامج عمل للموظفين والمفكرين والمسئولين السياسيين ، ولكن هذه البرامج ذات جانب دعائى وصورى ومؤقت ومن أجل التظاهر ، ليس واقعياً . يقول ماركس : « ما المانع من

أن نكون اليوم عمالاً ، بينما يشغل العامل نفسه عدة ساعات بالمسرح أو الرياضة أو الرسم ، وفى مقابل ذلك يقوم فنان بالعمل فى مزرعة أو منزل » إن مانقرؤه فى تصريح ماركس غامض ، وكل ما يقومون به اليوم فى المجتمعات الماركسية صورى . أما فى الإسلام ، فالموضوع موجود بصورة جدية وطبيعية ومحلولة . وأعظم قادة الفكر والأئمة الثوريين فى الإسلام كانوا عمالاً ، كانوا يقومون بالزراعة وغرس النخيل ، ويعملون بالفئوس ، ويحفرون فى الأرض ، أو يحلبون للآخرين دوابهم ويأخذون أجراً ، (وعلى) ذلك الجوهر الفلسفى والفكرى والعرفانى العظيم ، وبنفس الأصابع التى كتبت أعمق وأجمل ما يمكن أن يتأتى من قريحة مفكر ، كانت يده خشنة جداً وذات كنب « قشف » ، كان يعمل فى ينبع ، وكان يحفر الآبار والقنوات فى المدينة بيده ، وبيده غرس البساتين والنخيل ، وقضى خمسة وعشرين عاماً ، وهى فترة اعتزاله السياسى الإجبارى مفكراً وجامعاً للقرآن ومتعبداً ، وفى نفس الوقت عاملاً . إن تقديس العمل فى الإسلام بلغ حداً [بحيث إننا لا نعلم أن الرسول ﷺ قبل يداً إلا مرتين ، يد امرأة ويد عامل ،أيدى ممثلى الاحتقار والذلة والحرمان فى كل النظم والحضارات والمدنيات] وبلغ الاحترام تقبيل اليد ، وهذا هو تقبيل اليد ، السنة الرائجة فى يومنا هذا ، وليست من الإسلام فى شىء ، وكانت تعد نوعاً من الشرك ، كان الرسول صلوات الله عليه عائدا من غزوة ، وخرج أهل المدينة لاستقباله ، ونزل المجاهدون لاستقبال الناس ، وبينما كان الرسول يسلم على أحد المستقبلين ، تعجب من خشونة يده وسأله فأجاب الرجل : أنا رجل أقوم بتأبير النخل ، وكنت الآن أعمل بالفأس ولما علمت بعودتك جئت لاستقبالك . وبلغ الرسول حداً من الانفعال رفع يدى الرجل بين المجاهدين والناس ، كأنها العلم وقال : « هذه يد لن تمسها النار » ثم انحنى وقبلها .

والتخصصات الاجتماعية والتصنيفات الطبقية لا توجد فى الإسلام ، كما لا توجد سلسلة المراتب والدرجات الشخصية ، لم يعرف فى المدينة أنه كان هناك طبقة لرجال الدين ، وطبقة للزعماء السياسيين ، وطبقة لأصحاب الوجاهة الاجتماعية ، وطبقة للعمال والزراع . ولم تكن الرؤية الإسلامية تتنافى مع كون الإنسان معلماً ، وفى نفس الوقت عنصراً سياسياً فعالاً يتقدم إلى حد القيادة ، وفى نفس الوقت زاهداً نموذجياً ، وحين يحتاج الأمر إلى محارب بطل ، أو أن يكون خليفة للمسلمين ، وفى

نفس الوقت أجيراً عند عدد من علوج اليهود ، لم يكن الجمع بين كل هذه الأمور ، يتنافى فى الرؤية الإسلامية ونظام الأمة الإسلامية .

كانت الهجرة حركة انتقالية ثورية ، حركة قام فيها أشراف قريش الأثرياء — الذين كانوا يعيشون فى مجتمع مكة معززين مكرمين — ويأتى هؤلاء الذين كانت لهم السيادة على كل العرب إلى المدينة مهاجرين ، ويقومون بمزاولة أشق الأعمال بين قبيلتين ، كانتا مغمورتين عاديتين بين قبائل العرب ، هما : الأوس والخزرج ، ومن أجل العيش يضطرون إلى العمل البدنى ، بل ويبقى بعضهم بلا أسرة أو بيت يتخذ مسكناً من صفة المسجد ، ولم يكن فى هذا الأمر عار ، فقد كانوا — أى أهل الصفة — أكثر شخصيات المجتمع الإسلامى اللامعة احتراماً وإعزازاً وشهرة . العمل معجزة عظمى ، يهب المفكر موهبة التخلص من كل القيم الأرستقراطية ، وأنواع الضعف البورجوازية ، وعادات الطبقة المرفهة المريضة ، تلك الطبقة الطفيلية ، ويمزجه بالطبقة المحرومة ، ومن هذا الطريق يحول الإنسان من إنسان شبيه بالطفيليات إلى إنسان شبية بالأنبياء .

٣ — النضال الاجتماعى :

يعرف أفلاطون الإنسان بأنه « حيوان سياسى » ، وقد ترجمها مفكرونا بأنه « حيوان اجتماعى » ، لأنهم ظنوا بأن الصفة الجامعة للبشر هى الاجتماعية لا السياسية ، لأنه فى هذه الحالة يكون السياسيون فقط البشر ، أما سواد الناس الذين لا يعملون بالسياسة ، أو يفكرون فيها فليسوا بشراً . فى حين أن الاجتماعية ليست صفة خاصة بالإنسان ، لأن كثيراً من الحيوانات أكثر اجتماعية من الإنسان مثل نحل العسل . إن كون الإنسان سياسياً هو خاصيته. والمقصود بصفة «السياسية» الرؤية والميل الذى يربط الفرد بمصير المجتمع الذى يعيش فيه ، وهذه الصلة هى موضع تجلى الإرادة والوعى والاختيار عند الإنسان ، بحيث يحس أن وضعه الاجتماعى مثل وضعه الطَّبَعِىّ ، أى أن يحس بموقعه فى الطبيعة أو المجتمع ، ويعيه ويتدخل فيه مؤيداً أو معارضاً أو مغيراً لبنيته ، ومن ثم فالإنسان غير السياسى ، إنسان فى الحقيقة أبطل وعطل أعلى وأسمى تجل لاستعداده الإنسانى . ومن أسف أن رجال السلطة الذين سيطروا على مصير المجتمعات ، هلعوا دائماً من اهتمام الجماهير بالسياسة والواقع أن

« نزع التسييس » من الناس ليس أسلوباً اكتشفه اليوم المستعمرون ، إن السلطات الاستبدادية المعادية للشعوب ، من أجل حصر السلطة السياسية فى أيديهم - عن طريق ترويج الفنون الهابطة ، أو الإفراط فى الرياضات البدنية التى لا حصر لها ، أو توسيع نطاق الحريات الجنسية ، أو عبادة الاستهلاك ، أو خلق مشاغل حقيرة فى الحياة الاقتصادية والأسرية ، أو نشر عوامل الانحراف ، أو المشاغل الذهنية والمخدرات الدينية والفلسفية والأدبية والفنية ، أو الأفكار الموجهة وما إلى ذلك من وسائل ، تحاول صرف الأذهان عن التفكير فى مصائر الناس والمجتمع . وفى مجتمعنا يعد (عصر بنى العباس) عصر النجاح الكامل فى نزع التسييس من المجتمع . ولم يستطع بنو أمية بالرغم من القاعدة العرقية والقومية التى كانت لهم ، لم يستطيعوا البقاء أكثر من قرن واحد ، وما جعل عمر هذا النظام القوى قصيراً إلى هذا الحد هو الحساسية السياسية عند المسلمين ، تلك الحساسية التي ورثوها عن الثورة الإسلامية ، فقد كان أقل انحراف من الحكومة باعثاً كافياً لتقاطر الناس على المسجد ، وإيجاد « الصداع » عند الهيئة الحاكمة . ونحن نعلم أنه فى عهد عمر ، وهو الرجل الذى كان قد قدم للمجتمع الإسلامى ذلك القدر من التوفيق والنجاح ، ولشخصيته كل هذا الاحترام والحيثية ، إذا به فجأة يرى أهل المدينة فى حالة من الهياج وأن أرضية اعتراض عام فى سبيلها إلى التكوين ، وكان أصل هذا الهياج أنهم رأوه يرتدى ثوباً سابغاً ، فى حين أنه كان رجلاً عظيم الجسم ، وكان هذا لايعنى إلا أنه أخذ من الغنائم فوق نصيبه ، ولم يجد عمر بداً من أن يبرىء نفسه أمام الناس ، فنادى ولده أمام الناس أن هذا الثوب السابغ من سهمه وسهم ولده ، وبهذه الوسيلة يخلص نفسه من اتهام الناس .

وقد رأى بنو العباس شعور الحساسية عند الناس ، ورأوا كيف أن هذه الحساسية قضت على نظام قوى مثل نظام بنى أمية ، فقاموا بعملية « نزع التسييس » لكن عن أى طريق ؟ : عن طريق توسيع نطاق الثقافة والحضارة ، والاستناد على العلم ، والتقدم المادى والثروة ، والقدرة السياسية والفتوحات الإسلامية ، وإبراز احترام الشعائر الدينية وتعظيمها ، وعن هذا الطريق قاموا بتخدير الناس بأنواع التقدم التى كانوا يحرزونها فى العالم باسم الإسلام ، كما أغرقوا المفكرين فى المسائل الذهنية والكلامية والفلسفية ، ومن هنا كانت ثورات الناس كلها فى عهد بنى أمية سياسية وطبقية ، على أساس العدل الطبقى والخلاص الإنسانى ، ثم تبدلت فى عهد بنى

العباس إلى حروب كلامية وذهنية وفلسفية بل ولفظية . وبنفس الطريقة ، يقوم الاستعمار والرأسمالية بشغل حتى أكثر مفكرينا وعياً وإخلاصاً ، عن طريق صناعة الأيديولوجيات المختلفة ، وإذكاء الخصومات الطائفية والقبلية والعرقية ، ونشر الفساد وترويج الحماقات والصغائر الرياضية ، وعبادة الاستهلاك ، والمشاغل الحقيرة فى الحياة الاقتصادية والعائلية والفردية ، وإبراز فنون مريضة ، وفلسفات عبثية ، ومسارح ودور سينما وَمِلاَهٍ ليلية ، وإذاعات وتليفزيونات وأنواع من الموسيقى ، وعبادة الرفاهية ، وصناعة الأزياء والحريات الجنسية ، وآلاف أخرى من أنواع صرف الأنظار وإغلاق الأبصار وآلاف أخرى من أنواع الاحتيال والنصب والشعوذة ، والمعارك المصطنعة المختلقة المتفق عليها سلفاً .

وكما نرى ، كم من شبابنا المفكر الراقى ، باسم محاربة الخرافة أو الالتجاء إلى العلم ، أو حتى باسم أيديولوجية تقدمية وراقية جداً ، يشغل نفسه ليل نهار بالنضال فى مسائل كلامية ، أو نضالات فلسفية ولفظية ، ويشتبك فى حروب مذهبية ومنازعات أيديولوجية ، ولا يحسون أبداً أنهم على هذه الحال ، بينما يعتبرون أنفسهم مفكرين فى غاية الرقى ، إنما هم بهذه المشاغل التى شغلوا أنفسهم بها ورثة نفس الأعمال التى قام بها فى مجتمعاتنا أمثال (رضا خان وأتاتورك) ، وكان أمثال (تقى زادة [16] وميرزا [17] ملكم خان) قد بدءوا بها قبلهم ، ولم يستطيعوا إدراك أن ما يعتبرونه عملاً من أهم أعمال الفكر تقليداً لمفكرى أوربا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كان مقترنا بعوامل وظروف أخذت فى تحطيم قلاع إيماننا وثقافتنا الأخلاقية ، وكنوزنا التاريخية ، حتى تمهد الطريق لدخول الاستعمار ، وتحطيم نضالنا الدينى وثقافتنا وتقاليدنا القومية بهذا الهجوم الجديد ، وكما نرى الآن : أنه فى الوقت الذى يبدو فيه أصدق مفكرينا صلاحية الإسلام للخلاص من أسر قرون الرجعية وعبادة الخرافة ، ونجاة المسلمين من ذل الاستبداد والاستعمار والرأسمالية ، وظهور هذا المفكر بمظهر ثورى ، فى نفس هذا الوقت ، يجعلونه هدفاً للسهام ، وكلما أصابوه بطعنة كان هذا سبباً فى أن ينطلق شرار اللذة من عيون أعدائنا المشركين . وقد رأينا بعيوننا وسمعنا بآذاننا أية موجة هجوم ارتفعت من بين مفكرينا الذين يرفعون شعار فصل الدين عن الدولة . وهذا الشعار ، شعار ظهر فى أوربا الكنسية التى كانت معادية للعقل ومعادية للناس ، وظهر إلى جوار حركة التحرير ومن واقع الحياة . ولكن مفكرنا دون أن يدرك اختلاف الموضوع ، يكرر هذا الشعار فى

مجتمعنا ، إن ما يكرره هنا ، هو استمرار للنظام الصفوى . الذى حرم المجتمع الشيعى من ممارسة أى عمل اجتماعى أو سياسى ، بحجة غيبة إمام الزمان ، وما قام به النظام الأموى والنظام العباسى استناداً على نظرية الجبر الإلهى ، وفرضية الإرجاء المنحرفة ، وشيوع أفكار القضاء والقدر ، والاحترام الكاذب الذى أبدوه لرجال العلم والقضاء والدين ، على أساس أن هذه الأمور مخالفة للاشتغال بالسياسة وحكم الناس وأمور الدنيا .

وهذا درس عظيم يبين لنا أننا حين نرى مفكراً تقدمياً ، يطرح شعار حركة ثورية لمكان آخر وعصر آخر ، وفى ظروف أخرى فى عصر أو مكان ، أو ظروف اجتماعية مغايرة ، بالرغم من إحساسه الكاذب ، فهو وارث أكثر مؤامرات الطغاة والجبابرة والنظم المعادية للبشرية لا إنسانية وخداعاً وقبحاً .

والنضال السياسى ليس فقط بمعناه الأعم ، هو مجال تجلى أسمى الاستعدادات الاجتماعية عند الإنسان ، لكنه بالنسبة للمفكر يقدم عملاً ويبنى ذاتاً . ويعد النضال الاجتماعى أعظم العوامل التى تكون الوعى الذاتى عند المفكر . والمفكر الذى يعتبر نفسه ثورياً وهو جالس إلى مكتبه محاطا بتلال الكتب ، أو فى حوار ذهنى مع أصدقائه أو أضرابه ، ويختار الحلول من بين الألفاظ والفرضيات والنصوص الأيديولوجية ، يستطيع فحسب فى أتون العمل السياسى ، أن يصحح أفكاره كما يستطيع أن يشفى من مرض الألفاظ ، كما يستطيع أيضاً أن يجرب نفسه . ويقيم ذكاءه ولياقته وقدرته على سرعة العمل وجرأته ، ودرجة فدائيته وتضحيته بالنفس وبالمال ، ونسبة إخلاصه ونقائه وتقواه ، يقيم كل ذلك بدقة . وفى نفس الوقت يضعه فى مواجهة مشكلات ، وفى تعامل مع واقعيات لم توجد قط فى المحيط الآمن المطمئن ، الذى تتعامل معه الألفاظ والمصطلحات الفلسفية والفكرية ، ثم إن النضال السياسى هو الذى يجعل المفكر عارفاً بـ « نصوص الناس » ورغباتهم واحتياجاتهم ، ومثلهم وجوانب القوة وجوانب الضعف فيهم ، وفى نفس الوقت يبين أمامه إمكانات العمل ، ويخلصه من مرض الجنوح عن الناس أو التعالى عليهم ، وأغلب المفكرين مصاب به ، ويجعله ملتزماً بالعمل متقدماً على الناس لكنه متصل بهم . وعلاوة على ذلك فإن النضال السياسى هو الذى يعلم المفكر العمل الأيديولوجى ، كما يصحح وعيه الأيديولوجى ويهبه الفاعلية ، ونفس هذا النضال السياسى هو الذى يهب المفكر موهبة غالباً ما

يكون محروما منها ، وهى تعلم اللغة التى بها يتفاهم ويتحدث مع الجماهير ، وهى اللغة التى تعد أداة القيام برسالة المفكر فى مجتمعه ، والحرمان من امتلاك ناصية هذه اللغة هو الذى أصاب مفكرينا بالعقم إلى هذا الحد ، وجعلهم غرباء عن الجماهير ، ووضع جداراً غير مرئى وغير قابل للاجتياز بين الأقلية الواعية من المفكرين والجماهير الغفيرة من الشعب ، وصار الأمر باعثاً إلى أن يصير سكان هذا الوطن الآمن المطمئن لعبة فى أيدى المحتالين ، ومحترفى السياسة ضد الناس ومزرعة للجهل والخرافة ، والمفكرون يدخلون المجتمع بصورة جماعة منغلقة داخل قلاعها الذهنية وغريبة ، والنتيجة أنهم صاروا بلا أثر ولا ثمر ، مصابين بالعقم يطوفون فى نهاية واحة العبث والابتعاد ، بحيث صارت أيدى أصحاب السلطان والاستعماريين ممتدة دائمة للتلاعب بهم أو القضاء عليهم ، ولكى نعالج هذا الضعف ، لا حاجة بنا إلى التماس العون من الجن والمخلوقات الأسطورية ، فماضينا ــ ماضينا الذى لا يزال حياً إلى الآن ودلائله نصب أعيننا ــ يعلمنا دروسا عظيمة . فإن علماء الإسلام العظماء المسلمين ، والفقهاء والحكماء والعارفين العظام ، مع وجود سموهم من ناحية طى مراحل العلم والفكر ، كانوا يعيشون بين جماهير الناس ، وكانت لهم علاقة بالجماهير ، وببساطة وطبيعية شديدة ، كانوا على علاقة بالفلاحين فى القرى ، وأكثر الطبقات تأخراً فى المدن وأكثرها تأخراً اقتصادياً وثقافياً وذهنياً ، فى حين أن الطالب اليوم بمجرد أن ينال شهادته ، يعتبر نفسه أعلى الناس ، وإذا لم يرد أن يفصل نفسه عنهم ، وجلس معهم على مائدة واحدة ، واختلط بهم ، فكأن الناس وجدوا غريباً بينهم ، فتتغير لغتهم وسلوكهم وأحاسيسهم وعلاقاتهم فجأة ، وبالرغم من أنه مرتبط عاطفياً ومتعاطف معهم ، فإنه يفتقد اللغة التى بها يتفاهم معهم فى الموضوعات التى تهمهم . والنضال السياسى يعلم المفكر ربيب الكتاب والدراسة لغة العوام .

وإلى جوار ذلك فإن النضال السياسى يعطى معنى لأيديولوجية ما أو للجماعة التى تعتنق هذه الأيديولوجية فى مجتمعها وفى بيئتها ، وهذا موضوع أساسى جداً . فلو أن علماءنا المفكرين ، وشخصياتنا الدينية التقدمية ، أولئك الذين يتحدثون عن زهد على الثورى ، وعن اشتراكية أبى ذر الحازمة القاطعة ، وعن عداء الحركة الشيعية للرأسمالية والأرستقراطية والنظام الطبقى ، ويكتبون الكتب ويعتلون المنابر ، لو أنهم اشتركوا أيضاً فى العمل السياسى ، وظهروا بين جماعة من الطلاب تناضل ضد برنامج رجعى ، أو فى مظاهرة عمالية أو إضراب عمالى قام لكسب حريات نقابية ، أو

الحصول على أجور إضافية ، أو على الأقل للحصول على الحد الأدنى للحياة الإنسانية ، ولو أن الفلاحين الذين ضاقوا ذرعاً تحت وطأة الأقساط والربا ، والجوع والقحط وضغط الظروف الاقتصادية شديدة الوطأة ، وارتفعت صرخاتهم ، لو أنهم رأوا بينهم وجوه علماء الدين والشخصيات الدينية ، قدموا للتعاطف معهم ومشاركتهم الجهاد ، بالرغم من أنهم لا ينتسبون إلى طبقتهم ، فإن هذا العمل يظهر أيديولوجيتهم فى المجتمع وبين الطبقات المطحونة والطبقات المثقلة بالأغلال ، وبين الأمة التى تكافح ضد استعمار خارجى ، بوجه أكثر وضوحاً وثورية ، أكثر تأثيراً وفعالية من مئات الكتب ، وآلاف المؤتمرات وملايين الاستدلالات العلمية والتحليلات التاريخية .

عندما يحتل اليهود بيت المقدس ، ونرى وجه أسقف كاثوليكى فحسب يقوم فى سبيل تحريرها ، لكننا لا نسمع إلا صوتا واحداً من علمائنا [١٨] ، وعندما تلغى فلسطين كأمة إسلامية من الوجود ، وتحدث فيها المذابح العامة ، ثم يسيل دم يهودى اختار الشهادة فى جبهة المجاهدين المسلمين الفلسطينيين دفاعاً عن هذا المجتمع المسلم ، لكننا لا نرى ديناراً من سهم الإمام فيه ، فماذا سوف تكون مئات الآيات والروايات والأحاديث والاستدلالات المنطقية ، عن أن الفقه الجعفرى هو فقه آل البيت ، وأن التشيع هو الإسلام الحقيقى ، وأن الإسلام هو أساس سعادة الدنيا والآخرة ، وأن « الإسلام يعلو ولا يعلى عليه » ، ماذا ستكون كل هذه الأشياء إلا مجموعة من الألفاظ لا تعنى شيئاً ؟

هذه هى آثار النضال السياسى فى مجال بناء الذات ، وإلا فإن الدور الأساسى للنضال السياسى هو بناء مجتمع ، لكن هذه مسألة أخرى بعيدة عن موضوعنا .

منذ ثمانين عاماً وحتى الآن ، وفى نفس عصر أمثال سيد جمال [١٩] ، والكواكبى ، وميرزا كوجك[٢٠] خان ، والشيخ محمد[٢١] خيابانى وطباطبائى[٢٢] وملك المتكلمين[٢٣] ، ومحمد إقبال ومدرس[٢٤] ، لدينا حكماء وفقهاء وعلماء دين عظام ، ربما كانوا من الناحية العلمية أعظم من هؤلاء ، لكن تأثيرهم الاجتماعى أو دورهم فى إحياء الإسلام وتطويره ، أو حتى دور الإسلام فى أعمالهم ، بالنسبة لتطوير المجتمع الإسلامى وفى توعية المسلمين وتحريرهم ، إذا لم نقل إنه صفر فينبغى القول إنه لا يزيد كثيراً على الصفر ، والاختلاف بين تأثير هذين الصنفين يبين الاختلاف ،

بين العلماء الذى حصروا أنفسهم فى مراكزهم الدينية وكتبهم ، والعلماء الذين شاركوا مشاركة فعالة فى أحداث عصرهم السياسية ، وبعد الرسول ﷺ ترك أبو ذر — الذى كان من الناحية العلمية بالنسبة لسلمان يعد عامياً — أثراً فى التاريخ ، لم يتركه سلمان الذى كان بين صحابة الرسول وجها علمياً وفكرياً مرموقاً ، لا لشىء إلا لأن أبا ذر اشترك فى النضال السياسى فى زمانه اشتراكاً فعالاً وقاطعاً ومباشراً ، وفى عصرنا ، بدأ ميرزا كوجك خان — الذى كان يعد طالباً بالنسبة لعلماء زمانه — طريقاً ، يكفى أن تكون رسالة المجاهدين المسلمين الاستمرار فيه لعدة قرون .

وهنا ينبغى أن أكرر الحديث ، وأبين تجربة للسائرين فى هذا الطريق ، وهى القوة المعجزة للتعرف على الشخصيات العظيمة ، والإنسانية الكاملة فى العالم بأسره وخاصة فى تاريخنا ، أولئك الذين نالوا أعلى درجات بناء الذات ، وأولئك العظماء من الرجال الذين منحوا ذواتهم التكامل فى أبعاده الثلاثة ، فلدينا سياسيون عظماء وهم فى نفس الوقت زهاد عظماء ، كما كانوا أيضاً — مع كل عظمتهم — يعيشون من عمل أيديهم ، لكن تلك النماذج التى تهمنا تتمثل فى أولئك الذين تجلى تكاملهم فى الأبعاد الثلاثة التى يحتاج إليها زماننا .

ولنعلم أن الضعف واليأس دائماً يكمنان لنا ويترصداننا ، ذلك اليأس النابع من ضعفنا وتسلط العدو وقدرته ، الضعف واليأس مرضان يقفان لنا بالمرصاد ، أما ما يمكن أن يمنح الروح القدرة على المقاومة والإيمان والأمل فهو قراءة السير ، سير العظماء من الرجال الذين كانوا منبع القوى الخلاقة التى تثير العجب ، وقراءة سير العظماء من الرجال والأرواح القوية عامل على أن يعرف الإنسان ذلك الإنسان ، الذى يعيش فى بيئته دائماً وجهاً لوجه مع الدنيا والمخاوف وأنواع الذل والضعف ، يعرف أناساً ويعاشرهم ، كما يعاشر أشخاصاً لهم السيطرة الروحية ، على زمانه ، كانوا حتى فى أسرهم يجعلون الجلاد يشعر بعقدة النقص — إن المعاشرة الذهنية مثل المعاشرة العينية ذات أثر فعال ، وقراءة الآداب الثورية والتقدمية ، وفن المعارضة وثقافة الهجوم والمقاومة بالنسبة لنا ، كالماء بالنسبة للحياة لا غنى عنها ، لأن الروح دائما فى حاجة إلى أساسين : أحدهما الثقافة والآخر : الإيمان .

ومن أسف أن الشعر يعد الأساس لثقافتنا ، وشعرنا إما أنه مال إلى التصوف ،

وهو – وإن قدم تنويرات عظيمة وتعاليم نفسية ــ لا يخلو من تسميم وضعف وذلة ، أو شعر غير عرفانى وصوفى ، إما أنه مدح وإما أنه غزل ، وفيهما معاً يوصف الإنسان بأنه كلب ، ففى المدح يوصف بأنه كلب الممدوح ، وفى الغزل يوصف بأنه كلب المحبوب . لكن إيماننا بالرغم من أن اسمه الإسلام ، الذى يبعث على العزة وولاية على العزيز والحسين الشهيد ، إلا أن ما يلقن للناس اليوم مادة مخدرة ، لا تجعل من الناس شيعة لعلى أو الحسين ، بل تنشئهم على أنهم « كلاب عتبة الإمام » [٢٥] ، ونرى إذن أن آدابنا ومذهبنا سيان فى أنهما يدعواننا إلى « تنشئة الكلاب » ، ومقاومة هذه النزعة للتنشئة ككلاب – ليس فحسب على مستوى الأفكار العامة والثقافة الاجتماعية ، بل أيضاً على مستوى بناء الذات – من صميم واجبنا ومسئولية حتمية علينا ، وإحدى الوسائل ، هى أن نتداول الشعر الثورى الشيعى ، فالتشيع الذى كان طيلة ألف عام حركة ثورية ، كان حوله بالطبع شعر ثورى وأدب ثورى ، كان هناك من أمثال دعبل [٢٦] شعراء فى خدمة الثورة وفى نضال مع ظلم العصر ، وكانوا على حد تعبيرهم : « يحملون طوال أعمارهم ما يملكون على ظهورهم » ، هكذا كانوا يعيشون .

وآداب الثورة فى عصر الثورة الكبرى الفرنسية ، وآداب ثورة أكتوبر الكبرى ، واليوم آداب الثورة فى أمريكا اللاتينية ، ولدينا على الخصوص الآداب الثورية العربية ، التى اندلعت من نار فلسطين ، كلها أسس حيوية من أجل تجديد ميلاد أناس ينبغى طبقاً للرؤية الإسلامية ، أن يكونوا خلفاء لله وأشباها لله والآن يدعون لأن يكونوا كلاباً .

ملحوظة ملحقة :

ينبغى قبل كل شيء أن نهب أنفسنا القوة والثراء فى مواجهة الغرب ، الذى يعتبر نفسه فقط صاحب الثقافة والمدنية وأسلوب الحياة ، وكيفية أن يكون الإنسان مخلوقاً مطلقا ، ونتيجة لذلك يصبح مسيطراً على المكان والزمان ، وهنا ينبغى أن أذكر على الفور ، أن الوقوف فى مواجهة الغرب ، لا يعنى أبداً التقوقع داخل النفس أو الكراهية العمياء المتعصبة للغرب ، بل العكس تماماً ، إنه لا يستطيع الصمود إلا من يعرف الصمود ، ولا يعرف الصمود إلا ذلك الذى يعرف قدرة من يواجهه جيداً . كانت أوربا فى القرون الوسطى مستعمرة ثقافية للشرق الإسلامى ، وبعد

أن استوعبت ثقافتنا الإسلامية ، وتعلمت حضارتنا تعلمت كيف تقف وتصمد فى مواجهتها ، وبدلا من أن تظل مستعمرة ثقافية لنا ، وتعرف حتى دينها وعلومها القديمة اليونانية ، عن طريق أبى على وابن رشد ومتى بن يونس وابن إسحق والفارابى والرازى والغزالى ، عادت إلى نفسها وبدأت عصر النهضة ، الذى يعد تجديداً لميلاد أوربا بعد العصور الوسطى التى ، كانت عصور موت ، وكانت العودة إلى العصر الذهبى فى اليونان القديمة .

ونحن أيضاً بالمعرفة الصحيحة والعميقة والغنية للغرب ، نستطيع بوعى ومسئولية أن نعود إلى أنفسنا ، ونجدد ميلادنا ، ومن أجل متابعة هذا الأمر لابد من الاطلاع على خطى سير فى الغرب :

١ ـــ تاريخ الغرب ومع تركيز أكثر ولا شك على التطور الاجتماعى ، وتطور الحضارة الأوروبية .

٢ ـــ مسير الحركة الفكرية فى الغرب ، مع تركيز على العصور التى تبدأ من عصر النهضة حتى عصرنا الحاضر ، ولكن لمجرد الحذر من ضيق الأفق والرؤية المجردة ، والقصور الفكرى عند مفكرى العالم الثالث ، الذين يرون أن الاشتراكية والفلسفة وعلم الاجتماع والصراع والمشكلات الإنسانية ، تدور فحسب حول ماركس وإنجلز ، دون علم بتطور فكر ماركس ، ولا عما تم فى هذا القرن بعد ماركس ، ومن ثم تلزم الدراسة الكلية الجامعة للموضوعات التالية :

أ ـــ معرفة عصر النهضة مع التركيز على الجذور الاقتصادية (نضج الطبقة البرجوازية ونموها ، والتجارة العالمية وعلاقتها بالشرق الإسلامى ، أى جذورها الثقافية والفكرية) .

ب ـــ معرفة البروتستانتية ، عند (لوثر وكلفن) مع مقارنتها بالإسلام ، والدور الذى لعبته فى تنمية الحضارة الصناعية والنضج العلمى والمادى فى أوربا والانفجار الذى أحدثته فى العقول المتحجرة فى القرون الوسطى الكاثوليكية .

ج ـــ معرفة أسس البنية الفكرية والثقافية للغرب المعاصر : (بيكون ، وكانت ، وديكارت ، وهيجل ، وفيتشه ، ونيتشه ، واشبنجلر ، واسبينوزا ،

وباسكال ، وبرجسون ، وشيللر ، وكيركيجارد ، وياسبرز ، وهايدجر ، وسارتر ، وفولتير ، ورسو ، وماكس بلانك ، وداروين) .

د ـــ معرفة الأحداث الاجتماعية والمفكرين السياسيين والاجتماعيين : فى الغرب : الثورة الفرنسية الكبرى ، والثورة الصناعية فى إنجلترا ، والثورة الروسية الكبرى والداججرية (أنصار المساواة المطلقة) ، والاشتراكيين الأخلاقيين فى ألمانيا ، والشيوعيين الفرنسيين والشيوعيين المسيحيين ، والداججريين الإنجليز والماركسيين ، والاشتراكيين الديموقراطيين ، والفوضويين العدميين ، وسان سيمون ، وبرودين ، واستيوارت مل ، وميد ، وجوريتش ، ودوركهيم ، ومان ، وأريك فروم .

فى الشرق : لاوتسو ، وكنفشيوس ، والهندوكية ، والبوذية ، والميترائية ، وزرادشت ، وفلسفة الثنوية العميقة عند مانى ، والشيوعية المزدكية .

والسلام



الفصل الثانى

المفكر ومسئوليته فى المجتمع

على شريعتى

خطة البحث :

موضوع الحديث الليلة هو : المفكر ومسئوليته فى المجتمع ، وكيفية ظهوره فى المجتمع الأوربى والمجتمعات الآسيوية وغير الأوروبية ، والحديث أيضا عن رسالته فى المجتمع الإنسانى عموما ومجتمعه خصوصا ، والرسالة التى ينبغى أن يؤديها .

وقضية المفكر قضية حساسة جدا ، وعلى درجة كبيرة من الأهمية على الصعيدين العالمى والاجتماعى المحلى ، وقد طرحت هذه القضية فى العالم بعد نهاية العصور الوسطى ، ومنذ القرن السابع عشر تشكلت فى أوربا طائفة تسمى طائفة المفكرين . وبعد القرن التاسع عشر اتخذت هذه الطائفة طريقها إلى الدول غير الأوروبية من أفريقية وآسيوية وأمريكية لاتينية ، وذلك باسمها وخصائصها وسماتها التى تشكلت بها فى أوربا .

وما لم يعرف المرء نفسه ، وما لم يعرف المفكر نفسه ، فلن تتيسر له معرفة مجتمعه ،ولن يستطيع أن يقوم بالرسالة التى يدعيها لنفسه ، أى أنه على المفكر ــ سواء كان إيرانيا أو من مجتمع أفريقى أو أمريكى ــ أن يعلم أية خصائص تميزه ، وفى أى ظروف تاريخية واجتماعية نشأ وإلى أين تمد خصائصه هذه جذورها .

وبعد أن يقوم المفكر بتحليل ذاته يستطيع أن يعرف مجتمعه ، ويسلك الطريق الذى ينبغى له أن يسلكه ، ويتقدم فى الطريق الذى ينبغى له أن يتقدم فيه .

لدينا الآن ونحن فى النصف الثانى من القرن العشرين طائفة أو طبقة تسمى طبقة المفكرين ، ولابد من أن نقوم تلقائيا وقبل كل شىء بتحليل أنفسنا لنرى : من أين أتينا ؟ ومتى ظهرنا ؟ ولماذا وجدنا ؟ وكيف وجدنا ؟

المفكر الأصيل والمفكر المقلد :

تعد طبقة المفكرين فى المجتمعات غير الأوروبية من أفريقية وآسيوية وأمريكية لاتينية ــ وكما سوف أفسر فيما بعد ــ نسخة مقلدة تماما عن طبقة المفكرين فى أوربا وبلا زيادة أو نقصان ، ومن هنا لا يمكن أن نعرف أنفسنا ، وندرك نقاط الضعف والقوة فينا ما لم نقم بتحليل (النسخة الأصلية) لنرى فى أى ظروف تكونت طبقة المفكرين فى أوربا ، وفى ظل أى مؤثرات تاريخية واجتماعية ظهرت خصائصها الطبقية والنفسية والفكرية والعقائدية والتذوقية ، والخلاصة : أنه « لا يمكن معرفة المفكر الآسيوى والأفريقى والايرانى إلا إذا عرفنا المفكر الأوروبى فى البداية » .

مسخ المفاهيم أو قلبها

لقد مسخ كثير من القضايا التى تطرح فى العالم وحرفت هذه القضايا بطريقة بشعة بحيث اكتنفها الغموض أحيانا ولحقها الخطأ . وقد طرحت قضية المفكر بيننا فى ظل نفس هذه الظروف ، حتى مصطلحها نقل إلى لغتنا خطأ . فأخطأنا من البداية فى استخدام الصفة التى ألبسناها للمفكر ، وبالتالى جرى علينا الخطأ تماما فى تفسيرنا لأنفسنا كمفكرين . فالكلمة التى تعادل ماعبرنا عنه بالمفكر فى لغتنا هى فى اللغات الأوروبية Intelligentsia وهى اسم مصدر ، والصفة منها هى : Intellectual وأصل الكلمتين معا هو : Intellect أى عقل ــ ذهن ــ بصيرة Intellingenc وكلمة Intellect تعنى المخ أو الذكاء أو العقل أو قدرة الإدراك والفهم ، ومن ثم تعنى الصفة منها : العاقل المتفهم ، وتطلق على الرجل الذى يحسن التفكير ، ومن ثم يطلق لفظ أهل الفكر Intelligentsia على طبقة من طبقات المجتمع تكون صفاتها المتميزة البارزة فى المجتمع هى استعدادها الفكرى والعقلى وذكاؤها . هذا هو معنى المصطلح لغويا . ومن ثم فكل إنسان ذكى يبرز ذكاؤه وفكره وفهمه عن سائر خصائصه الأخرى فى حياته ومجتمعه فهو : انتلكتوئل .

والمفكر اصطلاحا ــ وهذا هو موضوع بحثنا ــ هو عبارة عن فرد من طبقة تقوم بعمل عقلى أو فكرى . فنحن نصنف طبقات المجتمع اعتبارا من نوع العمل الذى تقوم به كل طبقة ، ونوع النشاط الذى تقدمه إلى المجتمع . ومن هذه الناحية

قسم المجتمع عموما إلى طبقتين : طبقة تقوم بأعمال يدوية أو بدنية ، وطبقة تقوم بأعمال عقلية أو فكرية . فالذين يزاولون أعمالا بدنية كالعمال يشتغلون بأيديهم وأبدانهم ، أما أولئك الذين يقومون بأعمال فكرية كالكتاب والشعراء فهم يعملون بعقولهم، وهؤلاء هم الذين نلقبهم بأهل الفكر أو المثقفين . ولا شك فى أن أولئك الذين يعملون بعقولهم لابد لهم من مزاولة بعض الأعمال البدنية المحدودة ، حتى الكاتب الذى يقوم بعمل عقلى محض ، يقوم فى نفس الوقت ببعض الأعمال البدنية كتناول القلم والكتابة على الورق وهما عملان بدنيان . وكذلك أيضاً من يزاول عملا بدنيا محضا كالذى يعجن الطين ويخمره ، أو يقذف الطوب إلى البناء ، أو البناء ، والذى يصف الطوب فوق بعضه البعض ويقوم بعمل يدوى محض ، لابد له أيضا من مزاولة عمل عقلى ، ولا يمكن أن يتوقف عقله تماما عند مزاولة هذا العمل .

ومن هنا فالمقياس هو « العلية » أو السببية ، فالذين يعد العقل أداة عملهم الأساسية نسميهم « أهل الفكر » ، والذين تعتمد أعمالهم على سواعدهم نسميهم « عمالا يدويين » ، ومن هنا فبناء على هذا التعريف المعترف به فى أنحاء العالم وهو التعريف الرسمى فى علم الاجتماع ، فإن طبقة أهل الفكر أو التى نسمى أفرادها بالمفكرين هي عبارة عن طوائف مختلفة من المجتمع تقوم بأعمال عقلية ومن بينها : المعلمون وأساتذة الجامعات والمحامون والقضاة والسياسيون وقادة الأحزاب والصحفيون ومراسلو الصحف والمترجمون والكتاب والشعراء والرسامون والمثالون والفنانون والموظفون الاداريون والمهندسون والأطباء والمتخصصون فى فروع العلم المختلفة ورجال الدين وعلماؤه والفلاسفة والمؤرخون ، هؤلاء جميعا هم المفكرون الذين يشكلون طبقة « أهل الفكر » . وحين أراد كتابنا ومترجمونا نقل المصطلح إلى اللغة الفارسية ، اختاروا كلمة « روشنفكر » ومن ثم بدأ الخلط ، ووقر فى الأذهان ، وشاع هذا الخطأ وتفشى بين الجميع . فهل يجوز وصف كل هذه الجماعات والأفراد بصفة « المفكر » ؟ ... لا ... لأن المفكر صفة تطلق فى مجال آخر . وهذه الصفة التى تستخدم فى الفارسية لا تحتاج إلى تفسير أو تحليل ، فهى تعنى صراحة ذلك الذى يتميز بوضوح الرؤية وسعة الأفق . وللكلمة مرادف فى الانجليزية والفرنسية ، والأدب الفرنسى أكثر رواجا بين متعلمينا وكل هذه المصطلحات نقلت عن الفرنسية والأدب الفرنسى ، حين كانت اللغة الفرنسية

والأدب الفرنسى أكثر رواجا بين متعلمينا . ومرادف كلمة « روشنفكر » فى اللغة الفرنسية Intellectual ومعناها بعيد النظر أو مستنير ، وتعنى ذلك الذى لا يتصف بالمحدودية والتوقف ولا يفكر بجمود ، بل يفكر بوضوح وسعة أفق ، ويميز عصره والأرض التى يقف عليها ، وموقع البلد الذى ينتمى إليه والمشاكل التى تطرح فى مجتمعه ويستطيع تحليلها وتقديم الأدلة لها ، وإفهامها للآخرين . هذا هو المفكر بالمصطلح الفرنسى الذى يرادف كلمة « روشنفكر » عندنا .

وعلى العكس من ذلك ، فإن الذى تطرح أمامه مشاكل تمس مجتمعه وتمس حياته لكنه لا يفهمها ، ولا يدرى أنها تمس حياته ، فيكون تعليقه عليها إنها ليست من شأنه فى حين أنها من شأنه تماما ، مثل هذا الشخص ليس مفكرا بالمرة . ومن هنا فليس المفكر هوالذى يزاول عملا فكريا ، فمن الممكن أن يكون أحد ما يفكر بانطلاق وسعة أفق بينما يزاول فى المجتمع عملا بدنيا أو يدويا ومع ذلك يحسن الفهم . وعلى العكس تماما من ذلك الذى يزاول عملا عقليا أساسه فكرى ، فهو بمقتضى ذلك من طبقة أهل الفكر ، لكنه ليس مفكرا ، ألا نرى رجالا تعرفهم ونلتقى كل يوم بأناس تعلموا تعليما عاليا ونالوا أرقى الشهادات بل ويشغلون مناصب علمية ويقومون بأعمال عقلية لكنهم مع كل ذلك لا يفهمون حوا من لو ؟ فهؤلاء لا يعتبرون مفكرين لأنهم لا يتميزون بوضوح الرؤية ووضوح الفهم ، لكن لأنهم يزاولون أعمالا عقلية نعتبرهم تلقائيا من المفكرين ، لكنهم ليسوا كذلك فهم ليسوا مستنيرين . ومن هنا فإن من يزاول عملا عقليا : ذلك الموظف فى مصرف أو المعلم فى مدرسة أو المراسل لصحيفة ، أو ذلك الذى يرسم كل أنواع الرسم ، أو المترجم الذى يترجم كل ما يحلو له حتى ولو كان غثاء ، أو الذى ينظم شعرا من كل صنف ، كل هؤلاء يحسبون من أهل الفكر ، لكن ترى هل يتميز كل منهم بأنه مستنير ؟ ينبغى أن نستخدم مقاييس أخرى . وذلك الذى يزاول عملا بدنيا سواء كان عاملا أو كاتبا على الآلة الكاتبة ليس مفكرا وليس من أهل الفكر ، لكن : هل هو مستنير أم لا ؟ ينبغى أن يقاس الأمر بمفاهيم أخرى .

وبناء على هذا نصل إلى نتيجة وهى أن المفكر بمعناه الاصطلاحى « صفة لفكر إنسان » ، أما المفكر بمعناه اللفظى فهى « صفة لعمل إنسان » ، ومن هنا فبعض المستنيرين من أهل الفكر ، وبعضهم لا ينتمون إليهم طبقيا ، وعلى العكس فبعض أهل الفكر مستنيرون وبعضهم لا يتمتعون بهذه الصفة .

ومن هنا ـــ وخلافا لما نتصور ـــ لا ينبغى أن نستخدم الكلمة الفارسية « روشنفكر » مرادفة لكلمة Intellectual أى مفكر ، فهما مختلفتان تماما ، وكما يقول المناطقة تختلف مفاهيمهما وماصدقاتهما ، فعلينا إذن ألا نستخدم كلمة «روشنفكر» للتعبير عن طبقة أهل الفكر . ولكى نفهم - نحن الناطقين باللغة الفارسية - المعنى الدقيق والاصطلاحى الذى يفهمه الأوروبى من كلمة Intellectual فاننى استخدم كلمة متعلم أو « ذو شهادة » فى مقابل المصطلح السابق الذى نظنه مرادفا لمصطلح « روشنفكر » عندنا وهذا خطأ . أجل ، فكل متعلم هو من أهل الفكر بمعنى Intellectual لماذا ؟ لأنه تعلم ويعمل بما تعلم . وماذا يعنى التعلم ؟ إنه يعنى تكوين أساس فكرى يعمل به المتعلم فيما بعد فى مجتمعه ، بحيث إنه كلما زاد مستوى هذا التعلم ، وضع هذا المتعلم فى طبقة أعلى من طبقات أهل الفكر أى المشتغلين به . وتوجد علاقات مختلفة بين المشتغلين بالفكر وغير المشتغلين به ، وفى هاتين الطبقتين توجد مستويات مختلفة بالنسبة لهذه العلاقات ، وبعض الناس بين بين . وعلى سبيل المثال فإن من يكتب على الآلة الكاتبة يقوم بعمل فكرى بينما يقوم بعمل بدنى ، أى أنه ضمن العمال اليدويين وضمن من يعملون بالفكر فى نفس الوقت . ومن ينسج سجادة غاية فى الجمال ، يقوم بعمل بدنى وفى نفس الوقت بعمل فكرى روحى وفنى ، ومن هنا يعد أيضا من المشتغلين بالفكر فى حين أنه يقوم بعمل يدوى . وهكذا إلى أن نصل من ناحية إلى الفاعل فى أعمال البناء الذى يزاول عملا يدويا تسعة وتسعين فى المائة ، ومن ناحية أخرى إلى الفيلسوف الذى يعتمد على عقله بنسبة تسعة وتسعين فى المائة ، أما الشاعر والكاتب والمترجم فهم فى طبقتهم على قمة العمل العقلى .

تشكيل طبقة أهل الفكر :

شكل المشتغلون بالفكر ـــ أى أولئك الذين تعلموا ونالوا الشهادات ، وأولئك الذين يزاولون أعمالا فكرية فى مجتمعاتهم ، ويعتمدون فى أعمالهم على إدراكهم وعقولهم وأفكارهم ومعلوماتهم ـــ شكلوا طبقة فى أوروبا منذ القرن السابع عشر . ولماذا القرن السابع عشر ؟ ألم توجد طبقة المشتغلين بالفكر قبل القرن السابع عشر ؟ ولم لا ؟ فى العصور الوسطى ، وجدت طبقة المشتغلين بالفكر ، سواء فى أوروبا أو فى إيران ، وفى كافة الدول الأخرى ، ولاشك فى أن علماء الدين عندنا

ووعاظنا وكتابنا وعلماءنا الكبار هم الذين كانوا يمثلون طبقة المشتغلين بالفكر عندنا ، ولا شك فى أن مير فندرسكى وملا صدرا وحافظ والغزالى وسعدى والفردوسى وسيد رضى والعلامة الحلى ..... ونظائرهم يعتبرون من بين طبقة المشتغلين بالفكر عندنا . وفى اوروبا العصور الوسطى أى قبل القرن السابع عشر ، كان علماء الدين والأطباء والفلاسفة والحكماء والشعراء ضمن طبقة المشتغلين بالفكر . لماذا إذن لا نقول إن طبقة المشتغلين بالفكر ، أى المتعلمين أو الذين يزاولون أعمالا فكرية ، قد شكلت منذ القرن الرابع عشر ؟ ذلك لأننا نقصد هنا المعنى الأخص ، أما طبقا للمعنى الأعم فكل العلماء والمفكرين والكتاب والشعراء يعتبرون من المشتغلين بالفكر فى كل عصور التاريخ ، وحتى فى قبيلة ما أو فى قرية متأخرة ، يعتبر هذان الشخصان اللذان يعرفان الكتابة مشتغلين بالفكر بالنسبة للآخرين ، وحتى فى قبيلة بدائية جدا ، يعتبر من يزاول أعمالا مغرقة فى الخرافة والوثنية أو يزاول السحر وما إلى ذلك ، من المشتغلين بالفكر ، لأنهم يزاولون عملا فكريا بالنسبة للآخرين الذين يستخدمون المعاول والفئوس فى أعمالهم .

لكننا حين نذكر المصطلح هنا ، إنما نذكره بمعناه المعاصر ، ونقصد به الطبقة الخاصة التى تسيطر الآن على المجتمع البشرى فى العالم ، وفى كل الأمور التى ترتبط بالفكر والروح والعقيدة . ولذا فبالنظر إلى هذا المعنى الخاص تعد طبقة المشتغلين بالفكر فى أوروبا طبقة خاصة ، بحيث إن فيلسوفا عظيما أو رجل دين عظيما يعد من وجهة نظر الكنيسة من علماء الدين المسيحى الكبار ومن المروجين للمسيحية ، وهو فى تعامله يقوم بعمل عقلى محض ، ودائما ما يقوم بترويج دينه وتفسيره ، ويعمل فى حقل الألفاظ واللغات والتاريخ ، ومع كل ذلك لا يعتبر ضمن طبقة المشتغلين بالفكر بمعناها الخاص . والطبقة المتعلمة بمعناها الأخص المطروح الآن فى العالم عبارة عن الطبقة التى ظهرت بعد القرون الوسطى فى مواجهة علماء الدين فى ذلك العصر ، أى علماء الدين الكاثوليك ، وهذه الطبقة درس أفرادها العلوم الجديدة والفلسفة الجديدة بعيدا عن المدارس الدينية ومراكز العلوم القديمة ، وقاموا بذلك برغم علماء المذهب الكاثوليكى وإرادتهم فى مدارس وجامعات غير دينية تعادى الكنيسة ، ثم بدءوا التفكير بفكر جديد ، وجعلوا العلم فى خدمة الحياة ، ثم دخل هذا العلم ــ الذى يعد مختلفا عن العلوم الدينية وكانت مهمتها الأولى الترويج للدين ــ إلى المجتمع . وبعد ذلك صار المعمار والهندسة والرسم والشعر والترجمة

والكتابة والبناء والرياضة والطبيعة والكيمياء والصيدلة والزراعة والصناعة وكل وجوه الحياة وكل أشكال الصناعة المختلفة ، صارت كل هذه المناحى علوما على يد هذا العلم الجديد ، أى أنها شكلت علوما من كل هذه الفروع المختلفة للحياة ، بينما كانت كل هذه المناحى المختلفة للحياة الاجتماعية فى أيدى أرباب الحرف والصناع ، ولم يكن لها مكان داخل علوم الكنيسة والعلوم القديمة ، فقامت هذه الطبقة الجديدة بتأسيس المدارس وسنت التخصص فى فروع المعرفة ، وبدأت تقبل الطلاب فى كل فرع منها ، وقامت بتربية هؤلاء الطلاب على أساس علومها دون تدخل من الدين ورجال الدين وكنيسة البابا ، وبالتدريج سقطت كل مناحى الحياة فى أيدى هذه العلوم وشكل المتخرجون فى هذه المدارس اللادينية كل أشكال الحياة من الكيمياء إلى الهندسة والطب والمعمار والفلسفة والشعر والفن وكل شيء ، وذلك فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر وإلى الآن .

فى القرنين الرابع والخامس عشر عندما كان يقال فى أوروبا : جاء العلماء ، فإن ذلك كان يعنى علماء الدين ، كما أننا مازلنا نستعمل هذا المصطلح بهذا المعنى إلى الآن . فحين نقول « علماء » نقصد علماء الدين ، لماذا ؟ لأنه لا يوجد أى نشاط علمى خارج المراكز الدينية ، ومن هنا كان العلم يعنى العلم بالدين ، وكانت كل العلوم تحت إشراف الدين ورجال الدين . وفجأة ففى القرن السابع عشر حينما قال : جاء العلماء ، كان السؤال الذى يطرح هو : أى علماء ؟ علماء الدين أو العلماء غير الدينيين ؟ أصبح العلماء غير الدينيين ظاهرة جديدة وواقعا اجتماعيا جديدا تماما ، كان عددهم فى البداية قليلا ، كانوا أمثال كوبرنيكس وجاليليو ، ثم ازدادوا بالتدريج وانتشروا فى كل مجالات الحياة ، وسيطروا على كل وجوهها ثم شكلوا طبقة . هؤلاء العلماء غير الدينيين هم المشتغلون بالفكر ، هم طبقة أهل الفكر ، أى أن أولئك الذين كانوا قد درسوا فى مدارس غير دينية وعلى أيدى أساتذة غير علماء المراكز الدينية ومدرسيها ، كونوا طبقة يمتاز أفرادها تماما فى كل المدن وفى كل المناطق والقرى . عندما كنا نذهب إلى قرية قبل ذلك ، كان علماؤها لا يزيدون على معلم القرية وبضعة أشخاص من الذين يجيدون القراءة والكتابة ويقومون أيضا بأعمال دينية ، أما الباقون فكانوا يقومون بأعمال بدنية ، سواء المالك أو الزارع أو صانع السنابك ، أما الآن فقد تكونت طبقة أخرى ينضوى تحت لوائها المعلم والطبيب والمهندس الزراعى والمتخصص فى مقاومة الآفات والمتخصص فى الجرارات

والفنى . وكانت هذه طبقة جديدة لا يعد أفرادها ممن يزاولون أعمالا بدنية ، ولا هم من رجال الدين ، هم أناس يقومون بعمل فكرى ، لكنهم ليسوا من المروجين أو علماء الدين وليسوا من الكنيسة ، هؤلاء هم المشتغلون بالفكر ، المتعلمون الجدد هؤلاء الذين ظهروا كطبقة فى القرن السابع عشر .

منذ متى تتشكل الطبقة ؟ :

لا تتشكل الطبقة عندما تظهر طائفة ما فى مدينة ما أو فى العاصمة أو المدن الكبرى ، بل تتشكل الطبقة عندما تظهر شريحة ما من هذا النوع فى بنية المجتمع بأجمعها ثم تنتشر . وعلى سبيل المثال إذا رأينا فى مجتمع إقطاعى أو زراعى متأخر وحدة صناعية متقدمة جدا ، فإننا نستطيع أن نقول إن العامل الصناعى موجود فى هذا المجتمع لكن على صورة جماعة أو طائفة ، لكن طبقة العمال لم تتشكل بعد . إذن من أين تشكل الطبقة ؟ من الوقت الذى ترى فيه عند دخول أية مدينة أو أية منطقة فى بلد ما أنه فى مكان خاص أو ناحية من المدينة ، جماعة أحيانا ذات زى خاص ولغة خاصة ومسرح خاص ومعبد وعلاقات اجتماعية خاصة واحتفالات ووسائل لهو خاصة ، قد شكلت طبقة هى — على سبيل المثال — طبقة العمال الصناعيين . أما ظهور عدد من الكتاب أو الشعراء أو المترجمين غير الدينيين فإنه لا يشكل طبقة المشتغلين بالفكر أو طبقة المتعلمين الجدد أو أهل الفكر بالمعنى الذى نقصده . إنها تتشكل عندما نحس بوجود هذه الطبقة وعندما نشعر بوجودها فى كل المدن والقرى ونشير إليها .

وقد شكلت هذه الطبقة فى أوروبا فى القرن السابع عشر . فالطبقة تتشكل على أسس قوانين معروفة فى علم الاجتماع ، وكما بينت سلفا تكون ذات عمل خاص فى المجتمع ، وتكون ذات لغة خاصة وملامح خاصة وروح خاصة وذوق خاص وآداب وفنون خاصة ومظهر حياة ونمط من التفكير خاصين بها . كيف إذن تتشكل ملامحها وخصائصها ولغتها وآدابها وفكرها وثقافتها ونظرتها الشاملة ؟ إنها لا تتشكل نتيجة لدراسة الكتب ، ولا نتيجة للدعاية أو الإذاعة أو الصحف أو الترجمة أو الخطابة والمحاضرات ، إذن كيف تتشكل ؟ تتشكل نتيجة لظروف عينية واقعية واحتياجات حقيقية موجودة وقائمة فى المجتمع الذى تتشكل فيه . ومن هنا فإن طبقة المفكرين فى أوروبا فى القرن السابع عشر وهى النسخة الأصلية التى نقلنا عنها ،

وجدت فى ظروف خاصة ، ونتيجة لهذه الظروف الاجتماعية الخاصة تميزت بخصائص فكرية ، كانت كلها طبيعية يمكن تحليلها طبقا لقانون العلة والمعلول .

خصائص طبقة المفكرين فى القرن السابع عشر :

اللادينية :

ترىَ ماهذه الطبقة المتعلمة ــ أى طبقة المفكرين الجدد فى القرن السابع عشر ــ التى تسيطر حتى الآن على أوروبا وعلى عالم الفكر ؟

إن بين يدى قائمة مفصلة ودقيقة لا أستطيع أن أذكرها هنا ، وذلك لأنه يجب على أن أوضحها واحدة بعد الأخرى والمجال والوقت لا يسمحان ، ومن ثم سوف أذكر بعض خصائصها البارزة حتى يتضح كيف يفكر المفكر المتعلم الأوربى ولماذا على هذا النسق ؟

كما ذكرت فى البداية ، لقد تشكلت طبقة المفكرين فى مواجهة علماء الدين فى القرون الوسطى ... لماذا ؟

لم تكن علوم القرون الوسطى ، ولم يكن علماء الدين يتركون فرصة للفكر والحياة للنضج فى حرية . وكانوا يعتبرون أن العلم ما هو إلا عبارة عن الأفكار والعقائد التى تهم الانجيل وتتماشى مع نسق تفكيرهم وعقائدهم فقط ، وإلا فلا أهمية لها ، وهذا إلى درجة أن من اكتشف الدورة الدموية للمرة الأولى كان جزاؤة السلخ ! ، لماذا ؟ لأن العلوم القديمة التى تسمى بالعلوم الدينية كانت ترى أن الحياة فى بدن الإنسان تتركز فى الأعصاب اللمفاوية لا فى الدم ، لكن هذا الرجل قال إن الدم هو الذى يجرى فى العروق ، ومن ثم وجب سلخه .

كانت العلوم الدينية فى العصور الوسطى هى العلوم التى تختص بفهم الإنجيل فحسب . حتى العلوم اليونانية التى قامت على يد أرسطو وأفلاطون ونظائرهما قبل ميلاد المسيح بستة قرون ثم توسع فيها بطليموس وأمثاله فيما بعد ، فقد كانت تعد أيضاً جزءا من هذه العلوم . إذ جاء العلماء المسيحيون وأخذوا هذه العلوم التى تأسست قبل ظهور المسيحية ، وأدخلوها فى الدين ، ومن ثم صارت علوم أرسطو والفلسفة اليونانية والعلوم والطبيعيات القديمة والمعارف القديمة علوما دينية وجزءا

من الإنجيل ... ومن هنا لم يعد للمفكرين وعلماء الطبيعة والكيميائيين والرسامين والمهندسين الحق فى نقض أرسطو ، أو التفوه بما يخالف آراءه ، ولا جدال فى أن أكثر علمائنا برئوا من هذا التعصب . لكن هناك حقيقة أخرى فى مجتمعنا وهى أننا نرى « جهلة » لا يعترفون « بالعلماء » وهم كثر . وقد حدث كثيرا أن قدمت أو قدم آخر فكرة ما قبلها العلماء لكن الجهال لم يكونوا بالذين يصرفون النظر عن الأمر ، كنت قد ذهبت إلى مكة ، ورأيت الجدل بين الجهلاء وعلماء الدين . كان علماء الدين قد أجمعوا على أنه لا ينبغى للمرأة أن تخفى وجهها أثناء الطواف ، لكن واحدا من أولئك الجهال المتهوسين دينيا لم يكن ليقبل ذلك ، حتى أولئك الذين اضطروا إلى القبول توسلوا بإحدى الحيل ، لكن ما جدوى الحيلة ؟ لقد أجمع العلماء على وجوب عدم إخفاء الوجه ، لكن زيدا من الناس لم يقبل ، ومن زيد هذا ؟ هو نفس الجاهل الذى يظن أنه من علماء الدين لمجرد أنه متدين . وحينذاك هدتهم الحيلة إلى تلفيق شيء « فنى » يمكنهم من العمل بفتوى العلماء ، والعمل فى الوقت نفسه بما يقتضيه « دينهم » ، فوضعوا على الجبهة شيئا يبعد عن الوجه عشرة أو عشرين سنتيمترا ، شيئا أشبه بنقاب شفاف ، ثم نصبوا عليه حجابا يبعد عن الوجه من عشرة إلى عشرين سنتيمترا ، ومن ثم فالوجه غير محجب طبقا لفتوى العلماء ، وفى الوقت نفسه محجب طبقا لدينهم .... من طرفا هذه الموقعة ؟ هى موقعة بين العلم والجهل ، باسم الدين ، ومن الأسف أنه فى بعض طوائفنا ، تكتسب آراء المتدينين غير المتخصصين والجهال قوة أكثر مما لآراء العلماء الكبار والمجتهدين .

هذه المجموعة من العلوم القديمة التى كانت موجودة فى العصور باسم « السكولاسية » لم تكن تترك الناس يفكرون ويكتشفون الجديد ، ولم تكن تسمح للاستعدادات والابتكارات الجديدة بالعمل ، ولم تك تدع المجال والفرصة لوجود إصلاح وتعبير حر أو حركة فى الحياة الفكرية والحياة الاجتماعية ، فكانت كلها راكدة جامدة تقليدية ، كان كل جيل تكرارا للجيل الذى يسبقه ، وكانت كل الأفكار عبارة عن كتاب دورى نمطى يلتزم القواعد ، فسجنوا النفوس وقيدوا الأفكار بالأغلال . فلم يكن هناك بد من أن يعتبر عقلاء أوربا وعلماؤها الحياة والفكر أمرا منفصلا عن الدين ، فطرحوا الدين جانبا ، وبالرغم من أن الدين حاجة أساسية فإنهم رأوا الحياة على وشك الجمود والتعفن والاهتراء باسم الدين . وبينما كانت

العصور الوسطى تحترق فى أتون الإقطاع ، كان الأتراك العثمانيون ـــ بالرغم من فرقتهم ، وبالرغم من أن الإسلام كان ممزقا ـــ وعلى وشك محو أوربا من الوجود بكل سهولة ، لأن هؤلاء كانوا محرومين من كل شيء ، حتى الكشوف الحديثة التى كان المسلمون يتوصلون إليها ، لم يكن يسمح لها بأن تتخذ طريقها إلى أوربا . لقد حملت الساعة التى كان المسلمون قد اخترعوها إلى بلاط شارلمان ، وكانت تلك الساعة تدق كل فترة ، وطبقا لفتوى أصحاب المراتب والقسس حطمت الساعة ، لأنها خوفت أهل أوربا من أن يكون داخلها جنى ، كانوا قد انحدروا بالناس إلى هذا المستوى من الفكر . وقضية حرية المرأة التى نراها الآن فى أوربا على هذا الشكل رد فعل لاسترقاق المرأة فى العصور الوسطى ـــ سئل البابا : هل يجوز للمرأة أن تتحدث من وراء باب مغلق إلى غير محرم أو لا يجوز ؟ فرد : لا ينبغى أن تتحدث إلى أحد أبدا ، ففى منزل توجد فيه إمرأة حتى فى المطبخ ، لا يحل لغير محرم أن يدخل هذا المنزل حتى من الطابق الثانى ، والنتيجة مانراه الآن . فى العصور الوسطى كان عدد من الذين لا يؤمنون بدين يتظاهرون بالتدين لكى يجمعوا الناس حولهم ، على سمعة أن السيد المذكور رجل متدين وطاهر العقيدة ، فى حين أنه فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر كان الناس يتظاهرون بمعارضة الدين وباللادينية والقول بالمادية أيضا من أجل أن يجمعوا الناس حولهم ، وكرد فعل لأى شيء ؟ هذا رد فعل للعصور الوسطى . ومن هنا نضجت طبقة المفكرين الجدد وهى تعادى الدين . لماذا ؟ لأنها تواصل حياتها كعدو للدين ، وكمنافس للجهاز الكنسى ، وكسجين هارب من سجن المذهب الكاثوليكى الذى دام ألف عام ، وفى ظل هذه الروح أخذت تكتمل ، وكان ينبغى لها تلقائيا ومنطقيا أن تكون معادية للدين . وهكذا كان . كان هذا الهروب من الدين عند طبقة المفكرين فى أوربا هروبا منطقيا ، كما كان إيجابيا ، وتجربة التاريخ تقف إلى جوارهم .

منذ خمسة وعشرين أوستة وعشرين قرنا كانت فى أوربا حضارة مزدهرة ، كان فيها سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم . وكان فيها كتاب عظام وأدباء وفلاسفة عظام لا تزال أسماؤهم مشهورة فى العالم . ثم جاءت المسيحية الكاثوليكية وحكمت أوربا باسم الدين . فاختنقت أوربا ولم يعد هناك خبر عن شيء . وحينما ظهرت طبقة المفكرين سيق الدين إلى داخل الكنيسة وأحكم عليه الرتاج ، فنضجت أوربا .

واليوم نرى أنه فى هذه القرون الثلاثة الأخيرة التى نحت فيها أوربا الدين جانبا ، أصبحت هى أوربا قبل أن يسيطر عليها الدين ، وفيها الآن أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو .... وغيرهم . ومن هنا تثبت التجربة أن ما قاموا به كان طبيعيا ومنطقيا ، فإن العلوم الجديدة والطبقة الجديدة لم تجد الفرصة للنضج حينما كانت تحت نير الكنيسة ، فتوقفت الحياة وتوقف العلم والفكر . ومنذ أن تخلصت طبقة أهل الفكر من هذا النير ، ظهرت عليها سمة معاداة الدين أو على الأقل اللادينية (بمعنى عدم الاهتمام بالدين) . ومن ثم فاللادينية إحدى السمات البارزة عند طبقة أهل الفكر ، فطبقا لما كان الدين يراه قديما ، كان للكاثوليكى فحسب الدرسُ ، أما الطبقة الجديدة فتريد للجميع أن يدرسوا . ومن هنا قامت بتأسيس جامعات لا دينية يلتحق بها الناس جميعا ويدرسون ، ومن المسلم به أيهم أفضل وأيهم يفكر أفضل بالنسبة لنضج البشر واكتمالهم .

وفى القرن السادس عشر قتل ثلاثمائة ألف بروتستانتى فى برشلونة بأسبانيا ، وفى فرنسا قتل الكاثوليك من البروتستانت بحيث هبطت فرنسا من دولة من الدرجة الأولى إلى دولة من الدرجة الثانية أو الثالثة . ولأن البروتستانت كانوا من المفكرين ومن أصحاب رءوس الأموال كانوا أهل عمل وحياة ونشاط ، ولم يقبلوا ما كان يروج له الكاثوليك من الزهد والمتاجرة فى الجنة والأدعية والانحراف والزراية بقيمة الدنيا وأنها ضد الله وما إلى ذلك من العبارات . كان البروتستانت يسيطرون على كل ثروة فرنسا وصناعتها ورءس أموالها ونشاطها ، وكانت فرنسا تدين لهم بتقدمها ، فأعمل الكاثوليك فيهم القتل بحيث اضطر بعضهم إلى الفرار إلى دول أخرى . ونتيجة لذلك سقطت فرنسا خلال بضع سنوات . ونتيجة لهذه التجارب التى وضعها المفكرون فى اعتبارهم ، كان من سماتهم ألا يهتموا بالدين وقيوده أبدا ، وأن يضعوا سيطرة الكنيسة عن فكرهم وعقولهم وأن ينضجوا أحرارا . لقد فضلوا الحرية على القيود لا الكفر على الدين ، هذه هى إحدى السمات .

الجنوح إلى القومية :

كانت البابوية ، أى الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى ، عالمية . ولم تكن تأبه بالقومية . فالعالم كله كان يخضع لحكم البابا ، وحكم الناس حكر على شخصية البابا الذى ينتخبه مجمع الكرادلة . ولغة العالم هى اللاتينية . ولا حق لأحد

فى تفسير القضايا الدينية والقضايا العلمية بلغته الأم . لكن لماذا اللاتينية ؟ لأنها لغة الله ، ولغة الإنجيل . ألم يكن الإنجيل باللغة العبرية ؟ ألم يكن عيسى يتحدث العبرية ؟ أكان يعرف اللاتينية ؟ لم يكن هناك أحد ليجيب عن هذا السؤال ، لكن اللغة الرسمية كانت اللاتينية ، لماذا ؟ لأن كنيسة البابا كانت نسخة طبق الأصل وصورة مكررة من نظام القيصر ، ولم تكن لها أدنى علاقة بعيسى أو بالدين . كانت صورة طبق الأصل من البنية السياسية للنظام القيصرى فى روما القديمة . لو نظرتم إلى تقليد كتاب « أحذية الصياد » لوجدتم أنها خير دليل على أن طريقة انتخاب البابا هى بعينها طريقة انتخاب القيصر فى روما القديمة ، فالبابا ينتخبه مجلس الكرادلة كما كان القيصر ينتخب عن طريق الأشراف ، والحرس البابوى والتاج ومراسم بلاط الفاتيكان والجيش الخاص وجباية الضرائب وكل ما نراه الآن فى النظام البابوى هو استمرار كامل للنظم التى ورثها البابا ، أى نظم القيصر فى روما . ومن هنا أيضا اختيرت اللغة اللاتينية ــ لا العبرية ــ كلغة للدين .

والبابا الذى يقول باسم الدين : إن حكم العالم وقف علىَّ ، ويكرر كلام القيصر بعينه ، لأن هذا الكلام يرد فى الانجيل ولم يقله عيسى الذى كان يقول : أعط ما لقيصر لقيصر ، أما القيصر فهو الذى كان يتوج كإمبراطور على العالم ، وكان يدعى أن على كل أمم العالم وشعوبه ، وأن على كل اللغات أن تذوب فى مجد الامبراطورية الرومانية واللغة اللاتينية .

وكان مفكر القرن السابع عشر يريد أن يتخلص من هذه السيطرة ، وكان يريد أن ينال استقلاله ، فإذا به يعلن قوميته إلى جوار لا دينيته ، ويتجه إلى قوميته حتى تحل لغته الأم محل اللغة اللاتينية ، ولكى يمنح نظامه الديموقراطى وحكومة شعبه الفرصة للعمل محل البابا ، هذه أيضا إحدى السمات ، وقد اتسم بهذه السمة أيضا بطريقة منطقية وطبيعية وأخذها من ظروف مجتمعه ، فمن الطبيعى أن توضع قوميته فى مواجهة عالمية البابا ، وأن يتوسل بلغته لأن البابا يريد اللغة اللاتينية لغة لكل الناس ، وأن يتجه إلى المدارس اللادينية لأن فيها حرية العلم ، ولأن البابا والكنيسة لا يسمحان بوجود هذه الحرية ، ولأنهما قيداها باسم الدين .

اللاأرستقراطية والجنوح إلى الجماهير :

السمة الأخرى للمفكر أنه لا أرستقراطى ، وأنه ضد حكم طبقة خاصة وضد

الإقطاع . لماذا ؟ ؛ لأن الدين فى العصور الوسطى حين ظهرت طبقة أهل الفكر فى أوربا كان مؤيدا للأرستقراطية ، ولأن نمط انتخاب البابا نمط ارستقراطى ، فهو ينتخب من الصفوة المختارة لا من الجماهير ، ومن هنا يختار المفكر الديمقراطية لتحل محل الأرستقراطية الدنيوية والدينية عند البابا ، وهو — أى المفكر — معاد للأرستقراطية والإقطاع لأن دين الكنيسة هو أكبر مؤسس للنظام الإقطاعى ، وأكبر مدافع عن العهد الإقطاعى والشكل الاقطاعى .

هذا هو المفكر فى أوروبا وهذه هى سماته ، أجمل ما فصلته عنها لأنها أساس ما أنا بسبيل الحديث عنه .

ظهر المفكر فى أوربا فى القرن السابع عشر ، فى ظروف كانت أوربا فيها إقطاعية ، وحكومة قيصرية تسيطر على الجميع باسم الدين ؛ ومن هنا أصبحت هذه الطبقة فى أوربا معادية للدين أو لا دينية ، وذلك من أجل أن تنجو من السيطرة القهرية للاستبداد الدينى ، ومن أجل أن تظفر بحريتها ، فهى تعارض العبادة من وجهة نظر الكنيسة والبابا ، لأن الإله الذى كان البابا يقدمه هو أكبر حماة الارستقراطية ، يهبها العزة ، ويمنى الآخرين بالذلة . وهى تعلن الديموقراطية لتضعف حكومة البابا الأرستقراطية . وهى قومية من أجل أن تقضى على عالمية البابا . وهى تؤمن بالحرية المطلقة للفكر العلمى وتؤمن بمادية العلم ، لأن جهاز الكنيسة صرف قوة العلم عن خدمة الحياة وكرسها لخدمته هو .

انتقال سمات المفكر الأوربى إلى المجتمعات الأخرى :

نحن نرى إذن أن هذه السمات والخصائص التى تتشكل بها طبقة المفكرين فى أوربا نتيجة منطقية وصحيحة للأحوال التى كانت سائدة فى أوربا . ومن هنا فكل هذه السمات منطقية وليدة لظروف تاريخية واجهتها طبقة المفكرين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وتشكلت فى ظلها ، ومن ثم اتسمت بهذه السمات على أساسها . وبعد ذلك فى خلال القرن التاسع عشر ونتيجة للاتصال بالأمم الشرقية ومن بينها الأمم الإسلامية قامت طبقة المفكرين فى أوربا والتى كانت قد تطورت وبلغت أوج نضجها بنقل سماتها إلى طبقة تسمى أيضا بطبقة المفكرين فى المجتمع الشرقى ، وتشكلت هذه الطبقة فى المجتمعات الشرقية والإسلامية بدورها بنفس هذه

السمات . لكن لم تظهر سمة واحدة من هذه السمات على أساس منطقى فى طبقة مفكرى الشرق عامة والمجتمعات الإسلامية خاصة . لماذا ؟ لأن تلك السمات ــ كما قلت ــ وليدة ظروف عينية وتاريخية فى أوربا كما يقول علم الاجتماع ، كما أنها وليدة ظروف دينية ، ومن الطبيعى جدا أن يفكر المفكر الأوربى على هذا النمط .

لكن المفكر عندنا وفى مجتمعنا ظهر فى ظروف تاريخية أخرى ، وفى مواجهة دين آخر ، وعلماء دين مختلفين ، وظروف اجتماعية تختلف تماما ، وخصائص دينية لا تتشابه ــ حتى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهما عصر الانحطاط الدينى عندنا ــ بأى حال من الأحوال مع وضع المذهب الكاثوليكى الذى أدى إلى ظهور طبقة المفكرين ، ومع ذلك قام المفكر فى مجتمعنا بتقليد هذه الخصائص تماما عن المفكر الأوربى . وفى علم الاجتماع نلتقى بقضية فحواها أن حقيقة ما قد تكون صادقة ومنطقية تماما ، لكنها قد تكون مضرة تماما وكارثة وقبيحة وباطلة فى ظل ظروف اجتماعية أخرى .

وأول ما فعله المفكر فى المجتمع الإسلامى والشرقى هو مقاومة الدين . كان من ثمار مقاومة الدين فى أوربا : حرية الفكر والنضج الفكرى والمدنية المزدهرة وأنواع التقدم العلمى السريعة والمدهشة فى كل مجالات الحياة . لكن نفس هذا الأمر عندنا ، أى مقاومة الدين فى المجتمعات الإسلامية وحتى غير الإسلامية ، كانت أولى ثماره وأسرعها وأفدحها هى تحطيم السد الذى كان يقف حائلا فى وجه النفوذ الإمبريالى ونفوذ الاستعمار الاقتصادى ونفوذ فلسفة الاستهلاك وغلبتها والانحطاط الفكرى والانحراف وما إليه من أنواع الغزو الذى بليت به المجتمعات الشرقية . انظروا وقارنوا العصور التى ظهر فيها رجال الفكر فى المجتمعات الشرقية بالعصور التى سبقتها ، وقارنوا هذه النتيجة مقارنة العصور التى تلت ظهور أهل الفكر فى أوربا بالعصور التى سبقتها ، سوف ترون النتائج معكوسة تماما .

نسبية الحقائق الاجتماعية :

يقول محمد عبده : « أولئك نبذوا الدين فنالوا الحرية والسيادة والسيطرة على العالم ، ونحن نبذناه فمنينا بالذلة والانقسام والتفرقة والانحطاط والاستعداد لقبول كل مايملى علينا ونجبر عليه ويلقى أمامنا » . لماذا ؟ لماذا يؤدى عامل واحد وفعل

واحد وحقيقة واحدة إلى نتيجتين متناقضتين تماما وعكسيتين تماما فى موقعين مختلفين وفى ظل ظروف اجتماعية مختلفة ؟ لأن الحقيقة فى علم الاجتماع شىء وفى الفلسفة والعلوم شىء آخر . ففى الفلسفة والعلوم تكون قضية واحدة أو أمر واحد إما صحيحا وإما باطلا ، فإذا كان الأمر صحيحا فهو صحيح فى كل مكان وصحيح على الدوام ، فإذا قلنا مثلا إن قوة الجاذبية تجعل الأرض تدور حول الشمس ، يكون هذا صحيحا سواء فى أوربا أو فى إيران وهو صحيح منذ ألف سنة وإلى مائة ألف سنة . وإذا كانت هذه القضية باطلة فهى باطلة فى كل مكان وفى كل زمان . ففى القضايا العلمية والفلسفية ينبغى لنا أن نبحث عما إذا كانت القضية صحيحة أو باطلة . أما فى القضايا الاجتماعية فيتحتم علينا أن نبحث عن عامل آخر نسيناه جميعا . ومن هنا كانت آراؤنا باطلة وخبطا عشوائيا . فى القضايا الاجتماعية هناك أمر آخر غير الصحة والبطلان ينبغى أن نبحث عنه ، وهو : متى تطرح القضية وأين ولماذا ؟ أى زمنها وبيئتها ودافعها ينبغى أن يكون هذا العامل فى الحسبان .

سألنى أحد الطلاب عن رأيى فى كسروى ، فأجبته : لا شأن لى بما كتب كسروى أو بمضامينه وموضوعاته أو أحاديثه ، لنفرض أن كل ما قاله صحيح ومنطقى مائة فى المائة ، وكله حقائق علمية ، لكن : علينا ألا ننسى وعليكم أيضا ألا تنسوا أنه طرح هذه القضايا فى عصر وفى ظل ظروف اجتماعية ، كانت مناسبة لطرح قضايا أخرى .

وهناك قانون فحواه : إننا فى ظل ظروف اجتماعية معينة تستدعى كلاما خاصا وتبنِّى أهداف معينة وطرحَ قضايا معينة إذا وجهنا الأذهان وشغلناها بأمور أخرى ، نكون قد ارتكبنا الخيانة ، مهما كان ما يطرح من قبيل الحقائق العلمية أو الدينية أو الفلسفية حتى ولو كان بين أيدينا من الأدلة لإثبات صحتها ألف دليل ودليل .

يقول جونيه لابون : وهو أحد كبار مفكرى فرنسا فى شمال أفريقيا : « ينبغى أن تقسم منطقة شمال أفريقيا ..» لكن كيف ؟ يقول : اكتشفت أن نصف سكان شمال أفريقيا ــ من الناحية التاريخية ــ من البربر والنصف الآخر من أصل عربى ، وليس بالأمر المحسوس أيهم من أصل عربى وأيهم من البربر ، ثم قمت بأبحاثى ، واستنتجت أن الطائفة التى أغلبها من البربر ذات إحساسات قومية أكثر حدة ، أما

الطائفة عربية الأصل فإحساساتها الدينية أكثر غلبة ، ومن هنا رأيت أنه ينبغى أن تطرح القضايا القومية والعلمية المعاصرة بين أبناء الطائفة الثانية حتى تزلزل قاعدتهم الدينية ، كما ينبغى أن ينتشر الدين بين أبناء الطائفة الأولى بحيث يتم انفصالهم عن أبناء الطائفة الثانية بعد أن ذابوا فيهم الآن فى وحدة إسلامية . وبأية وسيلة ؟ بوسيلة طرح قضية القومية »

نرى إذن أننا حيث نجرد القومية تماما من وضع اجتماعى خاص أو زمن تاريخى ، فإنها تكون مدرسة فكرية تقدمية كما وصفت فى الكتب ، وتكون طبيعية لكننا فى هذه الظروف نرى أن نفس هذه المدرسة الفكرية الصحيحة الصادقة التى استند عليها كل هؤلاء العلماء الأوروبيين ، وانتجوا كل هذه الآداب العظيمة على أساسها ، وعلى نمط تفكيرها ، وأن نفس هذه المدرسة التى أزالت ظل الحكومة البابوية عن أوروبا ، ومنحت أوروبا الخلاص ، صارت بالنسبة لوحدة المشرق سببا فى الانقسام والفرقة والفناء .

نفس هذه المدرسة الفكرية بمجرد أن تظهر فى أوروبا فى القرن السابع عشر تصير أعظم عوامل الرقى والحضارة ؛ وحين يطرحها مفكرنا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، نرى فجأة إلى أية نتيجة يؤدى انتصارها . فاذا بقوة الإمبراطورية العثمانية ، التى كانت قد حاصرت النمسا ، وطوت كل أوروبا الشرقية تحت لوائها ، وشرعت فى إلقاء أوروبا الوسطى والغربية فى المانش ، نجد نفس هذه القومية وهى مدرسة فكرية إنسانية وتقدمية – وأنا شخصيا أومن بها إيمانا راسخا – نجدها حين طرحت فى ذلك العصر وفى ظل تلك الظروف ، وحين واصل مفكرونا — وكلهم كانوا تحت تأثير مفكرى أوروبا تقدميين وقوميين — نفس هذه الحركة ، نجدها قد صارت بعد عشرين سنة أى أقل من ربع قرن سببا فى أن تتحلل تلك القوة العظيمة للامبراطورية العثمانية ، ذات القوة الإسلامية الشرقية التى كانت تخنق أوربا ، فإذا بها تتحلل من الداخل . ثم تتمزق إربا ، وتصير كل إربة لقمة لها مذاق الملبن فى فم الغرب .

ما أريد أن أخلص إليه هو :

نحن المفكرين الذين نفكر مثل مفكرى أوروبا تماما ، ونتيم بنفس سماتهم ، نختلف عنهم ، **فهم قد دققوا فى أخذ حقائق عصرهم وتاريخهم ومجتمعهم**

واحتياجاته ، واتسموا على هذا الأساس ، وتحركوا وعملوا على هذا الأساس . أما نحن فدون سند من العصر ، ودون سند من مجتمعاتنا ، ودون سند من ثقافتنا ، ودون معرفة بالظروف الاجتماعية والعصر التاريخى وأوضاع شعوبنا وأحوالهم ، أخذنا خصيصة واحدة من خصائصهم ، واحدة فحسب ، وعملنا بها ، فأدت إلى نتيجة عكسية فى كل مكان ، وذلك لأن القضايا الاجتماعية والقضايا العينية محلية ، ليست كلية .

جغرافية الكلام :

هناك كلام يصح فى مكان ما ، لكنه يكون باطلا فى مكان آخر ، وهناك عامل ما ومدرسة فكرية ما أثمرا فى مكان ما حرية ووحدة ، لكنهما فى مكان آخر يطرحان من أجل القضاء على الحرية ومن أجل الإفناء ، والمفكر ــ لا المتعلم ولا حامل الشهادة ــ هو الذى يفكر مثل المتعلمين فى أوروبا ــ وهم أيضا من المفكرين ــ استنادا على أسس وظروف عينية ، ويفعل ذلك ــ كما فعلت طبقة المفكرين فى أوروبا ــ فى ضوء ظروفه الاجتماعية ، وظروفه الدينية ، وظروف طبقاته وطوائفه ، وظروف وضعه الاجتماعى وثقافته وتاريخه . وعلى هذا الأساس يتشكل ويختار سماته ، ثم يبدأ طريقه وعمله ، ويعلم أن هناك فى القضايا الاجتماعية عاملا آخر غير صحة القضية وبطلانها ، ذلك العامل هو « جغرافية القضية » ، وحينما نسمع رأيا ما فى قضية اجتماعية صحيحة كانت أو باطلة ، علينا أن نرى فى أية بيئة تطرح هذه القضية ، فلا توجد قضية أبداً غير مرتبطة بكل أبعاد المجتمع الذى طرحت فيه وبنيته .

لكن : منذ متى ظهرت طبقة المفكرين الشرقيين والإسلاميين والإيرانيين وهى نسخة طبق الأصل من طبقة المفكرين الأوربيين ؟ وكيف ظهرت ؟ وبأى طريقة جهز هذا المفكر فى الدول الإسلامية على أيدى الأوربيين ؟ إن إعداد المفكر الإسلامى وصنعه وتجهيزه يتم بأسلوب تحدث عنه جان بول سارتر ، وسوف أشير إليه فيما بعد .

تقديس العلم عند المفكر :

فى الجلسة السابقة أشرت إلى أن المعنى الرائج المتداول للمفكر فى لغتنا خطأ ، فإننى أقصد بالمفكر أو طبقة المفكرين تلك الطبقة التى تقوم بالفكر « كعمل » ،

وأدوات عملها الاجتماعى هى عقولها ومعلوماتها وتخصصاتها فى مقابل الطبقة التى تقوم بعمل يدوى أو بدنى . أقصد الطبقة بالمعنى الأخص أى طبقة أهل الفكر التى اتخذت شكلهاالطبقى منذ القرن السابع عشر ، ولاتزال تسيطر على عالم الفكر وروح العصر . ومن سماته اللادينية ومعارضة اعتناق الآراء القديمة ، ثم معاداة التقليدية والسلفية والجنوح إلى القديم والكلاسيكية أوما يعبر عنه كله بمصطلح الرجعية . ومن سماتها أيضا معاداة الأرستقراطية وسيادة العائلية والتميز الطبقى ، والجنوح عموما إلى الجماهير . وإلى جوار ذلك فإن هؤلاء ــ خلافا لمن كان قبلهم من العلماء الذين كانوا يستندون على الدين ــ استنوا سنة الاستناد على العلم ، أى أنهم أحلوا العلموية أى أصالة العلم بمعناه الخاص لا بالمعنى العام حين نطلقه على أية معرفة محل الاسكولاسية . ونحن نسمى أية معرفه عىما ، سواء كانت هذه المعرفة تتعلق بعلوم دينية أو علوم فلسفية أوما وراء طبيعية ، سواء كانت علوما ، تتعلق بالطبيعة والكيمياء أى علوما دقيقة ، أو علوما فنية ، أما المقصود بالعلم هنا فهو العلوم الدقيقة المبنية على منطق علمى ، والقائمة على التحليل والمشاهدة والمقارنة والاستقراء والاستنتاج العينى المبنى على الحقائق المادية الملموسة . ومن هنا فإن العلموية تعنى المدرسة الفكرية التى تعتقد أن كل ما يقوله العلم ــ أى العلم الذى يتأتى فحسب عن الطريق المذكور ــ هو الصحيح والحقيقى ، وكل معرفة تتأتى عن غير طريق العلم ليست من العلوم البحتة الدقيقة وغير جديرة بالثقة . ومن ثم فحين نقول العلم أى المعرفة فإنما نعنى المعرفة الخاصة التى تتأتى عن طريق خاص والمعرفة التى تعتمد على عالم المادة والمحسوسات كما وضحت .

والعلم فى هذا العالم هو علم المادة المحسوس ، سواء تناول الطبيعة « علم الفيزياء » أو الحيوان والنبات « علم وظائف الأعضاء وعلم الأحياء » أو النفس وظواهرها التى يمكن تحليلها وإجراء التجارب عليها « علم النفس وعلم التحليل النفسى ــ لا علم النفس القديم الذى كان يتناول الروح وعدم تجردها أو بقاءها وزوالها » . ومن هنا فإن مجال هذا العلم مجال مادى وعينى ، والمعلومات التى تتأتى عن طريقه معلومات تعد من العلم . أما العلوم التى تتأتى عن طريق الأحاسيس مثل العلوم الفنية والعلوم الأدبية ، وما يتأتى عن طريق الإشراق والإلهام مثل الدين والعلوم العرفانية « الصوفية » والإلهامية والاشراقية فهى ليست من العلم فى شىء ، لأنها لا يمكن أن تخضع للتحليل الدقيق والادراك الحسى والمشاهدة العينية ، ولأنها غير قابلة

للتحليل الدقيق المعملى . وفى نظر العلم لا يمكن الاطمئنان إليها والاعتماد عليها . ومن ثم تعنى العلموية تقديس العلم بمعناه الخاص ، فما يتأتى عن طريقه جدير بالثقة ، وما لا يأتى عن طريقه مردود أو على الأقل معرض للشك . فقضايا ما وراء الطبيعة والدين والغيبيات والقضايا الأخلاقية والإنسانية لا يمكن قبول شىء منها ، اللهم إلا ذلك القدر الذى يمكن تحليله عن طريق العلم ووضعه موضع الفحص العلمى والمنطقى والعقلى والمشاهدة والتجربة والاستدلال والاستقراء .

وعبارة كلودبرنار التى قالها فى هذا الشأن مثال شديد الوضوح على تقديس العلم ، يقول : « إذا لم أر الروح تحت مبضع الجراح فلن أومن بوجودها » ، أى أن كل الأدلة التى سيقت لإثبات وجود الروح لا تحظى بالقبول ، ومادمنا لا نستطيع أن نفحص الروح ونتقصى جوانبها عن طريق المشاهدة فلن نؤمن بوجودها ، ونستطيع أن نؤمن بوجودها يوم أن يمكن عن طريق المعمل أو الفحص والتجريب — كما يفعل عالم فى الطبيعة والكيمياء أو متخصص فى علم الأحياء يعمل فى جسم أو قوام — العمل أيضا فى الروح وإثباتها ، هذه هى العلموية .

الهجوم والدفاع وعصر النهضة :

لماذا اعتمد المفكر فى القرون : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر على العلم كل هذا الاعتماد ؟ هذا أيضا رد فعل منطقى . إنه إفراط لكن رد الفعل المنطقى للتفريط هو الإفراط ، والعكس صحيح أيضا . هذه هى نفس الحال فى الطبيعة ، ونفس الحال فى أنفسنا ، وفى التيارات الاجتماعية والعقائدية ، وفى القضايا الفكرية والدينية فى المجتمع ، فيها جميعا يوجد رد الفعل هذا أو ما يسميه توينبى بالهجوم والدفاع ، ويفسر توينبى كل القضايا الاجتماعية على أساس مبدأ الهجوم والدفاع أو الأفعال وردود الأفعال ، أى أن البشر دائما ما هم فى حالة إفراط أو فى حالة تفريط ، دائما ما هم فى حالة اندفاع أو ردود أفعال بالنسبة لفكر ما أو عمل ما ، دائما ما يجنحون إلى اليمين أو إلى اليسار ، يجنحون إلى الماديات . ثم يظهر رد الفعل فجأة فيفرطون فى الروحانيات ، ويبالغون فيها ويفرطون بحيث تتوقف عجلة حياتهم المادية تماما . ثم يحدث رد الفعل المادى فيتجهون من الروحانيات إلى الماديات ويغرقون فيها ويرون أن الحياة محض مادة حتى يحدث رد الفعل الروحى . قلت فى إحدى محاضراتى إن كل المذاهب فى التاريخ تخضع أساسا للأفعال وردود الأفعال ، وعندنا

على سبيل المثال المجتمع الصينى ، وقد رأينا كيف رسخت فيه فى الماضى قيم الأرستقراطية والمادية والفخامة والترف وعبادة الجمال وتقديس المادة ، بحيث تحول إلى مجتمع أرستقراطى يعبد اللذة . وفجأة تظهر حركة « التاوية » على يد « لاوتسو » وتدعو الناس إلى نبذ المجتمع ، وكراهية اللذة ، وكراهية المادة واحتقار الحياة الاجتماعية ، ونبذ الطبيعة ، والتقوقع وازدراء المجتمع . وهذا كله تفريط فى مقابل ما كان موجودا من إفراط . ثم تسير الأفكار الصينية قدما فى هذا المضمار بحيث يظهر كونفشيوس فجأة ويقوم مرة ثانية بتذويب كل القضايا الاجتماعية والإنسانية فى النظام الاجتماعى ، ويطرح كل الفكر والفلسفة والروح البشرية والدين وكل شىء فى إطار النظام الاجتماعى ، أى فى إطار نظام مجتمع الحياة المادية الجماعى ، أى أنه دعا العالم كله إلى احترام ما كان « لاوتسو » يدعوه إلى نبذه .

وفى أوربا حدثت نفس هذه الظروف . كانت البشرية فى روما القديمة غارقة فى تقديس القوة والوحشية والرغبة فى الانتقام والتلذذ بقتل البشر . وكان من وجوه الترويح عن النفس فى روما القديمة المتحضرة ، إطلاق الحيوانات المفترسة على مصارعيهم ، ولكى يحافظ الأسير المسكين على حياته كان يقوم بمصارعة أسد مفترس أو ببر أو نمر . كان المشاهدون يتمتعون بمنظر إنسان يصارع حيوانا مفترسا وحشيا وهو فى غاية اليأس . كان كل أهل روما المتحضرة يشتركون فى مشاهدة ميادين المصارعين هذه وليس الأشراف وعلية القوم والأثرياء فحسب ، بل إن كبار الحكماء والفلاسفة والفنانين كانوا من مرتادى هذه الميادين ومشاهدى هذه المناظر . كان هذا نوعا من الترويح عن النفس السائد فى روما القديمة . وفى ذلك العصر ، حينما كان قيصر روما يسيطر على العالم على أساس فكرة السيطرة العالمية واستنادا على قوة جيشه وقوة السيف ، وكانت فلسفة الحياة فى روما هى عبادة اللذة وتقديس المادة ، وفى مثل هذه الظروف يرتفع صوت عيسى فجأة مناديا « بالمحبة والبساطة ، والتسامح كل مع الآخر على أى شكل ، والعفو عن الظلمة مهما كان تعديهم على الحقوق » وهذا نوع من الافراط . لكن من أجل تبديل إنسان مفترس غارق فى البحث عن اللذة يستلهم حياته من الدم والسيف فحسب ، كان ينبغى من أجل ترويض هذا الإنسان وإصلاحه أن يحقن بمادة شديدة التأثير وبترياق مضاد للجريمة وقتل البشر ، وتمثل ذلك فى سلام عيسى ومحبته وعشقه المبالغ فيه والذى هو من طرف واحد . وبعد ذلك يميل نفس هذا الرومانى الذى كان يعتمد على السيف

والقوة العالمية واللذة ، يميل هو نفسه إلى الزهد والتقوى ، ويفرط فيهما ، وفى كراهية المادة بحيث يصبح المجتمع الرومانى فى القرون الوسطى مجتمع رهبان ونزلاء أديرة وزهاد . ومرة ثانية تسيطر قضايا الروح والزهد والتقوى الصورية ، وتغرق الروح الإنسانية فى هذه القضايا بحيث تهتز الحياة المادية فى أوروبا وتصبح أوروبا العصور الوسطى ألعوبة فى أيدى الاتراك والعثمانيين والبربر ، فلا تقوم بأدنى مقاومة ولا تبدر منها هزة ، ولاتبدو فيها حركة مادية أو حياة اجتماعية ، بل تصبح مخدرة . هذه الحالة من الغيبوبة الناتجة عن الإفراط فى تقديس الزهد تخلق دفعة واحدة حركة النهضة ، وحركة المفكرين ، نفس أهل الفكر الذين هم مجال حديثنا . ومن الطبيعى والمنطقى والتلقائى ، ومن المفهوم بالمقياس الاجتماعى أن تنحو هذه الطبقة منحى يخالف منحى المجتمع ، وذلك لمواجهة مجتمع القرون الوسطى المخدر الغارق فى الزهد والتقوى وكراهية الدنيا والاشمئزاز من لذات الحياة ، وكل ذلك كان يجرى باسم الدين وفى ظله . وبهدف إيقاظ الناس من هذه الغيبوبة ، وتخليصهم من هذا الركود والتوقف والبعد عن الحياة المادية ونبذ واقع الحياة ، أخذت طبقة أهل الفكر تلقائيا تدعو سكان أوروبا إلى الحياة المادية وأصالة الحياة العينية الموجودة بالفعل ، وتحثهم على التفكير فى الحياة . لماذا ؟ لأن جهاز البابا والمذهب الكاثوليكى كانا يدعوان كل الناس فى أوروبا إلى قصر التفكير على الحياة بعد الموت وأن هذه الحياة الدنيا ليست تافهة فحسب بل ومضرة أيضا ، وأن كل لذة ، وكل ابتسامة ترف على الشفة تغضب الله . حينما تكون مثل هذه الدعوة موجودة فى أوروبا ثم تظهر طبقة من المفكرين ، فلابد أن تتكتل تلقائيا فى جبهة ضد هذه الدعوة ، ومن ثم كانت مبادىء هذه الجبهة تنحصر فى أن علينا أن نقيم مبادئنا على حياتنا الدنيا الموجودة بالفعل ، وينبغى أن نعرف الطبيعة التى نحيا فى أكنافها ونقدسها ، وينبغى أن نجعل أسس حيواتنا على ماهو موجود فى أيدينا بالفعل ، وما نراه أمامنا ، وأن هذا يحقق إشباع الغرائز الموجودة فى أبداننا ، والتمتع بالعطايا المادية التى وضعت لنا على مائدة الطبيعة ، كما يحقق السيطرة على الطبيعة واستخدام قواها ومعرفتها ، وإرساء أسس الحياة المادية على المادة والقوى والنعم الموجودة فيها .

الخصائص المنطقية لمفكرى القرون : السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر :

رأينا المفكر الذى عاش فى القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر يتحول إلى مقدس للمادة ، عابد للدنيا ذى ميول مادية واقتصادية تتصل بالحياة

الدنيا ، معارض للأفكار الفلسفية والغيبية التى تهتم بالآخرة . ورأيناه يرى أن التفكير المتعلق بما وراء الطبيعة وما بعد الموت وما بعد هذه الدنيا أمور لا تقبل التفسير . ومن هنا فالحاضر والمسلم به والعينى هو بالفعل وجودنا فوق الأرض ، هو هذه السنوات الخمسون أو الستون التى نعيشها فوق الأرض ، هو ما يدعونا القسيسون إلى نبذه .

ومن ثم فإن هذه السمات التى يتسم بها أهل الفكر سمات نابعة من رد فعل واقعى ومنطقى فى مواجهة السمات التى كان المجتمع يتسم بها ، وحينما يحدد علماء الكنيسة الكاثوليكية كل نوع من الفكر بما يتعلق بالآخرة والغيبيات ، ويعتبرون كل نوع من الفكر ، الذى يتناول قضايا الحياة فى هذا العالم ، كفرا ويدينونه ، فلاشك فى أن المفكر يصبح تلقائيا نوعا من رد الفعل لهذا الواقع القائم ويجيب بأن : علينا أن نفكر فى أمور تتعلق بهذا العالم . وحينما يقول علماء القرون الوسطى باسم الدين : إن التفكير فى الطبيعيات كفر وإسفاف يجعلهم غافلين عن نور الله وحقيقته ، ويرى المفكر أن هذه الدعوة تسببت فى أن أصبحت أوروبا لا تعرف الطبيعة وكل الموارد الكامنة فيها لسعادة الإنسان ومتعه ، وأنها نتيجة لذلك تسقط فريسة للشقاء والانحطاط والتأخر ، ومن هنا يدعو إلى ما يخالف هذه العقيدة تماما وتلقائيا ، ويرى أنه لا ينبغى التفكير فى أمور فوق قدرة عقولنا ، بل علينا أن نفكر فى الطبيعة وأن نتعرف عليها فهذا هو ما يهم حياتنا .

نرى إذن أن مادية المفكر الأوروبى ، لم تكن مادية مفكر فيلسوف يضع الدنيا والأرض والسماء والمدارس الفكرية المختلفة قيد بحثه ثم يميل إلى المادية ، بل على العكس من ذلك ، نجدها رد فعل طبيعيا للأوضاع الاجتماعية التى كانت سائدة فى القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، أى أن مادية طبقة أهل الفكر فى أوروبا تعد رد فعل طبيعيا جدا ومنطقيا للإفراط فى الروحانية والميل إلى الآخرة اللذين كانا سائدين فى مجتمعه فى العصور الوسطى ، وأن تقديس طبقة أهل الفكر للعلم رد فعل لعداء رجال الدين فى العصور الوسطى له . إذ كانوا يرون العلم نوعا من الخيال والوهم ويقاومون كل نوع من الاختراعات والكشوف والاستنتاجات العلمية والعقلية . ويحصرون العلم فى سجن العقائد الثابتة المتحجرة التى يدافعون عنها باسم الدين . فيأتى المفكر ويدافع فى مواجهة هذه الطبقة عن العلم . ويجعل

منه منطلقا له ولكن أى نوع من العلم ؟ بالطبع هو العلم الذى سجنه علماء العصور الوسطى وحصروه ، هو العلم الذى كان عرضة للاحتقار والازدراء من قبل مجتمع العصور الوسطى وعلى يد رجال الدين . فنتيجة طبيعية أن يلجأ إلى العلموية . لماذا ؟ لأن العلموية مدرسة فكرية تجعل الإنسان الأوربى من طبقة المشتغلين بالفكر عارفا بالطبيعة وعارفا بالإنسان كمادة . ولأنها تفسر غرائز الإنسان ، فيستطيع أن ينضج جيدا ، وأن يستفيد جيدا ، وأن يفهم الروابط التى تربطه بالطبيعة وقوانين الطبيعة جيدا ، فيعرفها ثم يستخدمها ، ويسخرها لخدمته وخدمة زراعته وصناعته وإنتاجه ووسائل نقله وانتقاله ووسائل اتصاله . كما يسخرها لخدمة فكره وروحه ورفع مستوى إنتاجه وتحقيق مبدأ « رفاهية أكثر وعمل أقل » ، وتحقيق أقصى المتعة بالحياة المادية . إن العلموية تهبه كل هذه العطايا ، كل العطايا التى كانت الكنيسة ومذهبها الكاثوليكى قد حرماه منها .

ومن هنا نرى أنه ينبغى علنا أن نعطى الحق للمفكر الأوربى فى أن يكون ماديا لمقاومة المحدودية الأوروبية وانحرافها فى التزهد ، ينبغى أن نعطى الحق للمفكر الأوروبى فى أن يكون علمويا ، لأنهم كانوا قد قضوا على العلم باسم المذهب والدين وأزروا به وحالوا دون تقدمه . ينبغى أن ندرك أن المفكر الأوروبى اعتنق العلموية لتخليص أوروبا ، ولمنح شعبه القوة ، ولرفع مستوى الحياة عند مواطنيه ، لأن العلموية تهبه الصناعة والقوة والتقدم والنفع .

العلموية المنحرفة :

فى نفس الوقت نرى أن المادية والعلموية هاتين ، وأن معاداة الدين ، وحصر الحياة البشرية فى إطار النفع الاقتصادى ، وذلك المبدأ أو تلك الخصيصة التى تجعلنا نضع العلم فى خدمة الحياة المادية ، أى الإنتاج والاستهلاك فحسب ، نرى أن كل هذه السمات والخصائص خطأ وانحراف ونشجبها جميعا . ولقد قمت شخصيا ــ وقبل أن يقوم الجميع ــ بالهجوم على العلموية قبل أى موضوع آخر وهاجمت محدودية الفكر الأوروبى فى إطار الإنتاج والاستهلاك والأطر المادية . ولم أعتبر أن هذا النوع من العلم علم حر ، وسميته « الاسكولاسية الجديدة » ، وقلت إن العلم صار أسير كهنوت القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين ، أى الصناعة والرأسمالية ، كما كان سابقا أسيرا فى خدمة الكنيسة والكهنوت الكاثوليكى . هاجمت

هذا المبدأ ومازلت أفعل . كل هذه الأمور نعتبرها انحرافا ، ونعترض عليها ، لكننا نعطيهم الحق فيما يفعلون ، فمنشأه عصرهم ، وهو طبيعى عندهم .

المفكر الأصيل والمفكر المقلد :

هذه السمات التى نراها لطبقة المفكرين ، تنبع — كما قلنا — من ظروف واقعية ، ونحن نرى وبشهادة التاريخ كم كانت هذه الخصائص نافعة بالنسبة لأوربا فى القرون الثلاثة الأخيرة ، لم تكن فى صالح العالم ، ولم تكن فى صالحنا ، لكنها فى صالحهم هم . وبعد ألف سنة من الإنحطاط كانوا فيها عالة يجترون ما لدينا ، بلغوا اليوم السيادة المعنوية والفكرية والفلسفية والفنية والصناعية والاقتصادية بل والنقدية المالية والعسكرية على الدنيا . ويتضح لنا إذن أن هذه الخصائص التى جعلها مفكر القرن السابع عشر وحتى القرن التاسع عشر شعارا لطبقته ، ومبادىء حركة بدأها للقضاء على خصائص العصور الوسطى التى كان يعتبرها مسببات الانحطاط فى مجتمعه ، كانت خصائص ومبادىء ينبغى لها — بمقاييس علم الاجتماع — أن تقوم ، وقد قامت ، ولها تحليلها المنطقى الذى يمكن تبريره ، وكان لها أن تكون فكانت .

أما فى الشرق ، فى آسيا وأفريقيا فلدينا جيل منذ القرن التاسع عشر يشبه تماما مفكرى الغرب الذين كونوا طبقة منذ القرن السابع عشر ، تسيطر اليوم على كل مناحى العالم الفكرية والفلسفية والعقائدية وكل ما يتعلق بوجهات النظر فيه . فى آسيا وأفريقيا عموما وفى المجتمعات الإسلامية خصوصا ظهرت طائفة من بين أنفسنا تطابق تماما – وحذو النعل بالنعل – أصلها الأوروبى ، نسخة هى مصورة طبق الأصل من طبقة المفكرين الأوروبيين التى نتحدث عنها ، أى أن هذه الطائفة التى تسمى طائفة أهل الفكر والتى ظهرت فى المجتمع الإسلامى والمجتمعات الشرقية ، تحمل ملامح النسخة الأصلية التى نقلت عنها أى طبقة أهل الفكر فى أوربا . ما الفرق بينهما إذن ؟ الفرق فرق يتعلق بعلم الاجتماع وهو جد دقيق وهو أن طبقة أهل الفكر فى أوربا — كما قلت توا وفسرت — اختارت هذه الخصائص على أساس ملامح مجتمعها وتاريخها وأحوال المجتمع الذى كانت تعيش فيه ، وقد ظهرت هذه السمات بشكل طبيعى فى مجتمعها ، فكيف أخذ مفكرنا إذن هذه الخصائص ؟ تماما على عكس أساس مجال تقليده ومقتداه ونسخته الأصلية ، أى أن المفكر الأوربى

أخذ هذه الخصائص من مجتمعه مباشرة وكردود أفعال ، ومن أجل تغيير مجتمعه وترشيده ، وكان مجتمعه فى حاجة إلى كل هذه الخصائص والسمات من أجل خلاصه ولرقيه وتقدمه وتحرره . لكن المفكر الشرقى والإسلامى أخذ هذه الخصائص من المفكر الأوربى عن طريق الاحتكاك والترجمة والتقليد ، بالرغم من بعد الشقة ، وكونه غريبا عن الظروف الاجتماعية التى كان يحيا فيها المفكر الغربى ، وبعدها عن عصره وتاريخه ، وغربتها تماما عن ثقافته ومعنوياته وسمات بيئته الاجتماعية ، ومن ثم فهما أمران مختلفان تماما لا شبه بينهما ، وفى نفس الوقت يشبه كل منهما الآخر تماما . إن ظهور طبقة أهل الفكر فى المجتمع الأوربى بتلك الخصائص التى ذكرتها ، يشبه تماما أثمار أشجار غرست فى أرض ذات طقس خاص ، وتعهدت بالرعاية ، وبذل الجهد ، وقدمت فى سبيلها التضحيات ، وقوومت عنها الآفات ، وقامت عليها الدراسات ، فنمت الشجرة ، ومهدت الأرض ، وساعد الجو نتيجة لهذه الجهود والآلام والمشاق والأفكار والتضحيات ــ وعلى أساس هذا التناسب بين الأرض والجو نمت هذه الثمار ونضجت ، لكننا نرى نفس هذه الثمار فى الشرق ، ترى كيف حالها ؟ على العكس تماما إنها تشبه فعل بستانى فى أرض تربتها غير مساعدة ، ولم تحرث ولم تسمد . كما أنها ذات طقس مختلف ، ودون أن يقوم هذا البستانى بأقل عمل من أجل إعداد هذه الأرض للزراعة ، وبدون أن يدرس الطقس ، ويدرس احتياجاته إلى ثمار خاصة . إنه فقط شاهد حديقة جاره ، ورآها تحتوى على ثمار غضة ولذيذة وجميلة ، فدفع نقودا واستحضر أشجارا مثمرة وزرعها فى أرض غير صالحة وفى طقس غير مناسب بل ومختلف ، وبعد يوم أو اثنين أو أسبوع رأى أنه قد صار أيضاً من أصحاب الحدائق . إن حديقته تشبه حديقة جاره تماما ، فيها نفس الأشجار ونفس الثمار ، ولكن هذا التوفيق كاذب . هذا هو التوفيق الذى ينخدع به أولئك الذين يستخدمون أعينهم فى الفهم لا عقولهم . لأن الحديقة لا توجد بهذه الطريقة . لأن الحديقة التى توجد بهذه الطريقة فى ظرف يومين أو ثلاثة ليست حديقة . هذا تضييع للوقت ، وصرف لأفهام الناس ومشاعرهم وحرمان لهم أيضاً من أن تكون لهم حديقة . ليس هذا بالمرة انتفاعا بحديقة . إن الحضارة والثقافة بضاعة لا تصدر ولا تستورد . ليست الحضارة والثقافة هى الراديو والتليفزيون والثلاجة ، تنقل من هناك إلى هنا ثم توصل بالكهرباء فتعمل . الحضارة والثقافة توجدان بإعداد الأرض ، والعمل فيها ، وبصبر ودراسة ووعى ومعرفة ، بتغير الإنسان وتغيير الفكر

مع معرفة أرضية المكان الذى نعيش فيه وجوه ، باختيار البذور واختيار أنواع الثمار وتعهدها بالرعاية ، ومعرفة أنواع الثمار وتناسبها مع احتياجاتنا ومع الفائدة التى نريدها منها . إن الحضارة التى تصدر وتستورد عبارة عن : تكرار مستمر لخدعة تستلفت الأنظار ، لكنها خادعة وكاذبة ولا تصل إلى نتيجة أبدا . هذا مع وجود ما يبدو أنه قطع مائة سنة فى ليلة واحدة ، وأولئك الذين يتصورون أنه يمكن فى الحضارة والثقافة قطع طريق مائة سنة فى ليلة واحدة ، إما أنهم لا يفهمون ، وإما أنهم يريدون ألا يفهم الآخرون .

ذلك البستانى الذى لا يعرف الأرض أو النبات أو الثمار ولا يعرف نوع الثمار التى يحتاج إليها الناس الذين يعيشون حول الحديقة ، ولا يفهم نوع الأشجار أو تطعيمها أو استنباتها ، ولا يعلم المواد التى تتكون منها التربة ، ولا يعرف احتياج النبات إلى مواد كيميائية خاصة ولا يعرف اقتضاء طقس هذه البيئة استنبات نوع خاص من الثمار ، ولا يعرف الثمار التى كانت تزرع فى هذا المكان سابقا ، ثم صور له خياله أنه يكتشف طريقا مباشرا ، بأن يذهب مباشرة إلى حديقة جاره ويشترى أشجارا مثمرة ويأتى فيغرسها فى أرضه ، ثم يرى أن هذه الأرض البور قد صارت شبه حديقة ، ثم : من ياترى يستفيد من هذه الخدعة الكبرى ؟ هل هم أولئك الذين صاروا شكليا من ذوى الحدائق ؟ أبدا ، إن المستفيد هوالذى يبيع أشجاره المثمرة لهؤلاء الناس ، لماذا ؟ لأن أولئك الناس يشترون أشجارا مثمرة ثم يغرسونها فى الأرض وبعد يوم أو يومين تجف هذه الأشجار ، فإذا قلنا لهم : لقد جفت ، قالوا : حسنا نشترى ثانية ، ويشترون ثانية ، فتجف ، فيشترون للمرة الثالثة فتجف ، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية ، وبعد ذلك إلامَ تصير هذه الحديقة ؟ تصير بالطبع جبانة من الحطب . وإلامَ يصير بائع الأشجار ؟ يصير تلا من الذهب والأموال أخلاه ذلك المخدوع أو ذلك المحتال الذى قام بالسمسرة فى جيبه .

إن تصدير الإنتاج فى الثقافة والحضارة ، أى شراء الحضارة ، أى تصدير مظاهر الحضارة المتقدمة واستيرادها ، هو صفقة دائما وتكرار لا يعود على المشترى منها إلا أكاذيب متكررة خداعة وكأنه طفل مخدوع ، فيفلس ويكرر هذه اللعبة إلى مالا نهاية . إنه بهذا الشكل لا يقرب الأرض التى يجعلها حديقة ثم تبور من أن تكون حديقة . ليس هذا فحسب ، بل يبعدها من أن تكون كذلك أيضا ، ومن

هنا أيضاً ، فإن المجتمعات التى تستورد الحضارة من الخارج ثم تقوم بتجميعها وتركيبها دون جذور ودون استعداد ودون تغيير للتفكير والفكر ، وبدون إرساء هذه الحضارة على أسس وقواعد ثابتة من أعماق ترابها الثقافى والتاريخى والقومى ، لا تصير ذات حضارة ، ليس هذا فحسب ، لكنها تفرط فى فرصة أن تكون يوما ما ذات حضارة .

الحضارات الأصيلة والحضارات المقلدة :

هذه القضية ، قضية المفكر الأصيل والمفكر المقلد ، ليست قضية الشرق والغرب فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر والقرن والعشرين فحسب ، فإن التاريخ يعيد نفسه فالتاريخ ملىء بالحدائق الكاذبة والحدائق الأصلية ، بالحضارات الأصيلة والحضارات المقلدة التى تعتمد على الاستيراد . ولنعد إلى تاريخنا ، كان لدينا حضارتان : إحداهما الحضارة الرومانية أو البيزنطية وهى حضارة غربية ومركزها تركيا الحالية وجزء من اليونان ، وكانت بيزنطة هذه أو الامبراطورية الرومانية الشرقية ، مركز الحضارة المسيحية الغربية ووريثة الحضارة الرومانية واليونانية السابقة عليها . أما الحضارة الأخرى فهى حضارتنا ، حضارة إيران القديمة قبل الإسلام والمعروفة بالحضارة الأكمينية والأشكانية والساسانية ، وهى حضارة وطنية نابعة من نفس هذه البيئة ، وهى ملك لنا وتخصنا . ومن هنا — فنحن الإيرانيين — كنا قبل الإسلام أصحاب حضارة ، وكنا صناع حضارة وصناع ثقافة ، وكان الرومان سواء فى الامبراطورية الرومانية الشرقية وسواء فى الامبراطورية الغربية أصحاب تاريخ وحضارة وثقافة متقدمة وأصيلة وحقيقية ، وكانوا أناسا متحضرين . وإلى جوارهما ـــ أى بين إيران وبيزنطة المتحضرتين ـــ وجد نوعان من المجتمعات نعرفها ، بالقرب من الحضارة الرومانية الشرقية وجد العرب الغساسنة فى الشام « فى تلك العصور كانت تركيا الحالية تسمى بالروم الشرقية وكانت سورية تسمى بالشام » . كان الغساسنة من العرب الذين يعيشون فى الشام ، ولما كانوا جيرانا للروم المتحضرين ، فقد كانوا يقلدون الحضارة الرومانية ، ويتخذون أشكال الحياة الرومانية المتحضرة . وبالقرب من الحضارة الإيرانية القديمة كان عرب الحيرة فى العراق « كانت تسمى فى تلك العصور بين النهرين ، وكانت هى الأخرى ذات حضارة قديمة ، لكن فى العصر السابق على الإسلام مباشرة أى عصر الساسانيين ، لم يكن

هناك أدنى أثر للحضارة القديمة التى كانت فيها أى الحضارة البابلية والسومرية » ، ولأن عرب الحيرة كانوا جيران إيران المتحضرة فى العهد الساسانى كما كانوا على صلة بهم ، كانوا بدورهم يقلدون أنماط الحياة الساسانية المتحضرة . ومن هنا نرى نمطين من الحياة بين العرب الذين كانوا يعيشون بين الحضارتين الشرقية ، أى الإيرانية ، والغربية ، أى الرومانية ، إحداهما : حياة أهل الحيرة الذين يعيشون كالإيرانيين ، والأخرى حياة الغساسنة الذين يعيشون كالرومان ، وكان ملك الغساسنة وأشرافه وأمراؤه وشيوخ قبائله يلبسون مثل امبراطور الرومان ويشربون مثله ويجلسون للاحتفالات مثله ، ويجمعون حولهم الشعراء مثله ينشدون المدائح ، كانوا مثله يعدون اللقاءات العامة ذات المراسم ، وكانوا يتحركون فى المجتمع مثله ، ويتوخون الفخامة والعظمة والتفنن فى الطعام مثله ، فهم فى ملابسهم ومراسم الحياة عندهم ، أشباه قيصر الروم . أما العرب من جيران إيران أى أهل الحيرة الذين كانوا يعيشون فيما بين النهرين ، فقد كان ملوكهم من المناذرة مثل النعمان بن المنذر والمنذر بن النعمان -- ونحن نعرفهما يقلدون تماما فى عهد بهرام كور وانوشيروان وأمثالهما ملوك الساسانيين تقليدا تاما . فملوك الساسانيين يشيدون القصور ، وأمير الحيرة هو الآخر يملك القصور . وكانت قصور أمير الحيرة وهى تقليد لقصور الملك الساسانى أكثر فخامة وأسطورية من قصور ملوك الساسانيين أنفسهم . وهذا أشبه بما نراه من أن المقلدين يبالغون عن الأصول التى أخذوا عنها . كانت إحدى زميلاتى اللائى تعلمن فى أمريكا تقول « أثناء عودتى من أمريكا ، رأيت النساء الأوربيات أكثر أناقة من الأمريكيات ، ثم أتيت إلى طهران فرأيت النساء الطهرانيات أكثر أناقة من النساء الأوربيات ، ثم ذهبت إلى محافظتى فرأيت الأقلية العصرية من نساء تلك المحافظة أكثر أناقة من الطهرانيات » وقلت لها : « لو كنت قد واصلت المسير وذهبت إلى المحافظات الأصغر بل إلى بعض القرى ، لرأيت أن أولاء اللائى أتين إلى طهران لعدة أيام واشتغلن خادمات أو طاهيات أكثر عصرية من الأمريكيات . هذه قاعدة عامة ، لماذا ؟ هو نوع من الصراع النفسى ، عندما يحس أحد بمركب نقص تجاه آخر ، فإن رد الفعل الطبيعى عنده أن يعوض هذا النقص بأن يقلده ، ويصل بنفسه إلى مستواه ، ومن هنا فلابد من أن يبالغ حتى لا يبقى فى نفسه أدنى هاجس بالتأخر . وبالإفراط فى هذا الأمر فحسب يستطيع أن يثق فى أنه بلغ مستواه ويطمئن إلى ذلك . ولا مفر من أن تقضى عقدة التأخر إلى الإفراط ، الافراط فى التقدمية وإظهار

التقدم . لو ذهبتم إلى أفريقيا فسوف ترون فى الجزائر وتنزانيا فى دار السلام وجنوب أفريقيا أفضل فنون العمارة وأفخم العمائر الحديثة التى لا ترونها فى أوربا ، أو ربما ترونها بين الحين والآخر هناك . وهذا القصر الذى بناه سوستيل فى شمال أفريقيا ، لم تستطع فرنسا حتى الآن بل وكل أوربا بناء مثله بالرغم من وجود مهندسين معماريين عظام لديها من أمثال كربوز ونظائره . والعمائر التى توجد الآن فى دول صغيرة مثل الكويت ، ترى فى أى مكان فى أوربا يمكن أن توجد ؟ أين يمكن أن تجد القيشانى المصنوع من الذهب ؟ . كنت أجلس فى المدرسة التى كنت أدرس فيها فى فرنسا وأراقب الطلاب الذين يدخلونها ، وكنت دون أن أرى سحناتهم أميزهم من ملابسهم الأنيقة المكوية المبالغ فى أناقتها والشديدة الدندشة ، وكنت أرى أنهم لابد من دول من الدرجة السادسة . والقصور التى دخلت التاريخ كأسطورة لم تكن للروم ولا للأشكانيين ولا للامبراطورية الغربية ولا للامبراطورية الشرقية ، كانت ملك من إذن ؟ كانت ملك أمراء الحيرة ، وهم من قبيلة عربية ، ولأن شيخها كان على علاقة بالبلاط الساسانى ، كان تابعا للساسانيين . كان يقلد الساسانيين والامبراطورية الساسانية نتيجة لهذه التبعية فحسب . وليست لقصور الساسانيين والرومان شهرة ما فى التاريخ ، لكن قصرى السدير والخورنق أسطورتان فى كل كتب التاريخ عندنا وفى كتب التاريخ فى أوربا . ومن الممكن أن يكون الحديث عنهما أكذوبة ، ولكن من المسلم به أنها كانت قصورا عجيبة غير عادية بالنسبة لمنازلنا بغرفها الأربع وممرها .. التى لم تحك حولها الأساطير . كل هذه الأساطير ، وكل هذه القصص والأساطير تدل على أن القصر الذى بناه العرب البدو المقلدون ، كان أفخم بمراحل من قصور الساسانيين الأصلية فى إيران .

يثرب : منبع حضارة فى حالة فوران :

حسنا جدا ، فقد كانت عندنا حضارة أصيلة حقيقية فى إيران والروم « كانت حضارة على كل حال ولا شأن بمحاسنها أو مثالبها » . وأمامنا أيضا حضارة مزيفة ومقلدة تقليدا تاما من النوع الشرقى فى الحيرة والنوع الغربى عند الغساسنة ، ثم أمامنا مجتمع بدوى لاحضارة فيه فى يثرب . وأين يثرب ؟ هى قرية تعيش فيها بضع أسر من اليهود حياة بدائية جدا ، وقبيلتان هما الأوس والخزرج تعيشان فى فقر وشحناء وشقاء ولا تزيد ثروة كل منهما على بضع نخلات ، فلا تجارة لديهم ولا زراعة ولا

صناعة ولا رأسمال . ونحن نعرف مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم اليوم حارة حارة ومنزلا منزلا أكثر من معرفتنا بطهران ومشهد ونظائرهما . كلها من ألفها إلى يائها واحدة بعد واحدة تحدثنا عن تطور المدينة من ناحية تخطيط المدن قرنا بعد قرن ، وكل من يعرف التاريخ عندما يدخل المدينة ، يعرف كل زاوية فيها وكل نقطة وكل حارة . كلها حفظها التاريخ وذات شهرة وشخصية . فى هذا المكان كان هناك عدد من المنازل كل واحد منها يخص إحدى القبائل أو العشائر ، وكان أكبر مبنى وأعظمه وأفخمه يخص كل يثرب ، وأعظم ما فيه أنه كان ذا سقف ومن هنا سمى بالسقيفة . مثل هذا المبنى هو نموذج الفن المعمارى والحضارة المتقدمة جدا لأهل يثرب ، بنى بأن كانت جذوع النخل تغرس فى الأرض وبين الواحدة والأخرى مسافة متر أو مترين ، ثم يسد ما بين هذه الأعمدة بسعف النخيل والجريد . ولم يكن أحد يعرف الكتابة . أما مكة فلأنها مركز تجارى فقد كان عدد من يعرفون الكتابة فيها ما بين سبعة أشخاص وأحد عشر شخصا . كانوا مثل كتاب العرائض أمام مكتب البريد ، وكان شعراؤهم لا يعرفون القراءة والكتابة ، وكان فى يثرب بضعة نفر من المشتغلين بتأبير النخل البدائيين . وكانوا بسطاء إلى درجة أنهم عندما كانوا يذهبون إلى خيبر كانوا يتصورون أنهم يواجهون حضارة متمدينة وحضرا . على كل حال كان هذا هو مجتمع المدينة بحضارته ومعماره وأحوال الحياة فيه . ولم يكن هناك وجود للعمالة ، كان هناك فقط بعض نساء اليهود يمتلكن بعض الماعز والنعاج يقمن بحلبها . وكانت الثروة فى المدينة ضئيلة بحيث إنه بعد مجىء الرسول إليها بأربع أو خمس سنوات ، أصبحت المدينة قوة مركزية فى البلاد ، هناك فى غزوة بدر الكبرى جواد واحد ، وفى أحد جوادان .

هذا هو الوضع الذى كان سائدا فى المدينة من النواحى المالية والفنية والمعمارية ، هذا هو إنتاجها ومستوى الحضارة والثقافة فيها . وإلى جوارها كانت الحيرة وفيها الخورنق والسدير وتلك الحياة الفخمة المنعمة الأرستقراطية . فعندما كنتم تدخلون الحيرة كنتم تتصورون أنكم دخلتم المدائن . وعندما كنتم تدخلون إمارة الغساسنة كنتم تتصورون أنكم دخلتم على متحضرى الروم . كانوا منعمين بأجمل الملابس وأفخم القصور ، وسحنات الرجال والنساء المزدانة من « الغساسنة » الذين يبدون كالروم » و « أهل الحيرة من المناذرة الذين يبدون كالإيرانيين » .

وبعد عشر سنوات أو خمس عشرة سنة من ذلك ، ترون فى المدينة التى كانت الحضارة فيها فى مستوى الصفر ، ترون حضارة تفور ، دون أن يستورد شىء من إيران أو من الروم . وترون إنسانا فى حالة جيشان وغليان . ترون نبوغا وقدرة روحية لشخصيات عظيمة ووجوه عظيمة وأرواح قوية وشخصيات كانت منبع إلهام لشخصيات عظيمة فى التاريخ ، كلها فى حالة جيشان وغليان وفوران . ومن أين ؟ من داخل أجساد بدوية عارية يتجلى رجال عظام حفاة الأقدام بملابس مهلهلة كلهم لايزيدون شيئا فى سحناتهم الظاهرة على بدو الصحراء . وبعد عشر سنوات أو خمس عشرة سنة أخرى يخرج بين هؤلاء ، حتى من بين أشرارهم « ولا شأن لنا بخيارهم » ، من بين هؤلاء البدو الذين لم يكن فى استطاعتهم رعى جملين ، يخرج من بينهم رجال يستطيعون إدارة إيران الساسانية العظيمة أو مصر العظيمة ، نفس مصر التى ادعى فيها فرعون الألوهية لأنه كان يحكمها ، ونفس إيران التى ادعى ملوك الساسانيين والأشكانيين والأكمينيين فيها أنهم أقرباء الله ؛ لأنهم كانوا يحكمون امبراطوريتها الواسعة . ويستولى واحد من نفس هؤلاء الرجال على الروم ، ويستولى آخر على اسبانيا والبحر المتوسط ، ويعبر أحدهم جبل طارق ، ويذهب آخر إلى أفريقيا . كلهم دفعة واحدة ، كماء يفور ويطف من ناحية ما . ثم يجتاح كل هذه العمائر والقلاع والقصور والقوى والحضارات ، ويذيبها ، ويغرقها ، أو مثل سيل عرم يبتلع صورة المنطقة وجزءاً كبيرا من الأرض وسحنة ثلاث قارات . وهو يفور من هذه المدينة الجافة البدوية البدائية التى لا صادرات منها ولا واردات إليها ، ما هذا الذى يفور ؟ ترى ماذا حدث ؟ أهو ياترى تقليد ؟ هل أسسوا فرعا من جامعة جنديسابور فى المدينة ، هل جلبوا عددا من الأساتذة من إيران للتدريس فيها ، ثم ظهر أبو ذر الغفارى من بين خريجيها ؟ هل جلبوا من الروم عددا من المهندسين والخبراء والمتخصصين والفلاسفة ؟ هل ترجموا كتب الإيرانيين والروم ؟ هل جاء فنانو الشرق والغرب لعرض إنتاجهم فى هذا المكان ؟ هل ترجمت آداب الروم والساسانيين هناك ؟ هل تغيرت الملابس ؟ هل تغير نمط الأزياء ؟ ماذا حدث حتى أخذ البدو يفورون ويمورون ويغلون دون علم أو تربية أو مدرسة أو كلية ، دون أن يخضعوا لبرنامج تعليم وتربية ، من غير الحصول على كتاب واحد أو متن واحد مترجم أو خريج أو عائد من الروم أو من إيران ؟

ماذا حدث حتى يقوم هؤلاء فيما بعد بتغيير الثقافات والقضاء على المذاهب دون أن يقوموا باقتباس شيء ما ؟ أنظروا إلى إيران ، عندما قامت تلك الحروب كان فيها أعظم المدنيات ولديها أعظم مذاهب الدنيا . وكان دين زرادشت من أعظم الأديان الشرقية وأقواها وأكثرها رقيا (هذا إذا استثنينا الأديان السامية) ، كان هذا هو دين إيران . ثم يأتى من بعده دين فلسفى غاية فى العمق هو مذهب مانى ، ولأن دماءه جديدة يجذب الفلاسفة والمفكرين إليه . ثم يأتى من بعده مذهب مزدك ، يجذب إليه جماهير الناس المظلومين المتعطشين إلى العدالة ، ويدور سواد الناس بفكرهم حوله ، ويستشهدون من أجل هذا الدين الجديد ويسلمون الروح .

وفى الغرب كانتِ المسيحية الوليدة تتقدم سريعا بحيث تسقط المدائن عاصمة الساسانيين فى أيدى المسيحيين وتصبح المركز الرئيسى فى العالم للمسيحية النسطورية . وفى الشمال والشمال الشرقى كانت الديانة البوذية تحكم إرساء نفوذها بحيث تصبح (بلخ) مركزا للديانة البوذية ويصير معبد النوبهار فيها كعبة البوذية . نجد ثقافة بلغت هذه الدرجة من العظمة وحضارة عالمية بلغت هذه الدرجة من الازدهار . وامبراطورية هذا دينها بلغت فى الحضارة أوج عظمتها وتاريخها ، وتعد من الناحية الدينية والروحية مسرحا للحرب الدائمة بين أعظم المذاهب الاجتماعية نجدها تنهار دفعة واحدة وتتفسخ لمجرد هجوم جيش يصفه الفردوسى بأنه جيش من العراة يقوده قائد عارٍ ، وبأنهم يشربون لبن النوق ويأكلون الضب . حسنا ، لماذا كان الأمر هكذا ؟

هذه تجربة عظيمة نقدمها للمفكر العالمى عن كيفية ظهور حضارة ما ، كيف يستطيع مجتمع لاحضارة فيه ، مجتمع متأخر لا يوجد فيه أساس روحى ، متأخر عن مرحلة التقدم العالمى ، كيف يستطيع مثل هذا المجتمع أن يصل بنفسه إلى مرحلة الحضارة ، ليس هذا فحسب بل يتجاوزها ويتقدم عليها . هذه تجربة إنسانية لأن الدعوة الإسلامية لم تكن من أجل مجتمع بعينه لكن أين الغساسنة والمناذرة ، وأين الحضارة المقلدة حرفيا فى الحيرة وغسان ؟

نهاية حضارة المناذرة والغساسنة :

دُعى النعمان بن المنذر إلى حضرة كسرى برويز . كان كسرى يريد أن يخطب منه ابنته لنفسه ، لكنه أبى ، ولهذا السبب اختفت حضارة الحيرة تماما من

الوجود ، ولم يبق منها إلا الاسم المذكور فى الكتب . لكن حضارة الغساسنة واجهت موقفا آخر ، فقد أدرك ملك الغساسنة فى عهد عمر أنه لا يستطيع أن يحيا مستريحا . فإن ارتداء ملابس الروم واستيراد مظاهر الحضارة والرفاهية وتقليد الروم عموما لا يهب القوة ، لأن كل هذا يمكن أن يجدى فى زمن لا شأن لأحد فيه بالآخر ويستطيع المرء أن يتظاهر فيه بأنه صاحب حضارة . لكن عندما يواجه الإنسان قوة ما ، يكون مثل بالونة تثقبها فيزول انتفاخها . هذه هى الحضارة المقلدة المستوردة تماما ، مثل الحديقة التى تحدثنا عنها .

يدرك الملك الغسانى أن ثمة قوة ظهرت فى المدينة لا يمكن تجاهلها فيأتى هو بنفسه مرتديا نفس الملابس ، وفى زينته وعنجهيته وأبهته وبكل مظاهره وجلبته هذه إلى المدينة . فى عهد عمر ، كان قد تم فتح إيران ومصر وبيت المقدس والشام . وكان أهل المدينة يحكمون كل العالم المتحضر ، لكنهم كانوا بالنسبة للحضارة المادية فى مستوى ومرحلة ظهرا من اندفاعهم وتجمعهم لمشاهدة الملك الغسانى ، لأنهم لم يكونوا قد شاهدوا ملابس فاخرة على الإطلاق ... ليست الحضارة إذن بالملابس . كان الفردوسى أيضا يفكر مثلنا ، كان يظن أن الحضارة هى السترة والسروال والياقة المنشاة وربطة العنق فى حين أنك يمكن أن تكسو تمثالا بما تشاء من ملابس . خذ إنسانا بدائيا من قلب القطب الشمالى ، أحد رجال الاسكيمو مثلا ، وسلمه لكريستيان ديور أو سوكرات أو ميزون دى فينى ، يشكله بالشكل الذى يريده ، ويستطيع أن يجلسه إلى عجلة قيادة عربة كرايزلر . لكن أية حضارة هذه ؟ لا يمكن أن توجد حضارة بهذه الطريقة . فهذه هى المدينة التى كانت تحكم العالم فى زمانها ، كانت غريبة عن شكليات الحضارة ومراسمها بحيث تجمع الناس لرؤية ملابس « السيد » . لقد حدثت ضجة فى المدينة بين الرجال والنساء . كانت حياة الناس فى الحيرة وعند الغساسنة أسطورة بالنسبة لهم . كانوا يحسون بمركب نقص دائما بالنسبه لهم . كانوا معدمين ومحرومين وفقراء ، فى حين كان الآخرون متحضرين ومتمتعين بنعم الامبراطوريتين الرومانية والإيرانية العظيمتين ، يعيشون أفضل أنواع الحياة . قلت إن أمير الغساسنة قدم المدينة ليسلم ، وبينما كان خارجا من المسجد أو من مكان آخر ، بنفس عنجهيته وأبهته وكأنه كان يظن أنه فى غسان ، إذا بمسلم من عامة الناس ، لم يكن يهتم بكل هذه الشكليات يطأ بقدمه طرف قباء السيد ، فيستدير الأمير ويلطم المسلم ، ويشكو الرجل لعمر ، فى نفس الوقت الذى كان

عمر وأصحابه فيه فى حالة من السرور لأن أمير الغساسنة ، أكثر العرب حضارة جاء بقدميه إلى المدينة مستسلما . كانت المدينة تحتفل بهذا النصر العظيم ، إن أكثر العرب غنى وحضارة يستسلمون لأهل المدينة من الأوس والخزرج المعمدين ، فالأمر ــ على الأقل فيما يبدو ــ نصر عظيم . ويجيب عمر على شكوى الرجل : « تعال غدا إلى المسجد ، وسوف أطلبه ، وأصفح عنه إن استطعت ، والصفح خير » . ويرد الرجل « لن أصفح عنه » . ويقول عمر « خذ منه الفدية إذن » ويقول الرجل « لا آخذ منه فدية ، ولو أعطى كل سلطانه ، وينبغى أن ألطمه ، لا شيء آخر » . لم يكن إذن فى الأمر نصح ، أو لنحقق فى الأمر أولا ، أو الموضوع قيد البحث والدراسة وما إلى ذلك .. هذا هو القانون ، وهذه هى الحضارة . ويستدعى عمر الأمير الغسانى ويقول له : لقد لطمت هذا الرجل ، ولن يصفح عنك ، ويسأل الأمير الغسانى : أى رجل هذا الذى لطمته ؟ لقد نسى « السيد » الموضوع برمته ، لقد كان يضرب العنق ثم ينسى لساعته ، والآن وقد لطم « شحاذا » تتطور الأمور إلى هذا الحد وتكتسب كل هذه الأهمية ، وتصل إلى هذا الحد ... ويحدث نفسه : أى مكان هذا ؟ أى مكان هذا الذى يستدعى فيه السيد ويقال له : احضر أمام المسجد ، لا إلى حارة متفرعة من حارة حتى يتجمع الناس ، ليلطمك مسلم كما لطمته .. ويرى الملك الغسانى أن الأمر جد لا هزل فيه ولا مهرب منه ، وأنه يستطيع أن يتهرب منه ، ويسأل : هل من مهلة ؟ والمهلة فى الإسلام ، ثم يقول : إلى الغد . ويهرب بليل ويمضى إلى الروم ، إلى حيث تحفظ مقامات الناس وحيثياتهم . إنهم هنا لا يقيمون وزنا لشيء فى حد ذاته هو الحضارة ، هو عامل قوة فى حضارة جديدة يدل على خلق إنسان جديد لا يعرفه هو ، وتأسيس حياة جديدة لا يفهمها شاعرنا الفردوسى ولا ملك الغساسنة ولا ملك الحيرة ولا حتى كسرى الساسانيين أو قيصر الروم . لا أحد يعرف أى نمط هذا من أنماط التفكير . وهذا دليل على أن هذه الأرض قد حرثت ، ثم ألقيت فيها البذور وبالنضال والعمل تم خلق إنسان جديد .

ظهور المفكر فى الشرق والمجتمعات الإسلامية :

لايمكن أن يوجد المفكر أبدا عن طريق الترجمة والنسخ والتقليد ، يمكن أن يوجد متعلم أو طبيب أو مهندس معمار ، لكن لا يظهر مفكر . إن المفكر هو

إنسان يفكر بطريقة جديدة ، إن لم يكن متعلما ، فلا كان . وإن لم يعرف الفلسفة ، فلا عرفها . وليس فقيها ، لا يهم ، وليس عالم طبيعة أو كيميائيا أو مؤرخا أو أديبا ، لا يهم . لكنه يحس عصره ، ويفهم الناس ، كيف يفكر الآن ، ويفهم كيف ينبغى له أن يحس بالمسئولية ، وعلى أساس هذه المسئولية يكون مستعدا للتضحية . لكن كيف ظهر المفكر فى الشرق والعالم الإسلامى ؟ يشير جان بول سارتر فى مقدمة كتابه « المنبوذون فى الأرض » إلى أسلوب صناعة المفكر الشرقى فى الغرب ومجال استخدامه ، ويقول : « كنا نحضر رؤساء القبائل وأولاد الأشراف والأثرياء والسادة من أفريقيا وآسيا ، ونطوف بهم بضعة أيام فى امستردام ولندن والنرويج وبلجيكا وباريس ، فتتغير ملابسهم ، ويلتقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة ، ويرتدون السترات والسراويل ، ويتعلمون منا طريقة جديدة فى الرواح والغدو والاستقبال والاستدبار ، ويتعلمون لغاتنا وأساليب رقصنا وركوب عرباتنا ، وكنا ندبر لبعضهم أحيانا زيجة أوربية ، ثم نلقنهم أسلوب الحياة على أثاث جديد ، وطرز جديدة من الزينة ، واستهلاك أوروبى جديد وغذاء أوروبى ، كنا نضع فى أعماق قلوبهم الرغبة فى أَوْرَبَةِ بلادهم ثم نرسلهم إلى بلادهم ، وأى بلاد ؟ بلاد كانت أبوابها مغلقة دائما فى وجوهنا ، لم نكن نجد منفذا إليها . كنا بالنسبة لها رجسا ونجسا وجنا ، كنا أعداء يخافون منا وكأنهم همج لم يعرفوا بشرا . لكننا بمحض أن أرسلنا المفكرين الذين صنعناهم إلى بلادهم ، كنا مجرد أن نصيح من أمستردام — هذه ترجمة لكلام سارتر عبارة بعبارة — أو برلين أو بلجيكا أو باريس ، قائلين « الإخاء البشرى » ، نرى أن رجع أصواتنا يرتد من أقاصى أفريقيا أو فج من الشرق الأوسط أو الأدنى أو الأقصى أو شمال أفريقيا ، كنا نقول « الإخاء البشرى » وكانت « ..... البشرى » ترتد من الطرف الآخر ، كنا نقول : « ليحل المذهب الإنسانى أو دين الإنسانية محل الأديان المختلفة » ، وكانوا يرددون « .... المختلفة » ، تماما مثل الثُقب الذى يتدفق منه الماء فى الحوض ، هذه أصواتنا من أفواههم ، وحينما كنا نصمت ، كانت ثقوب الأحواض هذه تصمت أيضاً . وحينما كنا نتحدث كنا نسمع انعكاسا صادقا وأمينا لأصواتنا من الحلوق التى صنعناها ، ثم إننا كنا واثقين من أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها غير ما وضعنا فى أفواههم . ليس هذا فحسب ، بل إنهم سلبوا حق الكلام من مواطنيهم ، هذا هو دور الفكر الذى يتشكل بالشكل الأوربى ويلعبه فى الدول الإسلامية ، دور « دليل الطريق »

للاستعمار فى البلاد التى لم يكن يعرفها أو يعرف لغاتها ، وهو السوس الذى عمل فى الشرق من أجل تثبيت هذه المادة الثقافية والاقتصادية والأخلاقية والفلسفية والفكرية المسممة للاستعمار الغربى داخل هذه الأشجار الوراقة الأصيلة . هذا هو السوس الذى كنا قد صنعناه وسميناه بالمفكرين ، كانوا عالمين بلغاتنا ، وكان قصارى همهم ومنتهى أملهم أن يصبحوا مثلنا ، فى حين أنهم أشباهنا وليسوا مثلنا . إنهم نخروا من الداخل ثقافة أهليهم وأديانهم القومية التى تصنع الحضارات ومثلهم وأحاسيسهم وأفكارهم الجميلة وأصالتهم الأخلاقية والإنسانية ، وتحت أى شعار وبأى اسم ؟ باسم مقاومة الخرافات أو مكافحة الرجعية أو الوقوف ضد السلفية . وباسم نفس أولئك المفكرين الأوروبيين الذين قاوموا الرجعية والكنيسة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كان مفكرو أوروبا وعلى رأسهم ومن روادهم وأبطالهم أمثال جاليلو وكوبرنيكس وكانت وكبلر وديكارت وديدور وجان جاك روسو وفولتير وكتاب دوائر المعارف ، أى الانسكلوبيديين ، كانوا مناضلين فى سبيل الحرية ، كانوا مفكرين بالفعل وأناسا بذلوا أرواحهم فى سبيل حرية البشر ، وكانوا نوابغنا المفكرين وعلماءنا العظام » .

نظرة إلى مفكرينا :

لكن : من الذين اشتهروا كمفكرين فى بلادنا ؟ هم أمثال ميرزا ملكم خان ، وميرزا ملكم خان هو النموذج الأول التقليدى الذى منحه الأوربيون للشرق ، خاصة لإيران ، قائلين لهم : اصنعوا الباق على هذا النسق ، صبوا الجميع فى هذا القالب .

انظروا إلى أولئك الذين وقفوا ضد الدين فى المجتمعات الإسلامية أو فى البلاد الشرقية .. كلهم أو أغلبهم وجوه تحيط بها الريب أو أيد ملوثة ، هؤلاء غير تلك الوجوه التى كانت أكثر الوجوه فى أوربا إشراقا وإنسانية . فهؤلاء – أى مفكرو أوربا – شروا حرية الجماهير وعظمتها ونضجها قوتها وثروتها ورفاهيتها وتبلور شخصيتها ، وشروا نضج العلم وضحوا فى سبيله ، شروا كل هذه الأمور بأرواحهم وحيواتهم وتعرضهم لمحاكم التفتيش ومعاناة أمور بلغت الإلقاء فى النار والإحراق والسلخ ، كل هذا حدث حتى تشكلت طبقة المفكرين فى أوربا . أما فى الشرق فقد شكلت على نفس الصورة بأمر من رينيه لابون ، وخطط علماء اجتماع غامضين

ملحقين بمراكز الاستشراق . وكان أن توصلنا إلى نتيجة عكسية تماما لما توصلت إليه أوروبا . وماذا نفعل ؟ هل نستطيع أن ندين طبقة المفكرين كلها إدانة تامة ونرتد إلى التقليدية والرجعية ؟ هذا طريق مسدود ، وهذه دعوة عقيم لا تؤتى ثمرا . لا طريق إلى العودة إلى السلفية والرجعية ، والجنوح إلى الماضى وتقديسه وعبادة التاريخ وعبادة الموتى . نحن المفكرين عندما ندرس طريقة تشكيلنا وأسلوب تكويننا ، نرى أننا متشبهون . كنت أقرأ فى بعض اللغات الأوروبية : أن غير الأوروبيين هؤلاء — أى أولئك الذين صنعناهم — ماداموا يعرفون لغاتنا ، ويروجون أنماط الحياة عندنا فى بيئاتهم ، وماداموا يجعلون أنماط الحياة فى استهلاكهم ولباسهم وطعامهم وبيوتهم مثل ما لدينا شكلا ولونا ، وماداموا عصريين يقومون بتغيير الدين والتقاليد والثقافة والذوق والفكر عندهم ، ماداموا أشباهنا ، فليبقوا ، فهم سوق لنا ..... لأنه إذا ارتدى أحدهم ملابسه كما كان يرتديها فى الماضى ، وكان له ذوقه ، وأكل طعامه ، وسكن فى داره ، فلن يشترى منا بعد شيئا .

إن الرأسمالى الصناعى فى أوروبا ، يرسل المسيحية إلى أفريقيا ، حتى يروجها بين المجتمعات البدائية الأفريقية التى لا ترتدى الملابس وتعيش عارية ، لكى تعرف ما العفة ، وما الشرف والخجل والحياء ثم تشترى بعد ذلك الملابس المصنوعة فى مانشستر . هذا هو مربط الفرس . وبعد أن تزال كل السدود على يد هذا المفكر وتفتح الطرق ، يأخذ هذا المفكر ، أى شبه المفكر ، بمقود حمار الدجال ويسوقه إلى قلب مجتمعه ، إلى قلب مجتمعاتنا ، بحيث إننا الآن لا نستطيع تمييز أنفسنا منهم ، بل ونعتبرهم نحن المفكرين بديلا عن أنفسنا ، يشبه تماما القضية التى أثرتها فى علاقة الإنسان بالآلة أو ميكنة الإنسان أو مايسمى بالاغتراب **alienation** أننا بشر نحس بالآخرين ، أو نحس أننا آخرون بدلا من إحساسنا بأنفسنا ، تماما مثل مشهدى حسن الذى كان يحس بأنه بقرته أكثر من إحساسه بأنه هو نفسه . وهذا الإحساس لم يحس به الناس اعتباطا ، بل إن الذى أحدثه وأتى به عدد من أشباه المفكرين . وأشباه المفكرين هؤلاء يحس بعضهم عمدا وبعضهم سهوا بأنهم يلعبون نفس الدور الذى لعبه جان جاك روسو وفولتير ، وأنهم يقاومون خرافات العصور الوسطى وتعصبها الدينى . ومن هنا قاموا بكل ما قاموا به مجانا ، وبذلوا التضحيات حتى مهدت الطرق إلى هذا الحد ، وماتت الثقافات إلى هذا الحد ، وسلبنا من أنفسنا إلى هذه الدرجة ،

وخلت المجتمعات الإسلامية والشرقية من إنسان أصيل هذا الخلو . وليست مصادر الثروة عندنا فى الشرق وكل إمكاناتنا المادية وما فوق أراضينا وما فى بواطنها ، ليته كله قد سلب ـــ والكلام عن الشرق كله وآسيا وأفريقيا ، والحديث عن كل المجتمعات الإسلامية ـــ ليته كله قد سلب ونهب ، وبقينا نحن كأناس أصحاء ، إذ إننا لو كنا قد بقينا كأناس أصحاء لاستطعنا أن نستردها كلها ، ولاستطعنا أن نقف على أقدامنا فى فرص عديدة ، لكننا منذ أن فقدنا ذواتنا ، أصبحنا خير مثال على نظرية الصراع عند سورديل ، يقول سورديل : « عندما يقوم مالك من الملاك أو محلل نفسانى بتفريغ أحد من شخصيته وقمعه وإذلاله ، يتولد فيه إحساس بمركب النقص ، فيحس نفسه حقيرا ويحس بمن قام بهذا العمل أعظم مما هو عليه بالفعل ، هذا الذى تعرض للتحقير ـــ طبقا لهذه النظرية التى تعد من أشهر النظريات عالميا الآن ـــ ويجد نفسه خاليا من ذاته بلا جذور وبلا أساس ، يحس أن الذى ولد مركب النقص فيه إنسان أسمى ، من جنس أسمى يحيا حياة أسمى ، ويحسن الفهم عنه ، ووجوده أفضل من وجوده ، ويعتقد أنه ذليل وصغير وحقير ينتمى إلى جنس حقير وثقافة حقيرة ودين حقير وقبيح ، وأن كل آدابه وتاريخه ودينه أشياء مستهجنة . لكن كل ما لدى الآخر وما يتعلق به محمود ومستحسن ، حتى أمثال نابليون عند الآخر أشياء محمودة وأمثال نادر شاه عنده أشياء مستقبحة . وهو يريد أن يقضى على مركب النقص الموجود فى نفسه . فالآخر بكل عظمته فى مواجهته هو بكل ضآلته وتفاهته . إنه دائم الإحساس بالألم والمعاناة . إن هذه العقدة تدفعه دفعا إلى التفكير . كيف يستطيع أن يضع هذا الحمل عن كاهله ؟ لا وسيلة إلا اللجوء إليه هو نفسه ، والتظاهر بأنه هو ، والارتباط به ، والاغتراب عن نفسه ، وحجبها ومداراتها وإنكارها ، والتظاهر بأنه لا ينتمى إلى هذا الجنس أو إلى هذه الثقافة ، فينسى لغته ، وينسى حتى اسم دينه ، ولا يعلم أساسا كيف يعيش أولئك الناس ، أى مواطنوه ، وكيف يأكلون وكيف ينامون .يستاء ويحس بالعار من لغته السابقة وحياته السابقة وأهله فى الماضى ، لا تعجبه أذواقهم . إنه بمجرد التظاهر بأنه « مثله » يهرب نفسه من هجومه عليه ، ومن مركب النقص فيه ، وعندما يصل مجتمع ما إلى هذا الحد ، فإنه يعمل لإخفاء نفسه وإنكارها ، ويعمل لتخريب نفسه وعبوديته » .

ترى ما عمل أعظم المفكرين والكتاب والمترجمين وذوى المواهب عندنا ؟ إنه تخريب ذواتهم والقضاء عليها والتظاهر بوجود آخر والالتجاء إليه ، هذا هو دور أعظم المواهب وأعظم الكتاب والمترجمين والشعراء والفلاسفة واللغويين ومن تربوا فى الخارج . فكل هم متعلمينا الجدد هو تخريبنا والقضاء علينا كبشر ذوى أصالة ، والتضحية بالشخصيات التى كم نراها الآن قد أصبحت فارغة . انظروا إلى ماضينا فى خلال قرن أو قرنين مضيا . كان فى قرانا ، وفى مدننا الإقليمية الصغيرة بشر عظماء وعلماء عظماء وفقهاء وفلاسفة عظام ومدارس عظيمة . كان هناك فى كل مكان شخص أو اثنان أو خمسة أشخاص « من ذوى الأصالة الذاتية » . إننى لا أقصد أننا كنا من ثلاثين أو أربعين أو مائة أو مائتى سنة أكثر رقيا ، لكننا كنا أصلاء ، والأصالة غير الرقى وغير التقدم .

لا أريد أن أوحى بأننا كنا على ما يرام من كافة النواحى . أبدا ، كنا جامدين متوقفين ولكننا كنا أصلاء . وماذا يعنى أننا كنا أصلاء ؟ يعنى أن « ذواتنا كانت هى ذواتنا » ، كنا متوقفين ، لكننا كنا بشرا ، أى أننا « كنا نختار ذواتنا » وكانت لنا أذواقنا الخاصة بنا . كانت ذواتنا هى ذواتنا ، أى أننا كنا الذين نقوم بصناعة ملابسنا ، ونبنى منازلنا . كانت ذواتنا هى ذواتنا لأننا كنا نختار ألواننا وزيناتنا والأنماط الخاصة بنا . كانت ذواتنا هى ذواتنا ، أى أننا كنا ننظم الشعر ونكتب ، وكان لدينا ديننا . كانت ذواتنا هى ذواتنا بمعنى أننا كنا نؤمن بأن كل هذه الأشياء لنا ومن صنعنا ، لكنها الآن ليست من صنعنا كلها . وأعظم مفكرينا اليوم حين يريد أن يعود إلى ذاته ويبدى أصالة لا يفعل بدوره أكثر من الترجمة .

ونفس هذا الذى يقول : ينبغى ألا نقلد الأوربيين ، وينبغى أن نقف على أقدامنا ونعود إلى ذواتنا هو الآخر مقلد ويتحدث بلسان فانون وسارتر لا بلسانه هو ، ونرى أن صاحبنا كما يبدو من سحنته هو نفسه من أولئك المفكرين . لكنه منذ سبع أو ثمانى سنوات بدأ فى التلاعب بمقولة أو مقولتين بنفس هذه الكلمات التى تعارض حركة التغريب (أى التأثر بالغرب) . ترى على أى أساس تعارض التغريب ؟ إنك لا تعرف التغريب ولا الشرق ، لكن منذ أن تُرجمت مقالتان عن فانون وايماسيزار ، صار الأمر هو الآخر « درجة » أى موضة . كنت قد ذهبت لزيارة أحد الأصدقاء فى أوربا ، فرأيته قد وضع زوجا من الأحذية المحلية المصنوعة

من القماش على باب حجرته بالطبع إنه عاد إلى ذاته ، قلت له : من الذى يضع الأخفاف على الباب .. لقد عدت إلى الأمريكان أنهم الذين يشترون الأخفاف والصوانى والخرز ويعلقونها على الجدران ، هذا أيضاً من قبيل التقليد . ترى إلى أى ذات من ذواتك عدت ؟ هل تعلم أصلا ما ذاتك حتى تقول إنك قد عدت إليها ؟ .

مسئولية المفكر :

إن مسئولية المفكرين اليوم ودورهم فى العالم يشبه أساسا الدور الذى كان يلعبه الأئمة وقادة التغيير والتبديل ، أى الأنبياء والرسل وأئمة المذاهب فى المجتمعات القديمة . فقد بعث الأنبياء من بين الناس ، وحتى فى حالة عدم بعثهم من بين الناس كانوا يتجهون إليهم على كل حال ، وكانوا يقومون بخلق مبادىء جديدة ورؤية جديدة وحركة جديدة وطاقة جديدة فى أعماق وجدان مجتمعاتهم وعصورهم . وهذه الحركة الثورية العظيمة التى يفجرونها والتى تجتث جذورا وتغرس جذورا وتغير وتبدل ، كانت سببا فى تغيير مصير مجتمع ساكن ومنحط وراكد عن طريق الرسالة النبوية . لم يكن هؤلاء الأنبياء من بين العلماء السابقين ولا كانوا أيضا من بين العوام الذين يفتقدون الوعى ، وذلك لأنهم التزموا بأعظم الأدوار فى التاريخ وحركته والتغيير المرتبط بالمجتمع الإنسانى عموما ومجتمعاتهم خصوصا ؛ ومن هنا فهم نوع ثالث ، لاهم من العوام أسارى التقاليد ونتاج الأطر الاجتماعية ، ولاهم من طائفة العلماء والفلاسفة والفنانين والعرفاء والرهبان ورجال الدين الذين هم أيضا أسارى مفاهيمهم الذهنية والذوقية وغرق فى كشوفهم وكراماتهم العلمية والباطنية ، ومن هنا فالمفكرون نظراء الرسل ، وليسوا من طائفة العلماء أو من العوام المنحطين فاقدى الوعى . لكن المفكر « واع مسئول » ، أعظم مسئولياته وأهدافه منح بنى البشر الوديعة الإلهية الكبرى ، أى المعرفة والوعى ، وذلك أن الوعى هو الذى يبدل الجماهير المنحطة الراكدة إلى مرجل بناء فى حالة فوران ، ولأن الوعى هو الخلاق للعبقريات العظيمة والقفزات الواسعة . وبعد أن تستيقظ الحضارات والثقافات والأبطال العظام من قلب الوجدان ، ينهض المجتمع .

إن مسئولية المفكر فى زمانه هى القيام بالنبوة فى مجتمعه حين لايكون نبياً ، ونقل الرسالة إلى الجماهير ، ومواصلة النداء نداء الوعى والخلاص والإنقاذ فى آذان الجماهير الصماء التى أصيبت بالوقر ، وبيان « الاتجاه والسبب » وقيادة الحركة فى

المجتمع المتوقف ، واضرام نار جديدة فى مجتمعه الراكد . وهذا عمل لا يقوم به العلماء ؛ لأن هناك مسئولية على عاتق العلماء محددة تماما وهى منح الحياة أكبر قدر ممكن من الإمكانات ، ومعرفة « الوضع الراهن » وكشف قوى الطبيعة والإنسان واستغلالها . إن العلماء والفنيين والفنانين يمنحون المجتمع البشرى أو مجتمعهم قوة علمية بوجودهم . لكن المفكرين يعلمون المجتمع « كيفية السير » ويمنحونه الهدف ، كما يقدمون رسالة « التحول » واستجابة « التحول إلى نسق بعينه » ويضيئون الطريق للحركة .

إن العالم موجه ومانح لرفاهية الإنسان ومتعته وضامن لها ، وهو الموكل بمنح الإنسان القوة والراحة والسعادة ، وهو فى النهاية يكتشف الواقعيات ، لكن المفكر هو الذى يهدى إلى الحقائق . إن العالم يقول « هذا الأمر هكذا » أما المفكر فيقول : « لا ينبغى أن يكون الأمر هكذا بل كذلك » . إن العالم يضع مصباحا على الطريق أو أمام ضال ، والمفكر يرشد إلى الطريق ويدعو إلى السفر ، ويدل على بداية الطريق ، هو نفسه رائد القبيلة وحادى القافلة . ومن هنا يسقط العالم أحيانا أداة فى يد الجهل والجور ، لكن المفكر هو بذاته وبالضرورة الماحى للظلام والظلم . فالعلم قوة لكن الفكر نور .

ليس المفكر هو الإنسان الذى يقول عن نفسه : أنا مفكر لأننى ذهبت إلى أوربا وقرأت عن مدارس كذا الفكرية ، وقرأت كذا من الدروس ، ونجحت فى الامتحان فيها ، ونلت فيها الشهادة ....

ومن أسف أنا لما كنا حتى الآن نستخدم مصطلحى « المفكر » و « العالم » أو المشتغل بالفكر كمترادفين ، فإننا وقعنا فى خطأ ، إننا لم نعد ندرى : من المفكر وحتى المفكر لا يفهم نفسه من يكون ؟

ليست مسئولية المفكر بالذى يمكن الحصول عليه من الجامعات ، وإذا وجد فرد استثناء فى هذا المجال فليس لأنه درس فى هارفارد أو السوربون قد صار مفكرا ، بل لأنه حتى لو كان بقى هنا ولو لم يكمل تعليمه العالى فهو أيضا مفكر .

وهناك خطأ آخر من الممكن أن نقع فيه وهو أن يظن أن الطالب أو الشاب الذى ذهب إلى أوربا ودرس المدارس الاجتماعية والسياسية والأيديولوجيات الفلسفية

ثم عاد ، قد أصبح مفكرا ، فى حين أن الأمر غير ذلك . فهذا الشخص درس مذاهب ماركس أوجان جورز أو ايما سيزار أو برودين أو سان سيمون ، وكلها أيديولوجيات اجتماعية لعبت دورا بناء محددا للأهداف . وقد قام مفكرو القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين بالتغيير على أساس هذه الايديولوجيات وبلغوا عن طريقها أهدافهم . لكن من درسها مثل زملائه الذين درسوا الطب وأصبحوا أطباء ، صار عالما فى العلوم الاجتماعية ومدارسها وفى الأيديولوجيات ، ويستطيع أن يقوم بتدريسها فى الجامعة .

ومثل هذا الشخص لا يستطيع ــ ولمجرد أنه درس هذه الأيديولوجيات ــ أن يقوم فى مجتمعه بدور خاص ، وأن يأخذ على عاتقه مسئولية مفكر ، وأن يقوم بمنح المجتمع الإيمان ، وتحليل الأمراض الاجتماعية ، وبث الوعى فى الناس ، وتحديد أهداف ومثل مشتركة لهم . لا يستطيع أن يحرك المجتمع ، لأنه بدراسة هذه المدارس وفهمها ومعرفتها أصبح عالما متخصصا فيها فحسب ، يستطيع أن يذهب حيثما أراد ويقوم بتدريسها . وبناء على هذا ، لا يوجد نمط ثابت وعالمى للمفكر . يوجد مفكرون ، وعلى سبيل المثال يمكن أن يقال إن فلانا مفكر فى أفريقيا السوداء لكنه لا يصلح لشىء إذا جاء إلى المجتمع الإسلامى ، فهو يصبح غريبا ومشلولا وليس مفكرا بحال من الأحوال . أو أن آخر مفكر فى فرنسا أو فى أوربا الغربية بعد الثورة الصناعية ، أو بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ، مفكر حقيقى ونابغة وذو أثر بناء وفعال فى مجتمعه ، لكننا إذا أخذنا نفس هذا الشخص إلى الهند فلن يعود مفكرا ، ولن يستطيع أن يكون صاحب دور كمفكر فى هذا المجتمع .

وأعظم مسئوليات المفكر فى مجتمعه هى أن يجد السبب الأساسى والحقيقى لانحطاط المجتمع ، ويكتشف السبب الأساسى للركود والتأخر والمأساة بالنسبة لمواطنه وجنسه وبيئته . ثم يقوم بعد ذلك بتنبيه مجتمعه الغافل الغائب عن الوعى إلى السبب الأساسى لمصيره وقدره التاريخى المشئوم ويبدى لمجتمعه الحل والهدف وأسلوب السير الصحيح الذى يلزمه من أجل أن يتحرك ويتخلص من هذا الوضع . ويحصل على الحلول اللازمة لشعبه على أساس إمكاناته واحتياجاته وآلامه ، وعلى أساس الثروات الموجودة فى مجتمعه . كما يقوم بكل هذا على أساس تخطيط مدروس قائم على أساس استخدام صحيح للثروات ومعرفة دقيقة للآلام باكتشاف الروابط الحقيقية القائمة

والأسباب والنتائج بين أنواع الانحطاط والانحرافات والأمراض بين العوامل والظواهر الموجودة فى الداخل والخارج . ويقوم المفكر بنقل المسئولية التى يحسها هو من طائفة المفكرين المحدودة إلى السواد الأعظم لمجتمعه . ويجعل التناقضات الاجتماعية الموجودة فى قلب مجتمعه داخل وعى الناس وأحاسيسهم .

ويعتقد المفكرون المعاصرون أنه حينما يحدث التناقض الجدلى فى قلب مجتمع ما ، فإن هذا التناقض والجدل بين الدعوات ونقائضها يجبر المجتمع على الحركة ، ويسير به قدما إلى الثورة ، ويدفعه إلى الأمام ويحرره ، وفى النهاية يدخل فى مرحلة أخرى . وبناء على هذا الرأى فإن الفقر فى حد ذاته وهو تناقض اجتماعى أو « الفوارق الإجتماعية » فى حد ذاتها وهى أيضا تناقض اجتماعى ، تستطيع أن تسبب الصراع تلقائيا ، فى حين أن الأمر ليس كذلك . وهذا الرأى خدعة كبرى ، لمجرد أنه يحتوى على تناقض جدلى فى داخله ، أى أن فيه تناقضا طبقيا أو فقرا أو غنى بصورة مفجعة ومنحرفة . ومن الممكن أن يبقى الفقر أو التناقض الطبقى فى أساس المجتمع لآلاف السنين دون أن يحدث أدنى تغيير ، فليس للجدل حركة .

إن التناقض فى المجتمع يستطيع أن يسبب الحركة ، ويتبدل فى المجتمع إلى تصادم بين الدعوات ونقائضها حين يحمل هذا التناقض من أساس المجتمع ومن داخل النظام الاجتماعى ويوضع فى « ضمير » الناس و « وعيهم » .

وحتى الآن هناك فى أفريقيا واستراليا قبائل تعيش فى نظام اجتماعى ثابت منذ ثلاثين ألف سنة ، فى حين أن الفقر والتناقض الطبقى يوجدان فى هذه المجتمعات بشكل حاد ، وهكذا يستطيع المجتمع أن يبقى فى التناقض الجدلى والتناقض الطبقى والفقر والانحطاط لمدة قرون ولا يحدث فيه أدنى تغيير إلا إذا انتقلت هذه التناقضات من المجتمع إلى « وعى الناس » .

إن وجود الفقر لا يسبب الحركة ، لكن الإحساس بالفقر هو الذى يسببها ، والآن وقد علمنا أنه ينبغى أن ينتقل التناقض من باطن المجتمع إلى ضمائر الناس ووعيهم ، حتى يتسبب فى إحداث الحركة ، ندرك ما مسئولية المفكر « القيام بنقل التناقضات الموجودة داخل المجتمع إلى أحاسيس أفراد هذا المجتمع ووعيهم » . ومن ثم يقوم المجتمع بحركته بنفسه .

ومن هنا فالمفكر إنسان على وعى بالتناقضات الاجتماعية ، وعلى وعى بالعوامل الصحيحة لهذا التناقض والتضاد ، وعلى وعى باحتياجات هذا العصر وهذا الجيل ، ومسئول عن إبداء طريق الخلاص للمجتمع فى هذا الوضع المتناقض المدان وتحديد الحلول والمثل المشتركة للمجتمع ، ومنحه نوعا من العشق والإيمان المشترك الفوار للناس الذين يعيشون فى الخضم البارد الراكد لمجتمعهم التقليدى المنحط يحدث فيه حركة وينقل إلى مواطنيه علمه ووعيه . وفى كلمة واحدة يقوم بدور النبوة فى مجتمعه ، هو الذى يواصل طريق الأنبياء فى التاريخ أى خلق العشق والإيمان والحركة نحو « الهدى والعدالة » . وتكون لغته مناسبة لهذا العصر وحلوله متناسبة مع هذه التناقضات ، وأسسه متناسبة مع هذه الثقافة .

سألت المرحوم جلال آل أحمد : « ألا تظن قبل أن نبدأ أى عمل أو نتفوه بأى حرف كمفكرين أن أعظم مسئولياتنا وأكثرها فورية أن نرى ـــ نحن المسلمين والمجتمعات الإسلامية ـــ فى أى مرحلة من مراحل التاريخ نعيش ؟ هل نحن فى الواقع فى القرن العشرين الأوربى حتى نقبل حلوله كحلول لنا ونصير مترجمين لكتاب أوربا وأصحاب المدارس الفكرية فيها وأيديولوجياتها ؟ هل نحن نعيش عصرا صناعيا وأصابتنا بعض آلام العصر الصناعى ؟ هل وصلنا إلى مرحلة البورجوازية الكبرى ؟ هل ابتعدنا عن عصر سيطرة الدين على سواد الناس ؟ هل ثقافة مجتمعنا ثقافة صناعية عقلية ، هل هى ثقافة ديكارتية ؟ هل نحن فى العصور الوسطى ؟ هل نحن فى عصر الإصلاح الدينى ؟ هل نحن فى عصر النهضة أو الثورة الفرنسية الكبرى ؟ إذن : يجب علينا منذ البداية أن نحدد فى أى مرحلة من مراحل التاريخ نحن ، حتى تتضح الحلول بالنسبة للمفكر ويبدو للناس دورهم » .

الخلاصة أن مجتمعنا الآن ـــ بالنسبة للمرحلة التاريخية ـــ يعيش فى بداية عصر نهضة ونهاية مرحلة قرون وسطى « هذا إذا أردنا أن نقارن بتاريخ الغرب » . ومن هنا فنحن فى عصر تحول من العصور الوسطى فكريا واجتماعيا ، وفى نهضة تشبه نهضة بيكون وأمثاله . وبالنسبة للناحية الاقتصادية ، فإن النظام السائد اجتماعيا هو على وجه العموم نظام اقتصاد السوق والزراعة والبورجوازية الوسيطة ، أى أن القاعدة الأساسية الكبيرة فى مجتمعنا قائمة على أساس الانتاج الزراعى لا الاقتصاد المدنى والنقدى والرأسمالى والبورجوازى على ذلك النسق الذى نفهمه الآن ، لأن

البورجوازية الأوربية التى قامت بالثورة الفرنسية تناقض طبقة البورجوازية الإيرانية أو البورجوازية الموجودة فى المجتمعات الإسلامية على طول الخط ، فى حين أننا نخلط بينهما فى الغالب بالنسبة لمصطلح الطوائف والطبقات .

إن البورجوازية فى المجتمعات الإسلامية بورجوازية كلاسيكية تعتمد على السوق ، وليست بورجوازية صناعية رأسمالية تعتمد على البنوك . وليست بورجوازية السوق بورجوازية منفتحة ومتحركة لكنها بورجوازية منغلقة دورية ، أى أنها تعرض للاستهلاك ما تنتجه الزراعة . وعندنا بورجوازية ناشئة تشبه فى تكوينها البورجوازية الأوربية فى القرن الثامن عشر ، لكنها لا تشبهها فى شيء بالنسبة للتحليل الاجتماعى . هذه البورجوازية هى البورجوازية الوسيطة ، التى تتكون من أولئك الذين خرجوا من السوق وغادروا دكاكينه ، وعملوا كواسطة فى بيع السلع الحديثة لبورجوازية العالم فى شوارع حديثة فخمة . كما اشتغلوا بترويج الاستهلاك على الطريقة الغربية فى مجتمعاتهم الوطنية . وهذه البورجوازية روجت الاستهلاك فى المدينة دون أن يكون هناك إنتاج فى المدينة على خلاف بورجوازية القرن الثامن عشر فى أوربا التى كونت إنتاجا فى المدينة فى مقابل الإنتاج القروى .

ولاشك فى أن هناك أفرادا بدءوا فى الداخل فى الإنتاج الحديث ، لكنهم حتى الآن لم يتشكلوا كطبقة أو كطائفة ، لأن البورجوازية الوطنية تستطيع أن تشكل عدة وحدات إنتاجية حديثة جدا ومتقدمة ، لكنها تفتقر إلى الغطاء الاجتماعى ، فهى وحدة وليست طبقة .

وبالنسبة للثقافة ينبغى علينا أن نعرف « نمطنا الثقافى » . فالنمط اليونانى لليونان نمط فلسفى ، والنمط الثقافى للرومان نمط فنى وعسكرى ، والنمط الثقافى للصين نمط صوفى « المقصود هنا الثقافة التاريخية » ، والهند ذات نمط ثقافى دينى ، أما النمط الثقافى عندنا فهو النمط الدينى الإسلامى .

والمقصود بالنمط الثقافى : الروح الغالبة على مجموعة معارف مجتمع ما وخصائصه وإحساساته وتقاليده ونظراته ومثله ، لأنها كلها تحتوى على روح مشتركة يؤلف بينها كلها شكل يسمى الثقافة ، وكل إنسان يتنفس ويتغذى وينمو فى هذا الجو الثقافى ، ومن هنا فإن معرفة ثقافة مجتمع ما هى بمثابة معرفة حقيقية لبواطن ذلك المجتمع ونقاطه الحساسة وعواطفه .

وليس من الممكن أن يقول أحد إنه لايعرف الفلسفة وليست لديه رؤية فلسفية لكنه يعرف اليونان ، أو يدعى أنه عالم بالمجتمع الهندى دون أن يعرف ما البوذية وما الويداوية .

ينبغى للمفكر أن يكون ذا حضور فى عمق ضمير السواد الأعظم من مجتمعه . فإذا كان فى الهند ، فعليه أن يعلم البوذية والويداوية جيدا ، لأن النمط الثقافى فى الهند هو نمط الويداوية . ومن هنا لا يستطيع عالم اجتماع معاصر متعلم فى . أوربا أن يفعل أى شىء فى الهند . أما الذين قاموا بأعمال بالفعل فهم الذين كانوا من نمط غاندى الذى وفق فى تحريك مجتمعه الذى تفهمه لروح الهند وثقافة الهند ومعرفتها .

ومن هنا يجب على المفكر عندنا أن يفهم أن الروح الغالبة على ثقافته هى الروح الإسلامية ، وأن الإسلام هو الذى صنع تاريخ مجتمعه وحوادثه وقاعدته ونقاطه الحساسة . وإذا لم يدرك هذه الحقيقة الواقعة « كما فعل أغلب مفكرينا » ، فسوف يسقط ضحية لجوه المصطنع المحدود . وإذا اعتبر نفسه مجردا من العقائد الدينية وتنفس فى جو أوربا القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فسوف يسقط فريسة للخطأ فى معرفته بالناس وتفاهمه معهم ، ولن يقع منهم موقع القبول . ويشعر السيد فرانتزفانون ـــ وكنت على علاقة به لأننى كنت مترجما لأعماله ـــ بحساسية بالنسبة للجهود التى تتم فى المجتمع عن طريق الدين ، وهو ذو موقف لا دينى ، لكنى أقنعته بأنه فى بعض المجتمعات ذات الثقافة والدين الخاصين ، يستطيع هذا الدين بامكاناته وأسسه وأوضاعه الروحية وتقاليده أن يساعد المفكر فى أن يقوم بهداية المجتمع وإرشاده إلى نفس الموقع الذى قدمتموه أنتم إليه عن طريق لا دينى وعن طريق مقاومة العقائد الدينية ، وأضفت : أن الوضع اللادينى عندكم نتيجة تجربة خاصة ، وهو خاص بالدين الذى كان موجودا فى أوربا فى العصور الوسطى ، وتجربة خلاص المجتمع الأوربى بعد القرنين الخامس عشر والسادس عشر . لكننا لا يمكن أن نسقط هذه التجربة على المجتمعات الإسلامية وذلك لأن ثقافة المجتمع الإسلامى وتقاليده ورؤيته الدينية والعناصر التى كونت هذا الدين تختلف تماما عن الروح التى كانت تسيطر باسم الدين على العصور الوسطى . فمن الناحية العقلية لا نستطيع أن نحكم على الاثنين بحكم واحد ، ومقارنة الدور الفعلى للإسلام فى أفريقيا ودور المسيحية فى أمريكا اللاتينية تؤيد رأيى تماما .

ومن ناحية الأسلوب ، لو أننا قمنا بمقاومة الدين بنفس تلك الطريقة التى كان مفكرو القرنين السادس عشر والسابع عشر فى أوربا يقاومون بها دينهم ، لكنا بذلك نرتكب أفدح الأخطاء ، ذلك لأن الحس الدينى والثقافة الدينية فى إيران مغايران تماما لما كان موجودا فى الغرب باسم الدين فى العصور الوسطى .

ومقارنة الإسلام بالمسيحية ثم الوصول إلى حل « فكرى » عمل شديد الخطأ . وإذا استطاع مؤرخ أو فيلسوف أن يعمم النظرة إلى كل الأديان ، فليس للمفكر أن يقوم بهذا العمل . فعليه أن يميز فى أى عصر هو من التاريخ ، وفى أى مجتمع ، ومع أى صنف من البشر يتعامل . ومن الممكن للمفكر فى مجتمعنا الإسلامى أن يقع فى خطأ بشع ، وهو أن يعتبر ما يجرى اليوم فى خضم المجتمع ، الدين الحقيقى لتاريخ مجتمعه وثقافته ويتعامل معه على هذا الأساس ، ثم يقوم بمقاومته ويلغيه ، ويدعو المجتمع الدينى إلى أيديولوجية مناسبة للمجتمع الصناعى الألمانى فى القرن التاسع عشر « الذى ابتعد قرنين عن العصور الوسطى » ، ويقوم بدور متناقض ومنحرف فى مجتمعه .

فهذاالمفكر — عن طريق مقاومته للدين — فى المجتمع الإسلامى ، يخيف الجماهير من محور المفكرين ، ويجعلها تنفض عنهم ، ومن أجل أن تفر من مفكر لا دينى ، تلجأ إلى قوى رجعية ومنحرفة واستعمارية تتظاهر بحماية الدين ، ومن هنا تنقطع العلاقة بين المفكر والناس ، ويبقى وحيدا .

ونحن نرى اليوم عزلة المفكر فى أوربا فى المجتمعات الإسلامية ونحس بها . وربما وجد مفكر شاب نمطى ورسمى هو فى الحقيقة مفكر ، لكن الطريق إلى الجماهير مسدود أمامه ، فلا يستطيع أن يتحدث معها ، وكأنما لا توجد ثقافة أو عقائد مشتركة بينهما ، وكأن لغة كل منهما غريبة بالنسبة للغة الآخر .

وينبغى للمفكر أن يدرك وأن يعلم أن القوى الرجعية المنحرفة — التى كانت دائما معادية للبشر تمتطى كواهلهم وتسيطر على مصائرهم — استخدمت الدين كسلاح بتار لخداع الناس وصرف أحاسيسهم عن مصائرهم الحالية ، وحصرهم فيما يتعلق بالماضى ، وتبديل المشاكل الحقيقية العينية عندهم إلى مشاكل ذهنية وجذب اهتمامهم باسم الدين من مرحلة ما قبل الموت إلى مرحلة ما بعد الموت وذلك لكى

تحول بين المسلمين ومزاولة حياة حرة كريمة فوق الأرض ، وتنقل مثلهم التى يتوقون إلى تحقيقها فى هذه الحياة إلى الحياة الآخرة ، ونتيجة لذلك فهم يصورون الدين — وهو من أعظم الطاقات المعنوية التى تدفع الناس إلى الكفاح فى حياتهم الدنيا — فى صورة توجه الأنظار والأسماع والقلوب من الحياة الدنيا إلى الآخرة ، واعتبروا التفكير فى الحياة الدنيا نوعا من الفساد والانحطاط باسم الدين ، ونشروا فى المجتمع نوعا منحرفا من الزهد والميل إلى الآخرة .

ويحس المفكر اليوم بكل هذه القوى ويعرفها ، لكنه لا يعرفها المعرفة الصحيحة الواعية ، ومن هنا ، فإن النتيجة التى يتوصل إليها هى أن الدين يلعب دورا منحرفا فى المجتمع ، وأنه عامل انحطاط وتضليل وصرف عن الحياة المادية والحقيقية ، واستفادت القوى الرجعية الغامضة والأيدى الأجنبية الخفية فائدة هائلة من هذه القوة الجبارة فى العمل ضد الناس والمفكر معا .

ينبغى للمفكر أن يحذر التقليد والنظر إلى الأمور بسطحية ، وعليه أن يفهم أن الدور المنحط الذى يقوم به الدين السائد الآن بين الجماهير ، لا علاقة له بالدين الإسلامى أو الثقافة الإسلامية الحقيقيين اللذين يرسيان قواعد مجتمعة ، وأن تجربة اللادينية التى استخدمت فى مقاومة المسيحية فى العصور الوسطى ، لا يمكن أن تطبق على الإسلام سواء فى ماضيه أو فى حاضره .

وعلى المفكر فى المجتمع الإسلامى أن يكون عالما بالإسلام ، هذا أمر حتمى ولا مناقشة فيه مهما كان دينه ومهما كانت عقيدته ، وإن فعل فسوف يحس فجأة بحالة ثورية مدهشة غير متوقعة ، وسوف يتنبه إلى مأساة عظيمة قد حدثت ، وهى كيف أن المفكرين الآخرين قد ضيعوا أوقاتهم وأفسدوا مواهبهم ونبوغهم ، وضللوا الناس نتيجة لـ « سوء البدء » ، وكيف أنهم تسببوا فى مأساة عظيمة بسوء فهمهم وتخبطهم وخطلهم وعدم معقوليتهم ومنطقيتهم فى الربط بين الأشياء .

المأساة كامنة فى أن أولئك الذين سيطروا على الدين فى القرنين الأخيرين أو القرون الثلاثة الأخيرة ، قد جعلوه فى صورته الجامدة التى نراه عليها الآن ، وأن المفكرين الذين يعلمون عصرنا واحتياجات جيلنا وزماننا لا يعلمون ما الدين ، ومن هنا لم يستطع مجتمعنا الوصول إلى وعى يمنحه الخلاص ، بالرغم من أن لديه الإسلام والثقافة والتاريخ التى يمكن أن تمنحه الخلاص ... وقد أخطأ المفكر لأنه يرى أن

تأثير المسيحية فى القرون الوسطى والإسلام الموجود الآن فى مجتمعه متشابهان بالفعل ، ونهض لمقاومته لذلك كمفكرى القرن التاسع عشر على أساس أن الإسلام والمسيحية متشابهان ... إن القوى الرجعية هى التى أوجدت هذا الخطأ .

ومن هنا ، بدلا من أن يكون المفكر مترجما لأعمال ثقافية غربية لا تتفق أبدا مع عمل الجماهير عليه أن يقوم باستخراج هذه الروح القوية التى تبعث الحياة والموجودة فى الثقافة الحية الحاضرة وفى لب المجتمع وإحساس الجماهير حارةً ذاتَ حركة وتنقيتها وكشفها .

... وإذا كنت مؤرخا أو فيلسوفا تستطيع أن تفسر كيفما تشاء وأن تنظر إليه من أية وجهة تشاء ، لكنك إذا كنت مفكرا لا تستطيع أن تنظر إلى الدين رؤية ذهنية وعلمية مطلقة ، اكتشف بنفسك الدور الاجتماعى الخاص بدينك ، فإن خطأك ليس من قبيل خطأ أحد الكتاب ، إنه خطأ مرشد اجتماعى ، خطأ محرر اجتماعى ، خطأ وارث النبى ومواصل طريق أنبياء التاريخ .

إذن وعلى سبيل الخلاصة ينبغى أن أقول : إنه على أساس الثقافة الموجودة فى مجتمعنا ، ومعرفة المفكر للمسئوليات والأهداف التى ينبغى أن يؤمن بها ، وعمله الذى يعد « نقلا للتناقضات الاجتماعية من تيار المجتمع إلى إحساس مجتمعه ووعيه » ، ومسئوليته التى تشبه مسئولية الأنبياء فى تنوير مجتمعه وهدايته ، وعلى أساس هذا الشرط الذى يقضى بأن « على كل مفكر أن يكتسب أدوات عمله ومواده الخام من الحياة الاجتماعية لمجتمعه وعصره » واعتقادا بأنه « لا يوجد مفكر عالمى عن طريق العلم بقيم مشتركة وأسس مشتركة » ومع التجارب المرة التى بين أيدينا « نتيجة لأنواع الاشتباه فى الأخذ ، وبيان روابط مشتبه فيها على أيدى أشباه مفكرين » ، ونتيجة لما توصلنا إليه عن « غربة المفكرين الذين استفتحوا عملهم بمعارضة الدين تقليدا لمفكرى أوربا ، وعزلة هؤلاء المفكرين ، وتسببهم فى التجاء الناس إلى كشف أخطر القوى المضادة للشعوب وأكثرها رجعية » واستدلالا من أنه « كلما كان المفكر مهملا للدين — وهو الروح المسيطرة على المجتمع — لم يلق المجتمع بالا إلى مسئوليته » وأيضا بسبب أن « معارضة الدين بالنسبة للمفكر الواعى تحرم المجتمع من الوعى ومن الاستفادة من أفكار الجيل المفكر وشبابه » واستدلالا من أن المفكر « يستطيع — نظرا للرؤية الشاملة والوعى الخاص عنده — أن يلعب أعظم الأدوار

وأعمقها تأثيرا فى منح المجتمع الوعى والحركة والإيمان ، أكثر مما يمكن للعلماء ، وذلك بسبب التوقعات الكثيرة التى تنتظرها الجماهير من مفكرها حتى ينبهها إلى قوى الخطر والرجعية والتعفن والسلفية والفرقة » ، وأيضاً بسبب اعتقادنا فى أن « الروح المسيطرة على الثقافة الإسلامية قائمة على أسس من العدل والإرشاد ، وأن هذا الدين — خلافا لكل الأديان الأخرى — يعلن حرب الدين على الدين وعدم الإيمان بالأديان الأخرى وإلغاءها » ، وإلى جوار ذلك — وهذا من حسن الحظ — فإن مجتمعنا قائم على أساس « دين ورؤية يعدان المثل والقدوة لكل بشر العالم اليوم لأنه يحتوى على تقليد الاستشهاد ، وأن قديسى هذا الدين لم يتحللوا قط فى الصوامع والأغوار ، لكنهم استشهدوا جميعا فى سجون الظلم وساحات النضال » .

بناء على كل هذا ، فإن على المفكر فى هذا المجتمع ، وفى هذه اللحظة أن يبدأ من الدين لتحرير الناس وهديهم ، وإيجاد عشق وإيمان وفوران جديد وتنوير للأذهان والأفكار ، وإطلاع الناس على قوى الجهل والخرافة والظلم والانحطاط فى المجتمعات الإسلامية ، يبدأ من الدين بمعنى هذه الثقافة الدينية الخاصة ، وهذا الفهم والتفسير الصحيح والمباشر ، لا ما هو موجود وما ترونه أمامكم ، بل هو يناقضه تناقضا تاما ، بل هو يسعى فى القضاء على ماترونه أمامكم .

ينبغى للمفكر القيام بحركة بروتستانتية إسلامية ، حتى يستطيع أن يمنح مجتمعه فورة من الفكر الجديد والحركة الجديدة مثلما فعلت البروتستانتية المسيحية التى فجرت أوروبا فى العصور الوسطى وقمعت كل قوى الانحطاط التى أصابت فكر المجتمع بالجمود والركود باسم الدين .

وخلافا للبروتستانتية المسيحية التى لم يكن فى يدها شيء فاضطرت إلى أن تصنع من مسيح السلام والوئام مسيحا ثوريا ومسئولا وعالميا ، فإن البروتستانتية الإسلامية ذات عوامل متراكمة من العناصر المليئة بالحركة والتنوير والثورة وصنع المسئولية والعالمية ، وأكثر تقاليد ثقافته أصالة تقليد الاستشهاد والكفاح والنضال الإنسانى ، ولها تاريخ ملىء بالنضال بين العدل والظلم والمفاهيم التى تقوم بالتنوير وتصنع المسئولية وتدافع عن حرية الإنسان ، وبنيتها مليئة بهذه العناصر ، ومن ثم فإن نقطة انطلاق المفكر ومسئوليته فى إحياء مجتمعه ومنحه الحركة هى تأسيس بروتستانتية إسلامية حتى :

١ ــ يقوم المفكر ــ وهو المهندس الثقافى فى المجتمع ــ باستخراج الكنوز الثقافية العظيمة لمجتمعنا وتنقيتها ، وتبديل هذه المواد التى سببت الانحطاط والجمود إلى طاقة وحركة .

٢ ــ ينقل التناقضات الاجتماعية والطبقية من باطن مجتمعه إلى ضمير هذا المجتمع ووعيه بالقدرة المتاحة له عن طريق الفن والكتابة والمحاضرات وغيرها من الامكانات ، ويلقي وعيه الاجتماعي ، وعلمه النبوى الباعث للحياة فى ليل الناس وشتائهم ، هذه هى نفس النار الإلهية التى يهبها بروميثيوس للإنسان .

٣ ــ يعقد جسرا من القرابة والألفة والتفاهم والمشاركة اللغوية بين « جزيرة أهل الفكر » و « شاطىء الناس » اللذين ابتعدا كل عن الآخر ، ويزداد ابتعادهما بمرور الوقت ، وذلك ليجعل الدين الذى نزل فى الأصل للحياة والحركة فى خدمة الحياة .

٤ – ينزع سلاح الدين من أيدى القوى التى سلحت زورا بهذا السلاح حتى تمارس سلطانها وتدافع عن سيطرتها ، وبهذه الوسيلة يجرد معارضيه من أسلحتهم ، وتكون القوة اللازمة لتحريك الناس فى يده .

٥ ــ يشل قوى الرجعية ــ وهى القوى التى لا يزال المفكر يقوم بتعضيدها ــ عن طريق القيام ببعث ونهضة دينية ، أى عودة إلى دين الحياة والحركة والقوة والعدالة ، ويقوم بتخليص الناس من الأسباب التى أدت إلى تخديرهم وتوقفهم وانحرافهم وخداعهم ، ويجعل نفس هذه العناصر وسيلة إحياء وتوعية وحركة ونضال ضد الخرافات ، واستنادا على ثقافته الأصلية يقوم بتجديد مولده وإحياء شخصيته الثقافية ، ويحدد هويته الإنسانية ، وبطاقة هويته التاريخية والاجتماعية فى مواجهة الهجوم الثقافى للغرب .

٦ ــ وأخيرا بتأسيس حركة « بروتستانتية إسلامية » وبخاصة شيعية – فالتشيع هو مذهب الاعتراض وأسسه هى : الأصالة والمساواة والإرشاد ، وتاريخه : الجهاد والاستشهاد المستمران ــ تبدل الروح التقليدية المخدرة الاستسلامية للدين الفعلى الموجود عند الجماهير ، إلى روح اجتهادية واندفاعية واعتراضية ونقدية ، ويستخرج هذه الطاقة العظيمة المتراكمة فى أعماق مجتمعه وتاريخه ، ويقوم بتصفيتها ،

ويهب المجتمع منها مواد مولدة للحركة وعناصر باعثة للحرارة ، فينور عصره ويوقظ جيله .

ومن هنا أقف بينكم يا طلابى كمعلم متألم ، إذ نهضت من أعماق آلام التاريخ وتجاربه ، ومن صميم أهلى ، وأنا آمل فى أن يصل المفكر إلى إيمان جديد ، وأن تصل الجماهير إلى وعى فوار مترقٍ ، لأن الجماهير فى حاجة إلى الوعى ، أما المفكر عندنا فهو فى حاجة إلى الإيمان .



حواشي المؤلف والمترجم

١ — المقصود هنا النظرة التى تخالف رؤية المفكرين الجامدين المتحجرين الأوائل للماركسية ، أولئك الذين روجوا ماركسية متحجرة ، نشأت تحت تأثير الروح التجريبية العلمية للقرن التاسع عشر ، فرأوا أن العوامل الاجتماعية والطبقية هى الخالق المطلق للإنسان ، وهناك مذاهب ماركسية تعترف الآن بدور الإنسان كإرادة ووعى فى مواجهة الحتمية التاريخية ، وسلطة البيئة وتسلط الإنتاج والطبقة قل هذا الدور أو كثر ، مهما كان ذلك أبطأ وأقل فى النظرية لكنه أكثر وضوحاً وأقوى فى العمل ، ومنذ لينين فصاعدا وخاصة بعد انتصار الثورة الصينية ، وخاصة فى مواجهة هذه الواقعية غير القابلة للتوجيه فى آسيا وأوربا الشرقية وأمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا ، التى أصابت نظرية الحتمية التاريخية والتحليلات العلمية الماركسية بلطمة شديدة فى زماننا ، كيف أنه فى المجتمعات الصناعية التى تتدهور فيها الرأسمالية ، كيف تقطع البروليتاريا المتكتلة والقوية الغربية طريقاً ، غير الخط العلمى الحتمى للتاريخ ، منذ عصر برودين وماركس وتميل إلى المحافظة ، وعلى العكس فى المجتمعات الأمريكية اللاتينية والأفريقية والأسيوية التى لم تصل فى الأغلب الأعم إلى مرحلة الحكومة البورجوازية ، وحتى لم تكتمل فى بعضها ملامح الإقطاع ، وفى بعضها تسيطر نظم قبلية بل ونظم الصيد والبداوة والرعى والزراعة التقليدية ، كيف أن هذه النظم تعتنق الاشتراكية ، فى نفس الوقت الذى تقوم فيه الثورة وتزداد روح الإحياء القومى ومقاومة الاستعمار ، وهذان المصيران المتناقضان للحتمية التاريخية فى العالم الثالث والعالم الرأسمالى ، يثبتان دور الإرادة والوعى الإنسانى والقيادة الفكرية والسياسية فى تغيير السببية المادية للتاريخ ، وحتى الماركسيون أنفسهم بعد أن يئسوا من البروليتاريا الغربية ، بات توقعهم « للثورة البروليتارية » محصورا فى الزراع والقبائل والبورجوازية الصغيرة والمفكرين فى المجتمعات المتخلفة والمستعمرة ، ويزداد هذا التوقع يوماً بعد يوم . إن فلسفة التاريخ والتحليل الحتمى لعلماء الاجتماع الثورى والصراع المادى والطبقى وانتصار البروليتاريا على الرأسمالية ، أمور كلها خاصة بالعرض فى الكتب والنظريات والأبحاث الأيديولوجية ، أما عملياً ، فالأمور موكولة بالإرادة والوعى والتربية الفكرية الإنسانية وخلق الحركات والقيادة ، ومن هنا كان الاتجاه إلى

موضوعات بناء الذات الفردية ، وتربية القيم الإنسانية وخلق الإنسان الثورى ، وهذا هوالدرس الذى تعلموه من الدين . المؤلف .

على شريعتى :

فيلسوف الثورة الإيرانية الأول . ولد سنة ١٣١٢ هـ (١٩٣٣) لأب من كبار رجال الدين المفكرين ، وتخرج فى كلية الآداب جامعة مشهد ، ثم أوفد فى بعثة إلى فرنسا ، حيث نال الدكتوراه فى العلوم الاجتماعية ، وعمل مدرساً فى جامعة مشهد ، لكن السلطة اعتبرت محاضراته خطراً عليها ، وطرد من الجامعة لكنه لم يشأ أن يبتعد عن إيران ، فقد كان يرى أن رسالته الأولى داخل بلده ، وانتقل إلى طهران حيث زاول نشاطه الفكرى الذى يدعو إلى تجديد فى الفكر والتشيع وثورة على الطغيان ، وظل يلقى المحاضرات والدروس ويؤلف الكتب فى حسينية الإرشاد ، وتعرض للاضطهاد من قبل السلطة ورجال الدين المتحجرين معاً ، وغادر إيران إلى لندن (١٩٧٧) حيث توفى بعد قليل ميتة مشكوكاً فيها . ورفضت حكومة الشاه السماح بدفن جسده فى موطنه ، فدفن فى الحرم الزينبى فى دمشق . وبالرغم من قصر عمره ، فإن شريعتى ترك ثروة هائلة من المؤلفات والكتب والمحاضرات التى طبعت فى كتب ومن أهم أعماله : خود سازى إنقلابى وكوير « بدرمادر مامتهميم » و « ياد وياد آوران » و « محمد ازهجرت تاوفات » ودروس « إسلام شناسى » التى جمعها فى حوالى عشرين مجلداً و « شهادت » و « انتظار » و « على : وحدت مكتب عدالت » و « على ازديدكاه فاطمة » و « على : إنسان كامل » والبحث المترجم « بناء الذات الثورية » مقال طويل منشور فى كتاب يحمل نفس الإسم .

(٢) التين : ٤

(٣) ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون** ﴾ الحجر (٢٨) .

(٤) الشمس (١ ــ ٧) .

(٥) الشمس (٧ ــ٨) .

(٦) المقصود الحسين بن منصور الحلاج شهيد الصوفية الأكبر ، اتهم بالزندقة والقول بالحلول ، وأعدم بعد أن كفره الفقهاء فى بغداد سنة ٣٠٩ هـ . (لمعلومات أكثر أنظر : كشف المحجوب للهجويرى ترجمة كاتب هذه السطور ، وسيرة ابن خفيف الشيرازى لنفس المترجم والمنحنى الشخصى للحلاج لماسينيون ترجمة عبد الرحمن بدوى فى شخصيات قلقة فى الإسلام) .

(٧) يعتبر مزدك صاحب أول حركة اشتراكية فى التاريخ ، ظهر فى عهد قبادين بن فيروز الساسانى (٤٨٨ ــ ٥٣١ م .) فى عهد بلغ فيه التحالف بين رجال الدين والأشراف قمته

ومنيت الدولة بهزائم حربية ساحقة ، وقامت الحركة على أساس توزيع الثروة ، وإلغاء الفوارق بين الطبقات ، وقد مال قباد إلى الثورة فى البداية للحد من سلطة الأشراف ورجال الدين الزرادشتى ، غير أن ثورة مضادة قامت ضده اضطرته إلى الهروب إلى بلاد الهياطلة ، ثم عاد إلى عرشه على حرابهم ، وكانت ثورة مزدك تواصل تقدمها مع بعض العنف وانضم إليها الأشراف للخلاص من مزدك وقباد معاً . وانقلب مزدك على الثورة لاختلاف رؤسائها معه فى مسألة ولاية العرش ، فدعا كبار المزدكية إلى قصره ، ثم دبر لهم مناقشة مع رجال الدين الزرادشتى ، ثم فتك بهم ، بينما كان جنوده يفتكون بالمزادكة ، الذين كانوا فى انتظار رؤسائهم خارج القصر . (أنظر : إيران از آغازتا إسلام : تأليف كيرشمن الترجمة الفارسية لمحمد معين ، وإيران فى عهد الساسانيين تأليف كريستنسن ، الترجمة العربية ليحيى الخشاب) .

إلا أن مبادىء مزدك بشأن تقسيم الثروة وإلغاء الفوارق الطبقية عاشت طويلاً ، وأثرت فى بعض الحركات الإسلامية خاصة حركات غلاة الشيعة .

(٨) نهج البلاغة : ص (٦٦) .

(٩) التكاثر (١ ــ ٢) .

(١٠) « فبعث فيهم رسله ، وواتر إليهم أنبياءه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته » نهج البلاغة : (٣٣) .

(١١) النبأ (٤٠) .

(١٢) النجم (٣٩ ــ ٤٠) .

(١٣) البقرة (٢٥٦) .

(١٤) نهج البلاغة : (٩٩٣ ــ ٩٩٦) .

(١٥) فرانز فانون : من مواطنى جزر الأنتيل بالكاريبى ، كان طالباً فى فرنسا يدرس الطب النفسى ، وحين بدأت حرب التحرير الجزائرية ، انضم إليها مقاتلاً بالرغم من حاجة الحركة إليه للعلاج النفسى ، وكان يكتب المقالات فى جريدة المقاتل (لسان حركة التحرير الجزائرية) كما كتب « الجحيم على الأرض » توفى بالسرطان ، ودفن فى أرض الجزائر إبان المعركة طبقاً لوصيته . انظر . على شريعتى : خود سازى انقلابى : (١٨٩ ــ ١٩٢) .

(١٦) سيد حسن تقى زاده : من المجاهدين والمفكرين الإيرانيين المعاصرين ، كان عضواً عن تبريز فى المجلس الأول النيابى ، وبعد حل المجلس الثانى ، هاجر من إيران وكون رابطة القوميين الإيرانيين فى برلين ، حيث أخذ يدافع عن القضية الإيرانية فى المحافل الدولية ، وبالرغم من أنه

صوت فى المجلس النيابى ، ضد تولى رضا شاه الملك ، فقد تعاون معه فيما بعد فى برنامج تغريب إيران .

(١٧) ميرزا ملكم خان انظر : القسم الأول ــ الفصل الأول من الباب الثانى .

(١٨) هو آية الله الخمينى .

(١٩) المقصود سيد جمال الدين الأفغانى .

(٢٠) أنظر الفصل الثانى من الباب الأول .

(٢١) أنظر الفصل الثانى من الباب الأول .

(٢٢) المقصود : حاجى ملا طباطبائىً : انظر الفصل الثانى من الباب الأول .

(٢٣) ملك المتكلمين : أحد كبار رجال الدين الذين اشتركوا فى الثورة الدستورية واستشهد فيها .

(٢٤) انظر الفصل الثانى من الباب الأول .

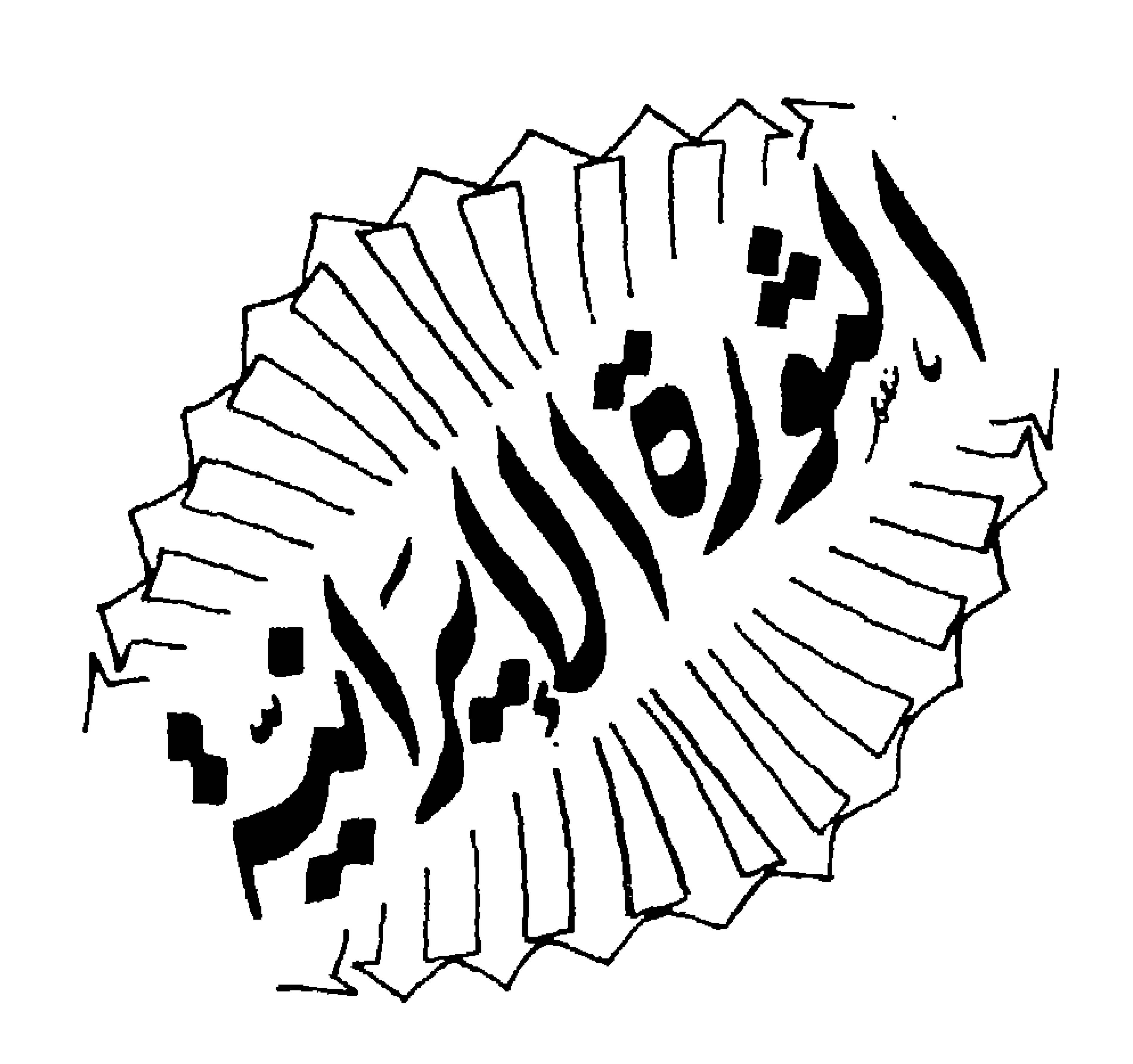
(٢٥) انظر الفصل الأول من الباب الأول .

(٢٦) المقصود الشاعر العربى : دعبل الخزاعى . انظر : شوقى ضيف : العصر الأموى .



الباب الثانى

الفكر والحركة
دراسة فى فكر
آية الله الخمينى ونضاله



الفصل الأول

حكم العلماء بين كتابى كشف الأسرار والحكومة الإسلامية

كنت أظن عندما أصدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب « أغسطس ٧٩ » أن دور آية الله الخمينى ينحصر فى أنه الدافع والمحرك ، وكنت أرى آنذاك أن الثورة إن شبهت بإنسان فإن عقلها شريعتى ، وبدنها جماهير الشعب الإيرانى أما الروح التى بها عاش العقل وتحرك البدن فهو روح الله الموسوى الخمينى ، لكن عام الثورة وما تلاه من أحداث أثبتا ــ بما لا يدع مجالا للشك ــ أن الرجل كان ذا دور فكرى مهم ، وأن كتابه الحكومة الإسلامية لم يحتو على فكر تولد من مركز قوة ، أو ظهر ليغلب جناحا على جناح ، بل إنه الفكر الذى قدمته الحوزة بعد حوالى مائة عام من إنشائها ، وبعد التجارب المريرة الفاشلة ، فضلا عن أن هذا الفكر لم يكن وليد دخول آية الله الخمينى إلى ساحة النضال السياسى ، بل إن العكس هو الصحيح ، إذ دخل آية الله الخمينى ساحة العمل وهو مسلح بهذا الفكر الذى ترجع أصوله عنده إلى كتابه « كشف الأسرار » الذى صدر عام ١٩٤٤ ، والذى كتبه الإمام بعد سقوط رضا خان ، وعندما ارتفعت دعاوى الجاهلية يقودها أحمد كسروى وأمثال أحمد كسروى ممن لم يحمدوا للطاغية إلا عداءه الفاضح للإسلام ، وأرادوا أن يروجوا لها بعد سقوط منفذها وممثلها ، وفهم الامام – وكان آنذاك فى أوائل العقد الخامس من عمره – الرسالة والاتجاه وقام يدافع ويمحو وصمة الرجعية التى كان الإسلام يوصف بها ويبين دوره الرسالى والجهادى ، ملبيا دعوة مدرسة كسروى التى كانت تطالب العلماء بالبحث عن « الدين الحق » (١)

وبين مرحلتى مدرس وكاشانى اللذين كانا يصدقان أنه كان من الممكن الدفاع عن الإسلام فى إطار الدستور الغربى وتحت قباب المجالس النيابية ، ظهر صوت الخمينى المتفرد لكى يطرح الإسلام كنظرية سياسية مستقلة بذاتها دون أن ينظر فى إطار قوانين أو يحتاج إلى أغلبية من أصوات « النواب » ، كان يريد أن يقول ببساطة : هذا هو الإسلام ، وإذا كان الإسلام هو هذا ، فلا شأن إلا لمن يفهمونه ــ أى العلماء ــ بتطبيقه .

ويبدأ الامام كتابه المهم « كشف الأسرار » بتحليل مختصر لأسباب السلوك الشائن الذى سلكه رضا خان تجاه الاسلام وعلماء الاسلام ، وتعرضهم بالذات لأكبر قدر من قسوته وفظاظته ، وليس هذا إلا لأنهم الفئة الوحيدة التى تستطيع كشف ألاعيبه ، والتى إن سكتت فلن يرتفع صوت آخر ، ويرى الإمام أن الفقهاء لم يسكتوا ، والدليل سيد حسن مدرس وعشرات من الفقهاء والعلماء فى أنحاء إيران ، لكن « الأمة » لم تشدد من أزرهم فضاعت صرخاتهم هباء ، لأن تلك الأمة لم تكن تعرف حقوقها التى كفلها لها الإسلام ، وقد آن الأوان لتعرف الأمة ماذا يعنى أن تحكم بالإسلام وما حقوقها فى الإسلام ومن ثم كان هذا الكتاب[٢] .

ونضرب صفحا عن الأجزاء الأولى من الكتاب التى تتحدث عن تاريخ الشيعة الأثنى عشرية وعقائدهم ، وإن كان هذا الجزء يوحى لنا بشراسة الحملة التى كانت موجهة إلى المذهب وممن ينتسبون بالإسم إليه ، ونصل إلى الجزء الذى يهمنا من الكتاب وهو الخاص بالإسلام السياسى ووظيفة رجل الدين مما يمثل تطابقا للفكر الذى طرح فيما بعد فى كتاب « الحكومة الإسلامية » بتطور طفيف ، وكما أن كتاب الحكومة الإسلامية قد كتب دفاعا عن إسلام « غيب قرونا » وكان يحاول آنذاك « سنة ١٩٧٠ » العودة إلى الحياة السياسية ، وكما كان كتاب « الحكومة الإسلامية » قد ألف كبيان لموقف يختلف عن موقف أحد المراجع العظام آنذاك وهو آية الله الخوئى الذى سئل عن الدور السياسى للفقيه فأجاب بأنه لا دور له ، ولم يقتنع السائل وتوجه بالسؤال إلى آية الله الخمينى الذى أمهل سائله أسبوعين للبحث ثم أجاب بما جمع فى « الحكومة الإسلامية » [٣] ، كتب كتاب « كشف الأسرار » من موقف دفاعى أيضا ضد كتاب ذكر الإمام أن مؤلفه من أتباع كسروى ، وبالرغم من أنه نقل معظم الكتاب المردود عليه فإنه لم يذكر اسم مؤلفه قط ، وسواء كان

الكتاب من تأليف أحد أتباع كسروى أو من تأليف كسروى نفسه ، فقد حاول مؤلفه أن يلقى تبعة كل ما فى إيران من تأخر على كواهل رجال الدين ، وكرر — كما ذكر الإمام فى رده — بعض دعاوى البهائية وأنصار الزرادشتية ، وكان كسروى نفسه منهم ، وبالرغم من أن الكتاب المردود عليه فى افتئاته وجهله لم يكن يستحق كل هذا الرد من الإمام فإنه — بتحامله وجهله وليه للحقائق وعدم فهمه لأبسط مبادىء الإسلام — حفز الإمام على الرد والاستفاضة ، فكانت هذه الوثيقة التى تبين فكرا ناضجا وواضحا وحاسما فى هذه المرحلة المبكرة من حياة الإمام .

ويبدأ ما يهمنا فى هذا المجال بالمقال الثالث فى الكتاب والذى يتناول رجل الدين ودوره ، وكعادة الإمام يذكر السؤال الوارد فى الكتاب المردود عليه وهو : هل ما يقال من أن المجتهد فى زمان الغيبة هو نائب الإمام قول حقيقى أم لا ؟ وإذا كان القول حقيقيا فما حدود هذه « النيابة » ؟ وهل تتضمن حدودها « الحكم والولاية » ؟ ويبدأ الإمام رده بأن الذى يرتكب جرما مهما كان صغيرا يوصم بصفة « المجرم » ومن ثم فأخلق أن تضاف صفة الإجرام إلى مغتصب السلطة ، لكن الإجرام كلما ازداد وتوسع وضعت له أسماء أرق وأجمل ، وهذا هو المقصود بالولاية الظالمة ، فإذا كان رأسها مغتصبا ، أصبح هو العادة ، فالوزراء يولون غصبا ، والنواب يدخلون المجلس غصبا ، ويصبح الغصب هو القاعدة ، وأحكام الغاصب تدخل فى أحكام الجور ، ومع كل ذلك فالحكومة لازمة لكل أبناء البشر ، ولما كان الله سبحانه وتعالى قد أرسل الأنبياء وجعل طاعتهم لازمة على بنى البشر ، أصبح على البشر ألا يطيعوا سوى الله ، لأن أحكام الله ثابتة بينما أحكام البشر عرضة للتبديل والتغيير ، فإذا كانت صالحة فلماذا يغيرون فيها ويبدلون ؟ [٤] كما أن الأدلة على وجوب حكم الله من القرآن الكريم لا حصر لها ولا عدد ، وكلها تؤدى إلى نتيجة واحدة وهى أنه لا حق فى الحكم إلا لله تعالى ، ولا قانون إلا الشريعة ولا طاعة إلا للرسول صلى الله عليه وآله والأئمة من بعده ، ثم الفقهاء من بعدهم ، وليس المقصود من هذا أن يكون الفقيه هو الملك وهو الوزير وهو القائد العسكرى ، ولكن المقصود منه أنه كما يتشكل مجلس من المؤسسين فى بلد ما يقوم بتشكيل الحكومة وتولية الملك أو عزله ، وكما يتكون مجلس نواب من عدة أشخاص « يعلمهم الله » ومعهم عدة قوانين أوربيـة لا تناسب الأمة ومع ذلك يجبرون الناس على تطبيقها ويعتبرونها « مصونة لا تمس » ، أولى أن يكون هذا المجلس من الفقهاء المتدينين العلماء بأحكام

الله المتصفين بالعدل والمتجردين عن الهوى وغير المهتمين بالجاه والسلطان ، ولا هدف لهم منه إلا تنفيذ أحكام الله ، فإذا كان المجلس على هذا النحو فإنه يقوم باختيار حاكم عادل يتجنب الجور ولا يخرج على أحكام الله ، ولا يعتدى على أموال الناس وحرماتهم وأرواحهم ، ومن هنا لا يمكن أن يكون هناك صدام بينهما « الأمة والحاكم »[٥] .

ويقوم الإمام بتأصيل « ولاية الفقية » فى زمن غيبة الإمام ، فيذكر الروايات التى وردت بنصها فيما بعد فى كتاب الحكومة الإسلامية – وبينه وبين كشف الأسرار حوالى ثلاثين عاما[٦] – ومنها رواية الشيخ الصدوق عن الإمام الغائب « وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا فإنهم حجتى عليكم وأنا حجة الله عليهم » كما ينقل رواية أخرى وردت عن الشيخ الصدوق « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارحم خلفائى ، قيل : ومن خلفاؤك يارسول الله ؟ قال : الذين يأتون من بعدى ويروون حديثى وسنتى » ، ومنها أيضا الرواية المشهورة باسم « مقبولة ابن حنظلة » وفيها « من كان منكم قد روى حديثنا ونظر فى حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكما فإنى قد جعلته عليكم حاكما ، فإذا حكم بحكمنا ولم يقبل منه فإنما استخف بحكم الله وعلينا رد ، والراد علينا راد على الله وهو على حد الشرك بالله » ورواية تحف العقول عن سيد الشهداء عليه السلام ، وفيها أن « مجارى الأمور والأحكام على أيدى العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه »[٧] ويضيف الإمام تعليقا على نفس الرواية فى كتاب الحكومة الإسلامية : ويستفاد من هذه الرواية أمران : أحدهماولاية الفقيه والآخر ضرورة قيام الفقهاء بفضح حكام الجور وزلزلة عروشهم وإيقاظ الناس وتوعيتهم ثم الوصول إلى تحطيم الكيان الجائر وإقامة كيان حكومى إسلامى شرعى ، ثم يورد نص خطاب الحسين عليه السلام للعلماء كاملا : « ثم أنتم أيها العصابة عصابة بالعلم مشهورة وبالخير مذكورة ، وبالنصيحة معروفة ، وبالله فى أنفس الناس مهابة ، يهابكم الشريف ويكرمكم الضعيف ، ويؤثركم من لافضل لكم عليه ولايد لكم عنده ، تشفعون فى الحوائج إذا امتنعت عن طلابها وتمشون فى الطريق بهيبة الملوك وكرامة الأكابر ، أليس كل ذلك إنما نلتموه بما يرجى عندكم من القيام بحق الله وإن كنتم عن أكثر حقه تقصرون ؟ فاستخففتم بحق الأمة ، فأما حق الضعفاء فضيعتم ، وأما حقكم بزعمكم فطلبتم ، فلا مالا بذلتموه ، ولا نفسا خاطرتم بها للذى خلقها ، ولا عشيرا عاديتموه فى ذات

الله ... وقد ترون عهود الله منقوصة فلا تفزعون وأنتم لذم بعض آبائكم تفزعون ، وذمة رسول الله محقورة ، والعمى والبكم والزمنى فى المدائن مهملة لاترحمون ، ولا فى منزلتكم تعملون ، ولا فيها تعينون ،وبالإدهان والمصانعة عند الظلمة تأمنون ، كل ذلك مما أمركم الله به من النهى والتناهى وأنتم عنه غافلون ، وأنتم أعظم الناس مصيبة لما غلبتم عليه من منازل العلماء لو كنتم تسمعون ، ذلك بأن مجارى الأمور والأحكام فى أيدى العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه ، فأنتم المسلوبون تلك المنزلة ، وما سلبتم ذلكم إلابتفرقكم عن الحق واختلافكم فى السنة بعد البينة الواضحة ، ولو صبرتم على الأذى وتحملتم المئونة فى ذات الله كانت أمور الله عليكم ترد وعنكم تصد وإليكم ترجع ، ولكنكم مكنتم الظلمة من منزلتكم وأسلمتم أمور الله فى أيديهم ، يعملون بالشبهات ويسرون فى الشهوات ، سلطهم على ذلك فراركم من الموت وإعجابكم بالحياة التى هى مفارقتكم ، فأسلمتم الضعفاء فى أيديهم ، فمن بين مستعبد مقهور وبين مستضعف على معيشته مغلوب ، يتقلبون فى الملك بآرائهم ، ويستشعرون الخزى بأهوائهم ، اقتداء بالأشرار وجرأة على الجبار ، فى كل بلد منهم على منبره خطيب يصقع ، فالأرض شاغرة وأيديهم فيها مبسوطة ، والناس لهم حول لا يدفعون يد لامس ، فمن بين جبار عنيد وذى سطوة على الضعفاء شديد ، مطاع لايعرف المبدىء والمعيد ، فيا عجبا .. ومالى لا أعجب والأرض من غاش غشوم ومتصدق ظلوم وعامل على المؤمنين بهم غير رحيم »[^٨] .

هذا هو الخط الفاصل إذن بين الفكرة فى كشف الأسرار ونفس الفكرة فى الحكومة الإسلامية ، فهى فى كشف الأسرار فكرة وحجة ، وفى الحكومة الإسلامية حيث تنقل الرواية كاملة توضع فى إطارها الحركى والسياسى . كما يضيف الإمام إلى هذه الرواية رواية أخرى عن عمر بن حنظلة « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة فى دَيْن أو ميراث ، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة أيحل ذلك ؟ قال : من تحاكم إليهم فى حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت ، وما يحكم له فإنما يأخذه سحتا وإن كان حقا ثابتا له لأنه أخذه بحكم الطاغوت وما أمر الله أن يكفر به ، قال الله تعالى : ﴿ **يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به** ﴾ ... قلت : كيف يصنعان ؟ قال : ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا ونظر فى حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكما فإنى قد جعلته عليكم حاكما » ويخلص الإمام من هذه الرواية على أنها حكم

سياسى يحمل المسلمين على هجر السلطات الجائرة وأجهزتها حتى تتعطل دوائرهم « مقاومة سلبية » كما أن عبارة « قد جعلته عليكم حاكما » لا لبس فيها ولا تأويل ، كما ينقل رواية أخرى فى هذا الباب عن أبى خديجة « بعثنى أبو عبد الله إلى أحد أصحابنا فقال : قل لهم إياكم إذا وقعت بينكم الخصومة أن تحاكموا إلى أحد من هؤلاء الفساق ، إجعلوا بينكم رجلا قد عرف حلالنا وحرامنا فإنى قد جعلته قاضيا ، وإياكم أن يخاصم بعضكم بعضا إلى السلطان الجائر » كما يورد حديثين نبويين صحيحين وردا فى كتب السنة والشيعة على السواء : « العلماء ورثة الأنبياء » و و « علماء أمتى كأنبياء – وفى رواية سنية أفضل من أنبياء – بنى إسرائيل » ويدير مناقشة طويلة حول مفهومى هذين الحديثين بالنسبة لدور الفقيه السياسى مما يطول ذكره . [١٠]

هناك خط واضح إذن يجمع بين الكتابين على طول ما بينهما من زمن ، وسوف نرى من خلال عرضنا لبقية أفكار الكتابين ، أن الإمام ــ فكريا ــ لم يتغير خلال كل هذه السنوات وإن اختلف التعبير بالطبع ، فالكتاب الأول تأمل فكرى ، أما الكتاب الثانى فهو محاولة لوضع نفس هذه الفكرة فى حيز العمل وإثرائها بوضعها على أرض الواقع ، مع ملاحظة أن أفكار الإمام فى كشف الأسرار تتسم بنوع من التفصيل والتحليل ، كما أنه غنى بسمة المقارنة بين ما كان ينبغى أن يكون عليه الحكم وما يراه بالفعل من تجربة رضاخان ، والتى كانت آثارها لاتزال ماثلة للعيان .

ويتدارك الإمام فكرة أن السلطان قد يكون شرعيا بإجازة الفقيه ، فيرى أن هذا أمر مستحيل ، فالفقيه ينبغى أن يكون « كامل الشرائط » كما ينبغى أن يحكم السلطان بما أنزل الله لا بما ورد من أوربا ، كما يذكر أن تجربة الثورة الدستورية لا تزال فى الأذهان ، لقد هب العلماء ــ حتى فى العراق ــ للدفاع عنها ، فماذا كانت النتيجة ؟ ما أن استقرت حتى أخذت بتلابيب الفقهاء ، فليس من المهم أن ينال السلطان رضا الفقهاء ، المهم أنه لايوجد فقيه حقيقى يرضى عن سلطان لاينفذ شرع الله ، فالذى يرضى ليس بفقيه ، فالحق هو حق الله وليس حق السلطان والقانون هو قانون الله وليس قانون السلطان حتى ولو وضع تحت إشراف فقهاء لأن هؤلاء الذين يوافقون على قوانين واردة ليسوا فقهاء فى الأصل . [١١]

ثم ينتقل الإمام إلى قضية أخرى وهى قضية علاقة العلماء بالجماهير ، إذ إن

مؤلف الكتاب المردود عليه رمى رجال الدين بأنهم يفتون بما يرضى العامة لأن « نفقاتهم » تأتى من العامة ، ولذلك فهم أداة فى أيديهم ، هكذا فهم مؤلف الكتاب العلاقة بين رجل الدين كممثل للدين والعامى كمستجير بالدين ، فضلا عن أن السؤال فى حد ذاته يدين السلطة التى تفقد أى احترام وحضور عند شعوبها فتهرع إلى شيوخها وعلماء الدين فيها ، ويجيب الإمام متحدثا عن أوجه دخول رجال الدين وأوجه نفقاتها ، ويرى أن أهم مهمة لرجال الدين هى تشكيل المراكز العلمية التى تدرس العلوم الشرعية وتحافظ عليها ، ويقوم عليها قلة من الرجال ، لأنه ليس فى استطاعة أى إنسان أن يصل إلى مرتبة التدريس فيها ، ففى المراكز الدينية مثل النجف وقم ومشهد « قبل أن يغلقها بهلوى » لم يصل إلى هذه المرتبة أكثر من عشرة أشخاص ، ويرد على سخرية الطرف الآخر من الاجتهاد ، ويفسر له أن الاجتهاد ما هو إلا الإحاطة بالقوانين الإلهية التى تتدخل فى حياة البشر من المهد إلى اللحد ، وهذه القوانين لم تنزل إلا لكى تطبق فى كل زمان ومكان ، ومن الطبيعى جدا أن يسأل المؤمن بها أهلها عنها ، والهيئة الدينية فى الحقيقة عامل مساعد على استقرار الأمور ، فالذى يلجأ إليها هو من المواطنين الشرفاء الذين يهمهم أن تكون كل أعمالهم منسجمة مع الدين ، ولا تفتى الهيئة الدينية « لهم » بل تفتى بما يمليه عليها القانون السماوى الذى درسته ، ولا شأن لها إذا كان هذا القانون يتعارض مع القوانين السارية الجائرة ، أما ما يلغط به الطرف الآخر من سيطرة مالية لرجال الدين فأين هذه السيطرة ؟ .. إذا تم الحساب فسوف يعلم كل جانب من الذى يسلب المسلمين أموالهم حقا ، ثم إن هذا التفاهم المستمر بين من يسميهم الطرف الآخر عامة وبين رجال الدين ليس فى الحقيقة إلا التقاء فى الأهداف : كلاهما يجاهد فى حفظ استقلال الوطن وكف أيدى الأجانب وحفظ الأمن والقضاء على الاستغلال داخله ، كلاهما يسعى إلى أن تكون للوطن شخصية مستقلة خاصة دينية ونظيفة وطاهرة ، ولأن كل هذا غير متوافر فى السلطة الحاكمة فإن « العامة » يهرعون إلى رجال الدين ، وفوق كل هذا يتعيش رجال الدين من بيت المال « الزكاة والخمس » وبيت المال أسس بقانون إلهى يعرفه الناس ويطبقونه ، أما الإفتاء بما يرضى العامة فعلى من يقول هذا أن يدل على مثال واحد ، أو حادث واحد حيث حدث أن أفتى رجل دين بما يرضى العامة على حساب الشريعة .[١٢]، ثم يرد على نقطة أخرى عندما يضرب صاحب الكتاب المردود عليه مثلا باحتفالات عاشوراء التى أفتى المشايخ بتحريمها

ومع ذلك لا يطلبون من العامة الإقلاع عنها ، فيجيب الإمام : لنفرض أنها وما يحدث فيها حرام وقد أفتى فعلا بتحريمها وبأنها ليست من الإسلام فى شىء ، فأين القوة التى تنفذ هذه الفتوى ؟ ما قيمة أية فتوى دون سلطة تنفيذية ؟ ولقد أفتى كثير من رجال الدين بأن كثيرا مما تقره الحكومة وتفعله حرام ، فإذا كانت تعنى بما هو حرام وحلال كل هذه العناية فلماذا لا تنفذها ؟ وشريعة الله موجودة وليست فى حاجة إلى تفسير وتوضيح ، فلماذا لاتقوم الحكومة بتنفيذها وتفوت الفرصة على رجال الدين ؟ إنها فى حاجة إلى سلطة تنفيذية فحسب[١٣] .

وانطلاقا من الحاجة إلى السلطة التنفيذية ، كان الحديث عنها أكثر وضوحا فى كتاب الحكومة الإسلامية ، ويرى الإمام أن هذه النقطة بالذات كانت مدخلا لأن يروج الاستعمار بيننا أنه لا حكومة فى التشريع الإسلامى ولا مؤسسات حكومية فى الإسلام ، وأنه مع فرض وجود أحكام شرعية مهمة فإنها تفتقر إلى ما يضمن لها التنفيذ ، ومن هنا فالإسلام شريعة لاغير ، ويراد بهذا إبعاد المسلمين عن التفكير فى الحكم والإدارة ، فى حين أن المسلمين يعتقدون بالولاية ويعتقدون فى ضرورة أن يعين النبى صلى الله عليه وسلم خليفة من بعده .. وقد فعل فماذا يعنى تعيين خليفة ؟ هل يعنى مجرد « بيان » الأحكام ؟ بيان الأحكام وحده لا يحتاج إلى خليفة ، كان يكفيه عليه السلام أنه بثها بين الناس ، فالحاجة إلى الخليفة إنما تكون من أجل تنفيذ القوانين ، لأنه لا احترام لقانون من غير منفذ ، وفى العالم كله نرى أن التشريع وحده لاينفع ، ولا يؤمن سعادة البشر ، بل لابد من سلطة تنفيذية يعد افتقادها فى أية أمة عامل نقص وضعف .. وهنا تبدو أهمية تشكيل الحكومة ، وتأسيس المؤسسات جزء لايتجزأ من الإيمان بالولاية ، والعمل والسعى من أجل هذا الهدف هو مظهر من مظاهر الإيمان بالولاية .[١٤]

وهناك قضية أخرى تحدث عنها الإمام فى « كشف الأسرار » يختلف عنه ما تحدث به عن نفس الموضوع فى كتاب « الحكومة الإسلامية » ، هذه القضية هى دخول الصالح فى ولاية الجور ، أو مشاركة الصالح لولاة الجور ، ففى « كشف الأسرار » يرى الإمام أنه من المستحب فى هذه النظم الديكتاتورية المدمرة أن يشترك الصالح ليحول دون الفساد وليصلح ما استطاع ، والواجب أن يرجع الناس إلى كتب الفقه ليروا ما تقوله فى أمر اشتراك الصالح فى ولاية الجور ، ويعود إلى عبارة وردت

فى المكاسب لأستاذ الفقهاء الشيخ مرتضى الأنصارى ، يقول الشيخ الكبير : أمران يجيزان الولاية من قبل الظلمة : أولهما القيام على مصالح عباد الله ولا خلاف فى هذا الأمر ، ومثله يوسف عليه السلام ، وكثير من علماء الشيعة الذين خدموا تحت راية العباسيين وكل منهم ــ على حد قول الإمام الصادق ــ يحشر بحسب نيته ، أما الأمر الثانى فهو إذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يتوقف على هذه الولاية [١٥] أما فى الحكومة الإسلامية فلا هدنة ولا تهادن ، وواجب العلماء الأول هو الثورة ، وفى سبيل ذلك يلغى أصلا معروفا من أصول التشيع الإثنى عشرى وهو مبدأ التقية قائلا : « إذا كانت ظروف التقية تلزم أحدا منا بالدخول فى ركب السلاطين ، فهنا ينبغى الامتناع عن ذلك حتى ولو أدى الأمر إلى قتله ، إلا أن يكون فى دخوله الشكلى نصر حقيقى للإسلام والمسلمين » [١٦] والفرق واضح ، فبينما يجوز فى البداية دخول العلماء معية الظلمة لخدمة المسلمين ، ينظر إلى الأمر بشكل أشمل فى كتاب « الحكومة » ، فهو دخول شكلى لم يدع له أى داع وإن كان تقية ، ولاشك فى أن التجارب المريرة فى الفترة مابين تأليف كل من الكتابين قد أثبتت أن ضرر دخول الفقيه فى معية الظلمة أكبر من نفعه ، فهو يشين الهيئة الدينية كلها ، ويمنح الحاكم شرعية لا يستحقها ، ثم يصفى فى النهاية « تجربة الكاشانى مثلا » .

وعن طبيعة الحكومة الدينية يتحدث الإمام رادا على الطرف الآخر الذى لايرى فى الحكومة الدينية بأسا ، على شرط أن تتواءم مع الحياة (!) ثم يضرب صاحب الكتاب فكرة الحكومة الإسلامية من أساسها قائلا إن الفقهاء قد وضعوا أحكام زواج الإنس بالجن وأحكام الموتى من الموت إلى نفخ الصور ، لكنهم لم يكتبوا شيئا عن الحكم وهوالأساس الأول من أسس الحياة ، وببساطة يريد أن يقول إن الفقهاء لم يقدموا برنامجا إسلاميا ، فضلا عن أنه فى الشق الأول من هجومه يفصل فصلا مزريا بين الدين والحياة أو بين دين للدين ودين للحياة : وقد رد الإمام بأنه إذا كان المقصود بالدين المتوائم مع الحياة ، الدين الذى يتواءم مع نمط الحياة الموجود ونظمها ومثلها فلا يوجد شرع يمكن أن يتواءم مع مثل هذه الحياة ، فضلا عن أن الدين لا يتغير لكى يوائم الحياة ، بل على الحياة أن تتغير لتوائم الدين ... أما عن الحكومة فى الإسلام فيكفى أن نتساءل : هل من المعقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم حكم دون حكومة ؟ وهل من المعقول أن يستولى المسلمون على نصف العالم فى نصف قرن دون حكومة ؟ لا ... بل هناك حكومة ذات سلطات تشريعية

وقضائية وتنفيذية ، وذات ميزانية هى بيت المال ، وتنص على الجهاد وحفظ دار الإسلام ، وكل هذه الأمور موجودة فى القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية الشريفة ، وبينما كان القرآن كتاب قانون نجده يدعو إلى تنفيذ القوانين ، وإلا فهل توضع قوانين دون أن تنفذ أو حتى يطالب بتنفيذها ؟ وبناء على ماهو موجود من تصور إسلامى للحكومة فإن أى نظام حكم لا يأخذ به هو نظام جائر وغاصب (١٧).

ويدق الكاتب المردود عليه على تأثير الهيئة الدينية فى نظام الضرائب فى إيران ، فالناس لا يدفعون الضرائب ، وفى نظام التجنيد ، فالناس يتهربون منه ، ويتهم رجال الدين بأنهم يروجون بين العامة أن دفع الضرائب حرام ونظام التجنيد حرام ويرد الإمام مبينا أسس النظام العسكرى فى الإسلام ثم أسس النظام المالى ، ويبدأ بأن رجال الدين ليسوا مسئولين عما يفهمه الناس إنما يتكون الفهم من سلوك الحكومة الموجودة نفسها ، فماذا قدم نظام التجنيد الموجود للوطن إلا أنه أطلق أيدى حفنة من النهابين والمهربين بين الناس يأكلون عرقهم ويسلبون كد أيديهم ويحولونها إلى أملاك وضياع ؟ ماذا يقدمون للشباب المجند إلا تربيته على أساس أن يكون عدوا لأهله ومحو كل أثر للفضيلة فى نفسه ؟ وهناك دول كثيرة لا تأخذ بنظام الخدمة العسكرية الإجبارية فى أوقات السلم .. والجندية فى الإسلام على نوعين : فى وقت السلم وفى وقت الحرب ، ففى وقت السلم يأمر القرآن بالإعداد الشامل والتعبئة العامة ، وهذه التعبئة العامة من الممكن أن تتم فى أى مكان وفى أى وقت ، وإلى جوار العمل المعتاد للمرء ، وبالشكل الذى يمكن للمرء أن يقوم به ، أما النوع الثانى ففى وقت الحرب ، وهو أمر إن لم يقترن بالإيمان فلا نتيجة منه ، وتقوم بالتعبئة الشاملة إدارة مهمة هى إدارة الدعوة الإسلامية التى تأخذ على عاتقها دعوة من تعلموا فنون القتال وقت السلم إلى الاتجاه إلى الجبهة (١٨) ثم يعود الإمام إلى مشكلة الضرائب فيحلل الأمر من وجهة نظر عامة : لماذا يتهرب الناس من دفع الضرائب ؟ ببساطة شديدة لأنها لا تنفق على ما ينبغى أن تنفق عليه ، وعندما يرى الناس أن نتيجة كدهم تحول إلى بنوك الخارج عن طريق عدد من اللصوص الخونة وصلوا إلى كرسى الوزارة أو الحكم بالدسيسة فلابد من ألا يدفعوا ، وعندما يرون أن الموكل بحمايتهم هو الذى يهينهم ويعذبهم فلابد من أن يعادوه لا أن يدفعوا له ، إن الناس يتعاملون مع القانون

بسوء نية لأنهم لايرون من القائمين عليه إلا السوء ، ولأنه قانون غير نابع منهم .. فكيف يلام الناس إذن إذا اتخذوا موقفا من هذه الحكومة أبسطه ألا يمدوها بما يساعدها عليهم ؟ [١٩] والضرائب فى الإسلام على نوعين : إجبارى واختيارى ، والإجبارى على نوعين سنوى ودائم فى وقت السلم والاستقرار واستثنائى وهو فى أوقات الحروب أو الثورات وهو بلاحد ، أما الاجبارية فهى : الخراج ، والخمس ، والزكاة ، والجزية ، وأملاك الذين يموتون دون وارث ، وأوجه إنفاقها كلها محددة ، فإلى جوار ما ينفع المسلمين جميعهم من أمن وتعمير ينفق منها على من لا يستطيعون الكسب ويؤدى منها قرض المدين . [٢٠]

ما الذى أضافه الإمام إذن فى كتاب الحكومة الإسلامية ؟ هناك عدة نقاط بالطبع مضافة إلى الكتاب على أساس أنه دستور ثورة وإعلانها ، فبينما تحدث فى كشف الأسرار عن الحكومة والقضاء والقانون ، تركز الحديث فى الحكومة الإسلامية على الأسلوب الذى يمكن أن يؤدى إلى تطبيق هذه الأفكار ووضع أساس لمشروعية الثورة : فيرى أن الشرع والعقل يفرضان علينا ألا نترك الحكومات وشأنها ، والدلائل على ذلك واضحة ، فإن تمادى هذه الحكومات فى غيها يعنى تعطيل الإسلام وأحكامه ، فى حين توجد نصوص كثيرة تصف أى نظام مخالف للإسلام بأنه شرك والحاكم والسلطة فيه بأنهما طاغوت ، ونحن مسئولون عن إزالة آثار الشرك عن مجتمعنا المسلم ، وفى نفس الوقت نحن مسئولون أيضاً عن تهيئة الجو المناسب لتربية جيل مؤمن فاضل وتنشئته ليحطم عروش الطواغيت ويقضى على سلطانهم غير الشرعى ، لأن الفساد والانحراف ينتشران على أيديهم ، ينبغى إزالة هذا الفساد ومحوه وإنزال العقوبات الصارمة بمسببيه [٢١]، كما يتميز فكر الإمام فى الحكومة الإسلامية باتساع رقعة الاهتمام وتجاوز المجتمع الصغير إيران إلى المجتمع الإسلامى ككل ، وكان الإمام « الشيعى » واقعى النظرة شمولى المنحى ، فلا سيادة للإسلام ووطن من أوطانه محتل أو تابع ، وينظر إلى الدولة العثمانية السنية نظرة فيها كثير من الإنصاف ، فقد كانت دولة إسلامية موحدة سعى المستعمرون إلى تفتيتها ثم تقاسموا الغنائم ، ومن ثم فالحكومة الإسلامية هى الوسيلة والسبيل للتحرير الشامل ، وهدفها الأسمى هوالاحتفاظ بوحدة المسلمين مصداقا لماورد فى خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام « وطاعتنا نظام للملة وإمامتنا أمان من الفرقة » [٢٢] .

وفى إطار الحركة تظهر توجهاتها ويظهر بعدها الاجتماعى ، فالثورة الإسلامية ضرورة لإنقاذ المظلومين والمحرومين والقضاء على الفوارق بين الطبقات ، وهى مسئولية شرعية ملقاة على كواهل العلماء بناء على وصية أمير المؤمنين عليه السلام « وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا » فعلماء الإسلام مكلفون بمقاومة المستغلين الجشعين لئلا يكون فى المجتمع سائل محروم مقابل مرفه جشع أصابه بطر ، يقول الإمام على عليه السلام « أما والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها وسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة عنز » ، ومن ثم فواجب على العلماء وجميع المسلمين أن يضعوا حدا لهذا الظلم ، وأن يسعوا من أجل سعادة السواد الأعظم فى تحطيم الحكومات الجائرة وإزالتها بتأسيس حكومة إسلامية عاملة مخلصة .(٢٣)

ويفيض الإمام فى وضع تصور للحكومة الإسلامية ولنظام الحكم الإسلامى ، فهو نظام لا يشبه الأشكال الحكومية المعروفة فهى ليست حكومة مطلقة بل مقيدة بمجموعة القواعد والقوانين المبينة فى القرآن والسنة ، وسلطة التشريع فيها محصورة بالله عز وجل ، وليس لأحد أيا كان أن يشرع ، وليست حكومة ملكية أو شاهنشاهية أو امبراطورية ، وأهم شروط الحاكم فيها العلم بالقانون الإسلامى والعدالة ، كما يرى الإمام أنه من المسلم به أن « الفقهاء حكام على الملوك » لأن السلاطين إذا كانوا على جانب من التدين فما عليهم إلا أن يصدروا فى أعمالهم وأحكامهم عن الفقهاء ، وفى هذه الحالة يكون الفقهاء هم الحكام الحقيقيين والسلاطين عمالاً لهم(٢٤) وإذا نهض بأمر تشكيل الحكومة فقيه عالم عادل ، فإنه يلى من أمور المجتمع ماكان يليه النبى ﷺ منها ، ووجب على الناس أن يسمعوا له ويطيعوا(٢٥) لكن لا ينبغى أن يساء فهم هذه العبارة ، فيتصور أحد أن أهلية الفقيه للولاية ترفعه إلى منزلة النبوة أو إلى منزلة الأئمة ، لأن الحديث هنا يدور حول الوظيفة العملية لا المنزلة والمرتبة ، فالولاية تعنى هنا حكم الناس والإدارة وسياسة البلاد .(٢٦)

ومن هنا كان الهدف تحويل القوة الروحية عند المسلمين المؤمنين إلى قوة سياسية وإلى وحدة أيديولوجية ، وهناك بعض الأنظار الصوفية فى فكر الإمام ، وهو يدق

كثيرا على قوة الروح وعلى التصفية والتجلية وتنقية النفس من الشوائب وما إلى ذلك من المصطلحات العرفانية « الصوفية الفارسية » ، وهذا أمر لا يستبعد من أستاذ للحكمة والفلسفة الإلهية ، وقد درس هذه الموضوعات لكثير ممن كانوا معه من أول الدرب كآية الله بهشتى وحجة الإسلام محمد مفتح الذى أصبح فيما بعد مدرسا لهذه المادة فى كلية الإلهيات بجامعة طهران ثم عميدا لها بعد الثورة حتى استشهاده ، وكان من المعروف عن الإمام كأستاذ أنه أكثر تخصصا فى الفلسفة والعرفان « التصوف الإسلامى الإيرانى » منه فى الشريعة ، تشهد بهذا كتبه عن تفسير سورة الفاتحة وعن الصلاة ، وكتابه الجهاد الأكبر أو جهاد النفس ، وهى كلها تتحدث عن الكمال الإنسانى ومايمكن أن تؤدى إليه قوة الإيمان من نتائج ، ولعل من أهم تأثيرات هذا المنحى عدم وضوح الطابع المذهبى عند الإمام ، وهى سمة صوفية ، والتأكيد على ضرورة وحدة التعبير بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، وهو أمر - فيما قال روز - من أولئك الذين لا يعرفون الجذور الفكرية للرجل(٢٧) .

وكان من الممكن أن تظل هذه الأفكار مجرد اجتهاد فكرى لو لم يقم الإمام بدوره الجهادى التحريضى ووضع الخطة الشاملة التى طبقت فيما بعد بما فصل فى كتاب الحكومة الإسلامية وفى خطبه وبياناته إلى الأمة طوال سنوات النضال وهو ما سنورد مقتطفات منه فى الفصل التالى .



الفصل الثانى

الحركـــة

١ – النظام القديم الفاسد :

يقول ﷺ : إن « ملك الملوك » أى الشاهنشاه من أكثر الألقاب بغضاً إلى الله تعالى . إن الإسلام لا يتفق فى الأصل مع النظام الشاهنشاهى ، وكل من يمعن النظر فى نظام الحكم ، يدرك أن الإسلام جاء ليحطم كل قصور الظلم الشاهنشاهية ، والشاهنشاهية من أكثر النظم عاراً ورجعية (٢٨) .

* * * *

إن القرآن فى غاية الجدية فى الثورة على السلاطين ، وهناك روايات عديدة رويت فى مجال القيام ضد السلاطين والظلمة ، وأولئك الذين يعتدون على الدين (٢٩) .

* * * *

من بداية تاريخ البشر ، والأنبياء والعلماء مكلفون دائماً بالقيام ضد الجبابرة والظلمة والنضال ضدهم (٣٠) .

* * * *

إن أبا عبد الله عليه السلام دعا الناس إلى الثورة على الملوك بكل خطبه البليغة ، وناضل الإمام الحسن بقدر وسعه ضد معاوية ، وفى ذلك اليوم الذى خذله فيه عباد الدنيا الكسالى ، فضح معاوية بالصلح الذى وقعه معه ، بنفس الطريقة التى فضح بها الإمام الحسين يزيد ، وعن طريق ثورة دموية (٣١) .

ألم يكن الله تعالى الذى أمر موسى بأن يثور ضد سلطان زمانه لا يعلم — والعياذ بالله — أنه لا ينبغى القيام ضد السلطان [٣٢].

* * * *

إن أعظم مآسى الإسلام هى حرمان على من الحكومة ، إذ صارت سبباً فى أن تتبدل الحكومة من إسلامية إلى كسروية وملك عضوض ، هذه المأساة أفدح من كربلاء وما جرى فيها لسيد الشهداء [٣٣].

* * * *

قلب معاوية وبنو أمية وبنو العباس الإسلام ، وجعلوا الحكومة الإسلامية كسروية وفرعونية [٣٤].

* * * *

الملوك اتبعوا شهواتهم وأهواءهم ، إن متعتهم فى مستوى متعة الحيوان ، يأكلون ويتمتعون دون أن يفكروا عن أى طريق أتتهم متعهم ، وهل هى حلال أم حرام ، من كد أيديهم أم من عرق الأمة ؟ « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » ، إن الحيوان فحسب هو الذى لا يفهم من أين أتاه هذا الطعام ، إنه يريد أن يضمن طعامه فحسب ، وبعد ذلك لتغرق الدنيا فى طوفان ودماء ولتفن الأمة [٣٥] [٣٦].

* * * *

مثوى هؤلاء الملوك النار ، والنار مثوى لهم ، لهم العار ، إن العالم الحر ليخجل منهم ، الإسلام والمسلمون فى خزى من هذه الشاهنشاهية ويمقتونها [٣٧].

* * * *

حب الملك أى السلب ، هتك أعراض الإسلام ، الاعتداء على حقوق

المسلمين ، الاعتداء على مراكز العلم والمعرفة .

حب الملك يعنى الاعتداء على أحكام الإسلام وتحريف القرآن الكريم . حب الملك يعنى قمع رجال الدين ، ومحو آثار الرسالة وإضعافها [٣٨] .

* * * *

منذ أن وجد النظام الشاهنشاهى فى إيران وحتى الآن ، ويعلم الله كم من المصائب أصابنا بها ، وكم من الجرائم ارتكبها ، إن جرائم ملوك إيران تسود وجه التاريخ ، ملوك إيران المجرمون ، هؤلاء هم الذين كانوا يأمرون بارتكاب المذابح العامة ، وإقامة مآذن من رءوس الضحايا .

أفاضلهم أيضاً كانت لهم جرائمهم ومصائبهم [٣٩] .

* * * *

أحد الملوك الذى يعتبرونه من الأفاضل الذين تقرأ الفاتحة لهم ، يروى أن عدداً من الجياع هاجم عربته ، وهو فى طريقه لزيارة ضريح الإمام العظيم مطالبين بالخبز ، وربما رماه أحدهم بحجر ، فأمر على الفور بنصب مشانقه وشنق عدداً كبيراً ، ولولا تدخل أحد الأشراف لشنق بقيتهم ، كان هذا من أفاضلهم ، أما أسوأهم فقد أدركنا مصائبه .

* * * *

فى اليوم الذى تولى فيه « رضا خان » السلطة بمعونة الأجانب ، كان مكلفاً بأن يقوم عن طريق أسنة الرماح والجبروت المطلق ، بإبطال كل المراسم الإسلامية ، وأن يمحو أحكام القرآن النورانية ، وآثار الرسالة النبوية ، ويقضى عليها تماما [٤٠] .

* * * *

قال الشاه فى إحدى خطبه ، (ولعله أيضاً أورد نفس القول فى واحد من كتبه) : إن الحلفاء بعد احتلال إيران ، رأوا من الخير أن أتولى الحكم ، ووافقوا

على توليتى السلطة . لعنهم الله برأيهم هذا فقد أوقعونا . لا جدال فى أن من يوليه أحد ، لابد أن يقوم بخدمته ، ولا يستطيع إلا أن يفعل[٤١] .

* * * *

إننى أحس بالخطر على الإسلام من ذلك الخادم المطيع لأمريكا ، الخادم الذى يسأل[٤٢] .

* * * *

ياسيادة الشاه :

ياجناب الشاه :

أيها التعس :

أيها المسكين ، خمس وأربعون سنة مرت من عمرك ، فكر قليلاً ، تدبر قليلاً ، قدر عواقب الأمور قليلاً ، اعتبر قليلاً ، اتعظ بوالدك[٤٣] .

* * * *

إن أفراد الشعب البائس فى هذا الوطن مجبرون على إعلان رضاهم على النظام الشاهنشاهى ، النظام المتعفن المرفوض من الإسلام والمحكوم عليه بالفناء ، نظام يوجه الضربات المتجددة كل يوم إلى كيان الإسلام ، ولو وجد — لا قدر الله — الفرصة ، لاقتلع القرآن من أساسه ، إن سكان إيران المسلمين مجبرون على طأطأة رءوسهم أمام الشاه الذى خضبت يداه حتى المرافق بدماء علماء الإسلام ، وبدماء المسلمين[٤٤] .

* * * *

إن الشاه يتحدث عن الدستور والقانون الأساسى ، فى حين أنه هو نفسه فى طليعة أعداء القانون الأساسى والدستور ، وقد قضى على أساس الدستور[٤٥] .

* * * *

هذا الشاه الذى يسلم بترول إيران لأعداء البشرية والإسلام ، لاستعماله فى قتال المسلمين والعرب البواسل ، واتفاقيته المفتضحة الأخيرة فى زيادة ضخ البترول تعد مقاومة للدول المنتجة للبترول ، التى تريد أن تستعمل البترول سلاحاً ضد أمريكا [٤٦]

* * * *

مادامت إيران في إسار هذه الأسرة المفتضحة ، فلن ترى وجه الحرية [٤٧] .

* * * *

إننى أخشى أن تكون هذه الانحرافات والأعمال السفيهة نتيجة مرض يصاب به الملوك السفاكون ، فى أخريات حياتهم ، فيجرون شعوبهم إلى الطين والدم . إننى أخشى على هذ الأمة المظلومة من أواخر عمر هؤلاء السفاكين ، تلك التى تبشر بموتهم ، إننى أخشى على الإسلام والمسلمين من الأمراض العصبية التى تصيب هؤلاء الطغاة في الشيخوخة[٤٨] .

* * * *

أنالا أحب أن يلقب الرسول ﷺ بلقب السلطان ، كما أكره جداً أن يلقب الإمام الغائب بلقب « صاحب الجلالة » ، لا ينبغى إطلاق هذه الألفاظ المبتذلة جداً على الرسول وعلى الإمام[٤٩] .

٢ ــ الثورة البيضاء [٥٠] :

نشرت الصحيفة القذرة صحيفة اطلاعات « أنه تم التفاهم مع رجال الدين ، وهم يؤيدون ثورة الشاه البيضاء والشعب أيضاً يؤيدها » أى ثورة ؟ وأى شعب ؟ ! ، لا صلة لهذه الثورة بالشعب أو رجال الدين . أيها السادة فى الجامعات ، أبلغوا الجميع أن رجال الدين لا يؤيدون هذه الثورة الإسمية ، ولو شنقوا الخمينى ما تفاهم [٥١] .

* * * *

هذه الثورة المفتضحة الدموية التى تسمى بالبيضاء ، التى قتلت فى يوم واحد خمسة عشر ألفاً بالرشاشات والدبابات - كما هو معروف - سوف تجعل أيام الشعب الإيرانى أشد سواداً ، وسوف تجعل حياة الفلاحين والمزارعين أكثر خراباً . واليوم لا يوجد فى الأقاليم وأكثر القرى طبيب واحد أو مستشفى واحد ، ولا خبر هناك عن المدارس أو الماء الصالح للشرب ، وكما نشرت بعض الصحف ، يأخذ الأطفال فى بعض القرى إلى المراعى ، الأطفال الأبرياء يرعون حيث ترعى الدواب (٥٢) .

* * * *

باسم « الثورة البيضاء » الطنان الرنان ، الذى افتتح عهده بمذبحة ١٥ خرداد ، ينبغى أن يبقى الشعب الإيرانى متأخراً ، وينبغى أن تبطل ثقافة القرآن والإسلام ، وأن تنتهك القوانين ، وأن يعم الفساد والفحشاء حتى أعماق هذه الدار للعزاء المسماة إيران ، حتى يستمر الاستعمار الجديد فى نهبه وسلبه ، أما عملاؤه الذين لا شرف لهم فهم مشغولون باللهو والعربدة على رأس هذه المقبرة التى يدقونها بأحذيتهم ، كما أنهم مشغولون فى هذه المعمعة بجمع ثرواتهم (٥٣) .

* * * *

إن انتهاك مقدسات الإسلام ، وقتل العلماء والمسلمين تحت التعذيب ، والهجوم على المدرسة الفيضية والجامعات ومذبحة (١٥) خرداد .... من ثمار هذه الثورة المفتضحة ، ومنح الحصانة للعسكريين الأمريكان ومن يرتبط بهم ، وإهانة الشرف القومى ، والقضاء على استقلال القضاة ، وفرض سيطرة أمريكا والصهيونية على كل الأمور .... من النتائج المشئومة الأخرى لهذه الثورة العظيمة التى قام بها جهاز الجبار(٥٤) .

* * * *

هذه هى ثمار الشؤم للثورة الاستعمارية ، التى يريدون بالدعاية وخداع العوام تلقيبها بالثورة البيضاء ، وتسميتها بثورة الشاه والشعب(٥٥) .

هذا الشخص لايزال يتحدث عن الثورة البيضاء ، الثورة التى أصابت الأمة بالشقاء ولاتزال تصيبها ، الثورة التى لا أثر لها إلا شل القوى الفعالة فى الأمة ، الثورة التى أعلن الشاه نفسه بعد عشر سنوات أنها ثورة مزيفة ، الثورة التى تريد أن تلوث ثقافة الاستعمار شباب هذا الوطن ، حتى أبعد القرى والقصبات ، وينبغى أن يذهب أى معادٍ لهذه الثورة الإسمية إلى أماكن التعذيب ، وأن يحرم من حقوقه السياسية (٥٦) .

* * * *

هل .... أنت أيها الرجعى الأسود الذى قمت بثورة بيضاء ؟ أية ثورة بيضاء قمت بها ؟ لماذا تريد التغرير بالناس ؟ (٥٧) .

* * * *

أنا لا أعرف : أين هذه الثورة البيضاء التى قاموا حولها بكل هذه الضجة ؟ الله يعلم أنى أعرف كل شيء وأتألم ، أعرف أحوال تلك القرى والأقاليم ، وعن « قم » المتأخرة ، أعلم كل شيء عن جوع الناس ؛ وعن أوضاع الزراعة المضطربة ، وعن أخبار الناس(٥٨) .

* * * *

منطقة واحدة من إيران مثل « خراسان » ، كانت تستطيع انتاج القمح الذى يكفى الوطن كله ، لكن الثورة البيضاء سلبت منها هذه القدرة (٥٩) .

٣ ـــ إحياء الامتيازات الأجنبية فى إيران :

صدق المجلس بناء على اقتراح الحكومة على سند عبودية الشعب الإيرانى ، وأبدى اعترافه بأن إيران مستعمرة ، وأعطى لأمريكا حجة الاعتراف بأن الشعب الإيرانى شعب بدائى ، شطب بالقلم الأسود على كل أمجادنا الإسلامية والقومية ، وشطب بالقلم الأحمر على كل الفخر الأجوف لعظماء القوم طيلة عدة سنوات ، وجعل إيران أكثر ذلة من أشد الأمم تأخراً ، أهان جيش إيران العظيم وكبار قواده ، داس بالأقدام شرف القضاء الإيرانى ، وجعل شعب إيران تحت السيطرة الأمريكية (٦٠) .

لن يكون فى إيران عيد بعد ، جعلوا عيد إيران مأتماً ، باعونا ، باعوا استقلالنا ، داسوا كرامتنا ، انتهت عظمة إيران ، داسوا بالأقدام عظمة الجيش الإيرانى [٦١] .

* * * *

جعلوا الشعب الإيرانى أكثر ذلة من كلاب أمريكا ، إذا داس أحدهم كلباً أمريكياً بعربته فلن يسلم من العقاب ، حتى شاه إيران لوداس كلباً أمريكياً لن يسلم من المساءلة ، لكن لو أن طباخاً أمريكياً داس الشاهنشاه ، فليس لأحد حق التعرض له [٦٢] .

* * * *

اليوم والدول التى ترزح تحت نير الاستعمار تكافح واحدة بعد الأخرى بشجاعة وإصرار ، للتخلص من وطأة الاستعمار ، وتقطع أغلال العبودية فإن المجلس الإيرانى الموقر التقدمي الذى يدعى ماضياً فى الحضارة يبلغ ألفين وخمسمائة سنة ، مدعياً المساواة مع الأمم المتمدينة ، يوافق على أكثر القرارات عاراً وإذلالاً [٦٣] .

* * * *

الحصانة واجبة للطباخين الأمريكيين والميكانيكيين والعمال الفنيين الأمريكيين ، لكن علماء الإسلام ووعاظ الإسلام وخدم الإسلام ، ينبغى لهم أن يكونوا فى السجون والمنافى[٦٤] .

* * * *

إن منح الحصانة للأجانب حجة عظيمة تدل على التأخر والضعة والتسليم دون قيد أو شرط ، أنتم تعلمون – بالتصديق على هذا الاقتراح – أية خيانة ارتكبتموها فى حق هذا الوطن وحق الإسلام ، وأية لطمة وجهتموها إلى استقلال هذا الوطن ؟ ![٦٥] .

يا إلهي : هذه الحكومة ارتكبت خيانة فى حق وطننا ، وفى حق الإسلام ، وفى حق القرآن ، ونواب المجلسين الذين وافقوا على هذا القرار ارتكبوا الخيانة .... العالم كله يعلم أن هؤلاء ليسوا نواب إيران ، وإذا كانوا كذلك فقد عزلتهم ، هم معزولون من النيابة ، وكل القرارات التى صدقوا عليها حتى الآن باطلة ولا اعتبار لها[٦٦] .

* * * *

الأمة مسئولة ومكلفة بأن ترفع صوتها ، وأن تعترض على المجلس ، وأن تعترض على الحكومة صارخة : لماذا ارتكبتم هذا العمل ؟ لماذا بعتمونا ؟ لستم نواباً لنا ، حتى إذا كنتم نواباً لنا فقد ارتكبتم الخيانة وسقطتم من النيابة [٦٧] .

٤ ــ ١٥ خرداد (٥ يونيه ٦٣)[٦٨] :

سلاما على شهداء (١٥) خرداد وقتلاهم[٦٩]

* * * *

(١٥) خرداد الموافق للثانى عشر من محرم دليل حى على المعارضة الشجاعة لأمة إيران فى مواجهة استبداد عملاء الأجانب واستعمار اليسار واليمين ، ومن ألسنة النار الملتهبة لحركة سيد المظلومين فى مواجهة بنى أمية المستبدين ، وتضحية الأمة الإيرانية الشجاعة المتدينة فى ظل تضحية سيد الشهداء .

إن المصيبة التى تفتت الأكباد ، مصيبة (١٥) خرداد ، ينبغى أن تبقى حية خالدة فى ظل قضية عاشوراء العظيمة [٧٠] .

* * * *

إن حادثة (١٥) خرداد أثمرت عاراً عظيماً للسلطة الحاكمة ، هذه حادثة لا تنسى ، ما الجرم الذى ارتكبه شعب إيران المسلم ؟ ما ذنب الأطفال والنساء حتى يحصدوا بالمدافع الرشاشة ؟ ما جريمة علماء الإسلام والخطباء ؟ كل ذنبهم أنهم دافعوا عن الحق وعن القرآن الكريم ! .

لن تنسى الأمة الإسلامية هذه الكارثة ، ونحن نعلن الثانى عشر من محرم يوم حداد قومى[٧١] .

* * * *

كان يوم الخامس عشر من خرداد أسوأ من أعمال جيش أجنبى ، أولئك لم يكونوا يقتلون الأطفال ولا النساء ، مادامت الأمة ، سوف تظل فى حزن من جراء (١٥) خرداد [٧٢] .

* * * *

إن الخامس عشر من خرداد سود وجه الهيئة الحاكمة ، لوث (١٥) خرداد ذيل هذه الحكومة ، ولطخها بعار لن يمحى إلى آخر الدهر ، هم أنفسهم قالوا : إن (١٥) خرداد كان عاراً ، وأنا أيضاً أقول : إنه عار ، لكنهم لم يفسروا الأمر وأنا أفسره لهم : كان عاراً لأنهم حصلوا على المدافع الرشاشة والدبابات والمدافع والبنادق من مال هذا الشعب الفقير ، ثم أطلقوها عليه ، وقمعوه[٧٣] .

* * * *

لن يمحى الخامس عشر من خرداد من الخواطر ، ينبغى فى يوم ذكراه كل سنة أن نجعله أكثر حياة [٧٤] .

* * * *

إن قمع المراكز العلمية الدينية ، والهجوم المسلح على المدرسة الفيضية ، والصحن المطهر فى « قم » والمذبحة الجماعية فى (١٥) خرداد : ماذا تسمى إلا خدمة عمياء لأصحاب الدولار [٧٥] .

* * * *

٥ ــ أعياد واحتفالات لا قومية [٧٦] .

ما دامت هذه الأمة غافلة عن حقوقها ومسئولياتها ، فكل يوم لكم عيد وسرور ، لكنه بالنسبة للأمة الشقاء والمصيبة [٧٧] .

* * * *

إن الأعياد والاحتفالات اللاقومية التى تقام عدة مرات فى السنة ، لنفع شخصى ، مصيبة كبرى بالنسبة للإسلام والمسلمين ، والشعب الإيرانى الفقير ، وفى هذه الاحتفالات اللامباركة ، كم من أعراض المسلمين تهتك مما أخجل عن ذكره [٧٨] .

* * * *

إن جهاز الجبار ينفق مئات الملايين من التومانات من أموال هذا الوطن على احتفالاته المخجلة . عيد ميلاد هذا أو ذاك ، العيد الخامس والعشرون للسلطنة ، وأفدح من هذا كله الاحتفال المشئوم بمرور ألفين وخمسمائة عام على الشاهنشاهية التى يعلم الله كم من المصائب والكوارث أصابت بها الأمة ، وكم من الفرص للسلب والنهب هيأتها لعملاء الاستعمار . ولو أن الميزانية المذهلة التى انفقت على هذا الاحتفال المبتذل ، أنفقت فى إشباع البطون الجائعة ، ورفع العناء عن كواهل الكادحين ، لقلل هذا من مصائبنا كثيراً ، لكن الانتهازية وحب الذات لا يسمحان لهم بالتفكير فى الشعب [٧٩] .

جهاز الجبار ، يقيم بأموال المسلمين الاحتفالات وتعلق الزينات من أجل الملوك ، الذين قمعوا الشعب فى كل عصر ، وداسوه بأحذية العسكريين ، الملوك الذين كانوا أعداء لكل المذاهب الحقة ، الملوك الذين كانوا أعداء ألداء للإسلام ، ومزقوا خطاب الرسول الأكرم ﷺ ، الملوك الذين يعتبر نموذجهم موجوداً فى عصرنا هذا [٨٠] .

* * * *

هل ينبغى للشعب الإيرانى أن يحتفل بإنسان يخون الإسلام ومصالح المسلمين ويعطى البترول لإسرائيل ؟ ! من أجل الشخص الذى قام بمأساة خرداد وقتل خمسة عشر ألف شخص ــ كما يقولون ــ فى مذبحة عامة ، وأرسل عملاءه إلى المدرسة الفيضية ، فأهانوا القرآن والإمام جعفر بن محمد ، وأشعلوا النار فى العمائم ، وألقوا بعدد من فوق السطوح وقام بهذه الفضائح ؟ هل يجب أن يحتفل شعب إيران بمن ملأ السجون بالوطنيين ، وقتل الكثيرين من أبناء الوطن الأعزاء تحت سياط تعذيب عملائه ؟ أينبغى أن نحتفل بشخص قام بمذبحة عامة فى المسلمين فى مسجد جوهر شاد ، وبقيت دماؤهم فترة طويلة على جدران المسجد ، وأغلقوا المسجد كيلا يراها أحد ؟ [٨١]

* * * *

إن شعب إيران المسلم مكلف بأن يمتنع عن الاشتراك فى هذه الاحتفالات غير المشروعة ، وأن يظهر استياءه بكل وسيلة ممكنة لمن يقيمونها أو يشتركون فيها . والاشتراك فى هذه الاحتفالات اشتراك فى دم شعب إيران المقهور . وليعلم العالم . أن هذه الاحتفالات ، وهذا اللهو لا صلة لشعب إيران بها ، أما من يدبرها ومن يشترك فيها ، فهو خائن للإسلام وللشعب الإيرانى [٨٢] .

٦ ــ الحزب الواحد « حزب رستاخيز » [٨٣] :

نظراً لعداء هذا الحزب للإسلام ومصالح الشعب المسلم ، فإن الانضمام إليه حرام على كافة أفراد الشعب ، ويعد مساعدة على الظلم والقضاء على المسلمين ، ومعارضته من أكثر المجالات التى يتجلى فيها النهى عن المنكر [٨٤] .

إيران هى البلد الوحيد الذى تكون فيه حزب بأمر ملكى ، والشعب مرغم على الانضمام إليه ، ومن تخلف كان مصيره السجن أو التعذيب ، أوالنفى أو الحرمان من الحقوق السياسية [٨٥] .

* * * *

إن إجبار الناس على الانضمام إلى الحزب نقض للدستور [٨٦] .

* * * *

ليعلم العلماء الأعلام أن تشكيل هذا الحزب تمهيد لمصائب عديدة ، سوف تظهر آثارها بالتدريج [٨٧] .

* * * *

على الخطباء المحترمين ، والطلبة وطبقة الشباب الجامعى ، وطبقات العمال ، وأرباب الحرف والفلاحين والتجار ، أن يقوموا عن طريق النضال الصامد والمقاومة السلبية بتخريب أساس هذا الحزب ، وليثقوا فى أن النظام آيل للسقوط[٨٨] .

* * * *

إن عدم اشتراك الأمة الشريفة فى الحزب الصورى والانتخابات الخائنة دليل على الوعى وتمهيد للنصر [٨٩] .

* * * *

نضج الشعب هوالذى فضح حزب الشاه المصطنع ، مع كل هذه الجعجعة والقعقعة ، وأصاب الشاه بالاضطراب والهياج[٩٠] .

إن الحزب المفروض ، وُوجه بعداء الأمة إلى الحد الذى فضح فيه الشاه ، بحيث يتشبث بأى أعذار لتغطية فضيحته ، لكن هيهات .... [٩١] .

* * * *

سلامى إلى كل المؤمنين والمسلمين فى أنحاء الوطن ، أولئك الذين وجهوا لكمة شديدة إلى أفواه المهذارين بعدم اشتراكهم فى الحزب المفروض ، والانتخابات غير القانونية وأثبتوا وفاءهم للإسلام والمسلمين [٩٢] .

٧ ــ رجال الدين المزيفون [٩٣] :

ينبغى قبل كل شىء أن نعلن عن موقفنا من رجال الدين المزيفين ، الذين يعتبرون اليوم أشد الأعداء خطراً على الإسلام والمسلمين ، وعلى أيديهم تنفذ المشروعات المشئومة لأعداء الإسلام الألداء وعملاء الاستعمار ــ وينبغى أن نطردهم من المراكز العلمية الدينية ، والمساجد والأوساط والمحافل الإسلامية ، حتى نستطيع أن نقطع يد الاستعمار المعتدية ، وأعداء الإسلام وأعداء القرآن الكريم وأن ندافع عن استقلال الأمم الإسلامية ، ونصون هذا الاستقلال [٩٤] .

* * * *

لو أن الأمة الإسلامية تفهم أسس القرآن ، وتدرك مسئوليات العلماء وأئمة الإسلام الثقيلة ، فسوف يسقط الفقهاء المزيفون ورجال الدين المنتسبون للبلاط فى المجتمع ، وإذا سقط المعممون المصطنعون ورجال الدين المزيفون فى المجتمع ، لما استطاعوا أن يخدعوا الناس ، ولن يستطيع جهاز الجبار أن ينفذ مخططات الاستعماريين [٩٥] .

* * * *

أولئك الذين انضموا إلى هذا الجهاز شرذمة من الملوثين بالشهوات الدنسة ، لا أكثر ، وشعب إيران الشريف يحتقرها ، كما أن أولياء الله يحتقرونها [٩٦] .

* * * *

إن الفقيه الذى يدخل بطانة الظالمين ويصير من حاشية البلاط ، ويطيع أوامرهم ليس أميناً ، ولا يمكن أن يؤتمن على الأمانة الإلهية . يعلم الله كم من المصائب حاقت بالإسلام من علماء السوء هؤلاء ، منذ صدر الإسلام إلى الآن [٩٧] .

* * * *

إذا دخل فقيه فى زمرة الظلمة ، فكأنما دخلت أمة فيها وليس فرداً عادياً ، ولذلك فقد أكد الأئمة عليهم السلام ، على التحذير من الدخول فى هذه الزمرات [٩٨] .

* * * *

إن الفقيه الذى يفكر فى جمع أموال الناس وحطام الدنيا ، ليس عادلاً ، ولا يمكن أن يكون أميناً على أحكام الإسلام ومنفذاً لها [٩٩] .

* * * *

هؤلاء ليسوا من إخواننا فى الإسلام ، هؤلاء هم الذين ألبستهم منظمة السافاك عمائم ، لكى يقوموا لها بالدعاء ، فإذا كانوا قد فشلوا فى إرغام أحد من أئمة الجماعة على الحضور فى مراسمهم وأعيادهم فلديهم مشايخهم ، أولئك الذين يرددون « جل جلاله » فى مجالسهم . وفى النهاية خلعوا على الشاه لقب « جل جلاله » ، ليس هؤلاء من الفقهاء ، إنهم معروفون .. وقد كشفهم الناس [١٠٠] .

* * * *

على الناس ، وعلى الشباب الغيور فى إيران ، ألا يسمحوا لهذا النوع من الفقهاء القائلين للشاه : « جل جلاله » بالظهور فى المجتمعات ..... هذا الزى المقدس لا ينبغى أن يكون على جسد كل إنسان [١٠١] .

٨ ــ فضائح بالجملة :

إن النظام الحاكم فى إيران مكلف عن طريق طبع القرآن والتظاهر بالإسلام ، وتأسيس كتائب الدين ، ومؤسسة الأوقاف وأسماء خداعة أخرى ، مكلف باقتلاع الإسلام من جذوره ، وأن يذل الأمة الإسلامية ويقيدها بالأغلال ، وأن يجعل مسجد الرسول ومحرابه مؤسسة دعاية للبلاط ضد الإسلام .

* * * *

بانتهاء مخزون النفط على يد هذا النظام ، سوف تسقط هذه الأمة فى فقر لن يسمح لها إلا بأن تلقى بنفسها فى الرق ، وشعب إيران الذى لم تعد لديه زراعة أو صناعة ، ينبغى له آنذاك أن يعيش فى فقر مدقع ، أو يستسلم للعمالة للأجانب(١٠٢) .

* * * *

لقد سلبت القدرة على الزراعة من الوطن ، وأوضاع الفلاحين والعمال تسوء يوماً بعد يوم ، ولا خبر عن التصنيع الوطنى المستقل إلا الاسم ، ولن يكون إلا أن يغير الله هذا النظام(١٠٣) .

* * * *

إن الجرائم والخيانات التى يرتكبها الجبار وجهازه فى حق الإسلام والشعب والدول الإسلامية تسلب منى الراحة دائماً ، فدائماً ما تصل الأخبار بأن السجون ممتلئة بالوطنيين ، وأن الأبرياء يسلمون الروح تحت التعذيب ، وأن المجرمين والسفلة يهاجمون ويسفكون دماء الطلبة ، ويجرحون الفتيات ويصبون البيرة على رءوسهن (١٠٤) .

* * * *

إن الصفقات الجبرية ، خاصة صفقة الخمسة عشر مليارا من الدولارات ، التى عقدت أخيراً مع الاستعمار الأمريكى ، ضربة أخرى قاصمة وجهها الشاه للاقتصاد الإيرانى ، وهو بهذا يدق أجراس مزاد آخر جديد لثروات الشعب الإيرانى المحروم وكنوزه [١٠٥] .

* * * *

إن الاستعمار الأمريكى لا يستغل مخزونه من البترول ، ويشتريه من الآخرين ، حتى يحفظ ثرواته القومية لمصالح وطنه ، لكن شاه إيران يبيع هذا الذهب الأسود ، ويجعل خزانة إيران وشعبها خاوية ، وبدلاً من أن ينفق دخله على الشعب العريان الجائع ، يقرضه لسادته المستعمرين ، أو يشترى السلاح المخرب ليحرس مصالح المستعمرين ومطامعهم فى المنطقة ، ويعطى الدوام والاستمرار للقمع وسفك الدماء ، الذى يقوم به المستعمر ضد الحركات القومية والمعادية للاستعمار[١٠٦] .

* * * *

هل يعلم الشعب الإيرانى أن عدداً من العلماء والوعاظ والطلاب وكثيراً من المسلمين الأبرياء يعيشون فى السجون ، وأنهم – خلافاً لنص القانون – سجنوا فترات طويلة دون تحقيق ، ولا سميع ولا مجيب ينهى هذه الفوضى الرجعية ، والتى تشبه فوضى العصور الوسطى . هذا استمرار لمذبحة (١٥) خرداد ، التى لن تندمل جروحها من قلب الأمة الطاهر[١٠٧] .

* * * *

لا أحد يأمن على روحه ، إذا نطق إنسان بكلمة على سبيل النصيحة ، أو قال كلمة على منبر ، فالسجن مصيره على الفور ، لو أن أحداً طبع بعض المنشورات ناصحاً يقبضون عليه ، ولا يعلم أحد إلى أين ذهب . هذه هى أوضاع مملكتنا الخربة [١٠٨]

فى العصر الذى تتحرر فيه الأمم واحدة بعد الأخرى من نير الاستعمار ، وتحصل على استقلالها وحريتها ، فإن الأمة الإيرانية المسلمة العظيمة ـــ بتولية واحد من عملاء الاستعمار المخلصين عليها ، وانطباق أكثر أنواع الاستبداد وحشية على الوطن بأكمله ـــ قد حرمت من كل شئون الحرية ، وسقطت فى أفظع أنواع الاستبداد (١٠٩) .

* * * *

إن الهيئة الحاكمة بدلاً من أن تفعل شيئاً من أجل اقتصاد إيران ، بدلاً من أن تفعل شيئاً يحول دون إفلاس التجار الشرفاء ، بدلاً من أن توفر الطعام والماء للفقراء والمساكين ، بدلاً من أن تهيىء مسكناً للمشردين المعذبين فى شتاء إيران القارس ، بدلاً من أن توفر العمل للخريجين ، بدلاً من أن تفعل شيئاً للطبقات المطحونة ..... لا تقوم إلا بكل عمل مخرب(١١٠) .

* * * *

هل تظنون أن ذلك اللص الذى يتسلق الجدران ليلاً مع ما فى ذلك من مخاطر ، أو أن تلك المرأة التى تبيع عرضها ، هل تظنون أنهما مذنبان ؟ إن أحوال الحياة السيئة هى التى تؤدى إلى تلك المفاسد التى تقرءون عنها يومياً فى الصحف ؟ (١١١) .

* * * *

فى حضور الوجوه الشاحبة من الجوع والعجز ، تتحدث الهيئة الحاكمة دائماً عن التقدم والرقى الاقتصادى(١١٢) .

ينبغى ألا تخدع الأمة بدعايات السلطة الواهية ، إنهم فى الوقت الذى تزداد فيه مخالفتهم للإسلام وخروجهم عليه يوماً بعد يوم ، يقومون فى أجهزتهم الدعائية ــ ومن أجل التغرير بالسذج ــ بمراسم تلاوة دعاء كميل ، ويروجون لدق الصدور والضرب بالأغلال « حزناً على آل البيت » ، يطبعون القرآن ، لكنهم ينقضون أحكامه (١١٣) .

* * * *

سمعت أنهم يريدون تأسيس جامعة إسلامية ، إن هذه الجامعة الإسلامية ، التى يريدون تأسيسها ، تشبه تماماً ما فعله معاوية عندما رفع القرآن على أسنة الرماح ، حين حلت به الهزيمة من على ، وبرفع المصاحف على أسنة الرماح ، هزم معاوية عليا .

ألا يمكن إذن هزيمة الإسلام بجامعة إسلامية ؟ وهل نترككم تؤسسون جامعة إسلامية ؟ سوف أعلن أن من يدخل هذه الجامعة فاسق ، ولن يكون له أى اعتبار بين الشعب (١١٤) .

* * * *

تقيمون فى قصوركم العظيمة التى تغيرونها كل بضع سنوات ، وتسلبون ما تنفقون من جيوب الشعب ، ثم تنظرون إلى فقر الأمة وجوعها ، ولا تحركون ساكناً ! ، وتنظرون إلى إفلاس التجار وبطالة الخريجين ! ، وانهيار الزراعة وكساد السوق ! (١١٥) .

* * * *

إن مخالفة الدستور دليل على التخلف ، الاستفتاءات غير القانونية والمزيفة دليل على التخلف ، سلب الحرية من الشعب فى اختيار من يريد ، وتعيين أشخاص معروفين لا دخل للشعب فى اختيارهم ، دليل على الضعف والتخلف ، الاستسلام

لإسرائيل الدولة المزيفة المزعومة ، هو مخاطرة بالاقتصاد الوطنى ، ودليل الضعف والعمالة وسند الخيانة للإسلام والمسلمين ، ومنح الحصانة للأجانب دليل أكبر على التأخر وانعدام الكرامة ، والاستسلام بلا قيد أو شرط (١١٦) .

* * * *

ينبغي تحت عنوان كتاب الشاه : « مهمة من أجل وطني » أن يبقى الوطن فى حالة سيئة ، وأن يهزم الإسلام الملجأ الوحيد الباقى لهذه الأمة ، وحجر العثرة فى طريق الأجانب إليها . ولعله مكلف بأن يقمع الشباب الدينى والجامعى ، مكلف بأن ينتهك المدارس الدينية ، وأن يسجن علماء الإسلام ، مكلف بأن يضع مقدسات الوطن فى يد إسرائيل وحماتها ، مكلف بأن ينشر التحريض على الفسق بكل شكل ، مكلف بأن يعطى الحصانة للمستشارين الأجانب وموظفيهم ، وأن يسلب الحصانة من الشعب ، ورجال الدين والعلماء وطلاب الجامعة ، مكلف بأن يطفىء مصباح الإسلام الهادى ، مكلف بأن ينشر ثقافة الاستعمار الجديد ، حتى أكثر مناطق الوطن بعداً ، وأن يقضى على الإسلام والثقافة الإسلامية ، ومكلف بمهمات أخرى لينفذها إذا ـــ لا قدر الله ـــ واتته الفرصة (١١٧) .

* * * *

٩ ـــ الاستعمار :

إن الهدف الأصلى للدول الاستعمارية هو القضاء على القرآن ومحوه ، والقضاء على الإسلام وعلماء الإسلام ، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف فهم يعزفون على كل نغمة يستطيعونها وبوسيلة عملائهم ، وهم يبدون وجههم المعادى للإسلام اللاقومى أكثر فأكثر (١١٨) .

* * * *

منذ ثلاثمائة عام ، حين وجد المستعمرون طريقهم إلى العالم الإسلامى وهم يهيئون الظروف للقضاء على الإسلام ، وهم لايهدفون إلى هذا لكى تسيطر المسيحية ، فهم لا يؤمنون بالنصرانية ، كما لايؤمنون بالإسلام ، لكنهم ومن الحروب الصليبية ، أحسوا أن ما يقف حائلاً دون منافعهم المادية ، وأن الخطر الوحيد على هذه المنافع ، هو الإسلام وتعاليم الإسلام (١١٩) .

* * * *

خطة الاستعمار محو الإسلام وأحكام القرآن المقدسة ، وجهاز الجبار هو الأداة لتنفيذ هذه الخطة المشئومة ، والخطة هى أن يتركوا الوطن متأخراً ، وباسم تشجيع العلم و « كتائب التعليم » يقمعون المدارس الدينية والجامعات ، وباسم الإسلام تهان أحكامه المقدسة(١٢٠) .

* * * *

الاستعمار اليمينى والاستعمار اليسارى اتفقا معاً على القضاء على الإسلام ، وهم يسعون للقضاء على الدول الإسلامية ، واقتسامها واستعبادها ونهب خيراتها وثرواتها الطبيعية ، وهما متفقان تماماً على ذلك (١٢١) .

* * * *

لأن الاستعماريين رأوا أنه لا يمكن تحويل الناس عن دينهم بالقوة ، أو الحيلولة بينهم وبين تعاليم القرآن ، والوصول إلى أغراضهم الخسيسة ، غيروا خططهم ، وعن طريق خطط الاستعمار الجديد والتظاهر بالإسلام ، أقدموا على محو القرآن واستعباد الدول الإسلامية وتحطيم سد الدين العظيم ، وعن طريق النغمات الخداعة ، مثل « كتائب الدين » وغيرها يريدون أن يحطموا هذا السد العظيم ويصلوا إلى أغراضهم(١٢٢) .

* * * *

هذه الدعايات الواسعة ، التى دامت بضع مئات من السنين ، فصلت المدارس الدينية عن الجامعات ، وأبعدت شبابنا عن فقهاء الإسلام وأحكام الإسلام ، بحيث صار كل منهم عدواً للآخر ، فأولئك يطلقون على هؤلاء لقب « رجال الدين المتعفنون » وهؤلاء يطلقون على أولئك لقب « المتفرنجون الملحدون » ، هذه التفرقة من فعل هؤلاء الاستعماريين [٥٣] .

* * * *

الاستعماريون الذين يريدون نهب كل ما عندنا ، لا يسمحون بأن ينشأ فى جامعاتنا العلمية والدينية رجل واحد ، إنهم يخافون من الرجال ، إذا وجد رجل واحد فى دولة ما لضايقهم ولكان خطراً على مصالحهم [١٢٤] .

* * * *

الاستعمار هو الذى يجعل صحافتنا مبتذلة إلى هذا الحد ، حتى يسمم أفكار شبابنا ، الاستعمار هو الذى ينظم برامجنا الثقافية ، بطريقة لا تسمح بتكوين شاب واحد قوى فى هذا البلد ، الاستعمار هو الذى ينظم برامج الإذاعة والتليفزيون بحيث تنشر الخنوع والضعف بين الناس ، فيفقدون قواهم وأصالتهم وقدرتهم على الصمود . نحن ندين بشدة كل هذه المظاهر الاستعمارية[١٢٥] .

* * * *

ما دامت الأمة الإسلامية مرتبطة بهذه المدارس الاستعمارية ، ما دامت تقارن قوانينها الإلهية بها ، وتجعلها معها سواء بسواء ، فلن ترى وجه الراحة والحرية . وهذه المدارس الفكرية من يمين ويسار تعرض على الأمة الإسلامية فلبث الانحراف والضلال فيهم لا غير ، لأنهم يريدون المسلمين متأخرين أذلاء مستعبدين لا غير ، ولأنهم يريدون إبعادهم عن أصول الحرية فى القرآن [١٢٦] .

* * * *

الاستعماريون يلقون فى روعنا أن الإسلام لا يحتوى على حكومة وليس فيه تنظيمات ، وعلى فرض أن فيه أحكاماً فإنها لا تنفذ ، الخلاصة أن الإسلام شريعة فحسب [١٢٧] .

* * * *

إن ما يبعث على الأسف أن نفس هذه الأجهزة الغامضة ، لم تسمح للطبقة المثقفة والمتعلمة بالاهتمام بأحكام الإسلام المقدسة ، خاصة قوانينه التنظيمية والاجتماعية والاقتصادية ، وبدعايات متنوعة جاهدوا فى إظهار أن الإسلام لا يحتوى على شيء إلا أحكام العبادة ، فى حين أن القواعد السياسية والاجتماعية فى الإسلام أكثر من موضوعات العبادة فيه [١٢٨] .

* * * *

الأيدى القذرة التى تبث الفرقة بين الشيعى والسنى فى العالم الإسلامى ، لا هى من الشيعة ولا من السنة ، إنها أيدى الاستعمار التى تريد أن تستولى على البلاد الإسلامية من أيدينا . والدول الاستعمارية ، الدول التى تريد نهب ثرواتنا بوسائل مختلفة وحيل متعددة ، هى التى توجد الفرقة باسم التشيع والتسنن [١٢٩] .

* * * *

إن الخبراء الأجانب يدرسون أراضينا ، ويعلمون كل الكنوز التى توجد فى أراضينا ، وأين يوجد الذهب ، وأين يوجد النحاس ، وأين يوجد البترول ، وقد عرفوا نقاط الضعف فى كل منا ، ورأوا أن الذى يقف فى سبيل تحقيق مطامعهم هو الإسلام والدين [١٣٠] .

* * * *

قال الاستعماريون : إن الدين شيء والسياسية شيء آخر ، ولا ينبغي أن يتدخل رجال الدين فى أمر قط ، ونحن أيضاً صدقنا ، والنتيجة هي ماترى ، هذه أمانيهم كانت وكائنة وستظل . يلعن الله الاستعماريين الذين جعلوا « الدعاء » مسئولية لنا فحسب . متى كان الدعاء وظيفة لنا ؟ عملنا هو السيف ، عملنا هو الحكم[١٣١] .

* * * *

إذا لم يكن لكم دخل فى سياسة الدنيا ، وإذا كنتم تعتبرون أن الإسلام هو هذه الموضوعات التى تدرسونها ولا تتجاوز أحكام الحيض والنفاس ، فلا دخل لهم بكم ، صلوا كم شئتم إنهم يريدون بترولكم ، ما شأنهم بصلاتكم ، إنهم يريدون معادنكم ، إنهم يريدون ألا نكون بشراً ، إنهم يخافون من البشر ، وحينما يظهر فى وطننا إنسان ، فإما أن يقتلوه أو يخفوه ، أو يلطخوا سمعته كسياسى ، هذه هى دعاية السوء التى يقومون بها ، حتى تمتنعوا عن التدخل فى أمور الدولة ، ويفعلوا هم كل ما يحلو لهم ، ولا يكون ثم أحد ليقف فى وجوهم[١٣٢] .

* * * *

كل المصائب التى حاقت بنا وكل مشاكلنا من أمريكا ، كل المصائب التى حاقت بنا وكل مشاكلنا من إسرائيل ، هؤلاء النواب من أمريكا ، هؤلاء الوزراء من أمريكا ، كلهم معينون من قبلها لقمع هذه الأمة المظلومة ، واقتصاد إيران اليوم فى يد أمريكا وإسرائيل ، السوق الإيرانية خرجت من يد التجار المسلمين ، ووقع التجار فى الفقر والإفلاس ، أما إصلاحات السادة فقد فتحت سوقاً سوداء لأمريكا وإسرائيل[١٣٣] .

* * * *

أمريكا أسوأ من بريطانيا ، وبريطانيا أسوأ من أمريكا ، والسوفييت أسوأ منهما معاً ، الكل أسوأ من الكل وأكثر قذارة من الكل ، لكن صدامنا فى هذه المرحلة مع أمريكا [١٣٤] .

* * * *

١٠ – إسرائيل[١٣٥] :

إسرائيل وليدة التواطؤ والاتفاق بين الدول الاستعمارية فى الشرق والغرب ، خلقت لقمع الدول الإسلامية واستعمارها ، وهى اليوم تحت حماية كل المستعمرين ومجال تأييدهم ، ليس هدف الدول الاستعمارية الكبرى من خلق إسرائيل هو احتلال فلسطين فحسب ، لكن لو أعطيت لهم الفرصة فسوف يكون لكل الدول العربية نفس مصير فلسطين[١٣٦] .

* * * *

إن بريطانيا وأمريكا بتأييدهما العسكرى لإسرائيل ، وتزويدهما إياها بالأسلحة الفتاكة ، تشجعانها على الاعتداءات المستمرة على العرب والمسلمين ، وتدفعانها إلى الاستمرار فى احتلال فلسطين ، أما السوفييت فهم يضمنون وجود إسرائيل بعدم تزويدهم المسلمين بالسلاح ، وسياسة الخداع والتدليس والوفاق [١٣٧] .

* * * *

على الدول الإسلامية المنتجة للبترول ، أن تستعمل البترول وكل الإمكانات المتاحة لها كسلاح ضد إسرائيل والاستعماريين ، وأن تمتنع عن بيع البترول للدول التى تساعد إسرائيل [١٣٨] .

* * * *

لا ينبغي للمسلمين تجديد بناء المسجد الأقصى ، ليترك كما هو تجسيداً لجرائم الصهيونية دائماً أمام أنظار الأمة الإسلامية ، وكنقطة انطلاق شاملة نحو استرداد الأراضى الإسلامية الفلسطينية (١٣٩) .

* * * *

إسرائيل العدو الصريح اليوم للإسلام والمسلمين ، وهى فى حالة حرب مع المسلمين منذ فترة طويلة ، وعن طريق حكومة إيران الخبيثة تتدخل فى كل شئون إيران السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وينبغى القول بأن إيران الآن تعد قاعدة عسكرية لإسرائيل وفى الواقع لأمريكا ، وشاه إيران هو الذى أطلق يد إسرائيل فى كل أنحاء إيران وخاطر باقتصاد إيران ، وكما ذكرت بعض الصحف الأجنبية ، يرسل ضباط إيران لتلقى التدريبات فى إسرائيل ، والآن كل المزارع الخصبة جداً فى إيران فى يد إسرائيل ، كتبوا لى من « إيلام » أن المزارع الخصبة فيها منحت لإسرائيل تزرعها بالبنجر ، ووضعوا لافتة إلى جوار المزرعة كتب عليها « المزرعة النموذجية لإيران وإسرائيل » ، أما الجريدة الإسرائيلية التى قدموها إلى ، فقد ورد فيها ذكر « سفير إسرائيل فى طهران » .... الآن كل اقتصاد الوطن فى يد إسرائيل ، أحكم عملاء إسرائيل قبضتهم على الاقتصاد الإيرانى ، وأكثر المصانع فى أيديهم : التليفزيون ومصانع « أرج » وشركة البيبسى كولا ، والتليفزيون الإيرانى قاعدة تجسس لليهود ، والهيئة الحاكمة تساعدهم (١٤٠) .

* * * *

اليهود اليوم فى إيران بلغوا مرحلة من النفوذ تهدد المسلمين بالفناء ، إن سوق المسلمين فى سبيلها إلى الاختفاء ، لقد أقامت إسرائيل فى إيران قاعدة قوية ، وأحكمت قبضتها على السوق (١٤١) .

* * * *

أية علاقة بين الشاه وإسرائيل فى الأصل ، حتى تقول السافاك « لا تتحدثوا عن الشاه وعن إسرائيل » ، هل تعتبر السافاك أن الشاه إسرائيلى ، أم أنها تعتبر أنه يهودى (١٤٢) .

* * * *

إن جهاز الجبار بكل قواه يساير إسرائيل وعملاءها ، الفرقة الضالة المضلة « البهائية » ، لقد وضعت أجهزة الدعاية فى أيديهم ، وأطلقت أيديهم فى البلاط ، وأفسحت لهم الطريق فى الجيش والثقافة وكل الوزارات ، ومنحتهم المناصب الحساسة (١٤٣) .

* * * *

لا جدال فى أن مسئولية كل فرد مسلم أياً كان مكانه فى هذا العالم هى نفس المسئولية التى أخذها الفدائيون الفلسطينيون على عاتقهم ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم ، ومسئوليتهم واحدة ، والآن عملاء الاستعمار بالأمس ماذا فعلوا بهم فى الأردن ، وما يفعلون بهم اليوم فى لبنان ؟ ، إن الدعاية والدسائس من كل ناحية ، إن أيدى الاستعمار القذرة تواصل نشاطها ، والهدف فصل المسلمين عن هذه الجماعات الفدائية ، وإبعادها عن المراكز الاستراتيجية الحساسة ، التى يمكن منها أن توجه الضربات القاصمة لإسرائيل (١٤٤) .....

والالتزام على الدول الإسلامية عموماً والدول العربية خصوصاً أن ترعى هؤلاء المجاهدين ، وأن تساعدهم ، وألا تألو جهداً فى مدهم بالتموين والسلاح (١٤٥) .

١١ ــ الهدف والبرنامج :

الهدف هو : الإسلام واستقلال الوطن وطرد عملاء إسرائيل ، والاتحاد مع الدول الإسلامية .

برنامجنا هو الإسلام ، ووحدة كلمة المسلمين ، والاتحاد مع الدول الإسلامية ضد الصهيونية وضد إسرائيل ، وضد الدول الاستعمارية ، وضد أولئك الذين

يسلبون كنوز هذه الأمة الفقيرة بالمجان . نحن مسئولون عن حفظ الإسلام ، وهذا تكليف أهم من كل التكاليف الشرعية حتى الصلاة ، هذا هو التكليف الذى ينبغى أن تسيل فى سبيله الدماء ، ليس دمنا أغلى من دم الإمام الحسين الذى سال فى سبيل الإسلام ، هذه هى قيمة الإسلام التى ينبغى أن نعيها ونعلمها للآخرين(١٤٦) .

* * * *

هذا هو ما يقوله رجال الدين :

لا ينبغى أن تتدخل القوة الغاشمة فى مقدرات الوطن .

ينبغى أن يكون نواب البرلمان منتخبين من الأمة

ينبغى أن يكون القائمون بالأمور وطنيين

ينبغى رفع الرقابة الغاشمة عن الصحافة ، والا تتدخل فيها المؤسسات وألا تسلب الحرية من الأمة (١٤٧) .

* * * *

لو كان هناك نفوذ لرجال الدين ، لما سمحوا بأن تكون هذه الأمة مستعبدة لانجلترا ثم لأمريكا .

لو كان هناك نفوذ لرجال الدين ، لما سمحوا لإسرائيل بإحكام قبضتها على اقتصاد إيران ، ولما سمحوا لبضائع إسرائيل بأن تباع فى إيران حتى بدون جمارك .

لو كان هناك نفوذ لرجال الدين ، لما سمحوا بأن تفرض الحكومة دون مشورة مثل هذا القرض الضخم ، الذى يبلغ مائتى مليون دولار على الشعب .

لو كان هناك نفوذ لرجال الدين ، لما سمحوا بأن تكون هذه الفوضى فى الخزانة .

لو كان هناك نفوذ لرجال الدين ، لما سمحوا لكل حكومة بأن تفعل ما يحلو

لها ، حتى لو كان مائة فى المائة فى غير صالح الشعب . لو كان هناك نفوذ لرجال الدين ، لما سمحوا بأن يصل المجلس إلى هذه الدرجة من الابتذال ، لما سمحوا بأن يكون المجلس على أسنة الرماح ، لكى يثمر هذه الفضائح .

لو كان هناك نفوذ لرجال الدين ، لما سمحوا لعميل أمريكى مولى من قبلهم ، بأن يرتكب هذه الأخطاء ، ولطردوه من إيران [١٤٨] .

* * * *

١٢ ــ على رجال الدين :

على علماء الإسلام أن :

يدافعوا عن أحكام الإسلام .

يتكاتفوا من أجل استقلال الدول الإسلامية .

يبرزوا بغضهم وكراهيتهم للظالم والظالمين .

يظهروا غضبهم لتولى أعداء الإسلام وأعداء استقلال الدول الإسلامية . يتبرءوا من إسرائيل وعملاء إسرائيل ، أعداء القرآن المجيد والإسلام والوطن .

يشجبوا أحكام الإعدام بلا سبب ، والمحاكمات غير القانونية والنفى الجماعى ، والإدانات التى لا مبرر لها .

وعليهم أن يظهروا ما هو صالح للأمة والوطن فى كل حال[١٤٩] .

* * * *

التقية حرام ، وإظهار الحقائق واجب ، مهما كانت النتيجة ، ولاينبغى لفقهاء الإسلام استعمال التقية فى المواقف التى تجب التقية على الآخرين فيها ، إن التقية تتعلق بالفروع ، لكن حينما تكون كرامة الإسلام فى خطر ، وأصول الإسلام فى خطر ، فلا مجال للتقية والسكون .

والله إن من لا يصرخ آثم ، والله إن من لا يشكو مرتكب للكبيرة [١٥٠] .

* * * *

أنتم مكلفون بتشكيل الحكومة الإسلامية ، إن المستعمرين الذين مهدوا لخططهم منذ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة بدءوا من الصفر ، ابدءوا أنتم أيضاً من الصفر .

مسئوليتنا هى السيف ، مسئوليتنا تشكيل الحكومة [١٥١] .

* * * *

لقد وضعوا فى أذهاننا أن المنكرات هي فقط ما نراها كل يوم ونسمع عنها ، كأن تعزف الموسيقى فى العربات العامة مثلاً ، أو أن يرتكب عمل مخالف للشرع فى المقهى الفلانى ، أو أن يفطر أحد علناً فى السوق ، وأن أمثال هذه الأشياء هى فقط المنكرات التى ينبغى النهى عنها بحيث لا ننتبه إلى تلك المنكرات الكبرى ، تلك التى يرتكبها أولئك الذين يهدفون إلى القضاء على كرامة الإسلام ، ويدوسون بأقدامهم حقوق الضعفاء أولئك الذين ينبغى نهيهم عن المنكر .

ولأن محيط فكرنا لا يتجاوز دائرة المسجد ، ولا حرية أو اتساع فيه ، عندما يذكر « أكل السحت » ، نفكر فى البقال على الناصية فقط ، لأنه والعياذ بالله يطفف فى الكيل ، ولا ترد إلى أذهاننا تلك الدائرة الكبرى لأكل الحرام والسلب ، التى يبتلعها رأسمالى كبير ، يسلب بترولنا ، الآن ونحن لا نستطيع أن نقاوم هذا السلب ، فعلينا ألا نتوانى على الأقل فى فضحها [١٥٢] .

١٣ ــ الحكومة الإسلامية :

الحكومة الإسلامية حكومة الشريعة ، لا أحد يحكم ، الشريعة هى التى تحكم ، الشريعة هى القانون الإلهى بين البشر وبين الدول الإسلامية ، أخذ عن الرسول ﷺ ، وسائر الخلفاء رضوان الله عليهم وسائر الأفراد ، أولئك اتبعوا القانون الذى نزل من الله تبارك وتعالى ، وعلى لسان نبيه ، وبين ووضح فى قرآنه الكريم [١٥٣] .

* * * *

الغرض من نزول الشريعة هو تشكيل الحكومة .. لكن ليس فى صورة إمبراطورية ، الإسلام منزه عن تشكيل حكومة إمبراطورية ، لم يكن فى الإسلام قصور عظيمة وخدم وحشم وعمائر من تلك العمائر ، ومكاتب خاصة ، ومكتب ولى العهد ومستلزمات الإمبراطورية الأخرى ، التى تنفق النصف أو أكثر من النصف فى ميزانية الوطن ، ولأننا لم نقم بتعريف الإسلام جيداً ، ما أصوله ؟ ولأى شيء نزل ؟ وما أهدافه ، ؟ فإننا حين نقول : « دولة إسلامية » أو رئيس دولة إسلامية ، فإن الأمر يختلط بتلك بالدول ، وربما يتبادر إلى الذهن أن الرئيس الإسلامى ذو قصر مثل رئيس الجمهورية الأمريكية ، وله بلاط يخرب أكثر ميزانية الدولة وحقوق الفقراء[١٥٤] .

* * * *

رئيسنا المسلم هو ذلك الشخص الذى كان يجلس فى المسجد ويصدر الأحكام ، وينفذ الجيوش ، أو كما روى إذا دخل أحد المسجد ولم يكن يعرف رسول الله ، فإنه لا يستطيع أن يميزه من غيره ، وكانت الدولة تدار ببساطة وبعدل تام ، رئيس حكوماتنا المسلم ، هو ذلك الذى سلك مع أخيه عقيل هذا السلوك حتى لا يطالب ثانية زيادة نصيبه من بيت المال ، والذى يحاسب ابنته حين أخذت عارية مضمونة من بيت المال ، ويقول : إنها إن لم تكن عارية مضمونة لكانت أول هاشمية تقطع يدها ...... نريد هذا الحاكم الذى لا يميز بين الناس ، الذى ينظر إلى أسرته وإلى الناس نظرة واحدة ، إذا سرق ابنه قطع يده ، وإذا تاجر أخوه أو أخته فى الهيروين أعدمهما ، لا أن يعدم أحداً من أجل عشرة جرامات من الهيروين ، فى حين أن أخته عندها الأطنان منه ، وتستورد الأطنان لحسابها .[١٥٥] .

* * * *

كان أمير المؤمنين على يحكم دولة واسعة الأطراف ، كانت إيران ومصر والحجاز فى قبضته ، وكان له ولاة فى كرمان والأهواز وخراسان والبصرة ، كان يعيش على نمط لا يستطيع أن يعيش عليه طالب فقير ، ..... ولو أن الحكومة

الإسلامية بقيت على ما كانت عليه ، لما كان هناك كل هذا الظلم والتعدى والفحشاء والمنكرات ، إن معظم هذه الأمور تنشأ من أولياء الأمور ، هم الذين يعدون أماكن الفساد وبؤر الفحشاء والرذيلة (١٥٦) .

* * * *

ينبغى أن نشكل حكومة تحفظ للناس أمنهم ، يثق الناس فيها ويطمئنون إليها ويسلمونها مصائرهم ، نريد حاكماً أميناً ، حتى يكون مؤتمناً وتزاول الأمة حياتها فى ظله وفى ظل القانون مستريحة الخاطر .... وهدف الإسلام تشكيل حكومة قوية قائمة على أساس الشريعة ، وسيادة الشريعة ، ولو أن الأمة أكلت خبز الشعير ، وعاشت فى ظل حكومة عادلة ، وقانون ثابت آمنة مطمئنة فهو أفضل من أن تعيش فى قصور وفى رفاهية ، وهى تفتقر إلى الحرية والأمن ، أهم ما فى الحياة الطمأنينة والأمن ، وهما لا يتيسران إلا فى ظل حكومة عادلة (١٥٧) .

* * * *

الحاكم فى الإسلام ينبغى أن يكون فقيهاً وأميناً وعالماً بالشريعة ، ولا يلزم قط لتشكيل الحكومة الإسلامية إنسان ذهب إلى أوربا ، وتخصص فى العلوم المختلفة ، خصلتان فحسب ينبغى أن تتوافرا فى حاكم المجتمع الإسلامى : أولاهما العلم بالقانون والأخرى العدالة ، لو أن إنسانا كفؤا اتسم بهاتين الخصلتين نهض وشكل حكومة ، فله نفس الولاية التى كانت للرسول ﷺ فى الحكم ، ويجب على الناس أن يطيعوه(١٥٨) .

١٤ ــ الوحدة الإسلامية :

إننى أمد يد الأخوة إلى كل الشعوب الإسلامية فى الشرق والغرب ، وأشد على أيديها (١٥٩) .

* * * *

لو كان المسلمون ـــ وعددهم سبعمائة مليون ـــ متحدين لما استطاعت أمريكا ، ولما استطاع السوفييت ارتكاب هذه الأخطاء . لما استطاعت آمريكا أن تستولى على ثروات المسلمين ، لو كان المسلمون متحدين لما استطاعت شرذمة من اليهود أن تسيطر عليهم كل هذه السيطرة [١٦٠] .

* * * *

اتحدوا وكونوا عباد الله إخواناً ، لتبقوا أحياء ، لتبقى شريعة الله باقية .... المسلمون هم أنفسهم الذين سيطروا على العالم ، هم أنفسهم الذين كانوا أصحاب حضارة فاقت كل الحضارات ، أصحاب إرادة فوق كل الإرادات ، وكان رجالها أعظم الرجال ، وكانت دولتهم أعظم من كل الدول وأكثر انساعاً ، ورأى الأعداء أنه لايمكن السيطرة عليهم إلا ببث الفرقة ، ورأى الأعداء أنه لا يمكن نهب ثرواتهم إلا ببث الفرقة [١٦١] .

* * * *

الإسلام حل مشكلة الفقر ، وجعلها فى رأس برنامجه ، الإسلام انتبه إلى أنه ينبغى من البداية حل مشكلة الفقر ، وإصلاح حال الفقراء ، اخضعوا إذن لأحكام الإسلام وطبقوا شريعته ، اسمحوا لنا بأن نطبق قانون الضرائب الإسلامية وانظروا : هل يبقى فقير ؟[١٦٢]

* * * *

إن الحيلة الكبرى التى قام بها الاستعماريون ، وجعلوها تتفشى فى الدول الإسلامية ، هى حيلة العرقية ، فالجنس العربى ينبغى أن تحكمه العروبة لا الإسلام ، والجنس الآرى ينبغى أن يحكمه الآريون لا الإسلام ، والجنس التركى ينبغى أن يحكمه الترك لا الإسلام ، ونضجت عبادة الجنس والعرق فى نفوس السادة وآنت أكلها ، وهذه مسألة طفولية ، كأنهم يتلاعبون بأطفال ، يلعبون برؤساء الدول ،

وهم غافلون عن نقطة الارتكاز التى تجمع كل المسلمين ، ومن أسف أنهم سلبوا نقطة الارتكاز هذه من المسلمين . لقد ألغى الإسلام تماماً عبادة العرق ، وجعل التقوى هى المقياس ، التقوى الواقعية والتقوى السياسية والتقوى المادية . إن قوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ، جعل قضية العرق نوعا من الرجعية[١٦٣] .

* * * *

لو أن الدول الإسلامية والشعوب الإسلامية تستند على الإسلام بدلاً من التجائها إلى المعسكر الغربى أو المعسكر الشرقى ، وجعلت نصب أعينها تعاليم القرآن النورانية ، وعملوا بها ، لما كانوا اليوم مستعبدين للمعتدين الصهاينة ، وهلعين من طائرات الفانتوم الأمريكية ، وبلا حول ولا قوة أمام سياسة الوفاق السوفييتية وألاعيبهم الشيطانية[١٦٤] .

* * * *

١٥ ــ حىّ على الكفاح :

على الأمة الإيرانية أن تقطع هذه الأغلال .

على الجيش الإيرانى ألا يسمح بوقوع هذه المهازل فى إيران .

على الخطباء والوعاظ أن يعترضوا بأسلوب قوى وصريح على هذه الأمور المخجلة ، وعليهم توعية الأمة .

على أساتذة الجامعات أن يطلعوا على ما يحدث فى الخفاء .

على شباب الجامعات أن يوصلوا اعتراضهم إلى الدنيا بأسرها .

على جميع طبقات الأمة أن ينسوا خلافاتهم ، وأن يصرفوا النظر عن خلافاتهم الفرعية والموسمية ، وأن يجاهدوا فى طريق هدف الاستقلال المقدس ، والخروج من ذل الاستعباد .

على الأحزاب السياسية أن تقوم بنوع من الوفاق فى سبيل هذا الهدف المشترك (١٦٥) .

* * * *

يا شعب إيران : واجهوا عملاء الاستعمار القساة ، بوجه كاره وسحنة غضوب ، وقاوموا أحكامهم الغاشمة بعدم تنفيذها ، قاوموها سلبيا بعدم تنفيذها ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ، واجعلوا نصب أعينكم حكومة الإسلام وأحكام الإسلام .

ولعل الله يقتلع هذا الظلم من أساسه (١٦٦) .

* * * *

أيها الجنود الشجعان : يا من أخذتم قسراً إلى المعسكرات ، تعلموا أصول العسكرية بشجاعة كاملة ، ولعلكم مثل سيدنا موسى الذى تربى فى أحضان فرعون ، ثم قضى على ظلمه وجوره ، ولعلكم تستطيعون فى يوم قريب أن تقطعوا هذه الأيدى الخبيثة ، وأن تقتلعوا الظلم من جذوره (١٦٧) .

* * * *

على العلماء الذين يجتمعون فى موسم الحج ــ أياً كانت بلادهم ــ أن يتبادلوا وجهات النظر حول كيفية إيقاظ الأمة ، وعليهم أن يوزعوا منشوراتهم ، وعلى كل منهم أن ينشرها فى بلده . فكروا فى فقراء الدول الإسلامية ومساكينها .

أنتم يا من لا تملكون القوة لمقاومة هذه الأعمال ، لاتجلسوا على الأقل ساكتين ، إنهم يقمعونكم فاصرخوا ، لا تستسلموا للظلم ، الاستسلام للظلم أسوأ من الظلم نفسه ، تحدثوا ، استنكروا ، اصرخوا (١٦٨) .

* * * *

السكوت على هذه المآسى فى حكم الانتحار ، واستعداد للموت الأسود ، وسقوط لشعب عظيم ، وحتى لاتفوت الفرصة ، ينبغى أن يقطع السكون ويشق الصمت ويبدأ الاستنكار والاعتراض .... السكوت على الظلم عون للظالمين (١٦٩) .

* * * *

أنتم أيها الشباب المثقف ــ وفى أى موقع كنتم ــ عليكم مسئوليات جسيمة : الدفاع عن الإسلام ، وهو واجب على كل مسلم . الدفاع عن الوطن واستقلاله ، وهو من المسئوليات الحتمية للإسلام . التعريف بالإسلام لكافة المجتمعات البشرية ، سواء من ناحية نظم الحكم ، وسواء من ناحية واجبات الوالى تجاه الأمة . إن معكم قوة الشباب العظيمة ، القوة التى تستطيعون بها الوصول بإسلامكم ودينكم ووطنكم إلى الأوج ، وأن تقطعوا أيدى الخونة عن وطنكم وسائر البلاد الإسلامية ، القوة لو أنفقت فى سبيل الحق نالت الخلود ، واتصلت بالقوة الأبدية الإلهية ، ولو أنفقت فى الشهوات ، فالعبودية فى الدنيا وسوء المآل والعاقبة فى الآخرة ..... إن الكنوز التى فوق الأرض أثمن من الكنوز التى ترقد فى باطنها ، إنها أنتم أيها الشباب ...

أنتم ياشبابنا العزيز ، لا تيأسوا فالنصر للحق ، أيها الطلاب ، إن هذا الإسلام الذى يعرفونكم به عن طريق الإذاعة ليس إسلاما ، هذا الاسلام الذى تقرءون عنه فى الصحف ليس إسلاماً ، إنه شيء متأخر لا يقره أى مسلم ...

أنتم ياشبابنا العزيز ، لا تيأسوا فالنصر للحق .

جاهدوا فى أن تعلوا راية الإسلام فى الجامعات ، قوموا بالدعوة إلى الإسلام ، حافظوا على الوحدة الدينية (١٧٠) .

* * * *

يا جيش إيران ، إننى أدق ناقوس الخطر .

أيها الجيش المحترم ، عارضهم وأفحمهم ، فأنت مسلم .

أيها الجيش المحترم ، عارضهم وأفحمهم ، فأنت مسلم .

بالله إننى لا أريد لكم إلا الخير ، أخشى يوماً تفتحون فيه عيونكم فترون أنكم أزلتم من الوجود .

يوماً ترون فيه أن الأمور قد تبدلت ، وأن الدفة قد تغيرت ، إلى حيث لا أستطيع أن أقاوم ولا أنتم تستطيعون .

هل بقيت كرامة لجيش يفضل الطباخ الأمريكى على مارشاله ؟ ، لو كنت عسكرياً ، ماقبلت هذا العار [(١٧١)] .

سوف نقوم إن شاء الله بما أمرنا به الله ، وسوف ننال « إحدى الحسنيين » ، إما قطع أيدى الخونة عن حرم الإسلام والقرآن الكريم ، أو جوار الحق جل وعلا ، « إنى لا أرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا برما » [(١٧٢)] .

* * * *

إن نفيى إلى تركيا ثم العراق لا يصيبنى بأدنى ضيق ، فى سبيل أداء واجبى والدفاع عن أحكام الإسلام ومصالح المسلمين ، ومقاومة نفوذ الأجانب فى الدول الإسلامية ، ودفع الظلم والجور [(١٧٣)] .

* * * *

إننى أعد قلبى لأسنة رماحكم ، ولكن لست مستعداً قط لقبول أكاذيبكم والخضوع لجبروتكم .

لن أقعد عن الكفاح إلا أن أضع الطبقة الفاسدة فى مكانها ، أو أن أقابل رباً كريماً ، وعذرى معى [(١٧٤)] .

* * * *

إن جهاز الجبار يظنني سعيداً بهذه الحياة حتى ليهددني بسلبها ، أية حياة هذه ؟ الموت أفضل منها .

أفضل منها أن أسرع إلى جوار أكرم الأكرمين .

أية حياة هذه تلك الحياة التي تملؤها أنات المظلومين ؟![١٧٥] ؟ !

هوامش القسم الثانى بفصليه

(١) Tabari (AZAR), Shii Clergy in Iranian Politics, in Religion and politics in Iran, P.60

(٢) كشف الأسرار ص ٩ ـــ ١٠ .

(٣) Rose (g.) The thought of Khomeini, in Religion and Politics in Iran, P. 177

(٤) كشف الأسرار : ص ١٧٩ ـــ ١٨٢ .

(٥) المصدر السابق : ص ١٨٥ .

(٦) الحكومة الإسلامية : الترجمة العربية ، تمت فى إيران دون ذكر لاسم المترجم ، ثم أعاد طبعها ونشرها بمقدمة د . حسن حنفى القاهرة ١٩٧٩ ـــ ص ٦٥ وما بعدها .

(٧) كشف الأسرار ص ١٨٧ ـــ ١٨٨ .

(٨) الحكومة الإسلامية ص ١٠٣ ـــ ١٠٦ .

(٩) المصدر السابق : ص ٨٦ ـــ ٨٩ .

(١٠) نفس المصدر ص ٩٣ .

(١١) كشف الأسرار ص ١٩١ .

(١٢) المصدر السابق : ص ٢٠٣ ـــ ٢١١ .

(١٣) نفس المصدر : ص ٢١٢ ـــ ٢١٤ .

(١٤) الحكومة الإسلامية : ص ١٨ ـــ ١٩ .

(١٥) كشف الأسرار : ص ٢٢٧ ـــ ٢٢٨ .

(١٦) الحكومة الإسلامية : ص ١٤٢ .

(١٧) كشف الأسرار : ص ٢٣٤ — ٢٣٨ .

(١٨) المصدر السابق : ص ٢٤٢ — ٢٤٧ .

(١٩) نفس المصدر ص ٢٤٩ — ٢٥٥ .

(٢٠) كشف الأسرار : ص ٢٥٥ — ٢٦٠ .

(٢١) الحكومة الإسلامية : ص ٣٣ — ٣٤ .

(٢٢) المصدر السابق : ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢٣) نفس المصدر : ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢٤) الحكومة الإسلامية : ص ٤٦ .

(٢٥) المصدر السابق : ص ٤٩ .

(٢٦) الحكومة الإسلامية : ص ٥٠ .

(٢٧) Rose, The thought of Khomeini, PP 185 - 188

(٢٨) من خطبة بمناسبة احتفالات الشاه بمرور خمسة وعشرين قرناً على ظهور الإمبراطورية الإيرانية .

(٢٩) من نفس الخطبة .

(٣٠) من الخطبة وتاريخها (٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٩١) ق .

(٣١) من نفس الخطبة .

(٣٢) من نفس الخطبة . وانظر الفصل الأول من القسم الأول .

(٣٣) من نفس الخطبة . انظر الفصل الأول من القسم الأول .

(٣٤) حكومت إسلامى : من مؤلفات آية الله الخمينى : درس (٢ ص . ٣٥) .

(٣٥) من خطبة له بمناسبة الاحتفالات بمرور خمسة وعشرين قرناً على قيام الإمبراطورية الإيرانية .

(٣٦) من نفس الخطبة .

(٣٧) من نفس الخطبة .

(٣٨) من بيان تاريخى بمناسبة الهجوم على المدرسة الفيضية فى « قم » وإهانة علمائها وشيوخها وقتل عدد منهم .

والملاحظ أن أجهزة الدعاية الشاهية وعدداً من المستفيدين من نظام الحكم ، كانوا يروجون لفكرة أن أصلح نظام لحكم إيران ، هو النظام الشاهنشاهي ، وكانت الكتب تؤلف في هذا الموضوع ، وتتعسف التعليلات تعسفاً ، وكان الشاه نفسه هو الذى فتح ميدان التأليف فى هذا الموضوع ، أما مظاهر عبادة الشاه فكانت لا تعد ولا تحصى ، ومن الغريب أنه كان يدعو إلى إقامة الدولة العصرية ، بينما كان فى كل تصرفاته يدل أنه يعيش بعقلية إيران ما قبل الإسلام ، وكان من المحرم تماماً — حتى على الأساتذة الأجانب — المساس بنظرية الشاهنشاه فى الحتمية الشاهنشاهية ، وإلا اتهم بأنه يهاجم إيران .

(٣٩) من خطبة بمناسبة احتفالات الشاهنشاه بمرور خمسة وعشرين قرناً على قيام النظام الشاهنشاهى فى إيران .

(٤٠) من بيان إلى الأمة الإيرانية فى (٨ صفر ١٣٩٣) هـ .

(٤١) من خطبة بمناسبة احتفالات الشاه بعيد مرور خمسة وعشرين قرناً على قيام الشاهنشاهية .

(٤٢) من بيان ثورى فى (١٦ رمضان سنة ١٣٩٣) هـ .

(٤٣) من بيان ثورى فى عاشوراء سنة (١٣٨٣) هـ .

(٤٤) من بيان بمناسبة إعلان الشاه ، لتكوين حزب رستاخيز ملت « بعث الشعب » . فى (٢٨ صفر ١٣٩٥) هـ .

(٤٥) من البيان السابق .

(٤٦) من بيان ثورى فى (١٦ رمضان ١٣٩٣) هـ .

(٤٧) من البيان السابق .

(٤٨) من رسالة إلى رجال الدين فى ٣ صفر ١٣٩٣ هـ .

(٤٩) حكومت إسلامى : درس (٦ ص ١٠)

(٥٠) انظر الفصل الأول من الجزء الثانى .

(٥١) من خطبة فى (٢١ فروردين ١٣٤٣ - ١٩٦٤) وانظر أيضاً تحليلات مهدى بازرجان فى الفصل الرابع من القسم الأول ، وانظر أيضا مدافعات الشهيد سعيد محسن مؤسس سازمان مجاهدين خلق « منظمة مجاهدى الشعب » ، أمام المحكمة العسكرية التى حكمت بإعدامه ص (٢٨) وما بعدها .

(٥٢) من رسالة إلى حجاج بيت الله فى ذى الحجة سنة (١٣٩٠) هـ .

(٥٣) رسالة إلى المراكز الدينية العلمية فى غرة رجب سنة (١٣٩٢) هـ .

(٥٤) من رسالة إلى رجال الدين الإيرانيين فى (٨ صفر سنة ١٣٩٣)هـ .

والملاحظ أن التضييق بلغ حداً بحيث إن السافاك كان لديها قائمة بأسماء الشيوخ المشكوك فى ولائهم للحكومة ، وكان هؤلاء يحال بينهم وبين أى فرصة للحديث حتى فى المآتم ، أما فقهاء الدولة فكانت هناك قوائم بأسمائهم فى أقسام البوليس وعلى أقارب المتوفى الرجوع إليها . أنظر تقرير اللجنة المشكلة من مندوبين عن جمعية الحقوقيين الديموقراطيين الدولية ومنظمة حقوق الإنسان الدولية والحركة الدولية للحقوقيين الكاثوليك عن المهمة التى قاموا بها داخل إيران فى الفترة بين (٢٤ فبراير إلى ٤ مارس سنة ١٩٧٨) الترجمة الفارسية للتقرير ص : (٩) .

(٥٥) من رسالة إلى رجال الدين الإيرانيين فى (٨ صفر ١٣٩٣) .

(٥٦) من بيان تاريخى ضد تشكيل حزب رستاخيزملت فى (٢٨ صفر ١٣٩٥) هـ .

(٥٧) من بيان ثورى فى عاشوراء (١٣٩٠ ١٩٧٠) .

(٥٨) من بيان ضد قرار الشاه بمنح الحصانة الديبلوماسية للخبراء الأمريكيين وأسرهم وخدمهم ، وعدم مشروعية محاكمتهم أمام القضاء الإيرانى فى (٢٠ جمادى الآخرة ١٨٤٣) هـ .

(٥٩) من نفس البيان السابق . ومن النتائج المباشرة لما سمى بالإصلاح الزراعى وهو من أهم بنود ما سماه بالثورة البيضاء سيطرة الدولة التامة على وسائل الانتاج الزراعى ، وإهمالها فى تجديد شبكة القنوات المغطاة ، التى تعتمد الدولة عليها اعتماداً تاماً فى الزراعة ، وكان من نتيجة ذلك ، أن آلاف الفلاحين هجروا قراهم ، وبعد تأميم المراعى والغابات حرم على الرعاة رعى مواشيهم فيها ، مما أصاب الثروة الحيوانية فى إيران بلطمة شديدة ، وفى السنوات الأخيرة كانت الهجرة من القرى إلى المدن الكبيرة فى إيران على أشدها ، وعلى مشارف المدن كان الزائر العادى يلاحظ مئات الأسر ، التى افترشت الأرض حتى الحصول على مسكن وعلى عمل ، وقد ارتفع عدد سكان طهران فى السنوات العشر الأخيرة ، من مليون ونصف إلى خمسة ملايين ، وعاش معظم المهاجرين فى أكواخ خارج المدينة ، كان يمنع أى أجنبى من الاقتراب منها (وقد حاولت مراراً وفشلت) ، وكانت نتيجة ذلك كله انخفاضا رهيبا فى إنتاج إيران للمواد الغذائية ، بحيث وصلت نسبة الاستيراد فى المواد الغذائية اللازمة حوالى (٩٣ ٪) ، ومن ناحية أخرى كانت مشروعات الأجانب وكبار الرأسماليين (ومنهم الأسرة المالكة نفسها) ، تجد عمالاً بأبخس الأثمان (انظر مدافعات الشهيد سعيد محسن ص ٣١ — ٣٢) ومع وجود عائد البترول الضخم ، إلا أن الفترة الواهية للرواج الاستهلاكى ، (الذى ضخمته الدعاية الشاهية آلاف المرات من حجمه الحقيقى) ، كانت تخفى وراءها خراباً شديداً ، وفى سنة (١٩٧٧) بلغت واردات إيران خمسة أضعاف صادراتها (أنظر مجلة كميته برأى دفاع از حقوق بشر وپيشبردآن در إيران : مجلة جمعية الدفاع عن حقوق الإنسان فى إيران العدد (١٢ ص : ١٠٣) والحديث عن مظاهر الخراب فى إيران من شاهد عيان يطول .....

(٦٠) بيان تاريخى ضد إحياء الإمتيازات الأجنبية فى إيران .

(٦١) نفس البيان .

(٦٢) نفس البيان .

(٦٣) نفس البيان .

(٦٤) نفس البيان .

(٦٥) نفس البيان .

(٦٦) نفس البيان .

(٦٧) نفس البيان .

(٦٨) أنظر الفصل الثانى من الباب الأول .

(٦٩) من رسالة إلى الأمة الإيرانية غرة رجب (١٣٩٥) .

(٧٠) من رسالة إلى الطلاب المسلمين فى أمريكا وكندا فى (٢٠ جمادى الثانية سنة ١٣٩٠) هـ .

(٧١) من رسالة فى الذكرى الأولى للمذبحة فى محرم (١٣٨٤) هـ .

(٧٢) من خطاب فى (٢١ فروردين سنة ١٣٤٣ — ١٩٦٤) .

(٧٣) من منشور تاريخى فى (٢ من ذى الحجة سنة ١٣٩٠) هـ .

(٧٤) رسالة إلى الطلاب المسلمين المقيمين فى كندا فى جمادى الآخرة (١٣٩٠) هـ .

(٧٥) من خطاب مفتوح إلى عباس هويدا (رئيس وزراء الشاه فى الفترة من (١٩٦٤ إلى ١٩٧٧) رغم كل ما يقال فيه ، لا ينبغى ذكره فى الكتب) فى محرم (١٣٨٧) هـ .

(٧٦) المقصود هو الهجوم على الاحتفال الباذخ الذى أقامه الشاه بمناسبة مرور خمسة وعشرين قرناً على قيام الإمبراطورية فى إيران ، وكان بالطبع يرى نفسه امتداداً لهم ، وانتهاز الفرصة لتتويج نفسه ، بعد أن رأى نفسه قد استقر وأصبح يستحق التتويج ، كما كان المقصود بالطبع تعميق جذور إيران فى فترة ما قبل الإسلام فى الشعب الإيرانى المسلم : وبالرغم من أن السفه الذى أبداه فى هذه الاحتفالات ، قد فاق حد التصور ، فقد أعلن أن المبلغ الذى أنفقه قليل جداً ولا يساوى الدعاية التى قام بها لإيران ، وفى أعقاب هذه الاحتفالات مباشرة ، قام بالفتك بعدد كبير من رجال الدين وطلاب الجامعات ، وكافة العناصر فى إيران . ومعظم احتفالات الشاه كان الهدف منها محو الفترة الإسلامية من الوجدان الإيرانى وتصويرها على أنها كانت فترة ظلم وقهر من العرب ، وفى السنوات الأخيرة من حكم الشاه ، كان البهائيون يسيطرون على البلاط (وهناك شائعة أن هويدا نفسه بهائى) ، أما البرج الذى أمر الشاه ببنائه فى مدخل طهران ، فقد كلف به مهندسا بهائيا ، وقد شرح لى أحد الأصدقاء الإيرانيين ، كيف أن طراز البناء السداسى الأضلاع يعبر عن أصول البهائية ، وأنه ينبغى أن يسمى بهاءباد « ذكرى عبد البهاء » وليس شهياد « ذكرى الملك ..... وكنت خلال زياراتى لإيران ، أرى كيف توظف الدولة أشباه الأساتذة لخدمة هذا الاتجاه ، وكيف كانوا يقومون فى مؤتمراتهم بلَىّ ذراع التاريخ لتحميل العرب كل نقيصة ، وفى الاحتفال السنوى الذى كان يقام فى مشهد للشاعر القومى الفردوسى ، كان ممنوعاً على أى باحث أن يتحدث عن الجانب الإسلامى عند الفردوسى ، وعندما أبديت رأيى هذا لإحدى الصحف ، أنه مما يزرى بالفردوسى تجاهل الحكمة الإسلامية فى شعره لم تنشر حرفاً واحداً ، وعلى مدى شهرين أقمتهما فى

إيران فى آخر رحلاتى إليها فى صيف (١٩٧٧) ، لم تنقطع المهرجانات الأدبية والفنية والسينمائية يوماً واحداً ، وفى شيراز عرضت إحدى الفرق الأوروبية برنامجاً عارياً فى شوارع المدينة ، وكل هذا كان تحت أنظار الشعب المحروم المسحوق المهان ، الذى كان يرى بحسه الإسلامى المرهف ، أن ملوكا من أمثال كمبوجية ، أو سابور الذى كان ينقب الأكتاف ، أو أنو شيروان الذى أعدم أربعين ألفاً من المزادكة فى ليلة واحدة ، من الخير لهم أن يلقى بهم فى مزبلة التاريخ (انظر مدافعات سعيد محسن ص ٣٩) .

(٧٧) من خطاب مفتوح إلى هويدا فى محرم (١٣٨٧) هـ .

(٧٨) من نفس الخطاب .

(٧٩) من رسالة تاريخية إلى زوار البيت الحرام فى ذى الحجة سنة (١٣٩٠) هـ .

(٨٠) نفس الرسالة .

(٨١) خطبة بمناسبة الاحتفالات الإمبراطورية فى (٢٨) ربيع الثانى (١٣٩١) هـ .

(٨٢) من نفس الخطبة .

(٨٣) كان حزب رستاخيزملت (بعث الشعب) هو آخر تجارب الشاه الديموقراطية ، وكان تشكيل هذا الحزب دليلاً على منتهى العجز من الشاه ، وعلى انعدام ثقته فى الأحزاب الواهية التى شكلها بنفسه ، وبالرغم من أنه كان صانعها الأول ، فقد قمعها بشدة ، واذكر فى لقاء مع منوجهر آزمون ، وكان يومها نائباً لرئيس الوزراء « هويدا » ، واستدعى للاشتراك مع الأساتذة الأجانب فى ندوة عن تاريخ إيران المعاصر ، أنه أراد يومها أن يعطينى كتيباً يحتوى على صفحة واحدة عن حزب إيران نوين « إيران الجديدة » ، الذى يعد من أقطابه ، بينما كرس معظم الكتاب للتسبيح بحمد الثورة البيضاء ، ومع ذلك فمن أجل الصفحة الواحدة قطع السيد نائب رئيس الوزراء جلدة الكتاب وكان يتلفت حوله . وبعد أن شكل الشاه رستاخيز حاول بكافة الطرق فرضه على الأمة ، وعطل عدداً كبيراً من الصحف والمجلات لصالح جريدة الحزب وقال بالحرف الواحد : « يجب تقوية صفوف الإيرانيين ..... إننا نقسمهم إلى نوعين : هؤلاء الذين يؤمنون بالنظام الملكى والدستور ، وثورة السادس من بهمن ، أى الثورة البيضاء ، وهؤلاء الذين لا يؤمنون بها ... والشخص الذى لا ينضم لهذا الحزب الجديد ولا يؤمن بهذه المبادىء الثلاثة ، أما أنه شخص ينتمى إلى منظمة غير شرعية ، أو مرتبط بحزب توده المحظور ، أو بعبارة أخرى خائن ، ومثل هذا الشخص ليس أمامه إلا واحد من طريقين : أما أنه يجب وضعه فى أحد السجون الإيرانية ، أو يستطيع إذا رغب فى ذلك أن يغادر البلاد غداً حتى دون أن يدفع رسم الخروج من المطار ، ويستطيع أن يذهب إلى أى مكان يريد لأنه ليس إيرانيا فهو شخص لا ينتمى إلى أمة أو وطن » ، هكذا وبالحرف الواحد . وكانت بطاقة الحزب هى ضمان الحصول على كل الامتيازات بالطبع ، أذكر أن الحكومة الإيرانية أوفدت عدداً من الطلاب لدراسة الماجستير فى الأدب العربى ، وقد هالنى مستواهم المدقع فى اللغة العربية وآدابها ، ولما أبديت دهشتى لبعضهم من إيفادهم هم بالذات ، رد ـــ وكان قد وثق فى : بارتى بازى : أى ألاعيب حزبية .

(٨٤) بيان تاريخى عن تحريم الانضمام إلى حزب رستاخيز ، فى (٢٨ صفر ١٣٩٥) هـ .

(٨٥) نفس البيان .

(٨٦) نفس البيان .

(٨٧) نفس البيان .

(٨٨) نفس البيان .

(٨٩) رسالة إلى الشعب الإيرانى الشجاع فى غرة رجب (١٣٩٥) هـ .

(٩٠) رسالة إلى المجلس الإسلامى للطلاب المقيمين فى أمريكا وكندا فى (١٧) رمضان سنة (١٣٩٥) هـ .

(٩١) نفس الرسالة .

(٩٢) بيان إلى الشعب الإيرانى الشجاع فى غرة رجب (١٣٩٥) هـ .

(٩٣) فى مسجد سبهسالار فى طهران والذى كان مركزاً من مراكز المقاومة الدينية فى هذا القرن ، ثم حوله الشاه إلى متحف ، توجد حجرة خاصة تسمى حجرة « الشاه والدين » وتحتوى الحجرة على صور للشاه فى الحرم النبوى الشريف ، وصور بملابس الإحرام وفى المزارات المقدسة فى إيران وصور بين آيات الله المعينين من قبل السافاك ، وكنت فى إيران عندما توفى أحد آيات الله الكبار ، وخرجت الصحف كلها مجللة بالسواد ، وقامت الدنيا ولم تقعد ، وعندما سألت أحد الأصدقاء عن مؤلفات الفقيد العلمية أجاب : رسالة الطهارة ، ثم علمت فيما بعد أن ابنه قد انضم إلى هيئة رجال الدين الشاهية دون علم أو خبرة ، وكان بالرغم من جهله الفاضح يكتب الكتب التى تباركها السلطة فى الرد على كتب شريعتى العظيم ، ونوادر هؤلاء المشايخ المزيفين لا تنتهى ، وليس هنا على كل مجالها ، وبعضها مما لا يصدقه عقل منشور فى كتب الدكتور شريعتى ، وذات مرة شاهدت أحدهم فى التليفزيون الإيرانى ، وكنا فى رمضان المبارك ، وتحدث الشيخ ـــ الذى كان أيضاً نائباً فى البرلمان ـــ عن موضوعات دينية ، ثم فجأة وبلا سابق إنذار ، دخل فى مدح الشاهنشاه حامى الدين ، وكيف أن حبه من حب الله ... ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٩٤) بيان فى (٩ صفر ١٣٩٣) هـ .

(٩٥) نفس البيان .

(٩٦) رسالة إلى الاتحاد الطلابى الإسلامى فى أمريكا وكندا فى (٢٠) جمادى الثانية سنة (١٣٩٠) هـ .

(٩٧) حكومت إسلامى : درس (٧ ص ١٦) .

(٩٨) حكومت إسلامى : درس (٧ ، ص ١٥) .

(٩٩) حكومت إسلامى : درس (٧ ، ص ٩) .

(١٠٠) حكومت إسلامى : درس (٧ ، ص ١٨) .

(١٠١) حكومت إسلامى : درس (٧ ، ص ١٩) .

(١٠٢) البيان التاريخى بتحريم الانضمام إلى حزب رستاخيز فى (٢٨ صفر سنة ١٣٩٥) . كان الشاه يسمى البترول « المادة المباركة » ، وكان ينفق جزءاً كبيراً من دخل البترول على شراء السلاح كما هو مشهور ، ومع ذلك كانت سياسته الممالئة لأمريكا والغرب ، وتجعل دخله من البترول قليلاً جداً بالقياس إلى الدول الأخرى

المنتجة للبترول ، وعلى سبيل المثال بلغ دخله من البترول سنة (١٩٦٩) تسعمائة مليون دولار فى مقابل (١٥٧) مليون طن ، بينما بلغ دخل الجزائر فى نفس العام مليار دولار عن (٤٠) مليون طن فقط ، وعند هبوط الدولار كانت نسبة إيران من بترولها تقل كثيراً ، وكان البيع يتم بالسعر المنخفض ، وشراء الأسلحة يتم بالسعر المرتفع (انظر مدافعات الشهيد سعيد محسن ٢٨ — ٢٩) .

(١٠٣) البيان التاريخى بتحريم الانضمام إلى حزب رستاخيز .

(١٠٤) من تقرير لجان حقوق الإنسان العالمية التى زارت إيران سنة (١٩٧٨) ، نص على أن كثيراً جداً من الكتاب لم يعد ينشر لهم عمل واحد فى إيران ، وأن كتب مهدى بازرجان العلمية لا تنشر ، ناهيك عن كتب الدكتور شريعتى ، وكانت السافاك بالمرصاد للكتاب ، فإما الهجرة وأما الصمت ، وقد اضطر اعتماد زاده به آذين إلى الصمت التام ، بالرغم من أنه من أعظم الكتاب المعاصرين ، ولم نكن نعرف عنه – نحن المتخصصين – شيئا وأذكر أن كتاباً له وقع فى يدى بالصدفة ، من تاجر كتب قديمة وفوجئت بمستواه العظيم ، لكننى لم أجد كتاباً واحداً له فى المكتبات (وهو رئيس اتحاد الكتاب الذى شكل أثناء الثورة) ، وكان على الناشر فى إيران أن يقدم كتابه بعد الطبع إلى الرقابة ، وكان عدم السماح ببيعه يسبب خسارة فادحة للناشر ، وبلغت حداً مضحكاً ، بحيث إنه لم يكن مسموحا لأى شاعر باستعمال لفظى أسود أو أحمر وإلا اتهم على الفور بأنه يوجه رسائل إلى أحد جناحى الثورة : الدينى أو اليسارى ....

أما الأساتذة فقد كان يسمح لهم بالكتابة فقط فى حالة تمجيد الشاه ، أو إذكاء النعرة القومية القديمة ، أما الباقى فعليهم بالصمت ، ولم تكن تقام ندوة علمية أو محاضرة عامة فى الجامعة إلا بإذن من السافاك ، وحين عقدت الدكتورة هما ناطق الأستاذة بكلية الآداب ندوة مع طلبتها ، اختطفت وضربت وأهينت ، وهموا بالاعتداء عليها ، وبعد طردها من الجامعة وزع السافاك منشوراً فحواه أن السيدة المذكورة بغى ، يضاجعها كل من يلقاها (تقرير لجان حقوق الإنسان ٨ — ١٤) وحين كتب مائة أستاذ وستة من زملائها عريضة احتجاج أهينوا جميعاً ....

وطوال سنوات القمع والقهر (٦٣ — ٧٨) لم تنقطع مظاهرات الطلاب ، ولم يكن يمر عام واحد دون أن تستعر المظاهرات والإضرابات فى الجامعة ، وكان الضحايا يسقطون بالعشرات ، ويزج بالمئات فى السجون ، والغريب أن نظام دخول الجامعات بالمسابقة المتبع فى إيران ، كان يتيح للسافاك أن تختار عناصر غير مزعجة ، وليس لأهلها سوابق فى العمل السياسى ، ومن مائتين وخمسين ألف طالب أتموا الدراسة الثانوية سنة (٧٧) ، لم يقبل فى جامعات إيران إلا حوالى ثمانية عشر ألف طالب ، أما الباقى فكان عليهم أن يبحثوا لهم عن فرصة خارج إيران ، وبالرغم من تكاليف الخروج من إيران (تبلغ تكاليف جواز السفر وتأشيرة الخروج حوالى ستمائة جنيه مصرى) ، فإن الإيرانيين لم يتركوا فرصة تمر دون الخروج لمجرد التنفس ...

وبوضوح اللون الدينى لمعظم الحركات التحررية التى كانت تعمل فى إيران ، ولأن وصمة الماركسية الإسلامية التى كان الشاه أول من لصقها لم تقنع أحداً ، كان أى تحرك فردى أو رأى جرىء أو حتى صوت عال من رجل دين يقمع بشدة ، فقتل آية الله غفارى ، بعد تعذيب شديد حيث وضع ساقاه فى قدر به زيت زيتون مغلى ، وقتل آية الله سعيدى بعد تعذيب شديد من قبل السافاك ، ومات مصطفى الخمينى ابن آية الله الخمينى ميتة مشكوكاً فيها ، وفى التليفزيون الإيرانى ، اعترف أخيراً الجنرال نصيرى قائد السافاك ، بأنه تبول

فى فم الشيخ لاهوتى ، ولم يكن للشيخ من ذنب إلا أنه كان يتلو آيات من القرآن ، تساعده على تحمل التعذيب ، وعلى الذى يريد أن يأخذ صورة عن السجون الإيرانية التى فاقت فى بشاعتها حد التصور ، أن يقرأ العدد الحادى عشر من نشرة جمعية حقوق الإنسان فى إيران « كميته براى دفاع از حقوق بشر وپيشبرد آن در إيران » ففيها ما يكفى ...

وكان كل هذا يجرى وفى إيران جمعية شاهية للدفاع عن حقوق الإنسان ، لكنها كانت برئاسة « أشرف بهلوى » أخت الشاه التوأم .

(١٠٥) بيان تاريخى بتحريم الانضمام إلى حزب رستاخيز ..

(١٠٦) البيان التاريخى ضد إحياء الامتيازات الأجنبية فى إيران .

(١٠٧) بيان تاريخى ضد الاحتفالات الشاهنشاهية .

(١٠٨) نفس البيان .

(١٠٩) رسالة إلى الأمة الإيرانية فى رجب (١٣٩٥هـ) .

(١١٠) بيان تاريخى ضد إحياء الامتيازات الأجنبية فى إيران .

(١١١) خطبة فى فروردين (١٣٤٣ هـ — ١٩٦٤ م)

(١١٢) بيان فى الذكرى الأولى لمذبحة خرداد ألفى فى محرم (١٣٨٤) هـ . هذا وبالرغم من أن حكومة الشاه كانت تبذل الجهد الجهيد ، لإخفاء كل ما يمكن أن يكون قذى فى عين الأجنبى ، فإن الزائر كان يمكن أن يدرك للوهلة الأولى أن فى إيران طبقتين : إحداهما فى أعلى عليين وثانيتهما : فى الدرك الأسفل ، وبالرغم من غنى الشمال الإيرانى ، كان الفقر يحس ويلمس فى بعض قراه ، بمجرد نظرة من نافذة الأتوبيس إلى مناظر القرى والناس فيها ، أما الجنوب الإيرانى ، فكان من المناطق المحرمة ، وكان نفاق الشاه يبلغ مداه عندما يتباهى أمام شعبه بتقديم القروض للدول النامية ، والحكومة الإيرانية تزداد غرقاً فى الديون للدول الغربية عاماً بعد عام . ويقدم الشهيد سعيد محسن فى دفاعه أمام المحكمة العسكرية صورة من مشاهداته الشخصية للأحوال العامة فى القرى ، التى تبعد عن العاصمة والمدن الكبرى (انظر مدافعات الشهيد سعيد محسن) .

(١١٣) بيان تاريخى بتحريم الانضمام إلى حزب رستاخيز . ولمعلومات أكثر عن الدور الحقيقى الذى لعبه حزب توده الشيوعى فى التاريخ الإيرانى المعاصر . انظر الفصل الثانى من الباب الأول .

(١١٤) بيان تاريخى فى ذى الحجة سنة (١٣٨٣) هـ .

(١١٥) من خطاب مفتوح إلى رئيس الوزراء هويدا فى محرم سنة (١٣٨٧) هـ .

(١١٦) من نفس الخطاب .

(١١٧) بيان إلى المراكز العلمية فى غرة رجب سنة (١٣٩٢) هـ .

(١١٨) رسالة إلى الوعاظ والشيوخ فى (٢٣ رمضان ١٣٩١) .

(١١٩) حكومت إسلامى درس (١ ص : ٦) .

(١٢٠) رسالة إلى المراكز العلمية فى (٨ محرم ١٣٨٧) هـ .

(١٢١) رسالة إلى الطلاب المسلمين فى أمريكا فى (٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٩٢) هـ .

(١٢٢) رسالة إلى علماء إيران فى (٨ صفر سنة ١٣٩٣) هـ .

(١٢٣) حكومت إسلامى : درس (٢ ص ٣٣) .

(١٢٤) مبارزة بانفس ص (٨٩) .

(١٢٥) خطبة فى ذى الحجة سنة (١٣٨٣)هـ .

(١٢٦) رسالة إلى الطلاب المسلمين فى (٢٨ جمادى الثانية ١٣٩٢) هـ .

(١٢٧) حكومت إسلامى : درس (١ ص ١٦) .

(١٢٨) رد على رسالة من الطلاب المسلمين فى كندا وأمريكا فى (٢٣ شوال سنة ١٣٨٩) هـ .

(١٢٩) خطبة فى (٢ جمادى الأول سنة ١٣٨٤) .

(١٣٠) حكومت إسلامى : درس (١ ص ١٣٠) .

(١٣١) حكومت إسلامى : درس (١١ ص : ٣٢) . والواقع أنه بعد فشل ثورة مصدق والغدر بها بخسة ووحشية والتنكيل بأتباعها ، كانت الجماعات الوطنية فى المرحلة بين سقوط مصدق ، وقيام الثورة الأخيرة قد طرحت الكفاح المسلح ، كبديل لكل المعارك اللفظية والجانبية وللوقوف ضد قوة السافاك من ناحية ، والجيش الذى كان يتدخل دائماً فى الوقت المناسب ، بحيث أن مظليى الجيش هبطوا مرات فى الجامعات لإخماد المظاهرات ، وكان النموذج المطروح من أمريكا اللاتينية ومن المقاومة الفلسطينية ، وساعدت المقاومة الفلسطينية فى تقديم مجهودات فى هذا المجال ، وكانت الجماعات المسلحة تتفاوت بين الاتجاه الإسلامى والاتجاه اليسارى ، وبينما نجح عملاء السافاك فى التسلل إلى الجماعات اليسارية وتصفيتها ، كان الجناح الإسلامى الذى ترأسه « سازمان مجاهدين خلق إيران » يواصل تقدمه ، وقد حلل الشهيد سعيد محسن شرعية الكفاح المسلح ، أمام المحكمة العسكرية ، وأدان حكومة الشاه باللصوصية والقتل وتهريب الأموال ، مما يحلل للشعب مقاومتها عسكرياً خاصة أن الدولة تستعمل نفس السلاح بأسلحة البنتاجون ، التى يوجه معظمها لقمع الشعب ، ولفرض السيطرة على الخليج والتدخل فى القرن الأفريقى ، وقمع الشعب فى ظفار (انظر مدافعات سعيد محسن ٣٧ — ٣٨) ولنا هنا تعليق بسيط : أكان من الممكن أن تنجح الثورة ، وأن يتم تحييد الجيش لولا المليشيا الإسلامية ، واستعراض القوة الذى قامت به يوم عودة آية الله الخمينى إلى إيران ؟ !

(١٣٢) حكومت إسلامي : درس (١ ص ١٩) . ولم يعد سراً أن النظام الشاهى كان متورطاً فى العمالة لإسرائيل حتى أذنيه ، ولم يعد سراً المساعدات التى كان الشاه يقدمها لإسرائيل علناً قبل سنة (١٩٧١) ، وسراً بعدها ، وكان بنفاقه المعهود يتحدث فى خطبه عن الأخوة الإسلامية ، ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، وكانت كل دبابة وطيارة إسرائيلية تفتك بالعرب فى حرب (٦٧) تسير ببركة بترول الشاه ، كما اشترك اشتراكاً فعلياً بقواته فى مذابح الفلسطينيين فى أيلول الأسود ، ولا أحب هنا أن أكرر معلومات صحفية ، إلا أنه ثبت أخيراً أن الطيارين والمظليين الإسرائيليين ، كانوا يتدربون فى دزفول بإيران ، وحين تقدم الشاه بطلب للبنك الدولى لتعمير صحراء قزوين اشترط أن تكون الخبرة الفنية والمعدات من إسرائيل ووافق الشاه (انظر مدافعات سعيد محسن) ، وبلغت وقاحته قمتها الأيام الأخيرة قبل أن يطرده الشعب شر طردة ، عندما كان يتحدث إلى صحفه بتعليقاته على مبادرة السلام المصرية ، ولا يعترف قط بأى دور للفلسطينيين فى مباحثات السلام ، ويعطى هذا الحق للملك حسين (انظر قيام آفريننان قم وتبريز جـ ١ ص ١٠٧) .

كنت فى إيران سنة (١٩٧٤) وكانت الدورة الأسيوية للألعاب الرياضية مقامة فى إيران ، وفى المباراة النهائية لكرة القدم ، كان على إيران أن تلتقى مع إسرائيل ، وخرجت أكثر الصحف ولاء للشاه ساخرة فى مانشيتاتها « إيران تقاتل إسرائيل فى ميدان كرة القدم » وقبل المباراة بساعات أخليت جميع المنطقة التى حول الاستاد ، ولعله مما يثير السخرية حقاً ، وله معنى حتى ولو كان شائعة ، أن الشاه استدعى اثنى عشر ألف جندى إسرائيلى لحمايته والثورة الإيرانية فى قمتها .

(١٣٣) بيان ضد إحياء الامتيازات الأجنبية فى إيران .

(١٣٤) نفس البيان .

(١٣٥) انظر الحاشية رقم (١٠٦) .

(١٣٦) رسالة إلى الطلاب المسلمين المقيمين فى أمريكا وكندا فى (٢٨) جمادى الثانى سنة (١٣٩٢) وبيان تأييد للمقاومة الفلسطينية فى رمضان (١٣٩٢) .

(١٣٧) رسالة إلى الطلاب المقيمين فى أمريكا وكندا .

(١٣٨) بيان تأييد للعرب فى حرب أكتوبر فى رمضان (١٣٩٣) .

(١٣٩) فى حديث أدلى به لجريدة الجمهورية العراقية فى (١٣ / ١٠ /١٩٦٩) .

(١٤٠) بيان تأييد لحركة التحرير الإيرانية .

(١٤١) رسالة إلى نقابات قم فى رجب (١٣٨٢) هـ .

(١٤٢) بيان فى عاشوراء سنة (١٣٨٣) .

(١٤٣) بيان فى محرم سنة (١٣٨٣) .

(١٤٤) حديث مع ممثل فتح فى رجب (١٣٨٨) .

(١٤٥) بيان لتأييد المقاومة الفلسطينية وفتوى بأحقيتهم فى كل الأموال الفائضة على المسلمين .

(١٤٦) خطاب فى فروردين (١٣٤٣ — ١٩٦٤) وحكومت إسلامى : درس (٥ ص ١٦) .

(١٤٧) بيان تاريخى ضد إحياء الإمتيازات الأجنبية فى إيران .

(١٤٨) بيان تاريخى ضد إحياء الإمتيازات الأجنبية فى إيران .

(١٤٩) بيان فى ذكرى مذبحة خرداد صدر فى محرم (١٣٨٤) .

(١٥٠) بيان بمناسبة الهجوم على المدرسة الفيضية فروردين (٤٢ — ١٩٦٣) وحكومت إسلامى درس (٧ ص ١٦) ، وبيان ضد إحياء الإمتيازات الأجنبية فى إيران .

(١٥١) حكومت إسلامى درس (٩ ص ١٨) .

(١٥٢) حكومت إسلامى : درس (١٢ ص ٥٠) .

(١٥٣) حكومت إسلامى : درس (٣ ص ٨) .

(١٥٤) حكومت إسلامى درس (٦ ص ٢١ ، ودرس ٢ ص ٢٤) .

وقد كان للشاه بالطبع مكتب خاص (دفتر مخصوص) ، وكان للشهبانو كذلك ولولى العهد ، ولم يكن أحد يعرف ماذا يمكن أن يقوم به أساتذة الفلسفة والعلوم فى مكاتب الشهبانو وولى العهد ، اللهم إلا لشراء الذمم وتبرير إعطاء مرتبات كبيرة ، وكم كان ممضاً للنفس حقا أن أعظم أساتذة إيران المعاصرين فى الفلسفة فى ركب الشهبانو أينما ذهبت ، وكم كان مثيراً للغثيان يوم أن التقى بى أحد الأساتذة الإيرانيين هنا فى مصر ، لى : ألن ترسل إلى فلان مهنئاً ؟ لقد اختير عضوا فى مكتب الشهبانو . وأوضح ومن خلال تجربة شخصية أن هؤلاء كانوا يقومون بعمل محور : الشاهبانو — الأساتذة — السافاك داخل الأوساط العلمية ، كان السيد سعيدى سيرجانى ، قد ارتفع فجأة من مدرس ثانوى إلى رئيس لمؤسسة الثقافة الإيرانية ، وكان عضواً فى مكتب الشهبانو ، وفى زيارتى الأخيرة لإيران هددنى بأن السافاك كتب ضدى ثمانية تقارير ولما طلبت منه أن يبدى لى تقريراً واحداً ، عاد وقال إن الشهبانو تدخلت بشخصها وأحرقت التقريرات حرصاً على استاذ من بلد صديق ، ثم زاد بالحرف الواحد : أنا هنا أعيش فى حمى الشهبانو ، وإذا لا قدر الله خرجت من إيران فسوف اضطر إلى الخروج فى أثرها مباشرة .. هكذا ...

(١٥٥) حكومت إسلامى : درس (٢ ص — ٢٤ ، ودرس ١٠ ص ٣٥) .

ولن أكرر هنا معلومات نشرت أخيراً فى الصحف عن ثروات الأسرة المالكة الإيرانية التى هربت إلى الخارج ، بل أذكر طرفاً مما سمعته فى إيران ، من أفواه عامة الشعب ، ومما رأيته بنفسى ، رأيت كيف كان تغلغل الأسرة المالكة فى الجامعات رهيباً ، وكانت كل جامعة « تحت رعاية » إحدى الأميرات ، كانت الميزانية والمناصب القيادية تحدد عن طريقها ، وكان اليانصيب الأسبوعى شخصياً للأميرة أشرف ، وبينما كان دخله يزيد أسبوعياً على مليونين من الجنيهات لم تكن جوائزه تتعدى مائة ألف جنيه ، إلى جوار اتجارها المفتضح فى الهيروين ، وكان الأمير عبدالرضا يضع يده على قطع شاسعة من الأرض فى جنوب طهران ينميها ثم يملكها ، وتحت ستار فعل الخير كان أفراد الأسرة المالكة يتاجرون فى كل شىء ، وكان ما يستوردون معفيا من الجمارك ، ثم يباع بأضعاف ثمنه ، كما كان من العسير أن تجد مؤسسة أو شركة أو مشروعا هاما ، لا تستفيد من ورائه

أصابع ملكية ، وقد صرح الشاه نفسه بأن الشهبانو تشرف إشرافاً فعلياً على أكثر من أربعين مؤسسة اجتماعية وصحية وعلمية واقتصادية وفنية ، علاوة على الجامعات والاتحادات والمتاحف .... الخ (ص ٢٠٦ من آخر كتاب للشاه تحت عنوان بسوى تمدن بزرك) أما ما كان يحدث خارج إيران من سفاهة وإسراف وابتذال وتهتك ، فطالما سمعت عنه من أفواه إيرانيين ، ومن المقيمين فى أوربا ، ومما لا يذكر فى الكتب ..

(١٥٦) حكومت إسلامى : درس (٦ ص : ١٢٢) .

(١٥٧) حكومت إسلامى : ص (٢٣ وص ٢٨ ـــ ٢٩ وص ٣٧) .

(١٥٨) حكومت إسلامى : ص (٥ وص ١٨ ـــ ١٩) .

(١٥٩) خطبة فى الثامن من ذى الحجة سنة (١٣٨٣) هـ .

(١٦٠) حكومت إسلامى : ص (٣٣ وص ٣٥) .

(١٦١) بيان إلى المراكز العلمية فى (٨ محرم سنة ١٣٨٧)هـ .

(١٦٢) حكومت إسلامى : درس (١٢ ص ٥٦) .

(١٦٣) خطبة فى (٢) جمادى الآخرة سنة (١٣٨٤) هـ .

(١٦٤) رسالة إلى الطلاب المسلمين فى أمريكا وكندا (٢٨ جمادى الآخرة ١٣٨٢) هـ .

(١٦٥) بيان ضد إحياء الامتيازات الأجنبية فى إيران .

(١٦٦) رسالة إلى الشعب الإيرانى والمراكز العلمية فى رجب سنة (١٣٩٢) هـ .

(١٦٧) نفس الرسالة .

(١٦٨) رسالة إلى زوار البيت الحرام فى ذى الحجة سنة (١٣٩٠) هـ .

(١٦٩) رسالة إلى الأمة الإيرانية (١٩ صفر ١٣٩٣) ، هذا هو الطريق للأمة الإيرانية (١٩ صفر ١٣٩٣) وخطب أخرى متعددة .

(١٧٠) نفس الرسالتين .

(١٧١) بيانات تاريخية فى الثانى من جمادى الأول سنة (١٣٨٤) هـ وبيان ضد إحياء الامتيازات الأجنبية فى إيران .

(١٧٢) إجابة عن تلغراف للسيد حكيم فى ذى القعدة (١٣٨٢) .

(١٧٣) جواب عن رسالة من علماء النجف الأشرف فى (٢١ شعبان ١٣٨٥) .

(١٧٤) خطاب مفتوح إلى علماء يزد فى ذى الحجة (١٣٨٢) .

(١٧٥) خطبة تاريخية بمناسبة احتفال الشاه بمرور خمسة وعشرين قرناً على تأسيس الشاهنشاهية فى (٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٩١) هـ .

الباب الثالث

التفسير الثورى للجانب الاقتصادى فى الإسلام

من كتاب

برد اشتهائى دربارة مالكيت وكار وسرمايه ازديدكاه إسلام .

تفسيرات عن الملكية والعمل ورأس المال من وجهة نظر الإسلام

تأليف

دكتور حبيب الله بايدار

مع هوامش وتعليقات



الفصل الأول

يمكن تلخيص البنية الفكرية للإسلام ونظرته الشاملة إلى كل ما يتعلق بالأمور الاقتصادية فيمايلى :

أولاً : إن منابع الثروة الطبيعية التي تتدخل تدخلاً مباشراً فى ضمان حياة الناس لا ترتبط بأحد ، أى لا تدخل فى الأملاك الشخصية لأحد ، ومالكها المطلق هو الله ، وللجميع حق الانتفاع بها ، وهذا الحق عام لا يمكن المساس به بأى حال من الأحوال ، مصداقاً لقول الإمام على عليه السلام : بأن الأموال والثروات العامة ملك لكل البشر [1] .

ثانياً : الشرط الأساسى للانتفاع بالمصادر الطبيعية للثروة وممارسة هذا الحق هو : قيام الفرد بعمل نافع ومنتج وخلاق فيها ، فكل من يملك القدرة على العمل ، يستطيع عن طريق عمله الخلاق المنتج المفيد للكافة ، أن يقوم بالانتفاع بمصادر الثروة الطبيعية [2] .

ثالثاً : إن استيفاء الحاجات الحيوية ، وسد المطالب الأساسية عند الإنسان فى حدود الاعتدال ، هو مقياس الانتفاع وحده [3] ، أى أن كل من ينتفع بالموارد الطبيعية للثروة عليه أن يأخذ منها بقدر حاجاته . والقول التالى لأبى عبد الله عليه السلام على هذا الأصل . يقول ما معناه :

هل تظنون أن الله قد خولها لهم لعظم منزلتهم عنده ؟ أو حَرَمَهَا آخرين لهوانهم لديه ؟ هذا والله ظن السوء ، إن كل ما فى الأرض حقيقة ملك لله ، يستخلف الناس فيه على سبيل الوديعة ، وأمرهم أن ينفقوا منها مع مراعاة حد الاعتدال ، وأن يأكلوا

ويشربوا بقدر حاجتهم ، وأن يتزوجوا ويمتطوا المطايا بقدر الكفاف ، وهم مأمورون بعد ذلك ببذل ما زاد على حاجاتهم للمؤمنين المحتاجين ، وهذا البذل يمنع شراً كثيراً ، وينظم حياتهم ، فمن أطاع الله فيما أمر ، كان أكله حلالاً ونكاحه حلالاً ومطيته حلالاً ، ومن عصاه وتعدى حدوده ، كان كل ما ينفقه حراماً ، ثم تلا الآية الكريمة ﴿ولا تسرفوا إن الله لا يحب المسرفين﴾ ثم قال مامعناه : هل تظنون أن الله خوّلهم ما له ومنحهم حرية إنفاقه ، حتى يشترى أحدهم مطية بعشرة الاف درهم ، فى حين أن مطية بعشرين درهما تسد حاجته ، ويتزوج أحدهم بألف دينار فى حين أن عشرين دينارا تكفيه ، ثم تلا الآية الكريمة ﴿ إن الله لا يحب المسرفين ﴾ .

وهناك جماعة من المسلمين أسرفوا بحسن نية ، واخترعوا ما سموه بالأحوال أو الشئون أو « الوسع » ، وبرروا حبهم للرفاهية بحيل شرعية ، وتأولوا النصوص الثابتة متذرعين بأن ينفق « كل ذى سعة من سعته » أى بقدر ما تقتضى أموره وشئونه وأحواله . والرواية التى ذكرت آنفاً خير رد على أولئك الذين يحملون على الإسلام ما ليس فيه ، وترى أن القصد والاعتدال واجب ومفروض ، مهما كانت إمكانات الإنسان المادية ، وأن تجاوز هذه الحدود وتعديها حرام ومردود .

وقد لخص أمير المؤمنين على عليه السلام هذا الأصل الأساسى من أصول الاقتصاد الإسلامى ، فى عبارة موجزة فقال عليه السلام : « العاقل يأكل للقدرة ولا يأكل للشهوة » .

رابعاً : إن ضمان احتياجات الأفراد المستقبلية ، والقضاء على كل ما يتعلق بما يصادف الناس من مشاكل اقتصادية فى المستقبل منوط بالمجتمع ، ومسئولية من مسئولياته الأولى ، وينبغى أن يتم ذلك فى ظروف اجتماعية واقتصادية مناسبة من قبل المجتمع فى كل ما يتعلق بالثروة العامة واحتياطيها ، حتى لا يتبدل الأمر إلى دافع للاستثمار ، وتكديس الثروة عند الأفراد ، وعشقاً وحرصاً للاكتناز والجمع (٤) .

خامساً : إن الهدف الأساسى لنشاط البشر هو الوصول إلى أعلى مراحل الكمال والقرب من الكمال المطلق ، فوجود الإمكانات المادية ، ومستلزمات العيش ، كلها من مستلزمات النشاط المادى والحيوى والفكرى ومداومة طريق التكامل ، ومن هنا ينظر الإسلام إليها كوسيلة لا غاية ، ولا يجوز توقف الإنسان عند مرحلة التكامل المادى فحسب ، لأن « الدنيا مزرعة الآخرة » (٥) .

سادساً : إن الإسلام يخالف تماماً كل نوع من الفكر أو التعليم يدعو الناس إلى نبذ الحياة ، أو يدعوهم إلى عدم استغلال الثروات الطبيعية أو اجتنابها ، إنه يقبل الحياة بكل ما فيها من تطورات طبيعية ، وميول وانجذاب نحو الملذات ، وأفعال وردود أفعال . لكنه يختلف أساساً مع مذهب البحث عن اللذة يكمن فى وجود هدف أعلى وأسمى للحياة ، فيه تطرح فى حياة الإنسان ، ويستند الإسلام على ضرورة الوصول إلى المطلق والسير فى طريق التكامل ، وهو يعتبر كل ما هيىء فى الحياة مرحلة لتربية الإنسان ، ومكاناً للتربية من أجل تكامل الاستعدادات الإنسانية والصعود على سلم التكامل ، والمال والثروة يعتبران وسيلة فى هذا المجال ، ومن هنا فكل ما يساعد المجتمع البشرى فى تكامله ونموه من العلاقات المادية والاقتصادية صحيح ، وبالتالى كل ما يحول دون هذا التكامل والنمو منها خطأ .

سابعاً : ينبغي أن تكون الأنشطة والنظم والعلاقات قائمة على نسق به تكون الثروات المادية ملكاً للجماهير ، وتستطيع البشرية أن تستفيد منها كأسرة واحدة وبأخوة [٦] ، وبحيث لا تتركز فى أيدى أفراد ، ولا فى أيدى جماعات صغيرة ، فلا تكون حكراً لهم ، بل يجرى دائماً فى أيدى الناس ما منحه الله للناس جميعاً من مال [٧] . وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » [٨] .

ثامناً : ينهى الإسلام الناس تماما عن اكتناز ما زاد على حاجتهم ، فكل من استطاع عن طريق عمله الخلاق المنتج وسعيه ، أن ينتج ما يزيد على حاجته ، لا ينبغى له أن يكتنز فائض دخله ، ويتخذ منه وسيلة للقوة ومجلبة للفخر وسعياً للسلطة أو التعالى على الخلق وما إلى ذلك ، بل هو مكلف بأن ينفقه على البشر وهذا إتفاق فى سبيل الله : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جنهم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » [٩] .

تاسعاً : إن الإنفاق[١٠] والزكاة كما وردا فى القرآن وبالمنطق القرآنى الإلهى وسيلة من أجل تكامل الإنسان ، وليست كما تصور البعض ، واستنبط أن التوصية

بالإنفاق فى الإسلام اعتراف منه بالتفاوت الطبقى فى المجتمع ، وقبولاً لمنطق وجود غنى وفقير .

فالإسلام لا يجيز إطلاقاً هذا الاختلاف والتفاوت ، وكما هو واضح يرى الإسلام أن الثراء الفاحش عند أناس هو السبب المباشر فى الفقر المدقع عند أناس آخرين [11] ، لأنه لا يرى ثراء فاحشاً إلا ذلك الذى تعدى على حقوق الآخرين ، والثروة لا تكون ثروة ولا تحل لصاحبها ، إلا إذا أنفق جزءاً منها فى سبيل الله ، والملكية ـــ فى شروطها ـــ لا تزكى إلا إذا خرج صاحبها عن جزء منها ، وما لم يفعل الملاك والأثرياء ، فإن للإسلام الحق المطلق فى مصادرتها وتقسيمها بين الناس ، والاستيلاء عليها لصالح الكادحين ، ورسالات الأنبياء جميعهم قد بينت الموقف الإلهى من الثروة والأثرياء ، وحق كل الخلق فيها على السواء ، ولا تجوز الزكاة ، ولا يجوز الإنفاق فى سبيل الله إلا من مال حلال ، يكسب عن طريق عمل خلاق ومنتج ، ولا تحل الزكاة ولا يحل الإنفاق فى سبيل الله ، عن طريق مال اكتسبه صاحبه عن طريق التعدى والقهر والاستغلال ، ونفس الدليل على هذا هو ما يهدف إليه القرآن من الزكاة والإنفاق : التقوى والتزكى وتكامل الشخصية ، وكيف يستطيع ذلك الذى جمع أمواله عن طريق الاعتداء على حقوق الناس أو سرقة الأموال العامة ؟ ، وكيف يستطيع مثل هذا الشخص أن يحصل على طهره وتقواه وسموه عن طريق إنفاق جزء منه ، مع أن الأصل فيه أنه أنفق ليتزكى ويتطهر ، ويصل إلى تكامل شخصيته . وما هو واضح تماماً دون لبس وإبهام فى القرآن ، هو الانفاق مما زاد على الحاجة ، ومن شخص يكون قد اكتسب ما اكتسبه من كد يده ، ذلك لأن ما نكتسبه من كد أيدينا وبعد كدح ، تصل قيمته حداً نعتبره جزءاً من ذواتنا ، وهذا التعلق شديد التأثير بحيث يقوى فى أنفسنا ، ويقوى فينا الميل إلى عدم التفريط فى كل ما نعده كسباً لنا ، ومن حقنا فى مقابل العمل الذى قمنا به فى سبيله أن نحتفظ به لأنفسنا ، إذ إننا نعتبره قطعة من وجودنا ، وتمثيلاً لكل القوى التى أنفقت فى اكتسابه ، ويقول لنا القرآن الكريم ، إنه بقدر ارتباطكم به صار جزءاً من وجودكم ، امنحوه للآخرين فإنكم حينذاك تصلون إلى نوع من التميز المعنوى والروحى ، إنه منح للغالى الذى يضحى الإنسان أحياناً بروحه فى سبيله ، وعلاوة على ذلك ، تقوى فى الباذل السخى الكريم روح التعاطف الإنسانى ، فيهتم بمُثل أعظم

وأقوى ، ويسير قدماً عن التعلق الصرف المحض بالماديات ، وتتهيأ له الفرصة للتخلص من الانشغال بالمال وعشقه المتزايد له ، وصرف كل الحياة على جمعه ، وتعطيه الفرصة للتفكير فى معرفة الحقائق ، وخدمة الأهداف الإنسانية والقرب من الخالق ، ومن الطبيعى أن المرء إذا احتفظ بما زاد على احتياجاته ، فسوف تتجه معظم قواه الفكرية والروحية إلى التفكير فى أوجه الحفاظ عليه ، أو استغلاله واستثماره ، ثم يؤدى استغلال الثروة إلى رأس المال ، وازدياد التعدى على الناس ، وكل ذلك يؤدى إلى انحطاط الشخصية الفعلية والأساسية .

والخلاصة أنه ينبغى أن نعلم أن إمكان الاستغلال والانتفاع بالناس أو الكسب من كدهم ، أو التعدى على مال الآخرين ، أو السيطرة على الثروات العمومية ، أو مصادرها ، وتملكها من الحقوق التى لم تمنح لأحد قط فى المجتمع الإسلامى ، وكسب المال لا يتأتى إلا عن طريق عمل خلاق منتج ، والاستغلال ممنوع ، والانتفاع من كدح الآخرين ممنوع ، وكسب أى مال دون عرق وجهد ممنوع والناس جميعاً ضامنون لهذه الأصول ، مسئولون عن تنفيذها [١٢] .

عاشراً : إن ظاهرة الأمر بالإنفاق فى سبيل الله والزكاة ، تحتوى فى ثناياها هى الأخرى على توجيه مهم وحساس . حينما تكون القاعدة المتبعة فى مجتمع ما ألا يأخذ الإنسان من الثروات الطبيعية ومن إنتاج مجتمعه ، إلا بقدر حاجته فقط ، من الممكن أن يفكر المرء فى ألا يعمل إلا بقدر ما يأخذ ، أو بقدر احتياجه ، ومن ثم يسود الكسل والتقاعس فى المجتمع ، وفى مثل هذه الظروف يكمن الخطر ، فى أن تجف منابع الخلق والابتكار عند الناس ، ويؤدى ذلك إلى ركود المجتمع وتوقفه ، خاصة إذا كان هذا المجتمع يضمن الحياة للفرد فى حالة عجزه وشيخوخته ، وكان فارغاً تماما من هذه الناحية ، ومن هنا يمكن أن ينعدم الدافع إلى العمل الأكثر والخلق والإبداع ، وهذا التفسير يمكن أن يكون منتظراً أكثر من أولئك الذين يعتبرون أن العوامل المادية فحسب ، هى المحرك والدافع وراء الكفاح الإنسانى والفعالية البشرية .

وجواب الإسلام عن هذه المشكلة المحتملة هو : أولاً : الاهتمام الزائد بالمحركات والدوافع غير المادية ، فإنه لا يلزم أن يكون جزاء الإنسان وكسبه من عمله مادياً صرفاً ، أو فى صورة ثروة ونقود ، وثانياً : التأكيد على هذه الحقيقة القائلة بأن العمل جزء متمم ولازم لحياة الإنسان ، فلو كان الدافع فى المجتمع إلى

العمل والنشاط هو نتائجه المادية فحسب ، ففي حالة تنفيذ الأصول التي سبق ذكرها من الممكن الوصول إلى هذا الطريق المسدود الخطر ، والإسلام كما رأينا لم يجعل هدف الحياة في مكتسباتها المادية والفورية ، وفي منطق الإسلام من الممكن تبادل القيم المادية بالقيم المعنوية والروحية ، والقيم هي نفس الفضائل الإنسانية التي تسمو بالإنسان إلى كماله الحقيقي . والفرد ، في سبيل خدمة الناس وتقديم العون إلى سائر البشر ، يفرط في جزء من قيمه المادية مثل المال أو الوقت أو الطاقة الجسدية وسنوات العمر ، وذلك في مقابل الفضائل والصفات الروحية والفكرية والإنسانية التي تقوى عنده ، ليس الأمر إذن من قبيل التفريط في الشيء ، بل هو في حقيقة الأمر مقايضة ، تجارة . وقد ذكر الله تعالى هذه المقايضة في القرآن مراراً تحت عنوان « إقراض الله » ، إن الإنفاق والتنازل عما زاد من الدخل على الحاجة من مال اكتسب بجهد وعرق ، هو بمعنى قرض مدفوع لله وسوف يرد ، إن الله يتعهد بأدائه ، ليس بقدره بل عشرة أضعافه من القيم الأعلى والأسمى ، وما تعهد الله تعالى برده لكم في مقابل القرض الذي تقدمونه له — أي الإنفاق على البشر — بينه في آياته الكريمة على صورة بند من الميثاق الذي عقده مع بني إسرائيل : ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل** ﴾[١٣] .

وفي سورة التغابن يقول تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم * فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم * ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم** ﴾[١٤] . فبعد أن يبين الله هذه الحقيقة القائلة بأن الثروة ليست إلا وسيلة لاختبار البشر ، وحتى يعرف عن طريقها الصالح من الطالح ، والمكتمل من الدني ، وكل من نجح في هذا الامتحان ، وتنازل عن ثروته وقوته في سبيل الله ولمصلحة البشر ، فأجره عظيم عند الله ، ويتحدث عن الإنفاق في مقابل البخل وحب المال ، ويصرح بأن إنفاق المال هو « إقراض » لله ، وسوف يرده الله له مضاعفاً .

وفى آية أخرى يبين الله تعالى أن إقراض الله تعالى ، أى الإنفاق ، يستوى مع الزكاة ، ويرى أن ما يقدمه المرء سوف يجده عند الله مضاعفاً : ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم ألَّنْ تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم** ﴾[١٥] .

وهذا القرض لا يعنى إلا الإنفاق دون انتظار كسب أو عائد أو بديل ، ففى هذه الحال فحسب يتعهد الله تعالى بسداده عدة أضعاف ، ولا جدال فى أن الله سوى « إقراض الله » منذ البداية بالزكاة ، وفسره بأنه الانفاق فى سبيله وابتغاء مرضاته مصداقا لقوله : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون** ﴾[١٦] ، ويؤكد هذه المعانى فى قوله تعالى : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم** ﴾[١٧] ، وفى نفس السورة يسوى بين المنفقين والمصدقين والمصدقات أولئك الذين هم فى أعلى الدرجات عند الله : ﴿ **إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسناً يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم** ﴾[١٨] ، ولا شك فى أن المقصود بهذه الآية الكريمة ، أولئك الذين ينفقون دون انتظار لاسترداد فى دنيا أو كسب فيها ، وأملهم فى عطاء الله وسداده فحسب . وفى كل هذه الآيات يتضح تماماً أن الخروج عن المال فى سبيل الله ، وإنفاقه فى خير الناس ليس بمعنى التنازل عن المال دون عوض بل هو فى الأصل من قبيل التجارة مع الله أملاً فى أجر عظيم سواء من ناحية الكم أو من ناحية الكيف ، وينبغى أن نعلم هنا أن الإنفاق لا يقتصر على المال ، فالعلوم والفنون والصناعات ، وكل ما ينفع الناس داخل فى باب الانفاق ، والله تعالى يعطى لكل إنفاق أجره ، وحقيقة ما قيل فى أن جزءاً من هذا الأجر يشمل البركة فى الماديات ، لكن النقطة الأساسية تكمن فى الأجر المعنوى والروحى ، أى الدوافع والمحركات غير المادية بمعانيها المتعارف عليها ، وفى الأصل فلا فعل يوجد فى القرآن بغير رد فعل ولا عمل بلا أجر ، مهما كان هذا العمل تافهاً وضئيلا : « **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** »[١٩] .

وليس الإيمان بالله والجهاد فى سبيله وفى سبيل الناس ، والخروج عن النفس والمال ، من الأمور الباطلة ، أو من قبيل اللغو والعبث لا تتأتى للإنسان منهما نتيجة . ولا يعني الإيثار أن تتنازل عن الشيء دون أن تنال شيئا مقابل تنازلك ، بينما يعنى الايثار أن تتنازل عن شيء أنت فى حاجة إليه بالفعل ، ومن ألا يفكر المرء فى أجر ما عند الإيثار ، وهذا له قيمته العظيمة ، لكن فى نظرة التوحيد الشاملة ، لا عمل بلا أجر ، يقول تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب * وبشر المؤمنين** ﴾[٢٠] .

وإذا كانت الحوافز المادية والمحركات النفعية هي التى تحكم المجتمع فحسب ، فسوف يواجه بعدد من الصعوبات والعقبات والمشاكل الشديدة والانحرافات ، وفى نفس الوقت الذى تكون فيه هذه الحوافز سبباً فى دفع الناس وحثهم على العمل والبناء من البداية ، فهى من ناحية أخرى تسبب الانحراف وتوجد الصعوبات ، وحينما يتمكن هذا النوع من المحركات والحوافز فى الإنسان ، فإن كل إنسان يزن خدماته لمجتمعه بميزان العائد النفعي والمادى الذى يناله من هذا المجتمع ، وإذا لم يحصل على مايراه جديراً به من نفع مادى ، توقف عن العمل والإنتاج تلقائياً ، ومن ناحية أخرى باحكام العلاقات المادية ، فإن الأفراد يسعون فى المقام الأول للاستحواذ على أكبر قدر من المنافع المادية لأنفسهم ، وفى هذه الحالة يحتمل استغلال السلطة والامتيازات والمناصب ، ويزداد هذا الاحتمال ، وأولئك الذين يشغلون المناصب الحساسة ، ويكون جل همهم الاستحواذ والاحتكار ، وتركيز الثروة والقدرة فى أيديهم ، ويكون قصارى جهدهم حفظ مناصبهم ، وفى مثل هذا المجتمع يكون السباق دائراً حول جمع المال ، وبسط الكماليات ونشرها ، والحصول على أكبر قدر من الرفاهية ، وتؤدى كل هذه الظواهر إلى تقسيم المجتمع إلى أقلية منعمة ، تتمتع بكل الامتيازات وأكثرية غالبة محرومة من أقل مستويات العيش [٢١] ، ويحول ذلك بين المجتمع وبين رقيه الحقيقى وتكامله الواقعى ، ومن هنا فإن المفكرين اليوم يتوجهون إلى تثبيت الاعتماد على الحوافز غير المادية .

وفى النظرة الشاملة للإسلام وفى بنية الإسلام الأساسية ، لايمكن أن تقع هذه المشاكل والانحرافات . لأن الإسلام لا يلقى بالا إلى المحركات والحوافز المادية ، لكنه يعتبر هذه الدوافع وسيلة لكسب القيم الروحية ، وتكامل الشخصية ورقى النوع الإنسانى ، ولا ينظر إلا إلى هذه القيم ، والذين تربوا تربية إسلامية صحيحة فى مأمن من شر السقوط فى هذه الانحرافات والوقوع فى هذه المشاكل ، فإن العمل الخلاق المنتج ، وخدمة المجتمع ، والمشاركة فى تطوره أمور تفسر فى الإسلام ، على أنها وسائل للتكامل الفكرى والروحى عند الإنسان ، ولا يعتبر أن العمل وسيلة لسد حاجاته فحسب ، بحيث يكف عن العمل إن استغنى ، بل إن العمل فى حد ذاته هو المكون لشخصية الإنسان ، والعامل الرئيسى فى نضجه وتكامله ، وإنفاق الفائض من دخل اكتسب عن طريق عمل منتج هو وسيلة لبلوغ أهداف أسمى يتجه إليها فى كل أحواله ، إنه يرى فى هذا العمل شخصيته وتكامل القيم الإنسانية فيه ، ولذا فهو يعشقه ويتمتع به . وليس من المحتم أن يتم إنفاق فائض الدخل على مر التاريخ بصورة فردية ، إن الشكل التنفيذى والعملى لهذا الإجراء متوقف على مدى نضج المجتمع ، والدرجة التى وصل إليها من التكامل ، ومن الممكن فى عصرنا توزيع فائض الدخل عن طريق مؤسسات عامة ، أى أنه حين يرى المجتمع نفسه مسئولاً عن ضمان احتياجات كل أفراده ، يستطيع كل فرد أن يضع فائض دخله تحت تصرف المجتمع ، ينفقه فى الأوجه التى يراها مستحقة له ، حيثما تستدعى الحاجة ، وليست الحاجة هنا هى حاجة الأسر والأفراد فحسب ، بل هى فى ترشيد المجتمع والبلوغ به مرحلة النضج ، ونشر الفنون والعلوم ورفع مستوى التعليم العام ، وضمان الرفاهية للمجتمع وكثير من الأهداف الأخرى ، مثل مساعدة نشر الحق والعدل فى سائر أنحاء الكرة الأرضية ، واكتشاف المجهول فى فروع العلم ، وتعميق سيطرة الانسان على الطبيعة والعالم الطبيعى ، كل هذه أوجه واجبة من أجل إنفاق الانتاج الذى قام به الأفراد ثم قدموا بعضه على صورة زكاة أو تبرع أو تنازل أو ما أشبه . ومن ثم فإن المسلم الحقيقى يعتبر العمل ثم الإنفاق من بعده نوعاً من العبادة ، ولا هدف للعبادة إلا تربية الشخصية الإنسانية ، والذى لا يقوم بعمل خلاق ومنتج ، تتدهور قواه واستعداداته الأساسية بالتدريج حتى تصل إلى مرحلة العقم وتختل قواه الجسدية والروحية ، وإن من يعمل فى اكتساب العلوم ، وينفق على ذلك الأمر لا يمتن على أحد ، فنتيجة عمله فى النهاية له ، تزيد من وعيه ومن شخصيته وقدرته ، والذى



يتعبد إنما يعمل على منح شخصيته التكامل الذى تحتاج إليه ، ولا يمنن على أحد أو على الله ، ومن هنا لا يتردد لحظة فى القيام به ، فكلما أنتج أكثر وكانت خدماته على مستوى أرفع أو أكثر ، منح نفسه فرصة أكبر لخدمة مجتمعه والانفاق فى سبيله ، أى استطاع أن يتعبد أكثر ، واستطاع أيضاً أن يغير شخصيته ؛ لأن الله تعالى جعل نضج الإنسان وتكامله فى عمله وسعيه وكفاحه ، وطبقاً لسنته تعالى من المستحيل دوام الحياة ومسيرة الحركة التكاملية للمجتمع البشرى والنوع الانسانى دون مشقة وجهد ، وبعبارة أخرى فلا شيء يمكن أن يساعده فى حياته الواقعية وفى تكامل شخصيته دون جهد ومشقة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾[٢٢] وطريق الكمال الملىء بالمنحنيات الشديدة الوعورة ، ويحتاج إلى عمل وكدح مستمرين ، ومقاومة للمشاكل ومواجهة للأخطار .

حادى عشر : فى إطار الرؤية الشاملة للقرآن بالنسبة للماديات ، تدل كل الآيات والشواهد والدلائل التاريخية من السنة على هذا الأصل ، وهو أن : على كل فرد أن يكرس كل استعداداته لخدمة المجتمع ، وإنتاج القيم المادية والوصول إلى القيم المعنوية ، ثم يكتفى بما يفى بحاجاته ، ويجعل الفائض تحت تصرف الناس مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** ﴾[٢٣] والعفو هو مازاد على الحاجة ، ولا يبقى تنفيذ هذا الأصل منوطاً بالفرد وموقوفاً على رغبته ومزاجه ، بل للمجتمع الحق فى اتخاذ مايراه من تدابير لازمة ، حتى يدفع الأفراد إلى الخروج عما زاد على حاجاتهم ، ووضعه تحت تصرف المجتمع حتى تنفق على الاحتياجات العامة ، والمقادير التى حددت للزكاة هى الحد الأقل لما ينبغى أن يقدمه الفرد من فائض دخله ، أما الإنفاق فيشمل الفائض كله ، وهذا هو الأصل الذى يعتمد عليه كل مفكرى الإسلام وزعمائه اليوم .

والهدف من تركيز مفكرى الإسلام على هذا الأصل هو الحيلولة دون ظهور طبقات غنية وطبقات فقيرة فى المجتمع ، فهم يرون أن سد طرق استغلال الناس والسيطرة على الثروات الطبيعية والاستيلاء عليها ، هو الذى يمكن من إلغاء تكوين طبقات مستغلة وطبقات مستغلة « بفتح الغين »[٢٤] ، بل إنهم ببيانهم أن الاستهلاك يجب أن يكون فى حدود الحاجة والمعقول بينما يخضع الفائض للانفاق – قد بينوا أن ظهور التفاوت بين الطبقات لا يمكن أن يكون عن طريق الاستغلال والسيطرة ،

أى أنه فى حالة ظروف اجتماعية خاصة ، فى مرحلة تقدم أسلوب اقتصادى متطور ، يستطيع الفرد تحت ظله عن طريق نشاطه الإيجابى أن يكسب ما يفيض على حاجته ، ويجوز للفرد فى هذه الحال أن يتملك بعض أدوات الانتاج ، ويسمح له بالنشاط الانتاجى ، فإن فتح باب الإنفاق وترشيده ومنحه صبغة جماعية وإشرافية من المجتمع هو خير ضمان فى مواجهة تركز الثروة وظهور الاختلاف بين الطبقات ، كما أن الأصل الذى ركز عليه الإسلام والذى يقضى بالقصد فى الاستهلاك ضمان آخر ، والإسلام ينظر نظرة واقعية إلى الحقيقة : بأنه فى ظل بعض الظروف تتفاوت الاستعدادات والمجهودات الإنتاجية بين الأشخاص ، ويؤدى ذلك إلى تفاوت الدخول ، ويحصل بعض الناس على نصيب أكبر من الثروة لا محالة ، فى هذه الحالة يبين الإسلام لهؤلاء أن المال مال الله جعلهم مستخلفين فيه واستأمنهم عليه ، ولا يدل هذا على كرامتهم عند الله ولا عزتهم عن غيرهم عنده جل شأنه ، كما أن من حرموا ليس حرمانهم دليلاً على هوانهم وقلة شأنهم عند الله ، كما لاحظنا ذلك فى قول الحسين بن على عليه السلام ، ولأن هذا المال أمانة ينبغى بعد أخذ الحاجة منه فى حدود القصد والاعتدال ، ينبغى رد بقيته إلى أصحاب الحق فيه ، واستعمال كلمة « رد » يدل على الحقيقة القائلة بأن المال هو مال الله ، أى مال عامة البشر ، وينبغى أن يرد إليهم ، وأيضاً فإن ظهور الغنى والفقير بين المسلمين بعد كل هذا ، دليل صارخ على عدم رعاية حقوق الله ، والتعدى على حقوق الناس ، وتجاوز القصد والاعتدال فى الاستهلاك .

وإذا أطاع كل فرد الله تعالى فيما أمر من قصد واعتدال فى الاستهلاك ،وخروج عما زاد على الحاجة المعتدلة ، لما ظهر فى المجتمع فقير وغنى ، ومن ثم فإن قول المغرضين والجهال بأن الإسلام يؤيد التفاوت بين الطبقات فى المجتمع ، ويرى وجود الغنى والفقير أمراً طبيعياً ، كلام باطل من أساسه .

إن الإسلام يرى أن الاختلاف فى مستويات الدخول ممكن ، نتيجة حتمية للاختلاف والتفاوت فى العمل والجهد ، لكنه يرى الاختلاف فى التمتع بنعم الله نتيجة لتركز الثروة واكتنازها أمراً حراماً . وفى عصر نزول الوحى وحياة الصحابة الأول ، كان هناك مثيرون ممن هم اليوم ، يرون أن ثراءهم دليل على اللطف الإلهى بهم كما يرون ، ويوحون للفقراء بأن فقرهم هو غضب من الله عليهم ، وقد رأينا أن

أبا عبدالله عليه السلام ، قد رد عليهم فى صدر كلامه ، وتتضح هذه الأفكار فى سورة الفجر ، يقول تعالى : ﴿ **فأما الإنسان إذا ماابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن * وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن * كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لماً وتحبون المال حباً جما** ﴾[٢٥] .

فى الآيات السابقة يبين لنا الله تعالى : أن اختلاف الثروة والنعمة بينكم : أولاً : ليس دليلاً على عزة بعضكم وهوان بعضكم عند الله ، ثانياً : أن هذا الاختلاف من أجل أن تكون الثروة عند جماعة لتوصيلها إلى أصحابها وأصحاب الحق فيها ، فإذا لم يردوا الحقوق إلى أصحابها ، وعشقوا الثروة وتعلقوا بها ، نشأ الفقر وظهر التفاوت الطبقى ، وبتفسير آخر طبقاً للآيات : لو أنك اكتسبت مالاً من عمل حلال ، أو ورثته وبدلاً من أن ترده إلى مستحقيه (الناس) أو إلى المجتمع (بيت المال) ، أخذت تنفق بإسراف وتسىء السير والسلوك ، وأضعت المال على رفاهيتك ومتعتك أو اكتنزته كوسيلة ، والخلاصة إما أن تكون قد أنفقت هذا المال فى غير ما يحب الله أو اكتنزته وعشقته ، اعتبرت فى رأى الإسلام متعدياً على حدود الله ، واعتبر عملك هذا حراماً ، وتعديك لحدود الله هو تعد على حقوق ناس ، ومساعدة على انتشار الفقر وظهور التفاوت بين الطبقات .

ومهما كان الأغنياء قد جمعوا ثرواتهم عن طريق حلال ، وكانت كل دخولهم مشروعة ، فهم أيضاً مستخلفون فيها ، وقد رزقوا إياها على سبيل الأمانة ، وعليهم ردها إلى أصحابها الأصليين أى الناس ، ولا اكتنازها أو إنفاقها على ملذاتهم ومتعهم وشهواتهم ، وإلا نشأ التفاوت الطبقى ، فإذا نفذوا ما أمر الله به ، انتفى السبب الرئيسى للتفاوت الطبقى .

وينبغى لنا ألا ننسى أن إعادة التكوين الطبقى للمجتمع ، بعد عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، كان يسير فى تيارين أساسيين : أحدهما تقسيم الدخل العام « الفىء والغنائم » تقسيماً غير عادل فى عهد الخليفة الثانى ، وإن كان هذا على سبيل إعطاء سهم أكبر من بيت المال للسابقين فى الإسلام ، أو المجاهدين فى سبيله ، أما الخليفة الثالث ، فقد توسع فى هذه الرخصة وحاد بها تماماً عن سبيلها القويم . كان منطلق عمر – رضى الله عنه – من ذلك أن أولئك الذين أسلموا قهراً وجبراً بعد

الفتح من سراة مكة ورءوسها ، ليس من حقهم بالمرة أن ينالوا نصيباً من الغنائم مساويا لما يأخذه المسلمون الأوائل ، الذين قاسوا فى سبيل دينهم ، وتحملوا من الكفار أذى كثيراً ، واشتركوا فى الدفاع عن الإسلام وهاجروا وصبروا ، أى أولئك الذين أسلموا فى ظروف قاسية ، وبالرغم من وجاهة اجتهاد الخليفة عمر ، فإنه قد فتح باب التفرقة فى الإسلام ، وطبيعى أن التفرقة تبدأ بالحق ، ثم تصير أصلاً فى حد ذاتها وتطبق بالباطل ، حقيقة أن عمر رضى الله عنه حبس كبار الصحابة الذين أثروا من نصيبهم فى بيت المال عن الخروج من المدينة ، وجعلهم تحت نظره ، وكانت الحجة القديمة هى ألا يفتن الناس بهم ، ولكن الحقيقة كانت خوفه من أن يقوموا فى الأمصار باستغلال الأموال ، التى آلت إليهم من بيت المال ، علاوة على أنه منعهم — حتى وهم فى المدينة — من البيع والتجارة وتملك الأراضى والمزارع ، ومن ممارسة أى نشاط مالى ، ومن هنا منع دخولهم المرتفعة من أن تتحول إلى رءوس أموال ، لكن فى زمن عثمان انتهت كل هذه الحدود ، وأطلق يده تماماً فى بيت المال لصالح أقاربه وعماله دون حساب ، وقامت هذه الفئة بدورها بأنشطة اقتصادية غير إسلامية ، كشراء الأراضى والأملاك والعقارات والعبيد ، وفى نفس الوقت اقتصروا على الحد الأدنى فى الإنفاق وهو الزكاة ، أما إنفاق المال فلم يكن عنه أدنى خبر .

ومن هنا قام رجال من أمثال أبى ذر الغفارى معارضين [٢٦] ، وقد أحسوا بالقلق من ظهور الطبقات الاجتماعية ونموها وبدءوا بين الناس فى الدعوة ضد هذا النظام كما بدءوا فى تحريضهم على الثورة عليه ، كان هدفهم الأول تنفيذ أصول الإسلام الاقتصادية الأولى التى بموجبها يقسم المال بين الجميع وبالتساوى ، وحتى لم يقوموا بتبرير ما فعله الخليفة الثانى ، فقالوا : إن من جاهد وتحمل الأذى فقد وقع أجره على الله ، ولا ينبغى أن يعامل قوم بما لم يعاملهم به الرسول ﷺ ، وعلاوة على هذا ، فإن الحد الأدنى أى الزكاة لم يعد كافياً ، وعلى ولاة الأمور أن ينتزعوا من أصحاب رءوس الأموال ما زاد على حاجاتهم ، ولا يتركوا لهم إلا الكفاف ، وكان هؤلاء يستندون على قوله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون** ﴾ كما استشهد بكثير من الأحاديث النبوية الواردة فى هذا المجال .

والعامل الثانى المؤثر والفعال فى نمو النظام الطبقى ، وهو استعادة السادة من بنى أمية سيطرتهم على الحكم الإسلامى وعلى المجتمع الإسلامى ، ذلك أن أولئك الذين أسلموا حينما لم يجدوا من الإسلام بداً ، كانوا فى الحقيقة لا يزالون على مثلهم الجاهلية ، ومبادئهم التى يتصل معظمها بمبادىء الأشراف والقائمة على التميز الطبقى ، كانوا يؤمنون بامتيازهم على بقية الطبقات ، ولم تمس مبادىء الإسلام عن المساواة والأخوة قلوبهم ، كما أن العقيدة لم تمس منهم إلا السطح ، واعتبروا الإسلام وسيلة فحسب للوثوب على السلطة ، كان الإسلام فرصة لهم ، لكى يبقوا أحياء وينتظروا ، انتظار يوم تظهر فيه فى الإسلام نقطة ضعف يستغلونها للوثوب على السلطة ، وخلع المسلمين الخلص ، وقد سنحت لهم هذه الفرصة إلى ما لا حدود له فى زمن خلافة عثمان وأفاد شيوخ بنى أمية بكل ما أوتوا من دهاء ومكر ، من ضعف الحكومة الإسلامية وانحرافها لتثبيت سلطانهم وإرساء نفوذهم فى وجه أطماعهم ، أو يحد من نفوذهم أو يستأصلهم ، وسلك المجتمع الإسلامى الوليد طريقاً ، ما كان ينبغى له أن يسلكه ، ووقع فى أيدى أناس من ألد أعداء الإسلام والمسلمين .

وقد جاهد الإمام على عليه السلام فى متابعة طريق الرسول ﷺ ، وبدأ مطبقاً أصول القرآن ومبادئه فى حرب لا هوادة فيها لكل الاستغلال واكتناز الثروات ، وجاهد جهاداً مستميتاً ، ضد كل ما كان من شأنه أن يقسم المجتمع الإسلامى إلى طبقات ثرية ، وطبقات فقيرة ويحرم الجماهير من حقوقها الإنسانية التى وهبها الله لها ، وما فعله إمام الإسلام فى هذا السبيل يضيق به المجال ، ويكفى فى نهاية هذا البحث أن نورد شاهداً من كلامه ، يبين نمط تفسيره بالنسبة للثروة والأموال ، ولكى نتعرف أكثر على الفكر الإسلامى الحقيقى فى هذا المجال ، ففى وصيته إلى ولده الأمام الحسن ، يحرم أكثر الصور وأفضلها وأظهرها صلاحاً بالنسبة لجمع المال ، وباستدلال قوى قائم على مصلحة حقيقية ، يحرم نفسه من ترك ميراث لأهله من بعده ، لأن الميراث ليس فحسب علامة على جمع الثروة ومن ثم فهو مذموم ، بل لأن مالاً وثروة يقعان فى أيدى أشخاص لم يتعبوا فى جمعهما ، يجعلانهم معرضين للفساد والدنس ، أو العيش عيشاً طفيلياً يكتنفه الكسل والخمول ، يقول عليه السلام :

يا بنى لا تخلفن وراءك شيئاً من الدنيا ، فإنك تخلفه لأحد رجلين : إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت به ، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فشقى

بما جمعت له ، فكنت عوناً له على معصيته ، وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك .

ويروى هذا الكلام على وجه آخر هو :

أما بعد ، فإن الذى فى يديك من الدنيا ، قد كان له أهل قبلك ، وهو صائر إلى أهل بعدك ، وإنما أنت جامع لأحد رجلين : رجل عمل فيما جمعته بطاعة الله فسعد بما شقيت به ، أو رجل عمل فيه بمعصية الله فشقى بما جمعت له ، وليس أحد هذين أهلاً أن تؤثره على نفسك ، ولا أن تحمل له على ظهرك ، فارج لمن مضى رحمة الله ، ولمن بقى رزق الله » [٢٧] .



توضيحات وهوامش

(١) قال تعالى : ﴿ لله ما فى السموات والأرض ﴾ وقال تعالى فى شأن ناقة صالح عليه السلام : ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ﴾ (الأعراف / ٧٣) ولا تذكر الأرض فى أغلب مواضع ذكرها فى القرآن الكريم إلا بأنها « أرض الله » ، وعندما يتحدث الله تعالى فى محكم كتابه عن استخلاف الإنسان فى الأرض ، لا يتحدث إلا بضمير الجمع ، وذلك لا يعنى إلا معنى واحداً : وهو حق البشر جميعاً فى الاستخلاف ، والتأكيد على أن هذا الأمر ليس مقصوراً على فئة أو عرق أو جنس ناهيك عن الفرد . وإذا حدث ثمة ظلم فهو من البشر يظلمون أنفسهم ، لأن الله تعالى لا يظلم أحداً تعالى عن ذلك علواً كبيراً . وحق الخلافة على الأرض يعنى الانتفاع بها ، فالوكيل منتفع وليس مالكاً ، فالخلافة فى الأرض شرطها الانتفاع ، وأن يكون الانتفاع للصالح العام ، وحرام على إنسان أن يستفيد من الأرض لنفسه ، لأن فى ذلك مساساً بالصالح العام ، وقد حذر الله تعالى صراحة من جعل المال دولة « أى متداولاً » بين الأغنياء فحسب ، فالفساد كل الفساد أن تتركز الثروة ، وهى عصب الحياة ووسيلة وأداة السيطرة فى أيدى فئة قليلة من الناس : (انظر : آية الله سيد محمود طالقانى : مالكيت در إسلام) ، وقد أثيرت وحسمت تماماً ، فأعلنت الأراضى المفتوحة ملكية عامة للمسلمين جميعاً ، وعندما طلب من الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن يسمح بتوزيع الأراضى المفتوحة على الفاتحين ، استشار علياً كرم الله وجهه فخالف سيدنا على مبدأ تقسيم الأراضى تماماً ، كما قال معاذ بن جبل رضى الله عنه ما معناه ، أن هذا يعنى أن يستحوذ جيل الفاتحين على الثروة بينما يحرم منها الجيل التالى ، كما يعنى أيضاً أن تئول الأرض بالإرث إلى أناس ، لم يتعبوا فيها ولم يجاهدوا فى سبيلها ، وتكوين طبقة قد تغرها الأموال فتعمل فى الأرض الفساد ، وبهذا حسمت القضية تماماً ، وكتب سيدنا عمر رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص ، بما استقر عليه رأى كبار الصحابة ، وهو أن تستغل الأرض لصالح جميع المسلمين ، كما لا يحرم من خيرها من لم يدخل فى الإسلام ، ما دام يعمل على زراعتها ، وكان على من يدخل الإسلام من الدهاقين « الملاك الفرس » أن يتنازل عن أرضه للملكية العامة ، وفوق ذلك يكون مسئولاً عن زراعتها وأخذ حاجته منها ، ثم دفع الخراج والفائض إلى بيت مال المسلمين ، وقد أمر سيدنا على أحد الدهاقين بهذا ففعل . واتفق كل الفقهاء على أنه لا تجوز المتاجرة بالمال العام للمسلمين ، وهناك فتوى صريحة من جعفر الصادق رضى الله عنه بهذا الأمر ، ومن ثم فهى للانتفاع فقط ، ونص الله تعالى على ذلك فى سورة الأنفال ، وإن أراد كبار الاقتصاديين فى عصرنا أن يفهمونا أن هذا الحكم يقتصر على الأراضى المفتوحة ، فعليهم أن يعلموا أن التشريعات فى الإسلام لا تتجزأ .

وإذا تقاعس المنتفع عن زراعة الأرض وأهملها ، فمعنى ذلك أنه يقوم بالإضرار العام ، بمال المسلمين ، وعلى

الحكومة أن تنتزعها منه وتعرضها على من يرى فى نفسه القدرة على تعميرها لصالح المسلمين ، ولا يحق له المطالبة بها حتى وإن أبدى استعداده بعد ذلك لزراعتها ، بل عليه أن ينتظر عرض أراض أخرى للانتفاع ، وواضح أن كلمة « الأرض » فى المفهوم الإسلامى تحتوى الأرض وما عليها من منابع طبيعية ، وأن الأمر كان مرتبطاً بإسلام المالك عموماً ، كما يتضح من رواية ما فعله الإمام بالدهقان الإيرانى ، وكان الدليل الثانى على أن الأرض فى الملكية العامة قانون الخراج نفسه ، والنص على أن يأخذ الزارع قدر حاجاته الضرورية من الأرض ، ويسلم الباقى لبيت المال ، فالأرض فى يده بحق العمل لا حق التملك ، ومنع تماماً التملك بوضع اليد أو ما كان يسمى قديماً بالحمى ، أى أن يبسط أحد سلطانه على قطعة من الأرض ويعلن أنها فى حماه ، وهذا مرفوض نصاً فى قول الرسول ﷺ « لا حمى إلا حمى الله ورسوله » . كانت الأراضى تعطى للمنتفع بالطبع ، بالقدر الذى يستطيع تعميره لا يزيد عليه ، كما كان التركيز على الأرض البور رغبة فى تعميرها ، هذا إلى جوار الشرط الأصلى وهو الانتفاع فقط . وكل هذه الأمور تدل على أن الشريعة الإسلامية كانت تحرم الإقطاع بمعناه المعاصر ، وتحرم ما ظهر فى العصور التالية من نظم منحرفة حسبت على الإسلام وليست منه فى شىء ، مثل نظام الالتزام وإقطاع الجند وإقطاع البلاط والخاصة ، وحرمت الشريعة الإسلامية ربط الزارع بالأرض ، فهو حر ، والاتجار فى الأرض باطل ، وهو المالك الحقيقى لحق الانتفاع بالأرض ، وبالتالى فتسخير الزراع وأيه أعمال تتصل بنظام السخرة محرمة فى الإسلام ، حتى ولو كانت السخرة لغير المسلمين ، ومن هنا نفهم كيف أن معاوية كان يجذب الناس إليه بالعطاء وكبار الصحابة بالاقطاعات ، ولم يرو عن الإمام على أنه فعل ذلك قط .

وما يجرى على الأرض يجرى على مافيها من منابع طبيعية ، وحديث الرسول ﷺ مشهور فى هذا المجال « الناس شركاء فى ثلاثة : فى الماء والنار والكلأ » ويمكن أن يترجم هذا الحديث بالمعنى المعاصر إلى أن الناس شركاء فى مصادر الثروة العامة ، ولا يعنى أنه إذا تغيرت النار إلى البترول ، أو مصادر الطاقة أو تغير الكلأ إلى الإنتاج الزراعى أو الصناعى ، أن نترك الأصول ونسن القوانين من عندنا (انظر برداشتهائى در بارة مالكيت ، كار وسرمايه ازديدكاه إسلام ص ١٧١ ـــ ٢٠٦) .

أما الإقطاع والتفاوت الطبقى الذى تحدث عنه مؤرخو الغرب ، ونسبوه إلى الإسلام فقد بدأت معالمه تظهر فى المجتمع الإسلامى ، بعد أن تحول نظام الحكم فيه إلى كسروية وهرقلية وملك عضوض ، ثم سيطرت عليه عناصر تركية وفارسية ، نقلت نظمها الاقتصادية بكل ما فيها من عيوب إلى الإسلام وظهر الإقطاع العسكرى والالتزام فى أبشع صورها ، وإن بقيت مشكلة الأرض تشغل فقهاء الشيعة على مر العصور ، وعلى اختلاف فرقهم ، وواضح لكل ذى عين أن معظم الحركات الشيعية ، كانت تضم عدداً كبيراً من رقيق الأرض والموالى والفئات المطحونة ، وأن معظم هذه الحركات اتهم أصحابها بأنهم من معتنقى المزدكية الفارسية (انظر حواشى بحث الدكتور شريعتى فى هذا الكتاب) ، وعندما انتصرت بعض الحركات الشيعية المسماة بالمتطرفة ، مثل حركة القرامطة أقامت نظاماً اقتصادياً يتضح من وصف المعاصرين له أنه أشبه بنظام الكوميونات والتعاونيات ، الذى نظنه من مبدعات عصرنا الحاضر (انظر : محمود إسماعيل : الحركات السرية فى الإسلام ١٥٩ ـــ ٢٠٣) .

هذه هى نظرة الإسلام إلى الأرض ، الإسلام الذى يتهم بأنه نظام طبقى رأسمالى ، ويتهم بالرجعية والجمود وعدم ملاءمته للعصر ، لأن الذين يدافعون عنه فضلاً عن الذين يهاجمونه ، لا يعرفون إلا إسلاماً مفروضاً ومزيفاً طبق ما يزيد على ألف سنة ، أما الإسلام الذى لم يطبق إلا بضع سنين ، فلا أحد يهتم بأن ينفض عنه الغبار ، وهل يمكن أن يطبق نظام سبق كل النظم فى الحيلولة دون النظام الطبقى ، ويضمن الحرية والكرامة والسيادة والعمران لجماهير البشر فى وقت واحد ؟

(٢) الأصل الأساسى الآخر من أصول الاقتصاد الإسلامى هو العمل ، ونستطيع هنا أن نقول : بأن الإسلام شرع قانون « من لا يعمل لا يأكل » مع ضمانات أكثر وإنسانية أعمق منذ قرون عديدة ، فحق الانتفاع بالأرض - كما ذكرت فيما سبق - قائم على العمل ، ونستطيع أن نطبق هذا المبدأ على كافة شئون الحياة وأوجه العمل ، وأى مال يكتسبه المرء دون عمل فعلى فهو حرام ، ونستطيع أن نزداد فهماً لهذا المبدأ ، إذا رجعنا إلى المبدأ الرئيسى فى حق الانتفاع ، فهو يقضى بأنه لا ملكية بل انتفاع ، ولا استثمار بل إنتاج ، فالانتفاع هو ثمرة العمل ، فكأن العمل هو الوسيلة الوحيدة للعيش ، وهذا هو تفسير قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ﴾ . (انظر : سيد محمود طالقانى . إسلام ومالكيت) ، ومن هذا المبدأ الجامع تتفرع مبادىء كثيرة ، وجمعها الإسلام الحنيف فى مبدأ « تحريم الربا » ، والربا هو الوصول إلى أى ربح دون عرق أو جهد ، ومن هنا فإن أى نوع من أنواع الاستغلال الشائعة فى عصرنا الحديث حرام ، أى كسب لا عرق فيه ولا جهد حرام ، السيطرة على وسائل الإنتاج وتأجير العمال فيها بقدر ضئيل جداً مما تغله بالفعل حرام ، وأى نوع من التأجير من الباطن حرام ، وأى نوع من تحميل عمل على أحد بسعر أقل ، فى حين أن الاتفاق الأصلى على أجر أكبر حرام بل سرقة من الذى قام بالعمل فى الحقيقة ، ومن هذا القبيل جميع أنواع التجارة على الورق : « أذون الاستيراد والحصة فى التموين ، والحصة فى مواد البناء وإيصال حجز العربات والاتجار فى العملة » ، ويدخل فى هذا المجال تجارة الشقق المفروشة ، وخلوات الرجل ، ومعظم ما تتكون به الثروات فى مجتمعنا المعاصر ، دون أن يرتفع صوت واحد من بين رجال الدين محتجاً أو محرماً ، كل هذه دخول لم يتعب أصحابها فى اكتسابها أدنى تعب ، ومع ذلك تتركز الثروة فى أيديهم ، ليزدادوا ثراء يوماً بعد يوم من أموال عمل المسلمين ومن جهد الفقراء . والأرض فى الإسلام انطلاقاً من هذا المبدأ لمن يزرعها ، أما المزارعة فهى حرام ، إلا إذا كانت قد آلت إلى أرامل أو قصر أو عاجزين عن العمل ، فى هذه الحالة فحسب ، يكون من حقهم قدر ما تغل الأرض ، ومن هذا القبيل المشاركة على المواشى والإقراض إلى المحصول ، فهذا كله من أبشع أنواع الربا ، وأعمال البورصة والمضاربة والنظام الغربى للبنوك وما يسمى بالاستثمار .

وقد نظم الإسلام التجارة على أصول ثابتة ، فنهى عن الاحتكار وإخفاء السلع ، والتلاعب بأقوات المسلمين فى سبيل الإثراء الفاحش الحرام ، وحدد ربح السلعة بما يساوى مشقة نقلها أو استيرادها ، ومن هنا منع رسول الله ﷺ التجار من ملاقاة الركبان « تجار القوافل » ، بظاهر المدينة للاستيلاء على كل البضائع لبيعها بسعر أغلى ، وتوعد المطففين والمتلاعبين بالأسعار ، وواضح بالطبع أن العمولة والدلالة والسمسرة ، من قبيل الدخول التى لم يتعب أصحابها فيها ، ويدخل فى هذا المجال عشرات « الأعمال » ، التى استدعتها الرأسمالية المعاصرة ، ويكون دخل المشتغلين بها أكثر من دخول الذين تعبوا وعرقوا حقيقة .

وربط ملكية الأرض بالانتفاع والانتفاع بالعمل ، خير دليل على أن الإسلام يدعو إلى أن ملكية وسائل الإنتاج لا تحل إلا للمنتج الفعلى والعامل الفعلى ، فلننظر الآن : إلى أى مدى غلب الباطل على الحق ، وأن معظم دخولنا بالفعل من طرق لا يرضاها الله ورسوله ؟ وانظر كيف أن الشريعة الإنسانية السمحاء ، قد سبقت جميع النظريات المعاصرة ، فى أن الأرض للزارع ووسائل الإنتاج للعامل ، وأن كل كسب أتى من غير عمل فالنار أولى به .

ومن منطلق مفهوم قدسية العمل فى الإسلام نستطيع أن ندرك كيف أن الخلفاء الأوائل كانوا يعملون عملاً منتجاً بالفعل للتعيش ، خوفاً من الوقوع فى الحرام ، ولأن الإسلام لم يعرف ما يسمى اليوم بالعمل السياسى ، وكان كل مفكرى الإسلام العظام يقومون بأعمال يدوية ، أو يشتغلون بالتجارة لتقديسهم لقيمة

العمل ، ودوره فى بناء الشخصية الإنسانية ، ولم يعرف الإسلام الحقيقى مخصصات الحكام الضخمة (وليتهم يقنعون بها) .

(٣) ينص الإسلام ويؤكد كثيراً على القصد والاعتدال فى النفقة ، والنصوص فى هذا المجال من القرآن والسنة أكثر من أن تذكر وأشهر ، على أى طالب لها أن يفتح باب الزهد ، فى أى كتاب روجته السلطات لترويج حق أريد به باطل ، وليس الحد والقصد فى النفقة إلا لكيلا يتعلل المتنفع بالأرض أو المنتج بكثرة حاجاته وتنوعها ، خاصة أنه فى خلال الجنون الاستهلاكى الذى تروج له النظم الفاسدة ، أصبح الحديث عن الثلاجة أهم من الحديث عما يتوافر لكى يوضع فيها ، والحديث عن المصيف أهم من الحديث عن المسكن ، والحديث عن التليفزيون الملون أهم من الحديث عن المقعد فى المدرسة ، وهلم جرا ، بحيث أصبح كل إنسان يظنها من حاجاته الضرورية ، دون اهتمام بتحديد هذه الحاجات الضرورية أولاً ، حتى لا يتوسع المتنفع فى تفسير « لينفق كل ذى سعة من سعته » وقد نص نبينا صلوات الله عليه على تلك الحاجات الضرورية بقوله : « وهل لك إلا ما أكلت فأفنيت ، ولبست فأبليت ، وتصدقت فأبقيت » ؟ وجعل الصدقة من حاجات الإنسان الضرورية أيضاً ، وفى قول آخر له ﷺ : « من بات آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا ومافيها » هكذا : الأمن والمسكن ، الصحة فى البدن ، ضمان قوت اليوم وهذه هى احتياجات الإنسان السوى ، وهذا هو ما نسميه اليوم ترشيد الاستهلاك .

(٤) يتفرع من منع الاكتناز فى الإسلام ، إلزام للمجتمع والهيئة الحاكمة بضمان العجز والشيخوخة ، ومشهور أن عمراً رضى الله عنه أجرى على عجوز يهودى ، رآه يتكفف الناس فى الأسواق ، من منطلق أنه كان يخدم فى شبابه ومن صنعته اليهود والمسلمين على السواء ، ومن منطلق « الأخوة فى الإنسانية » ، ونفس الرواية مذكورة فى شأن الإمام على رضى الله عنه مع مسيحى ، ولنقرأ معاً وصية الإمام على لمالك بن الأشتر حين ولاه مصر ، وبعد أن أوصاه بكافة الطبقات قال رضى الله عنه : « ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى « المرض المزمن والعجز » ، فإن فى هذه الطبقة قانعاً ومعتراً ، واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافى الإسلام فى كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى ، وكل قد استرعيت حقه ، فلا يشغلنك عنهم بطر ، فإنك لا تعذر لتضييع التافه لأحكامك الكثير المهم ، فلا تشخص همك عنهم ، ولا تصعر خدك لهم ..... فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم ، وتعهد أهل اليتم ذوى الرقة فى السن ممن لا حيلة له ، ولا ينصب للمسألة نفسه ، وذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل ..... واجعل لذوى الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عاماً ، فتتواضع فيه لله الذى خلقك ، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع « أى متلعثم » ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى غير موضع : « لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع » (نهج البلاغة : ١٠١٩ ــ ١٠٢١) وهذه الوصية الطويلة التى اختصرتها تنص على أحقية كل مواطن يعيش فى ظل الحكومة الإسلامية سواء كان مسلماً أو ذمياً ، فى أن تشمله ما نسميه فى عصرنا « مظلة التأمينات » والتى نعدها من مفاخر عصرنا ، ومن نتاج الحركة العمالية الإشتراكية .

(٥) هنا تختلف البنية الاقتصادية فى الإسلام عن كافة النظم الاقتصادية ، فمعروف أن لكل نظام اقتصادى هدفا عاماً وكلياً يهدف إليه ، فقد فطن الشارع الإسلامى الحكيم إلى أنه لا يمكن لأى نظام اقتصادى ، أن يقف فحسب عند إقامة « مجتمع الرخاء » ، أو مجتمع « الكفاية والعدل » ، وذلك لأن النظام الاقتصادى

الإسلامى ، كان يدرك أنه من الممكن الوصول إلى هذه الأهداف ثم يثار سؤال هام : وماذا بعد ؟ ، كما فطن أن الرفاهية ليست هدفاً فى حد ذاتها بل إنها وسيلة لانطلاق الإنسان إلى آفاق عليا ، وهذا بالطبع نظرة الإسلام الكلية إلى العالمين الأولى والآخرة وارتباطهما معاً ، فالعمل وسيلة للتطهير فى المقام الأول ، ونوع من العبادة ، فالرخاء وسيلة لضمان حرية العبادة إذ لا عبادة لجائع ، وكاد الفقر يكون كفراً ، وعبادة الله لا تتأتى إلا من إنسان وجد حاجاته الأساسية بالفعل ، فهناك خشية أن يرضى المخلوق فى معصية الخالق ، والويل كل الويل إذا كان هذا المخلوق على غير دينه ، فسوف يبيع حينئذ دينه بقوته ، وسوف يشغله عن دينه بآلاف التطلعات والطموحات ... هذا من ناحية .

ومن ناحية ثانية فإن نظرية الاقتصاد من أجل الرخاء ، لم تثبت إلا فشلا ذريعا طوال عصور التاريخ ، فما وصلت حضارة إلى أعلى درجات الرخاء المادى ، إلا وتشبعت وانصرفت إلى التمتع بكل ما هو غريب وشاذ ، والرخاء الزائد على الحد يقتل فى الأمة الرغبة فى الابتكار والطموح إلى ما هو أسمى ، ولم يحدث رخاء مادى سريع إلا وأعقبه انهيار سريع ...

أما من الناحية الفردية فالجشع المادى لا حدود له والاستغناء يؤدى إلى الطغيان ، وإلى حب السيطرة والاستغلال والانحراف ، ومعروف ما يمكن أن يقع فيه الإنسان عندما تكون المادة هى هدفه الوحيد فى الحياة ...

الضمان الوحيد إذن هو أن يكون الهدف الأسمى للنشاط الاقتصادى ، هو تقوية الجانب الروحى فى الإنسان ،وترشيد المادة عن طريق سيطرة الروح عليها ، خاصة أن القوى المادية عند الإنسان تتطور وتنمو فى خط عكسى مع قواه الروحية ، النظرة هنا هى منطقية تبادل القوى الروحية والقوى المادية ، ومن ثم يكون للنشاط الاقتصادى هدف أسمى من مجرد الرخاء من ناحية ، ومن ناحية أخرى يوجد الضمان للحد من الجشع ، الذى لا نهاية له : أليس مما يحد من جشع الجشع واستغلال المستغل فى الحقيقة ، أن يعلم أنه مهما بلغ من غنى وثروة ، فسوف يحاسب فى يوم من الأيام على هذا الغنى وهذه الثروة ؟ ألا يعلم — حتى بحسه النفعى — أنه الخاسر فى هذه الصفقة ، إذا وقف الانتفاع على الدنيا ، دون أن يفكر فى الانتفاع أيضاً بالآخرة ؟

إن نظرة الإسلام إلى الدنيا على أنها مزرعة الآخرة تبين أن النفع والحصاد فى الآخرة الباقية ، ومن ثم يقف حائلاً ضد التكاثر والتزايد والجشع والحرص وما إلى ذلك (انظر : سيد محمود طالقانى : برتواز قرآن : الجزء الثانى من المجلد الأخير ص ٢٤١ — ٢٤٤) ، ألا يمكن أن يخشى المؤمن إن كان قد جمع ثروته بالفعل ، وهو مؤمن من سؤاله أمام رب العرش العظيم ، كخشيته على الأقل من النظم الضريبية (إن كانت عادلة بالفعل) فى الدنيا ، إن الهدف عند الإنسان من نشاطه الاقتصادى هو الوصول إلى خلاصه وتكامل شخصيته ورضا ربه ، وهذا هو ماتعنيه الآية الكريمة : « يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » (الانشقاق : ٦) ، وإذا لم تكن المادة هى الهدف فى الاقتصاد ، فإن البناء الاقتصادى يسلم من آفة فردية : هى الجشع ، ويسلم من آفة عامة : هى اعتبار الرخاء هدفاً فى حد ذاته دون التفكير فى المرحلة التى تليه ، وهى التدهور الحتمى الذى ينص عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » (يونس : ٢٤) ... هذا هو أساس النظرية الاقتصادية فى الإسلام وهدفها ، وهو يحتاج قبل كل شىء إلى أن يعلم المنتج والمنتفع والمستهلك أنهم مسلمون بالفعل . (انظر : برداشتهائى در بارة مالكيت ، كار وسرمايه ص ٢٣ — ٣٥ وص ٨٥ — ٩٤) .

(٦) « ليس منا من بات شبعاً وجاره جوعان » حديث نبوى شريف يلخص نظرة الإسلام إلى أن المجتمع الإسلامى كله أسرة واحدة ، وهذا هو معنى « الاخوة فى الدين » ، وهو واحد من الأسس التى تستند عليها النظرية الاقتصادية فى الإسلام ، وليست الاخوة كلمة تلوكها الألسن ، ولا تعنى إلا إن الأخوة حقيقية ، وحقيقة لا بد من أن تنفذ بنوع من التعاطف الإنسانى والتكافل الاجتماعى ، فكل الناس من آدم وآدم من تراب ، والناس جميعاً خلقوا من نفس واحدة ، فهل يليق بعد ذلك أن يكون فى الأسرة الواحدة شبعان وجوعان ؟ ومن هنا فإن أى نوع من الطبقية أو التميز القائم على العرق أو الجنس أو العائلة ، أو اللون أو المنصب مرفوض فى الإسلام ، وليس التفاضل بين الناس إلا بالتقوى ، ولا يمكن أن يكون الإسلام قد نهى عن « حمية الجاهلية ، وعنجهية العرب » ، دون أن يكون قد سن من القوانين بالفعل ما يحول بين العنجهية والقبلية وبين الظهور ، وتدلنا حوادث التاريخ الإسلامى أن الأرستقراطية العربية لم تأخذ فى الظهور ، إلا بعد أن انحرف الإسلام عن مساره الحقيقى ، وبدأت حمية الجاهلية وعصبيتها واللفظ الكريه لفظ الموالى فى الظهور ، إلا بعد أن سيطر بنو أمية على الحكم ، وهؤلاء هم الذين أحدثوا هذا الصدع فى الإسلام ، وشجعوا العصبيات العرقية والجنسية بل والقبلية لهدف واضح ، وهو تقديم تبريرات لاستحواذهم على الثروة واستئثارهم بها ، ولشغل الناس عنهم وعن اغتصابهم للحكم ، وحولوا الأراضى المفتوحة إلى ميدان لحروب القبائل وصراع الفرق ، وقدموا هذا الوجه البشع الذى شوه الإسلام لقرون عديدة وهوالرق ، أجل قد يقول قائل : إن الإسلام لم يحرم الرق تماماً ، هذا صحيح ، لكنه أيضاً لم يعترف اعترافا كاملاً بشرعيته بدليل أنه لم يشرع له التشريعات ولم يسن له القوانين ، وإلا : فهل توجد فى القرآن الكريم آية واحدة تدعو إلى الاسترقاق ، اللهم إلا آية واحدة تدعو فى نفس الوقت للمن والفداء وتؤقته بزمن الحرب ، هذا فى مقابل آيات العتق فى القرآن ، وفتح الباب على مصراعيه فى كافة الظروف أمامه ، أليس مما يدعو إلى الدهشة أن الأبواب التى تتعلق بالرقيق الحقيقيين فى كتب الفقه الإسلامى كلها قد كتبت تحت عنوان « باب العتق » ؟ ، ألا نتصفح آيات العتق فى القرآن ونرى كيف جعل الشارع الحكيم العتق كفارة لمعظم الذنوب ، ألا يكفى أن نطالع أوضاع الرقيق فى صدر الإسلام : سلمان وصهيب وبلال وعمار وغيرهم لندرك أنهم كانوا أعظم قيمة عند الله ورسوله من بعض السادة ، وألم ينص كبار الصحابة عمر وعلى والحسين عليهم السلام على أن الناس جميعاً ولدوا أحراراً ولا يجوز استعبادهم ، وأنه لا يكون عبداً إلا من رضى لنفسه العبودية بالفعل ؟ أليس ذلك الموقف أكثر شرفاً وكرامة بمراحل من موقف الدول الغربية التى حررت العبيد اسمياً فقط فى القرن الماضى ، وبعد مرور قرن من الزمان لا تزال العنصرية تطل بوجهها القبيح ، عنصرية لم يعرفها المسلمون فى صدر الإسلام بالنسبة للعبيد الرسميين ، وما كان يسمح بوجودها ؟ هذا هو الرد على المؤرخين الشيوعيين (ن . و . بيكوفلسكاياوآ . يو . ياكوبفسكى وبطروفسكى وغيرهم) ، الذين قالوا : إن الإسلام قام على الرق .

ومن الواضح تماماً أن الرق كان سيختفى من تلقاء نفسه بعد جيل أو جيلين ، لو أن الإسلام لم ينحرف عن مسيرته الحقيقية ، فإذا بحمى الإكثار من الرق تزداد ، ويسترق المسلمون ولا يقبل إسلامهم ، حتى لا يقل دخل بيت المال ، إلى غير ذلك من الانحرافات البشعة التى ألصقت بالإسلام وهو منها براء . (انظر : برداشتهاى : ١٢١ ــ ١٣٠ و ٢٢٣ ــ ٢٦٥) .

(٧) الأصل فى النظم البشرية عدم الاستحواذ والملكية ، ولم يكن نظام الملكية الخاصة معروفاً فى المجتمعات البدائية ، وبدأت مع الاستقرار ، وظهور النظم السياسية والعسكرية ، والتفاوت فى القوة بين الناس ، ومن الغباء والجهل تصوير الأديان بأنها حركات روحية نزلت لدعوة الناس إلى الصلاة والصوم ، فهى حركات

إصلاحية إجتماعية فى المقام الأول ، وتوحيد الله الواحد القهار دعوة لتحطيم أصنام الحجر ، وأصنام البشر فى الوقت نفسه ، ولا توجد دعوة إلهية واحدة لم تجعل لها برنامجاً اقتصادياً واجتماعياً ، وتوقيت ظهور الأديان والدعوات الإلهية يدل على أن أهم أهداف الدين « أى دين » هو الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، ولا يظهر الدين إلا فى مجتمع بلغ درجة من الرخاء وأخذ يتعدى على حقوق الله ، فالأديان تنظم الحياة على الأرض حتى تكون هذه الأرض صالحة لعبادة الله ، وترق بالإنسان ليكون إنساناً إلهيا ، ومن أهم حدود الله حد المال ، الذى قد يكون عند صاحبه أغلى من حياته نفسها ، يضحى بحياته دفاعاً عنه ، ولا تنتهى الأرض تماماً ، وتقوم القيامة إلا بعد أن تكون الأرض قد ازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أى عطلوا حدود الله ، وظنوا أنه من الممكن السيطرة عليها دون نظم الله . ومن هنا كان تأكيد الإسلام على أن الأموال العامة ملك لكل الناس ، لأن المال مال الله والخلق عيال الله . (انظر : برداشتهائى : ٣١٣) .

(٨) الحشر : (٧) .

(٩) التوبة : (٣٤ ــ ٣٥) .

(١٠) إن نقطة الإنفاق هذه من أكثر النقاط التى أثارت جدل المغرضين حول الإسلام ، فلم يفهموا منها إلا أن الإسلام بحثه على الإنفاق يعترف بوجود الغنى والفقر : يا سبحان الله ، وهل يستطيع إنسان أن يدعى أن نظاماً اقتصاديا ما قد ألغى الفوارق بين الغنى والفقير تماماً ؟ من الممكن أن يتساووا جميعاً فى الفقر (اللهم إلا أعضاء اللجنة المركزية وزعماء الحزب) . من منطلق النظرة الواقعية للإسلام إلى البشر ، اعترف بوجودها وهذا فى المرتبة الأولى ، لكى يقوم بعلاجها ، وإلا : فهل يمكن علاج الداء بتجاهله تماماً ؟

من هنا شرع الإسلام الحنيف الزكاة ، وهى أقل ما يدفعه الغنى ، ومن منطلق يسر الدين ، وإذا كانت الزكاة محدودة ، فأمامكم باب الإنفاق مفتوح على مصراعيه ، واستعمل فى تقنينه وسيلتين ، لا يمكن أن نتجاهل تأثيرهما فى المسلم الحقيقى : الترغيب والترهيب ، فإذا كان الثرى المسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، يعلم أن حياته إلى نهاية ، وأن دنياه هى مزرعة آخرته ، فسوف يقدم على الإنفاق حتى من منطلقه النفعى . كما أن الإنفاق تزكية وتطهير ، وهو حق وليس تبرعاً .

فإذا لم يؤثر ذلك كله ، فلا ينبغى أن يعتمد المجتمع على قوة إيمان الغنى ، والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، هناك إذن قوة القانون : من حق الحاكم أن ينتزع ثروة الغنى الذى لا ينفق لصالح المجموع بالطبع ، وليس هذا تعدياً ، بل هو فهم حقيقى للقرآن وتفسير للآية الكريمة : **﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾** (آل عمران : ١٨٠) والإنفاق نوع من التجارة ــ أنظر كيف يخاطب الله الأغنياء بمفاهيمهم ومصطلحاتهم ــ بل هو التجارة ذات الكسب الأعلى فى المفهوم الإسلامى ، مصداقاً للآية الكريمة : **﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾** (البقرة : ٢٧٦) ويرى آية الله سيد محمود طالقانى ، أننا يمكن أن نرى التفسير العملى لهذا الحكم الإلهى واضحاً ، إذا نظرنا إلى البنية الاقتصادية للأسواق التى تقوم أساساً على النظام الربوى من صعود ونزول ، ثم انهيار كامل « محاق » (انظر : برتواز قرآن : جلد دوم ص . ٢٥٧) .

وإذا أردنا أن نسترشد كعادتنا بما يفعله الأجانب ، فلننظر إلى نظام الضرائب التصاعدية التى تصل إلى أكثر من تسعين فى المائة من الدخل فى بعض الأحيان ، يدفعها الممول أو لا يدفعها ، فإذا دفعها كارهاً بقوة القانون ، دأب إلى اقتطاع معظمها من عرق العمال الكادحين ، الذين لا تنقطع إضراباتهم مطالبين برفع

أجورهم ، وليس ذلك إلا لأنهم يعلمون تماماً ماذا يدخل جيب صاحب العمل ، بعد كل هذه الضرائب التصاعدية ، لأنه يلجأ أيضاً إلى رفع أسعار سلعته ، فهو يدفع بقوة القانون لا بقوة الإيمان . وإن سخر ساخر أو مغرض أو جاهل من كلمة الإيمان ، تستعمل فى المجالات الاقتصادية ، فذلك لأن قلبه غلف ، وجهله وانشغاله بأمواله لم يمكناه من الرجوع إلى تراثه العظيم ، ليقرأ كيف أن المسلمين الأول كانوا يسارعون فى الإنفاق ويخرجون من كل ما لديهم ابتغاء مرضاة الله ورسوله فنالوا البر والنصر ، أما نحن فقد تمسكنا بالدنيا ، فلا نلنا دنيا ولا آخرة ، ففى الدنيا تداعت علينا الأمم كما تداعى الأكلة على القصعة ، ورضينا بالرغم مما أفاءه الله علينا من ثروة ، بدور الخادم الخانع الذليل للغرب اللاديني ، بل وننفق عليه ما يترك من فتات ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى ، وحقت كلمة ربك عدلاً وصدقاً : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ (آل عمران : ٩٢) .

(١١) قال الإمام على كرم الله وجهه : « إن الله سبحانه فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما منع غنى ، والله تعالى جده سائلهم عن ذلك » (نهج البلاغة : ١٢٤٢) .

(١٢) كان الهدف الأساسى للرسالة المحمدية ، هو وضع حد للاستغلال والعبودية الإقتصادية مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم** ﴾ (الأعراف : ١٥٧) .

(١٣) المائدة / ١٢ .

(١٤) التغابن / ١٥ ــ ١٧

(١٥) المزمل / ٢٠ .

(١٦) البقرة / ٢٤٥ .

(١٧) الحديد / ١١ .

(١٨) الحديد / ١٨ .

(١٩) الزلزلة / ٧ ــ ٨ .

(٢٠) الصف / ١٠ ــ ١٣ .

(٢١) انظر حاشية رقم ٦ .

(٢٢) البلد / ٤ .

(٢٣) البقرة / ٢١٩ .

(٢٤) تعد معظم التشريعات التى سنها الإسلام للحيلولة دون تركيز الثروة خير دليل على محاربة الإسلام للرأسمالية ، وحيلولة دون أن يكون المال « دولة بين الأغنياء » ، وتحريم ملكية الأراضى المفتوحة بين الفاتحين ، والسياسة التى اتبعت بالنسبة للفىء والغنائم خير دليل على ذلك ، ومن ثم يمكن تلخيص الخطوات التى قام بها الإسلام فى مواجهة الرأسمالية فيما يلى :

١ ــ أنه حارب الاكتناز وتكديس الأموال .
٢ ــ أنه وقف فى وجه رءوس أموال خاصة ، تكون وسيلة لاستغلال الآخرين .
٣ – أنه لم يعتبر المال السائل قيمة فى حد ذاتها يمكن أن تحل محل القيمة الأساسية أى العمل ، ولم يجعلها هدفاً يمكن أن تحل محل التقوى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » لا أغناكم ، ويصدق هذا على الأمم كما يصدق على الأفراد ، ومن ثم فكل كسب أتى عن طريق تعامل فى المال دون عمل إنتاجى خلاق فهو حرام .

٤ – إن الإنسان الذى يجد كفوه لا ينبغى أن يقعد عن العمل ، فهو فى هذه الحالة يحسب عالة على الآخرين فحسب ، مهما كانت أمواله التى يستثمرها « بالمعنى المعاصر » أو « يستغل » الآخرين فى تنميتها فى الواقع ، ومن هنا نفهم ــ وأنا أعلم أنى أكررها ــ لماذا لم يكن كبار الصحابة والأئمة يقعدون عن العمل ، حتى وهم يزاولون الحكم والقضاء (لأن الحكم والقضاء من قبيل الخدمة لا العمل) .

٥ – أن للإنسان الحرية المطلقة فى ممارسة أى عمل منتج ، لكنه ممنوع من تحويل هذا العمل إلى استغلال مهما أوتى من ذكاء وقدرات .

٦ ــ إن الهدف من إنفاق فائض الدخل ليس صدقة أو استعلاء ، ولكنه حق مفروض للآخذ ، ومساعدة فى التطهير والتزكية وتكامل الشخصية بالنسبة للمعطى ، (والمعطى فى الحقيقة هو الله) .

٧ ــ إنه ينبغى للإنسان أن يعرف أن المال فى حد ذاته قيمة كبرى ، وينبغى أن يوجه الإنسان إلى قيم أعظم .

٨ – أكد الإسلام على خطر تركز المال فى يد فئة معينة ، وذلك للحيلولة دون تركز القوة والسلطة فى يد طبقة معينة ، تستغل فى زيادة أموالها وهكذا دواليك .

٩ ــ أكد الإسلام على أن الناس جميعاً مشتركون فى الثروة العامة ، ومهما كانت قدرات الإنسان ، وكون ثروة من حلال ، فعليه أن يضم ما زاد على حاجاته الضرورية إلى بيت المال على الفور .

١٠ ــ لكل إنسان الحق فى أن يعمل ، والحق فى أن ينتج ، فإذا أقعد عن العمل عن عجز أو شيخوخة ، فالدولة مسئولة عنه مسئولية كاملة ، حتى ولو لم يكن مسلماً . (انظر : برداشتهائى : ٣١٢ ــ ٣١٤) .

(٢٥) الفجر / ١٥ ــ ٢٠ .

(٢٦) كانت الحركة عامة ، ولنضرب صفحاً عما ذكرته الكتب المعاصرة ، عن مسلك الخليفة الثالث ،

خشية أن نتهم بأننا من أنصار التفسير الاقتصادى للتاريخ ، ولأقدم نصاً قديما دون أى تعليق ، اللهم إلا أن أطلب من القارىء الكريم ، أن يمعن النظر فى العبارات المكتوبة بخط أكبر :

« وذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه ، وما كان من هبته خمس أفريقية لمروان ، وفيه حق الله ورسوله ، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين ، وما كان من تطاوله فى البنيان ، حتى عدوا سبع دور بناها فى المدينة ، داراً لنائلة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته ، وبنيان مروان للقصور بذى خشب (موضع فى المدينة) وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله ، وما كان من إفشائه العمل فى الولايات فى أهله وبنى عمه أمية ، وهم أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم فى الأمور ، وما كان من الوليد بن عقبة فى الكوفة ، إذ صلى بهم وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال : إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم ، وتعطيله إقامة الحد عليه .... وما كان الحمى الذى حمى حول المدينة ، وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ، لا يغزون ولا يذبون ، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس .....

ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب فى يد عثمان ، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود ، فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب فى يد عثمان ، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقى وحده ، فمضى حتى جاء إلى دار عثمان فاستأذن عليه ، فأذن له ، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم ، وأهله من بنى أمية ، فدفع إليه الكتاب فقرأه ، فقال له : أنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : نعم ، قال : ومن كان معك ؟ قال : كان معى نفر تفرقوا فرقاً (أى خوفاً) منك. قال : من هم ؟ قال : لا أخبرك بهم ، قال : فلم اجترأت على من بينهم ؟ فقال مروان : يا أمير المؤمنين ، إن هذا العبد الأسود (يعنى عماراً) قد جرأ عليك الناس ، وإن أنت قتلته نكلت به من وراءه فقال عثمان : اضربوه ، فضربوه وضربه عثمان معهم ، حتى فتقوا بطنه ، فغشى عليه ، فجروه حتى طرحوه على باب الدار ، فأمرت به أم سلمة زوج النبى عليه الصلاة والسلام فأدخل منزلها ، وغضبت فيه بنو المغيرة وكان حليفهم ، فلما خرج عثمان لصلاة الظهر عرض له هشام بن الوليد بن المغيرة فقال : أما والله لئن مات عمار من ضربه لأقتلن به رجلاً عظيماً من بنى أمية ، فقال عثمان : لست هناك » . (ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص : ٣٥ - ٣٦) .

هذه الرواية على قصرها توضح الأسباب وراء ثورة المسلمين على عثمان ، تلك الثورة التى يسميها المعاصرون « فتنة » ، ومن الذى قام بها ، كما تبين كيف كان الانحراف عن أسس الاقتصاد الإسلامية ، كان من أهم أسبابها ، ولا تعليق .... بل عودة إلى العبارات المكتوبة بخط أكبر .

(٢٧) نهج البلاغة : ص ١٢٨٠ . من النسخة التى شرحها علينقى فيض الإسلام . طهران : ١٣٤٥ هـ .



الفهرست

رقم الإيداع ٢١٠٦ / ٨٨

الترقيم الدولى ٥ - ٨٢ - ١٤٧٠ - ٩٧٧

الزهراء للإعلام العربي


الثورة الإيرانية
تصميم الغلاف : عصمت داوستاشي